تهويد التاريخ

(١)

الجزء الثانى

عصور فى فوضى

إيمانويل فليكوفسكى

ترجمة

أحمد عمر شاهين

رفعت السيد

فاروق فريد

محمد جلال عباس

جماعة حور الثقافية 
القاهرة ت : ٠٢/٢٥٠٠٠٥٥
الكتاب : عصور فى فوضى **Ages in Chaos**
الكاتب : إيمانويل فليكوفسكى
الترجمة : أحمد عمر شاهين - رفعت السيد على - فاروق فريد - محمد جلال عباس
الغلاف : حسين جبيل
خطوط غ : حامد العويضى
رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٥٢٤
الترقيم الدولى : **I.S.B.N 977-305-292-1**
الجمع : الحضارة للنشر
التنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشر
الترجمة العربية الكاملة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
العروبة للدراسات والأبحاث
(تحت التأسيس)



تهويد التاريخ

عصور فى فوضى

التحرير



اهداء المؤلف

هذا العمل مهدى إلى أبى، وأحب أن أوضح فى بضعة أسطر من هو سيمون إيمانويل فليكوفسكى.

منذ ذلك اليوم وهو فى الثالثة عشرة من عمره حين غادر منزل والديه وذهب سيرا على الأقدام إلى واحد من تلك المراكز المخصصة لتدريس التلمود فى روسيا، وحتى ذلك اليوم من ديسمبر ١٩٣٧ حين وافته المنية على أرض إسرائيل.. كل ذلك العمر كرسه مع كل ثروته وراحة باله وكل ما مَلَك لتحقيق ما كان فى يوم ما مجرد فكرة.. ألا وهى إعادة بناء نهضة الشعب اليهودى على أرضه القديمة.. ولقد أنجز كثيراً من إحياء لغة الكتاب المقدس وتطوير العبرية الحديثة بإنجازه مع "الدكتور ج. كلوشنر كمحرر" (الأعمال المجمعة بالعبرية القديمة)، كما ساهم فى إحياء الفكر العلمى اليهودى بنشر كتابه (المخطوطة العالمية) عن طريق المؤسسة التى أنشأها والتى ساهم فيها عديدٌ من علماء العالم.. لقد كانت تلك الأعمال بمثابة البنية التحتية التى قامت على أركانها الجامعة العبرية بالقدس بعد ذلك، وكان من أوائل من استعادوا الأرض فى "النقب" أرض الأحبار. وأنشأ هناك مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم روحاما. وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة فى شمال النقب. ولا أعرف لمن أتوجه بالعرفان فى انجاز هذا العمل الفكرى فى إعادة بناء التاريخ القديم إن لم أتوجه به إلى أبى سيمون

إيمانويل فليكوفسكى



مقدمة

كيف توصلت إلى مفاهيمى؟
إيمانويل فليكوفسكى

لقد سئلت مرارا أن أشرح كيف توصلت للمفاهيم التى عبرت عنها فى كتبى. سأحاول هنا أن أحكى القصة بقدر ما يسعنى من الاختصار.

اعتقد أن الأمر بدأ فى عيد ميلادى الأربعين (١٩٣٥)، حيث اهدانى والدى كتابا بقلم بار-دروما، هو كتاب "النقب".

وبما أننى كنت مشغولا بممارستي الطبية، فلم أقرأ الكتاب، وكل ما فعلته أنى تصفحته، وبالمصادفة قرأت وجهة نظر لشخص ما تقول أن جبل سيناء كان بركانا.

فى صيف سنة ١٩٣٧ كنت فى باريس لقراءة بحث فى مؤتمر علم النفس العالمى. وقد قرأت فى المكتبة الوطنية مقالات "فرويد" فى مجلة "اماجو" عن موسى. وحين ظهرت المقالات فى كتاب فى ربيع ١٩٣٩ "موسى والتوحيد"، اشتريت نسخة من مكتبة فى تل أبيب. قراءتى لذلك الكتاب جعلتنى أخمن أن الفرعون اخناتون – الذى ظن فرويد أنه منشئ التوحيد ومعلم موسى – كان فى الحقيقة النموذج الأصلى لأسطورة أوديب اليونانية. وخلال أسابيع قليلة، كان لدى قائمة بعدة شواهد مقنعة، ولكن قلة المصادر فى مكتبة تل أبيب لم تسعفنى فى نوعية البحث الذى أقوم به. وخططت لأخذ أجازة لمدة سنة للبحث فى الولايات المتحدة لكتابة كتاب عن فرويد وأبطاله. وصلت هناك مع عائلتى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل، وأمضيت الأشهر الثمانية التالية فى المكتبة العامة

فى الشارع ٤٢ في نيويورك، اقرأ حول الموضوع، خاصة في موضوع "المصريات" فترة تل العمارنة.

فى بداية هذه الجهود، عالم المصريات "اوتورانك" (الذى قابلته فى متحف متروبوليتان في نيويورك) قدم لى بعض المساعدة، ومع ذلك حاول بشدة أن يثنينى عن موضوعى، ولكنى أصررت.

فى بداية ابريل سنة ١٩٤٠، عزمنا على العودة إلى فلسطين، ولكن فى اللحظة اخيرة قررنا البقاء فترة اطول. فى ذلك الوقت، وأنا أتناقش مع د. جرينبادم أحد رجال الدين الذين جاءوا لزيارتى فى بيتى فى الدور الخامس فى ٥ ريفرسايد درايف، خطرت فى ذهنى فكرة أن البحر الميت قد يكون من عصر أقرب مما نتصور؛ لأنه فى قصة سدوم وعامورة يُشار إلى المكان بانه سهل. والفكرة سبق أن خطرت بذهنى وأنا فى فلسطين، وفى ذلك الوقت بحثت فى دائرة المعارف البريطانية التى أرشدتنى إلى مقال بقلم د. اروين فى "المجلة الجيولوجية" التى تصدر فى انجلترا. وبحساب عمر البحر على أساس تراكم الأملاح فيه يبين أن البحر – وهو بحيرة فى الحقيقة – عمره حوالى خمسين ألف سنة وليس مليونا من السنوات. (الحساب هنا قائم على تراكم مختلف الأملاح مع الأخذ فى الاعتبار تراكم المصادر الأخرى قرب نهر الأردن)، وتوصلت إلى عصر متأخر أكثر لنشوء البحر. أثناء النقاش مع الضيف العالم الزائر، تذكرت إنه فى أحد الفقرات التى تتحدث عن الخروج كان يُشار إلى البحر الميت كبحر حديث النشأة. وتذكرت أيضا الجملة التى قرأتها فى كتاب "بار-دروما" عن جبل سيناء، وخمنت أن "الخروج" حدث فى ظروف اجتاحت الأرض فيها كارثة. فقصة الطاعون وانشقاق البحر بدت لى كوصف لبعض الكوارث الطبيعية.

وقررنا مد اقامتنا فى الولايات المتحدة. وبحثت عن مراجع مصرية للكوارث الطبيعية. فى نصوص التاريخ المصرى القديم. لم أجد شيئا. قرأت الورقة التى كتبها شارلز بيك (١) (مؤلف الفكرة التى رجع إليها بار دروما) والذى زعم أن جبل سيناء كان بركانا. وفى مناسبة اجتماعية فى بيت د. بول فديرن عالم النفس المشهور، طرحت التساؤل أمام أحد الضيوف، عالم مصريات من فيينا وأمام د. والتر فديرن وهو عالم

مصريات أيضا وابن المضيف. فسأل أولهما الثاني: ما هو المرجع الذى يشير إلى تحول ماء النيل إلى دم؟ (لم أرغب فى طرح وجهة نظرى واكتفيت بالاستماع). احالنى والتر فديرن إلى كتاب من تأليف "ينكر Junker" وهو مدرسه، والى ديلابورت. فى اليوم التالى، وفى المكتبة فى شارع ٤٢، قرأت الفقرة، وهى ترجع إلى كلمات "ابوير Upnwer"، وكان علىّ أن أرجع إلى المصدر الأصلى وأعرف من هو "ابوير".

وطلبت مساعدة د. و. س. هايز فى متحف المتروبوليتان. وظل يبحث لمدة ساعة فى مادة المصريات، وأخيرا وجدت بنفسى النص وترجمة البردية التى كانت محفوظة فى ليدن فى هولندا منذ أوائل القرن التاسع عشر، وقد نشرها الان جاردنر سنة ١٩٠٩ تحت عنوان "شكوى حكيم مصرى". حين درست النص، ادركت أنه ليس فقط قصة ثورة اجتماعية ولكن نص مصرى للكوارث المميتة التى حلت بالمصريين على يد شاهد عيان، ودهشت لأن جاردنر لم يلاحظ التشابه بين نص "ابوير" والطواعين التى جاء ذكرها في التوراة مصاحبة للخروج. حتى إن هناك تشابه فى الكلمات بين النصين – بعد ذلك، في كتابى "عصور فى فوضى" عرضت مقارنة مفصلة للمصدرين.

كان هذا في ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٠، لكن التقدم الحقيقى وقع بعد أسابيع قليلة، حين ادركت أن "الآمو" الذين وصفوا بأنهم غزوا مصر وهى منهارة، ما هم إلا "العماليق" الذين قابلوا الإسرائيليين أثناء خروجهم من مصر كما جاء فى الكتاب المقدس. ولم يكن كتاب نولدكه (٢) عن العماليق فى مكتبة نيويورك وهى أكبر مكتبة فى العالم، فذهبت لأول مرة إلى مكتبة جامعة كولومبيا. وعلمت من كتاب نولدكه أن المؤلفين العرب فى العصر الذهبى لهم زعموا أن العماليق الذين جاءوا من مكة قد غزوا مصر وحكموها عدة قرون فى زمن ما فى الماضى. ولم يصدق نولدكه هذا التراث، لكن بالنسبة لى كان شاهد قويا لما اعتبره فتحا جديدا.

كان هذا فى يونية سنة ١٩٤٠، وخلال أيام قلائل، كانت الفكرة الكلية لكتاب "عصور فى فوضى" قد بزغت فى عقلى، حتى أنى دهشت لكم الملاحظات المدونة لدى حول الموضوع، وفى يومين توصلت إلى أن الأسرة الثامنة عشرة فى مصر لابد أن تكون معاصرة لملوك أسرة داود، ليس هذا

فقط بل توصلت إلى تفاصيل أن حاريمحاب المفترض أنه آخر ملوك الأسرة ١٨، كان فى الواقع معاصرا للملك سناحريب الأشورى - فرق يصل إلى ستة قرون بين التاريخ التقليدى المقبول والتاريخ الجديد الذى أقول به.

أعرف، بالطبع، من ألواح تل العمارنة، التى وجدت فى عاصمة اخناتون قصيرة العمر، أنها تحتوى على المراسلات الملكية لأواخر الأسرة ١٨، ولكنى لم أقرأ نصوص هذه الألواح. اذكر أنى ذهبت إلى مكتبة متحف المتروبوليتان وأنا أتوقع أن أجد فى تلك الألواح رسائل من الملك يشوبات ملك القدس، من الملك "اهاب" ملك سامراء ومن بن حداد وهازئيل ملكا دمشق - ولقد وجدتها هناك. وبالمثل، ذهبت إلى مكتبة نيويورك فى الشارع ٤٢، واحضرت زوجتى "اليشيفا" التى تشاركنى فى بحثى، عن الرقوق وصفا لرحلة "بونت" التى قامت بها حتشبسوت، وهى حسب حساباتى، ملكة سبأ التوراتية. ويصفها المؤرخ يوسف فلافيوس "كملكة مصر وأثوبيا"، وتوقعت أن أرى فى النقوش المستنسخة فى ذلك الكتاب كيف كان شكل الإسرائيليين أيام سليمان، وفى حالة قلق وتوتر فتحت الكتاب. كما توقعت أن أرى كنوز معبد سليمان التى أخذها تحتمس الثالث كغنائم، وفى الأطلس التاريخى للآثار المصرية القديمة الذى أعده "ريزنسكى" رأيت صورا للأثاث والأدوات المقدسة لمعبد سليمان، حتى بالأعداد نفسها التى وردت فى الكتاب المقدس.

كل هذا، حدث خلال أيام فى يونيه سنة ١٩٤٠. فى تلك الفترة فكرت أن اسمى الكتاب "من الخروج إلى المنفى"، حيث أن إعادة كتابة التاريخ آنذاك قد وصلت إلى سقوط القدس والسبى البابلى. لكنى أدركت أن الامبراطورية المنسية للحيثيين ما هى إلى قصة المملكة الكلدانية. وظننت أنى سأنهى الكتاب خلال أشهر قليلة.

وفى نهاية ١٩٤٠ انتقلنا إلى شقة صغيرة فى الدور الثانى عشر فى ٥٢٥ ريفرسايد درايف، تطل على نهر هدسون. وهناك، فى العشرين من اكتوبر، وأنا جالس فى المطبخ الصغير اقرأ فى سفر يوشع، أن فوجئت أن الآيات التى تصف الفوضى التى حدثت للشمس والقمر، تسبقها آية تتحدث عن سقوط كتل حجرية كبيرة من السماء. وفى مكتبة جامعة كولومبيا التى كنت اتردد عليها عدة مرات فى اليوم فى السنوات العشر

التالية، كتبت قائمة كتب فى المأثورات الصينية والمكسيكية - شرقا وغربا - لأرى إذا كان هناك ذكر لاضطراب فى حركة الشمس. من تلك القائمة الطويلة، كان من الكتب الأولى التى اخترتها، كتابا بقلم "إيتان براسور دوبوربورج" مبشر من القرن التاسع عشر، وكان من أوائل من توصلوا لحل الهيروغليفية المايان Mayan (٤) وقد لفتت انتباهى فقرة فى الكتاب، تقول أن القديس اغسطين قد كتب أن فارو Varro (وهو عالم رومانى أيام قيصر كتبه غير موجودة) يشير إلى مصدرين قالا بأنه فى زمن اوجيجس Ogyges قد غير كوكب الزهرة من شكله ومداره. بعد أقل من اسبوعين من ذلك، تحققت أن الكارثة فى عصر موسى ويوشع ليست محلية بل عالمية، وأدركت أن لابد أن كوكب الزهرة قد لعب دورا حاسما فى تلك الأحداث: وفهمت أن أوجيجس هو اجوج التوراتى ملك العماليق الذى ذكره "بلعام" فى أيام الغزو الذى قام به يوشع.

وخلال السنوات العشر التالية عملت فى كتابين معا: عصور فى فوضى الذى يتناول إعادة كتابة التاريخ السياسى والثقافى القديم، وعوالم فى تصادم الذى يتناول إعادة كتابة الحوادث الطبيعية.

لقد أصبحت مقتنعا منذ بداية عملى أن كوزمولوجيا النظام الشمسى ليست تختلف كثيرا عما نعتقد فقط بل إن ميكانيكية النظام الكونى التى تقول بأن القصور الذاتى والجاذبية هما اللتان تعملان فى الاجواء العليا تحتاجان إلى إعادة نظر، وكذلك نظرية التطور الداروينية القائمة على التماثل والتدرج.

وأدركت بعد ذلك مباشرة، أن هناك رواد فى هذا المجال - احدهم كان وليم وستن، خلف نيوتن فى كمبردج، والذى فى نهاية القرن ١٧ قال أن الطوفان قد تسبب عن نجم شوهد سنة ١٦٨٠.

لكنه رفض "معجزة يوشع" - فى ايقاف الشمس - واعتبرها من الخيال الشعبى ولا قيمة لها. واعتبر إنه قبل الطوفان كان محور الأرض عموديا على دائرة البروج - الدائرة الظاهرية لمسير الشمس - وبالتالى لم يكن هناك فصول وأن السنة كانت ٣٦٠ يوما فقط.

وكان هناك أيضا "اجناتيوس دونيللى" عضو مجلس النواب فى الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر الذى كتب كتابا بعنوان "راخباروك" زعم

فيه إنه فى عصور ما قبل التاريخ مر نجم قرب الأرض ورجم سطحها المواجه له.

وهناك مؤلف سكندنافى كتب كتابا بالعنوان نفسه، ولم يشر أى منهما إلى عمل وليم وستن. عالم السلالات البشرية الشهير "جورج كوفيير" أشار إلى كوارث طبيعية حدثت للأرض لكنه سخر من عمل "وستن". ولقد لفت انتباهى الدكتور والتر فيدين إلى عمل المهندس النمساوى "هوير بيجر" الذى زعم أن الجليد سرى فى الكون مسببا تغييرا فى الفلك والمدارات وتغيير موضع الأقمار وتفسخها منذ ملايين السنين (٥).

أوافق "وستن" أن سبب الطوفان كان نجما أو مذنبا، لكن لدى الكثير لأقوله: لقد اضطرب كوكب زحل عندما اقترب منه المشترى، ثم انفجر. انفجاره أحاط الأرض والكواكب الأخرى ببقاياه. وهذه هى قصة تموز فى بابل، واوزيريس فى مصر، وكرونوس فى اليونان، وبعد قرون عديدة ولد كوكب الزهرة من انشطار المشترى الذى احتوى الكثير من مادة زحل المتفرقة. واستنتجت أن زحل يتكون معظمه من الايدروجين، وهى حقيقة تأكدت بعد ذلك. ومن دونيللى وبيللامى أحد اتباع هوير بيجر أخذت بعض المراجع عند الحديث عن عصر الظلام.

شغل كتاب "عصور فى فوضى" معظم وقتى: راجعت الترتيب التاريخى للتاريخ القديم فى عصر الإسكندر الأكبر ووصوله إلى مصر. ولمدة عام ونصف لم أخبر والتر فيدين بأطروحتى. ولكنى أطلعت د. شفارتز المسؤول عن قسم الشرقيات فى مكتبة نيويورك العامة. قال أننى على خطأ ونصحنى بالكتابة بلغة اتقنها بدلا من انجليزيتى المكسرة.

ثم ناقشت عملى مع "رالف ماركوس" مترجم يوسف فلافيوس، فى مكتبه فى جامعة كولومبيا، ونصحنى بأخوة أن أعود إلى مهنتى وأترك التاريخ لحاله.

وتراسلت مع البروفيسور هارى وولنسون فى جامعة هارفارد وأرسلت له نسخة أولية من "عصور فى فوضى"، وقد أعطاها للبروفيسور "روبرت بفيفير"، ثم قابلتهما كليهما، وناقشنى الأخير فى معلوماتى التاريخية، وحين وجدنى متمكنا تحفظ فى حكمه.

وذات ليلة شتاء، اعتقد إنها فى يناير ١٩٤٢، أخبرت والتر فيديرن بإعادة كتابتى للتاريخ القديم، ومنذ ذلك الوقت كان خير معين لى، بمعرفته الواسعة بعلم المصريات، كان يعارضنى باصرار لكنه لم يرفض قط المعلومات التى اقدمها له. ولم أتلق أى مساعدة مشابهة من أى من علماء اللغة المسمارية، إلا بعض الإجابات عن استفسارات فى أوقات متفرقة من الأستاذ أ. جيه. جيلب من معهد شيكاغو للشرقيات.

وذات صباح من سنة ١٩٤٢ طبعت (بانجليزية رديئة) عددا من الصفحات، وذهبت إلى واشنطن، وناقشت الأستاذ ف. ر. مولتون المؤلف المشارك مع ت. سى. شمبرلين لكتاب المد والجزر لأصل النظام الشمسى، وفى الاكاديمية الوطنية حاولت عبثا أن أقنع سكرتير الاكاديمية أن يقبل اطروحتى للحفظ، وعدت إلى البيت، وقد وثقت اطروحتى فى سجل العقود.

وبالمصادفة، وجدت أن بعض المؤلفين قد توصلوا إلى أحد أركان نظريتى. اذكر، فى مكتبة نيويورك فى الشارع ٤٢ قرأت كتابا لمؤلف يقول أن الأهرامات قد بنيت لتكون ملاجئ لاتقاء الكوارث الطبيعية، وهى فكرة كنت كتبتها منذ عدة سنوات.

فى سنة ١٩٤٥، جمعت وجهة نظرى بعنوان «رسالة فى إعادة بناء التاريخ القديم» وأعطيتها إلى صاحب مطبعة فى كنعان فى كونيكتيكت، ونشرتها كرسالة فى سلسلة "سكربتا اكاديمكا" وهى سلسلة بدأتها بمالبغ من أبى وهو فى فلسطين، ولقد ساهم فى العدد الأول منها حاييم وايزمان واى. برجمان، وفى العدد الثانى م. فودور والجامعة العبرية. من جملة ٢٨٤ بند فى الرسالة لم أغير اليوم إلا القليل منها.

لقد رفض "عصور فى فوضى" تسعة ناشرين على الرغم من توصية الأستاذ "بفيفر Pfeiffer"، كما رفض "عوالم فى تصادم" ثمان ناشرين، فى الغالب بسبب كثرة الهوامش، قائلين إنه يفضل أن ينشر بدعم من جهات أكاديمية. لكنى تعاقدت أخيرا مع دار مكملان للنشر سنة ١٩٤٧ ونشر الكتاب سنة ١٩٥٠. وأما كيف استقبل العمل فليس هنا مجاله (٦).

المراجع:

١- جبل سيناء، بركان ١٨٧٣.

٢- كتاب نولدكه صدر سنة ١٨٦٤.

٣- حررت ونشرت Scripta Universitatis سنة ١٩٢٣، والتى قامت بدور كمقدمة للجامعة العبرية، وكان فيها مقال لماهلر من فيينا عن الترتيب التاريخى لتل العمارنة.

٤- عنوان الكتاب Sil existe les sources de l'histoive.

٥- "الرواد" بقلم فيلكوفسكى (مثال).

٦- انظر فيلكوفسكى المحلقون فى النجوم وحفارو القبور.

عصور في فوضى

السفر الأول

من الخروج إلى الملك إخناتون

ترجمة :

رفعت السيد على



مقدمة المؤلف

بدأت رحلتى مع «عصور فى فوضى» فى ربيع عام ١٩٤٥ ميلادية، وفى ذلك الوقت أدركت أن الخروج اليهودى من مصر قد حدث فى قمة من فوران الأحداث، وأن هذه الكارثة قد تبرهن على أنها كانت حلقة الوصل بين التاريخ الإسرائيلى والتاريخ المصرى القديم ودار بذهنى أنه من الممكن إثبات ذلك لو وجدت فى وثائق التاريخ المصرى القديم ما يدعم ذلك، ولقد توصلت إلى هذه الوثائق، ولم يمض وقت طويل حتى وضعت خطة إعادة بناء أحداث التاريخ القديم من زمن الخروج حتى غزو الشرق على أيدى الإسكندر الأكبر. وفى غضون أكتوبر من العام نفسه توصلت إلى إدراك عميق لطبيعة ومدى الكارثة ولعقد من الزمان بعد ذلك عملت بالتوازى بين «عصور فى فوضى» و «عوالم فى تصادم» وهو ما استأثر بنصيب الأسد من جهدى ووقتى فى هذه الحقبة.

وبوجه عام فإن «عصور فى فوضى» يغطى تلك الفترة التى تناولتها فى «عوالم فى تصادم» وهى الثمانمائة عام التى تبدأ بخروج الإسرائيليين من مصر حتى غزو فلسطين على أيدى «سينا شيريب» عام ٦٨٧ ق.م، بالإضافة إلى ثلاثة قرون ونصف قرن انتهت بغزوة الإسكندر المقدونى مما يشكل فى مجموعة ١٢٠٠ عام من تاريخ الشرق القديم. ولكن بينما يركز العمل الأول على وصف تسلسل أحداث تلك الفترة، فإن العمل الحالى يركز على النواحى السياسية والثقافية للفترة نفسها. ولقد كان لحدوث هذه الكارثة دور بارز، فى اتخاذها وحدها كنقطة انطلاق أساسية

لإعادة بناء ومراجعة زمنية للعصور فى المناطق المعنية.

ولقد بحثت فى سجلات البلاد القديمة واحداً بعد آخر، وانتقلت من جيل إلى جيل، مستخلصاً الإشارات والملامح والبراهين والأدلة. ولأن هدفى الأساسى كان الكشف والمقارنة وإعادة الترتيب والبناء، فإن هذا الكتاب قد وضع بطريقة قصص التحرى؛ ومن المعروف أن فى قصص التحرى تُبنى البراهين والأدلة غير المتوقعة على أشياء، كبصمة إصبع على قضيب معدنى أو شعرة على عتبة نافذة أو عود ثقاب محترق بين الأعشاب. ومن هنا فقد يبدو الاهتمام ببعض التفاصيل الواهية فى علم الآثار أو ترتيب الأحداث زمنياً، وكذا القوى القديمة التى حكمت البلاد - قد يبدو - كل ذلك قليل الأهمية، ولكنه من وجهة نظرى بصمات أصابع فى قصة تحرى، تختص بشكل مباشر بتاريخ كثير من الأمم وكثير من الأجيال. ومثل هذه التفاصيل لم أضعها لتصعيب القراءة. إذ أنها مهمة فى بناء الفرضيات الأساسية فى هذا العمل، وعلى ذلك فإن كل محاولة لقراءة هذا الكتاب بتعجل ودون اهتمام بالتفاصيل سيتضح أنها كانت - تلك القراءة - مجهوداً عقيماً بلا فائدة.

إن الاستراتيجية الصحيحة تتطلب منا بمجرد إقامة رأس جسر أن نقويه ونحصنه، وألا نفتح جبهه ثانية ضد عدو جديد.. فبعد نشر كتاب (عوالم فى تصادم) كان جزء منه يتعلق بأحداث مسرحية مثيرة عن السماء والأرض، أعيدت صياغتها من الذاكرة التجميعية للجنس الإنسانى. وكان من الحكمة واتخاذ المواقف الصحيحة أن أقوى وأدعم رؤيتى بجزء ثان، يشتمل على البراهين والأدلة عن التركيبة الجيولوجية وتاريخ القوى التى حكمت هذه البلاد فى سلسلة الأحداث المثيرة من تاريخ الأرض. ولما كانت هذه المادة من مملكة الصخور والعظام وهى ليست نادرة بل غزيرة، فإن الشروع فى هذا العمل لم يبد صعباً.

ومن ثم فقد كان إغراء عظيم لى أن استمر من حيث كنت قد توقفت فى (عوالم فى تصادم)، لأبرهن مرة ثالثة ومن زوايا جديدة أن هناك كوارث قد حدثت، وأنها قد حطمت وعطلت التطور الطبيعى الدؤوب حيث قضت على جوانب حية، وأحيت جوانب ميتة، وفى الحقيقة أنه منذ أن نشر كتاب «عوالم فى تصادم» كرست نفسى لإرساء الأدلة والبراهين من

الجيولوجيا وما قبل التاريخ، واستخلاص الأدلة الأدبية والتاريخية عن الكوارث الكونية. وكان انجاز كتابى «الأرض فى اضطراب» ذا علاقة غير مباشرة بالعاصفة التى أثيرت حول كتابى الأول «عوالم فى تصادم» ولكنى وجدت أن الفرضيات والحجج التى طرحتها فى ذلك الكتاب لم تحظ بالاهتمام الكافى ولا القراءة الجيدة، وبالذات من أولئك الذين احتجوا بأعلى الأصوات. فهل كان مجدياً أن أورد فى تعجل مزيداً من الأدلة والبراهين؟

وهدتنى بصيرتى إلى استراتيجية بديلة، وقررت ألا أتوانى أكثر من ذلك فى البدء «بعصور فى فوضى» إنجازى الأعظم.

ولقد أطلقت على «عصور فى فوضى» جبهة ثانية، كما أسلفت بعدما عكرت صفو مجموعة قوية، وذات شأن من علماء الفلك والمفكرين المبرزين وأصحاب المراجع المتخصصة بإصدار هذا الكتاب. وأنا أقدم هنا معركة كبرى للتاريخيين والمؤرخين، وهى لا تقل عن تلك المعركة التى أقدمت على فتح جبهتها مع الفلكيين بعد صدور «عوالم فى تصادم» وأنه لمن المفهوم جيداً أن المؤرخين سيواجهون صدمة نفسية أكثر تعقيداً ومحتوى حين يجبرون على مراجعة وجهات نظرهم وقبول تداعى وتتابع أحداث التاريخ القديم، كما أوردها هنا فى «عصور فى فوضى» وفى اعتقادى أنها صدمة أكبر من تلك التى تلقاها الفلكيون فى تقبلهم لفكرة تأثير الكوارث الكونية داخل المجموعة الشمسية على مسار التاريخ السحيق كما أوردتها فى كتاب (عوالم فى تصادم). وحقيقة فإن هناك دارساً مميزاً تابع هذا العمل فى جميع مراحله حتى اكتماله. «عام ١٩٤٢» حيث عبر عن هذه الفكرة بعينها حين قال إنه يدرك أنه ليست هناك فرضيات قوية ولا أدلة ولا براهين من الممكن أن تجابه أو تدحض صياغة التاريخ التى أوردها هنا. ولكن الصعوبة والاستحالة هى فى ذلك الجانب النفسى الذى يفرض علينا أن نغير وجهات نظر اكتسبت على مر عقود زمنية من القراءة والكتابة والتدريس.

إن محاولة إعادة بناء التاريخ جذرياً للعالم القديم «أى ١٢٠٠ عام فى حياة كثير من الأمم والممالك» غير المسبوق بمحاولات أخرى «سيقابل بتعنيف ولوم شديدين من أولئك الذين يدرسون ويؤرخون مرتبطين

بالمفاهيم القديمة للتاريخ: وعديد من أولئك الذين ارتبطوا بالسلطات مترسمين خطاها ، لابد أن يعبروا عن عدم تصديقهم بأن التاريخ الحقيقى لم يتم استجلاؤه حتى الآن، وعلى ذلك فلن يصدقوا أن ما أورده هنا هو الحقيقية.

هل كان من المفروض أن أولى كثيراً من الاهتمام إلى تلك المجموعة من العلماء التى هاجمت وأدانت «عوالم فى تصادم» ومؤلفه؟ ولعدم قدرتهم على إثبات أن الكتاب أو حتى جزءاً منه جانبه الصواب. أو أن إحدى الوثائق التى وردت فيه، مزيفة فإن تلك المجموعة من العلماء انزلقت إلى موجة من الغضب الأعمى بلا أى أسس علمية «لقد حاولوا وأد الكتاب فى مهده بين أيدى أول ناشر بالتهديد بمقاطعة كل ما تنتجه داره من كتب ومراجع وبالرغم من أن الكتاب فى ذلك الوقت كان ماثلا للطباعة، فقد وافق الناشر على وضع الكتاب بين أيدى ثلاثة من أبرز المفكرين للحكم عليه وقد أجاز الثلاثة الكتاب، وعندما تولى أمر الكتاب ناشر جديد حاولت المجموعة نفسها أن تخمد طبعه من جديد، وأيضاً بالتهديد والوعيد وبلغ الأمر حدته حين أجبروا عالماً وكاتباً صحفياً على الاستقالة من عملهما، حين اتخذا موقفاً موضوعياً وعلنياً من الكتاب مما حدا بكثر من المفكرين الأكاديميين من الجامعات إلى قراءة كتاب (عوالم فى تصادم) سراً والاتصال بكاتبه فى الخفاء.

لقد كان حراس العقيدة وما زالوا متحفزين دائماً لوأد أى جديد، وإدانته بوسائل وثنية بعيدة عن الحجة الموضوعية والنقاش، هذا عدا تحقير صاحب كل فكر جديد فى عين الرأى العام، الذى لم يؤمن بأى حال بضرورة تلك الرقابة، ووأد الأفكار، وهناك قاعدة نستطيع من خلالها على الدوام الحكم على كتاب ما إن كان يحمل فكراً حقيقياً أو زائفاً، فلم يحدث أبداً فى تاريخ الفكر والعلم أن أثار كتاب زائف موجات من الغضب والحنق بين العلماء والمختصين فيكفيه اللامبالاة وعدم الاكتراث، ولكن لازم الغضب دائماً كل صفحة من كتاب حمل فكراً رائداً وحقيقياً.

إننا بوجه عام، نكون أقرب إلى الغضب والسخط تجاه فكرة معينة من شأنها أن تقلب كل ما اعتقدناه قبلها رأساً على عقب، وحين لا نكون على يقين من صحة موقفنا فإننا نميل داخلياً وآلياً إلى اتخاذ الجانب المضاد.

إن التعامل مع فكرة تقدمية يتطلب أولا القراءة الجيدة ثم التفكير ثم الفحص المتأنى والبحث عن الأدلة، وأخيراً التعبير عن موقف ورأى تجاهها وفى حالة «عوالم فى تصادم» فإن ما حدث كان العكس تماماً، فالرفض العلمى يتطلب أولا فحص الدليل المقدم لإثبات فرضية، ولكن لم يحدث شئ من ذلك فى رفض (عوالم فى تصادم). إن ما أثير من لغط حول الكتاب وبقدر ما أمكن جمعه من الدوريات، أجبت عليه نقطة بنقطة فى حوار مع البروفسور «ج. ك. ستيوارت» عالم الفلك فى جامعة «برونستون» ونشر فى طبعة من مجلة هاربر عام ١٩٥١. وذلك بعد أربعة عشر شهراً من نشر الكتاب. ولم أترك حجة دون الرد عليها .. ولم تظهر بعدها حجج أخرى منذ ذلك الوقت بالرغم من أن الانفجارات الانفعالية لم تتوقف ... ثم توصلوا إلى نهج آخر وهو إظهار قبول الحقائق التى قدمتها فى (عوالم فى تصادم) كجزئيات منفصلة، بالطبع لم يتم ذلك فى صراحة مباشرة، ولكن فى مسوح من يظهرون كم هى خطأ تلك الأفكار المتمردة والمنشقة على تعاليم الدين، وحتى هذه اللحظة فإننى لم أر فصلا فى الكتاب يحتاج إلى إعادة صياغة أو فرضيات يتحتم إلغاؤها.

إن التغييرات فى التاريخ السياسى للشرق القديم والتى أوردتها فى هذا الكتاب غير يسيرة بأية حال، وأرى أنه من الممكن أن أكون قد أخطأت فى بعض التفاصيل، ولذلك أرحب بشغف بأى نقد موضوعى بناء. ولكن قبل الانزلاق فى إغراء هدم الكتاب كله بسبب نقطة هنا وأخرى هناك، فإن الناقد لابد وأن يزن بعناية حججه ضد العمل ككل، والبناء بأكمله وما اشتمل عليه من براهين. إن المؤرخ الذى يسمح لفكره أن يتقيد بحجة موجهة ضد «بعض التفاصيل بدرجة تجعله يتجاوز عن تقييم العمل ككل أو يتغاضى عن الأدلة العديدة المتشعبة التى يعود عليها العمل، قد يصبح مثل ذلك العالم المتظاهر بيقظة الحس العلمى «البروفسور تويست» فى قصيدة «أوجادين ناشا»، والذى ذهب فى رحلة بحث فى الغابة مصطحباً معه عروسه التى تزوجها حديثاً، وفى يوم عاد الدليل إليه ليخبره أن زوجته قد التهمها أسد. وفى وقار شديد ودون أن يهتز لديه هدب سأله أتقصد «ليثاً؟»

وأنا أومن أن الأدلة المجمعة فى (عصور فى فوضى) مبرر قوى لإعادة

بناء التاريخ، وعاجلا أو أجلا وفى يوم ما فإن اكتشافاً أثرياً جديداً سيثبت تماما صحة فرضيات الكتاب، وحينئذ سيثبت لأى متشكك أن الحجج لا تصدق لديهم إلا بعد تحقق النبوءة إن الكشف مؤخراً عن مرجعين لغويين وهما «صور للعبرية القديمة» و «الحضارة الحثية»، وحل ألغاز ما ورد بهما من أشكال عن تاريخ آسيا الصغرى وسوريا .. كل ذلك يَعِدُ بالكشف عن حقائق ذات مغزى كبير، ولهذا السبب لا يجب بأية حال أن أعطل طبع النسخة الحالية. فمن المعتاد اعتبار أن أى فكرة جديدة ليست صادقة .. وبعد ذلك وحين تصبح مقبولة لا تعد جديدة بأية حال.

إيمانويل فليكوفسكى
فبراير ١٩٥٢

اعتراف بالفضل

طوال فترة إعداد مادة هذا الكتاب شعرت بامتنان شديد تجاه علماء الآثار الذين كدحوا أكثر من مائة عام فى الكشف عن آثار مناطق عديدة من الشرق القديم. وكذلك أدين بكثير لعلماء أصول اللغات، الذين قاموا بقراءة المخطوطات القديمة، وإلى أولئك الدارسين الذين سهلوا أعمال البحث بجمع المادة العلمية وتبويبها وتصنيفها.

أشعر بامتنان أيضاً إلى الدكتور «والترفيديون» فى معهد دراسات آسيا بنيويورك، الذى لم يتوانَ عن مدّ يد العون بمعلوماته الغزيرة عن الأدب المصرى القديم، ويزداد إحساسى بالعرفان لأنه لم يحاول أبداً أن يقحم نفسه بأى شكل على فرضياتى الخاصة بالكتاب .. ولقد اقتضى الأمر ما يزيد على ستة أعوام، حتى اقتنع وأقر أن التاريخ التقليدى كما نعرفه غير مبنى على أسس ثابتة، ولقد كانت محاجاته الدائمة حافزاً مستمراً لى لجمع المزيد من الأدلة والبراهين ومضاهاة المادة التاريخية المجمعة حتى اتخذ الكتاب شكله الحالى، وعدا ذلك فقد كان نقده دائما بناءً.

كما أدين أيضاً إلى الدكتور «روبرت. هـ. فايفر» المرجع الفذ لدراسات الكتاب المقدس ومدير بعثة هارفارد للتنقيب عن الآثار والمسئول عن متحف اللغات السامية بجامعة هارفارد وأستاذ مادة التاريخ القديم بجامعة بوسطون ومحرر جريدة آداب الكتاب المقدس (١٩٤٣ - ١٩٤٧) ومؤلف العمل المميز عن «العهد القديم» وهو من الشخصيات التى يعتمد على آرائها. وقد حدث أن قرأ فى صيف عام ١٩٤٢ «عصور فى فوضى»

وهو فى صورته الأولية، واقترح علىّ أن أحاول إثبات فرضياتى على أسس من موجودات علم الآثار وعملت بنصيحته. ولقد تضمن الجزء الثانى فصولا عن «السيراميك وتتابع العصور» و «المعادن وتتابع العصور» هذا عدا بعض أجزاء أخرى مختصة بمشاكل الفن القديم، والقوى التى سادت، والمعمار وارتباطه بطبقات الأرض، ولقد قرأ هذه الفصول وأبدى اهتماماً كبيراً بالتقدم الذى حققته ودون أن يقرّ العمل ككل أو يرفضه، وظل دوماً صاحب أفق منفتح، مؤمناً بأن النقاش الحر والموضوعية لا غنى عنهما للوصول للحقيقة.

ولا يتحمل هو ولا الدكتور فيديون أى قدر من المسئولية أو المشاركة فى أى فكرة وردت فى هذا الكتاب.

كما قرأ أيضاً البروفسور «ج. جارستانج» المنقب عن آثار مدينة أريحا النسخة الأولية للفصل الأول، وأقرّ بأن وصف الوثائق المصرية القديمة للكارثة التى صاحبت الخروج منطبق تماماً على الوصف الوارد بالكتاب المقدس، مما يثبت أنهما وصفان لحدث واحد.

وأوجه تقديرى أيضاً لكل من الدكتور «أ. ج. جلب» و «الدكتور «س. أ. فايجين» وكلاهما من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو، حيث أجابا على كثير من تساؤلاتى دون أن يدركا السبب وراءها .. كما كان للدكتور «س. هـ جوردون» من كلية درويس الفضل فى الإجابة عن تساؤلات أخرى، ولهم جميعاً منى الشكر والتقدير.

ولا أنسى فضل الدكتور «هوراس.م. كالين» الأستاذ وعميد كلية البحوث الاجتماعية بنيويورك، وعالم الإنسانيات الذى أمدنى بدعم معنوى كبير طوال تلك السنوات، حيث كان يدرك المصاعب والمشاكل التى أعمل ضدها والمعارضة الشديدة التى تنتظر هذا العمل.

ولقد كنت محظوظاً باستفادتى من معاونة الآنسة «ماريون كوهن» التى راجعت بعناية فائقة لأكثر من مرة المخطوطة الأولى مما ساعد على وضعها فى الشكل المرجو، وكذلك السيدة «كاترين تيبل» التى نسخت المخطوطة بدقة فائقة.

وفى النهاية لا أنسى أنى تلقيت معونة صادقة من السيد والتر برادرى مدير تحرير دار النشر والذى أشعرنى أن كل إمكانيات الدار تحت تصرفى.

تمهيد

هذا الكتاب لا يعد تاريخاً وصفياً بالمعنى المتعارف عليه، فهو مجموعة متتابعة من الفصول، كل منها أقرب ما يكون إلى جلسات المحاكم، حيث يقف الشهود على منصة الشهادة ليقروا ببطلان تاريخ تقليدى زائف ويشهدوا بصحة مفهوم آخر حديث للتاريخ .. إن القصة القديمة لتاريخ الجنس الإنسانى لم تكن محل نزاع قبل ذلك، ولكنها هنا تهاجم بشدة بالقدر نفسه الذى تحمله من تشويه فى الوقت نفسه الذى يتقدم فيه بناء جديد ليسترد مكانه. والفترة الزمنية التى يتعرض لها الكتاب تغطى ما يزيد عن ألف عام، تنتهى بدخول الإسكندر الأكبر مصر.

من الممكن أن نواجه مفارقات عجيبة جداً حين تشوه العلاقات الزمنية الصحيحة للتاريخ .. ولتقريب هذه المسألة للأذهان عن تأثير اللاتوافق الزمنى فى تسجيل تاريخ العالم القديم ينبغى أن نتخيل مدى الفوضى التى ستنتج لو أن تاريخاً لأوروبا وأمريكا كتب بطريقة يتخلف بها تاريخ الجزر البريطانية بستمائة عام عن نظيره الأوروبى والأمريكى، وعلى ذلك فحين يكون العام فى أوروبا وأمريكا هو عام ١٩٤١ فإنه سيقابل عام ١٣٤١ فى بريطانيا ولما كان كولومبس قد اكتشف أمريكا فى عام ١٤٩٢ فإن تشرشل عام ١٣٤١ فى بريطانيا لم يتمكن من زيارة أمريكا حيث لم تكن قد اكتشفت بعد حسب التاريخ البريطانى، ولكن لابد أنه قد زار بلداً آخر غير أمريكا، وسينقسم الدارسون فى آرائهم عن كنه هذا البلد الذى حُكم من واشنطن، والذى عرف تاريخياً بأنه البلد الذى وقّع

على الميثاق المشترك مع تشرشل بريطانيا فى عام ١٣٤١.

ولكن حين تتحدث السجلات الأمريكية عن تشرشل الذى عبر المحيط فى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين فإن التاريخ البريطانى لابد أن يتضمن تشرشل الثانى عدا تشرشل الأول، الذى سبقه بستمائة عام. وكذلك كرومويل لابد أن يكون أول وثانى بالطريقة نفسها حيث عاش كرومويل الأول قبل تشرشل الأول بثلاثمائة عام وعاش الثانى بعده بثلاثمائة عام أو ثلاثمائة قبل تشرشل الثانى.

وستكون الحرب العالمية الأولى قد قامت مرتين، وكذلك الثانية، وستكون الحرب العالمية الأولى فى صورتها الثانية، قد قامت بعد الحرب العالمية الثانية فى صورتها أو نسختها الأولى. وذلك بـ ٥٧٥ عاماً وبالطريقة نفسها المشار إليها فإن تطور المؤسسات الدستورية والحياة الثقافية وتطور العلوم والفنون لابد أن يبدو بالقدر نفسه من التشويه فى سياق التطور والتاريخ.

سيبدو أيضاً أن نيوتن فى إنجلترا كان سابقاً لكوبرونيكوس فى أوروبا بدلا من العكس. كذا جان دارك التى سيتم إحراقها مرتين فى مدى ستمائة عام أى أنها يجب أن تشد على عامود المحرقة مرة أخرى بعد عدة قرون من الآن، كنتيجة محتمة لتفاقم فوضى تزامن التاريخ.

فى مثل هذه الحالة سنكتشف أنه ليس التاريخ البريطانى وحده الذى سيعانى من الإزدواجية، بل أيضاً تاريخ العالم كله. وستنجم عن ذلك مشاكل لا حصر لها، ولكن سيتم إقصاؤها جانباً من جانب المؤرخين كأشياء شاذة، وستطرح نظريات معقدة، وتوضع لها التفسيرات. وإذا قبلت هذه الافتراضات وتفسيراتها كنظريات جديدة فإنها ستكون بعد ذلك قد أصبحت عوائق لا يستهان بها فى وجه أى محاولات جادة لإعادة التوازن والتزامن الصحيح للتاريخ بعد ذلك.

لقد تشوه التاريخ الحقيقى القديم بالطريقة ذاتها، وبسبب عدم دقة التزامن، فإن أحداثاً عديدة أضحت أشباحاً أو أنصافاً أو أزواجاً. الأحداث غالباً ما ازدوجت، والمعارك الكبرى صارت ظلالا، وعديد من الخطب والأحاديث أضحت صدى صوت، والمعاهدات أصبحت مسوخاً، وحتى الإمبراطوريات صارت أطيافاً.

هذا الخطأ المبدئي يمكن اكتشافه في التاريخ المصري. لقد توقف التاريخ المصري وتخلف عند حد معين. وفي تلك الأزمان القديمة وفي مجد الحضارة المصرية أرخت الحضارة البابلية والآشورية أحداثها، التي كانت فيها على احتكاك بالحضارة المصرية من خلال القصص المصري والرؤية المصرية في حينها. وكان ذلك هو النقل الأول. وفي العصر الحالي حين كتب تاريخ مصر القديمة، أخذ عن ماتم تسجيله في تاريخ الحضارات الأخرى المعاصرة لمصر القديمة أي من الأشورية والبابلية، وكان ذلك هو النقل الثاني، وبذا أصبح من شاركوا هامشياً ومن لم يشاركوا في صنع الأحداث هم المصدر الرئيسي للتأريخ لمصر القديمة.

وفي التسجيل غير المباشر للحضارات حدث كثيراً وعدم دقة التزامن صنع الأكثر .. وهكذا فإن تاريخ الآشوريين والبابليين والفرس قد شوه وخرب وتاريخ الإمبراطورية الحثية قد اخترع بأكمله، وكذلك التاريخ الإغريقي في عصره البرونزي لم يوضع في موضعه الحقيقي من السياق الزمني، كما شوّه التاريخ الذي سبق الإسكندر الأكبر، أما محاربو أسبرطة وأثينا ممن اشتهرت أسماؤهم، فإنهم يبدون على صفحات التاريخ كإقحامات أثرية برزت من ظلمات التاريخ.

إن العمل على إعادة التوازن للتاريخ القديم، ووضع تاريخ شعوب العالم القديم في تزامنه الدقيق – هذا العمل ينطوي على متعة فائقة وسنرى على ضوء جديد عديداً من الوثائق التاريخية، التي فُسّرت بشكل مخالف لمضامينها حين نسبت إلى زمن غير زمنها.

وسنقرأ قصة البلاء الذي صاحب أيام الخروج، كتبها شاهد عيان مصري، وحُفظت على لفائف البردي .. وسنتمكن من التعرف على الهوية الحقيقية للهكسوس – والتي مازالت لغزاً – وأيضاً تحديد مكان عاصمتهم القوية «حواريس» والتي تقدر بأنها كانت أقوى حصن في العصور القديمة.

سنقرأ أيضاً سجلات ملكة سبأ عن رحلتها إلى القدس في عصر سليمان، والتي تضمنت كثيراً عن سكان البلاد والحيوانات والنباتات في فلسطين في ذلك الوقت. وسنرى صوراً للآنية والأثاث وأدوات الأكل التي كانت في معبد سليمان، كما صورها على قاعدة عمودٍ فنان معاصر لها،

وسنتابع نصوص الرسائل التى كتبها ملوك اليهود مثل «يهوشافاط» ملك القدس وآخاب «آثم إسرائيل» وكذلك قواد الجيوش وهى رسائل ممهورة بأسماء معروفة فى الكتب اليهودية المقدسة.

لازالت مراجعة تاريخ مصر والآشوريين والبابليين تحمل أهمية قصوى، وكذا مراجعة مفاهيم التاريخ الإغريقى وتصحيح التزامن دون تغيير التاريخ اليهودى يثرى السجلات التاريخية بسخاء .. إن تاريخ مصر وما تبعه من تاريخ الآشوريين والبابليين وسكان فارس وفينيقا وكريت واليونان تغيرت آمادها الزمنية عند التأريخ لها .. إن آثار التاريخ حين تعاد صياغة أزمانها على الوجه الصحيح تتضح مضامينها بجلاء أكثر مرتبطة بزمنها وعصرها .. وسيتضح أن الملوك قد وضعوا فى التاريخ الموضوع فى موقع أحفاد أحفادهم، ووضعت إمبراطوريات تخيلية لم توجد أصلا، وافتتحت قاعات متاحف لتعرض فنون إمبراطوريات وهمية تخيلية، أما قطع الآثار فقد كانت نتاج قرون أخرى، وعصور مخالفة لما نسبت إليه. كان هذا هو الحال بالنسبة للإمبراطورية الحثية وفنونها، وكانت كذلك أيضاً بالنسبة للشعوب الحورانية ولغاتها لأنها ببساطة نسبت لحضارات أخرى.

ومن خلال العمل المحموم للدارسين أحرزت إنجازات كثيرة ولكن دون معرفة أصولها الحقيقية ولقد تم حل رموز اللغة الكلدانية، ولكن من حلوا رموزها لم يدركوا أنها كلدانية، ووضعت الكتب لتفسير اللغة (الكارية) ولكن علماء أصول اللغات المجدين لم يدركوا أنها كاريانية.

إنه لمن المستحيل أن أجمل هنا كل الحقائق الجديدة فى مثل هذا التمهيد القصير بعد وضع الأحداث فى سياقها الزمنى الصحيح، وحين ترفع مصاريع أبواب التاريخ إلى مستواها الصحيح، فإن الحقائق عن الشعوب والبلاد والفنون والديانات والمعارك ستتدفق من خلال الأبحاث بغزارة لا تنضب، وبالتأكيد فإن بعض الحقائق وعديداً من الأحداث الموازية لها من الممكن أن أكون قد تجاوزتها فى هذا الكتاب، ولكن هذا النقص يندر أن يخلو منه عمل رائد مثل هذا.

إ. فليكوفسكى

الفصل الأول

فى البحث عن رابط بين التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى

أرضان وماضيهما

تقع أرض فلسطين فى أقصى غرب آسيا، كما تقع أرض مصر فى الركن الشمالى الشرقى لأفريقيا، وبذلك تتجاوران، وتاريخ مصر يضرب بجذوره إلى أعماق بعيدة فى التاريخ، والشعب اليهودى أيضاً له تاريخ يزعم أنه يحتوى على البدايات الأولى لحركة مصر خلال القرون .. ومنذ فجر التاريخ أتى الإسرائيليون كقبائل رحل غير مستقرة من أرض كنعان إلى أرض مصر. وفى مصر نمت هذه القبائل الرحل لتصبح شعباً، ثم لتسقط بعد ذلك تحت نير العبودية، وكانت قصة خروجهم المثيرة من مصر من أغنى وأخصب ما تكون فى الذاكرة اليهودية عن الماضى، وصبغت الإرث والعادات والتقاليد اليهودية بصبغة تعيد رواية القصة بلا كلل.

ولقد قيل لنا إن وثائق التاريخ المصرى لا تحتفظ بأى إشارة عن إقامة الإسرائيليين ولا عن رحيلهم، ومن غير المعروف متى حدث هذا الخروج إن كان قد تم على إطلاقه.

ولقد تبنى كثير من الدارسين رأياً خلاصته أن إقامة الإسرائيليين بمصر واستعبادهم ثم خروجهم مجرد تصور دينى بحت. ولقد لقى هذا الرأى تعضيداً قوياً فى غياب أى دليل مباشر عن وقوع هذه الأحداث فى الآثار المصرية «القديمة» أو على أوراق البردى. وعلى عكس ذلك تبنى آخرون وجهة نظر مضادة «فحواها أنه من العسير أن يخترع شعب أساطير عن العبودية، والتى لم يكن فى الحسبان فى وقتها أنها ستحفز أو تخلق كرامة قومية، وبالتالى فإنه لابد من وجود أسس تاريخية لهذه

القصة.

وقد اختلف المؤرخون أيضاً حول تحديد تاريخ الخروج، ووضع كثير من الافتراضات، ولكن على مدى يزيد عن ألفى عام استقر فى وجدان الجميع أن الخروج حدث فى عصر يسمى فى الوقت الراهن بـ «عصر المملكة المصرية الحديثة».

إن ماضى مصر ينقسم إلى المراحل التالية:

١- عصر ما قبل الأسرات ويقع فى نهاية العصر الحجرى.

٢- المملكة القديمة وخلالها بنيت كل الأهرامات، ومن أشهر أسراتها الأسرة الرابعة والأسرة السادسة.

٣- اضمحلال السلطة الأول: وفيه عمت البلاد الفوضى وتلاشت السلطة المركزية فى ذلك العصر المظلم. ومن الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة لا تعرف أية أحداث عن تلك الفترة.

٤- المملكة الوسطى: وتشمل الأسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة حيث ساد النظام الإقطاعى. واتحدت مصر كلها تحت حكم الأسرة الثانية عشرة. وصلت الحضارة والمعارف المصرية فى ذلك الوقت درجة لم تصل إليها بعد ذلك أبداً.

٥- سادت حقبه أخرى من الفوضى بسبب تعرض مصر للغزو، حيث عرف الغزاة باسم «أمو» فى اللغة المصرية القديمة، وباسم الهكسوس كما سماهم المؤرخون الإغريق (١). وأصبح ملوك الهكسوس فراعنة مصر فى الفترة من الأسرة الرابعة عشرة حتى الأسرة السابعة عشرة، حيث حكموا البلاد بلا رحمة (٢) ومن غير المعروف إلى أى جنس ينتمى الهكسوس.

٦- المملكة الحديثة: تم طرد الهكسوس على يد أحمس (أماسيس الأول) الذى أسس حكم الأسرة الثامنة عشرة أكثر الأسر شهرة على الإطلاق، وينتمى إليها تحتمس والملكة الشهيرة حتشبسوت وتحتمس الثالث أعظم الغزاة المصريين وأمينوحتب الثانى وتحتمس الرابع وأمينوحتب الثالث، وهو من شيّد معبد الكرنك الرائع فى الأقصر وأمينوحتب الرابع الذى سمى نفسه باسم أخناتون أو المارق الأعظم بعد ذلك. ثم تلاهم ملوك أقل قوة وشهرة، ولكن من أشهرهم توت عنخ آمون، ليس بسبب تميز حكمه الذى ما زال يحيطه الغموض، ولكن بسبب الكنوز التى وجدت فى مقبرته

والتى تم الكشف عنها فى العشرينيات من القرن العشرين وبسبب الغموض الذى يحيط بموضع دفنه.

وإنهارت الأسرة الثامنة عشرة فى ظروف غير معلومة، وسجل التاريخ قيام الأسرة التاسعة عشرة بعدها. ومن أشهر ملوكها سيتى الأعظم ورمسيس الثانى (الأعظم) ومرنبتاح. أما فترة الانتقال من الأسرة التاسعة عشرة إلى الأسرة العشرين، فما زالت غامضة. ومن بين ملوك الأسرة العشرين رمسيس الثالث الذى كان من أبرز ملوكها وآخر أقوى ملك حكم مصر القديمة.

٧- من الأسرة الحادية والعشرين حتى الأسرة الثلاثين: كان فراعنة هذه الأسر من الملوك الضعفاء، ولم يتركوا أية آثار مهمة، وأطلق على عصورهم الفترة المتأخرة وقيل إن بعضهم سير الجيوش لغزوات فى فلسطين وضد بابل إلا أن المصادر غير مصرية، وفى الغالب مخطوطات دينية، وجدير بالذكر أن بعض هذه الأسر كان من أصل ليبى وبعضها من أصل حبشى ثم بعد ذلك (من ٥٢٥ قبل الميلاد) كان الفراعنة تحت هيمنة ملوك فارسيين حيث تمرد آخرهم ضد الفرس، وانتهى تمرده بإزاحته عن عرشه عام ٣٤٢ ق. م، وفى عام ٣٣٢ ق. م غزا الإسكندر الأكبر مصر.

٨- الأسرة البطلمية: وهم نسل بطليموس قائد جيوش الإسكندر الأكبر وانتهى حكم هذه الأسرة بنهاية كليوباترا عام ٤٠ ق. م.

وهذا الكتاب يغطّى الفترة الزمنية التى تمتد من نهاية المملكة الوسطى حتى غزو الإسكندر لمصر (وهى الفترة المرقمة فيما سبق بالأرقام (٥ ، ٦ ، ٧) وتربو هذه الفترة على ألف عام من تاريخ الشرق القديم. ومن المفيد أن نذكر هنا أن تقسيم التاريخ القديم إلى ممالك هو تقسيم عصرى (٣)، أما تقسيمه إلى أسرات فيرجع إلى رجل دين مصرى يدعى «مانيتو» وذلك قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون. وقد وضع ذلك التقسيم باليونانية القديمة، أما تقسيم الملوك إلى أول وثان وثالث فهو من وضع الدارسين المعاصرين.

ولقد استقر فى الأذهان أن بداية المملكة الحديثة كانت بالتقريب فى عام ١٥٨٠ ق. م. وهو عام طرد الهكسوس من مصر على يد كاموس وأحمس الأول، ويقدر أن أخناتون قد حكم فى الفترة التى امتدت من عام ١٣٧٥

حتى عام ١٣٥٨ ق. م، ورمسيس الثانى المنتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة قد حكم من ١٣٠٠ حتى ١٢٣٤ ق. م. ومرنبتاح من العام الأخير إلى ما بعد ذلك. أما رمسيس الثالث الذى ينتمى إلى الأسرة العشرين فقد بدأ حكمه عام ١٢٠٠ ق. م. أو فيما تلى ذلك بأعوام قليلة وهذه التواريخ على درجة عظيمة من الأهمية لتحديد وقت الخروج من مصر.

إن التاريخ اليهودى من أيام الخروج وما تلاه، يتكون من سنوات التيه فى الصحراء؛ والتى تقدر بأربعين عاماً طبقاً للقصص الدينى الموروث، ثم عصر يشوع والقضاة، ثم عصر شاؤل أول ملك يهودى، ويقدر كل ذلك بأربعمائة عام، ثم عصر ملوك معبد داود حيث أسس داود ملكه عام ١٠٠٠ ق. م.

وعلى وجه التقريب فقد ظلت مملكة اليهود موحدة بلا تقسيم قرابة مائة عام تحت حكم شاؤل وداود وسليمان، وفى عهد ما بعد سليمان، قسمت إلى مملكتين، إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب. وفى عام ٧٢٢ ق. م. غزا سارجون الثانى ملك الآشوريين السامرا عاصمة إسرائيل ونفيت القبائل الإسرائيلية العشر خارج إسرائيل ولم يعودوا بعد ذلك.

وفى عام ٥٨٧ أو ٥٨٦ ق. م. تم غزو وتحطيم أورشليم عاصمة يهوذا على يدى نبوخذ نصر؛ ورحل شعبها اليهودى إلى المنفى فى مملكة بابل، ثم عادت مجموعات صغيرة من الشعب اليهودى بعد استيلاء سايروس ملك فارس على بابل عام ٥٣٨ ق. م. وعادت مجموعات أخرى إلى فلسطين فى القرن الذى تلى ذلك.

ثم غزا الإسكندر الأكبر فلسطين عام ٣٣٣ ق. م وهو فى طريقه إلى غزو مصر. وبالرغم من اتصال أرض فلسطين بأرض مصر فإن السجلات المصرية القديمة تكاد تفتقد أى ذكر أو إشارة إلى أحداث القصص الدينى الذى ورد فى التوراة (٤). وقصص التوراة تتحدث عن إقامة بنى إسرائيل فى مصر وتتحدث عن الخروج، ولكن لم يعثر على أية وثائق مصرية قديمة تشير إلى تلك الأحداث. كذلك لم تذكر مصر فى قصص التوراة طوال فترة حكم القضاة اليهود بالرغم من الاحتكاك المستمر والمباشر بين مصر وفلسطين طوال فترة حكم الملوك اليهود حيث دأب فراعنة مصر على تسيير الحملات إلى فلسطين، وهى حملات نسى فراعنة مصر – فى

الفترة من القرن العاشر حتى القرن السادس قبل الميلاد - ذكرها فى اثارهم.

ومن العجيب أنه من خلال الوثائق القديمة لا يوجد أى ارتباط حقيقى ومباشر بين تاريخى مصر وفلسطين لفترة امتدت إلى بضعة مئات من السنين، وعلى الأقل فإن خروج الإسرائيليين من مصر ينتمى بشكل مباشر إلى التاريخين المصرى واليهودى مما يعد ارتباطاً مباشراً، ولذلك سنحاول أن نحدد فى أية فترة من التاريخ المصرى حدث الخروج. قد يكون الخروج، قد حدث قبل حكم داود بمائة أو مائتين من الأعوام أو ثلاثمائة أو أربعمائة قبله، وهذا يتوقف على مقدار زمن التيه فى الصحراء، وعلى فترة حكم القضاة ويتسع السؤال ليشمل مدى زمنى أكبر. هل خرج الإسرائيليون من مصر فى القرن السادس عشر أو الخامس عشر أو الرابع عشر أو الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد؟ وعلى أية حال تغطى الفترة المذكورة المملكة «الفرعونية» الحديثة، وقد تم الخروج أثناءها. ولا يوجد أى شك على الإطلاق فيما يختص بهذه النقطة على اتساع مداها الزمنى. ولكن خلاف الدارسين - كان دوماً - حول تحديد تحت حكم أى من فراعنة المملكة الحديثة قد تم الخروج؟ وبالرغم من أنه كما ذكرنا من قبل لا توجد إشارة مباشرة فى الوثائق المصرية القديمة تشير إلى الخروج بطريقة محددة، فإن أية تفاصيل جديدة تظهر بعد ذلك تستدعى المناقشة.

ما هو الزمن التاريخى للخروج؟

أقدم نظرية تضع الخروج فى زمن مبكر جداً وتنص على اقتران ظهور الإسرائيليين بظهور الهكسوس، كما تقرن الخروج بطرد الهكسوس من مصر. وقد سجل مانيتو (رجل الدين المصرى السابق ذكره) أن الهكسوس بعد طردهم من مصر قد اتجهوا إلى سوريا حيث أنشأوا أورشليم (٥).

كما جادل جوزيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى كلاً من نظرية آبيون عالم النحو ونظرية مانيتو رجل الدين المصرى إلا أنه فى النهاية قبل دعم نظرية أن الإسرائيليين هم الهكسوس، كما كتب جوليوس الأفريقى، وهو واحد من رجال الكنيسة بتفويض من

الأب آبيون، : « إن اليهود قد تمردوا تحت قيادة موسى على أحمس ملك مصر » (٦). وكما كتب إيزيبيوس، وهو واحد من رجال الكنيسة، ناسباً وقوع الأحداث إلى عصر سنشيريس كأحد الملوك المتأخرين فى الأسرة الثامنة عشرة (ولا يعرف ملك بهذا الاسم) وذكر أنه فى ذلك العصر قاد موسى اليهود فى خروجهم من مصر (٧).

ولم يستقر هذا التفاوت على رؤية موحدة حتى بعد مرور تسعة عشر قرنا من الزمان، هذا عدا أن الدارسين المحدثين لم ينتبهوا إلى أنهم يكررون التناقض القديم نفسه. أما إهمال الرجوع إلى المصادر الكنسية المبكرة، فيعود إلى أسباب تحمل قدراً كبيراً من المنطق. أفلم يقرن أوجستين بين موسى وبروميثيوس وجعلهما متعاصرين (٨) ؟ كثيراً ما قبلت نظرية اقتران الإسرائيليين بالهكسوس (٩)، وغالباً ما رفضت. وحتى اليوم فإن كثيراً من المؤرخين لا زالوا يؤمنون بأن الخروج قد حدث فى العصر المبكر للأسرة الثامنة عشرة، وأن الخروج لم يكن إلا صدى لطرد الهكسوس من مصر (١٠). ولكن بالنظر لوقوع اليهود تحت نير العبودية فى مصر ووقوع مصر تحت نير عبودية الهكسوس، فإن من المستحيل التقاء استشهاد العبيد وقسوة الطغاة فى أية نظرية مهما كان شأنها كاستحالة التقاء الأضداد. ولذلك وضعت نظرية أخرى مختلفة، وتتلخص فى أن الأمة الإسرائيلية لم تقم أبداً فى مصر، ولكن الهكسوس هم من أقاموا فيها، ثم تم طرد الهكسوس، ووصلت إلى مسامع الإسرائيليين بعض تقاليد هذا الشعب، فضموها إلى تراثهم وأصبحت جزءاً من ماضيهم.

وفيما عدا التناقض فى الاعتقاد بأن الهكسوس هم الإسرائيليون، لتعارض أن يكون الطغاة هم المضطهدون، فهناك صعوبة أخرى، وهى أنه خلال عصور الحكام الذين تلوا أحمس، كانوا كلهم من الحكام الأقوياء، مما يستحيل معه أن يغزوا الإسرائيليون فلسطين فى عهودهم، حيث كانت فلسطين تحت هيمنة هؤلاء الفراعنة.

لقد كانت نفس الحجج والأسباب هى التى تقف حجر عثرة فى سبيل الاقتناع بتلك النظرية التى تحدد الخروج من مصر بعام ١٥٨٠ ق. م. وهو عام طرد الهكسوس من مصر.

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا الموضع هو: إذا كان طرد الهكسوس

من مصر عام ١٥٨٠ ق. م يعد حدثاً مبكراً بالنسبة للخروج اليهودى من مصر، ففى أى موضع من تاريخ ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأقوياء من الممكن أن نجد فترة يفترض أن تكون فترة ضعف فى حكم الفراعنة وارتخت قبضتهم على المنطقة، وبالتالى من الممكن أن تتضمن حدثاً مثل خروج اليهود من مصر من بعد حكم أخناتن (أخناتون) (١١) ؟ !

وإذا كان من المستحيل على الإسرائيليين دخول فلسطين فى عهد فراعنة أقوياء، فكيف كان من الممكن أن يتخلصوا من نير العبودية فى عهود حكام آخرين كانت لهم القوة نفسها ؟

ترقب الدارسون أى دليل جديد يظهر ويشير بصورة أدق إلى عصر الخروج وتوقيته. ولم يطل انتظارهم، ففى عام ١٨٨٠م فى وادى النيل وفى مكان يطلق عليه تل العمارنة، اكتشف المنقبون مراسلات مكتوبة على ألواح من الطين يعود تاريخها إلى عهود أمينوحتب الثالث وابنه أخناتون، وكان بعض تلك الرسائل من أورشليم (يورسليم)، ومنها يبدو قلق كاتبها وهو يحذر الفرعون من غزو محتمل يقوم به اليهود (خابيروا) (١٢) القادمون عبر الأردن ومع التأكيد على تطابق كلمتى اليهود وخابيروا، فإن الخروج لابد وأن يكون قد تم قبل زمن تلك الرسائل بجيل أو جيلين (١٣).

إن النص التوراتى (الملوك ٦: ١) الذى يحدد أن معبد سليمان قد شيد بعد الخروج بأربعمائة وثمانين عاماً، يشير إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فى حين أشار حساب السنين إلى عام ١٤٤٧ ق. م. كعام الخروج ويقع ذلك فى عهد أمينوحتب الثانى وغزو فلسطين الذى تم فى عام ١٤٠٧ ق. م. يتزامن مع توقيت رسائل تل العمارنة (١٤). ولاقت وجهة نظر أن اليهود العبرانيين قد هاجموا جيركو (أريحا) تأييداً، بعد الحفريات التى تمت فى جيركو (أريحا)، حيث وجد على حوائط المدينة القديمة آثار الدمار والنيران، وأرجعها المنقبون إلى عام ١٤٠٧ ق. م. أو ما يقارب ذلك، وهو نفس توقيت رسائل تل العمارنة. ويرجح أيضاً أنه قد حدث زلزال فى التوقيت نفسه، حيث يرجع إليه سبب سقوط حوائط أريحا، حين حاصر الإسرائيليون المدينة بعد أن عبروا الأردن. وقد تم الجمع بين وجهة النظر الأولى والثانية فى نظرية أخرى مفادها أن

الإسرائيليين غادروا مصر أيام طرد الهكسوس، ووصلوا فلسطين باسم العبرانيين فى عهد أخناتون، ولكن ما بين الخروج ووصولهم إلى فلسطين هناك أكثر من مائتى عام. ولا يعقل افتراض أن المائتى عام كانت هى زمن التيه فى الصحراء، فى مقابل أربعين عاماً فقط ذكرت فى الكتاب المقدس، وعلى ذلك غدت هذه النظرية غير محتملة (١٥).

أما الخروج فى عهد أمينوحتب الثانى، فإنه لا يشكل عقبة كبيرة، ويبدو متوافقاً مع التسلسل الزمنى الذى ورد فى التوراة .. مع أن كل المختصين بتاريخ مصر القديمة لا تتفق وجهة نظرهم مع هذا الاحتمال، على زعم أن عصر أمينوحتب الثانى يبدو أقل العصور احتمالا وملاءمة لأن يحدث أثناءه الخروج، وأن أية نظرية تدعى ذلك فإنها فقط تحاول أن تثبت صحة ما ورد فى الكتب المقدسة (١٦).

وكانت التأكيدات قوية بأن فلسطين ظلت تحت الحكم المصرى حتى وقت متأخر أى عام ١٣٥٨ ق. م، وحتى حدوث الاضطرابات التى أنهت حكم أخناتون ... فى حين أن يشوع لم يجد أى أثر لقبضة مصر القوية حين غزا فلسطين (١٧) وعلى ذلك فنهاية حكم أخناتون ومن بعده نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة فى عصر توت عنخ آمون (آخر ملوك الأسرة) كان أنسب الأوقات لحدوث التمرد وانسحاب العبيد من مصر، ولكن لم يتم العثور على أى مرجع يحمل ولو بالإشارة أو التلميح دليلاً على وقوع الخروج أثناء الفوضى التى سادت ما بين انتهاء حكم الأسرة الثامنة عشرة وبداية الأسرة التاسعة عشرة. ولم يدعم النظرية السابقة إلا ملاءمة الفترة لحدوث الخروج أثناءها. وبالرغم من ذلك فإن هذه النظرية وجدت صدى لها فى أحد أعمال عالم نفسانى، اقتفى أثر بعض المؤرخين (١٨) مؤكداً أن موسى لم يكن إلا أميراً مصرياً وتلميذاً لأخناتون حين كان أخناتون أول داعية لعقيدة التوحيد. وحين انتهى حكم أخناتون وارتد الكل عن عقيدته، حمل موسى لواءها من بعده واستمر فى الدعوة إلى اعتناقها، بين العبيد والفقراء، ثم غادر بمن آمن منهم مصر.

والنظرية التى تلت ذلك قلصت أكثر زمن الخروج، ودليلها الأساسى الغطاء الحجرى لتابوت ميرنبتاح، حيث كتب عليه على لسان الملك الذى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة أن فلسطين أرملة وأن بذرة إسرائيل قد

دمـرت، وهذا يعـد أول ذكـر لاسم إسـرائيـل فـى وثيـقـة مـصـريـة. ولكن ميرنبتـاح لم يهلك فـى البـحـر ولم يعـان من فـوضى العنـف فى عصـره وهـو من هزم الإسـرائيليـين. ولا تتـفق هذه الأحـداث بـالطبع مع الرؤيـة الإسـرائيليـة، ولكن بما أنهـا كـانت أول ذكـر لاسم إسـرائيـل فـى التـاريخ المصـرى القـديم فإن كـثيـراً من الإسـرائيليين رجـحـوا أن مـيـرنبتـاح هـو فـرعون الخروج (حوالى ١٢٢٠ ق. م.) و (أن رمـسيس الثانى الذى سبـقه هـو الطاغيـة الذى استـعبدهم (١٩). وعلى عكس ذلك اعتـقد باحثـون آخرون أن ذكـر اسم إسـرائيل فى ذلك الأثر، لا يعـضـد هذه النظرية بل يضـعـف من الاعتـقاد أن عصر مـيرنبتـاح كان هو عصر الخروج فإن كان الإسـرائيليون مـوجـودين بـالفعل فى فلسطين فى عـصـره، فـلا يمكن أن يكون هو فـرعـون الخروج (٢٠) حيث كتب على تابوته أن «بذرة إسرائيل قد دمرت».

هناك حائل آخر ضد تقدير حدوث الخروج فى عصر ميرنبتاح، فإن كان هو فـعـلا فـرعـون الخروج، فـإن الإسـرائيلـيين يجب أن يكونوا قـد دخلوا فلسطين بعد خروجهم من مصر بزمن يقدر بجيل كامل من حوالى ١١٩٠ إلى ١١٨٠ ق. م. وطبقا لهذه النظرية يتبقى قرن واحد فقط لأحداث القضاة «إن احتمال نسبة الخروج إلى عصر ميرنبتاح عام ١٢٢٠ ق. م. والذى كان مقبولا بوجه عام كتخمين محتمل عانى فقط من كونه يعد متأخراً أكثر مما يجب» (٢١).

وافتـرض باحثـون آخرون أن الخروج قد تم فى موجات متـتاليـة (٢٢). وهو افـتـراض جمع بين نظرية العبـرانيـين ونظرية «مـيـرنبـتـاح» وهم يتـخيلون وقـوع الأحداث على النحـو التـالى «حـينمـا كـان العبـرانيـون يدخلون أرض كنعـان، كـان الإسـرائيليـون لا يزالون بمصـر. لقد كـان كل الإسرائيليين عبرانيين ولكن العكس غيـر صحيح، وعلى ذلك فحين كان الإسرائيليـون أو قـبـائل بنى يعقوب بمصر، كانت قـبائل عبـرانيـة أخرى تدق أبواب أرض كنعـان (٢٣)». ولقـد افـتـرض أصـحـاب النظريات التـوفيـقيـة هذه أن بعض اليـهـود بقـوا بمصـر بـعد خروج الكتلة الرئيـسيـة (٢٤) لليـهود. ولكن يأتى بعد ذلك أن رمـسيس الثالث المنتمى إلى الأسـرة العشرين شن حروباً ضد الباليست أى الفلسطينيين، وبالرغم من تسجيل كل تلك المعارك بالتـفصيل إلا أن أياً منهـا لم يرد بـه ذكر الإسـرائيليـين.

يفترض بعض الباحثين أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى فلسطين، وأنهم غادروا مصر فى عهد ميرنبتاح (بالرغم مما هو مسجل على تابوته أن إسرائيل كانت موجودة فعلا فى عصره على أرض كنعان) وأنهم لم يظهروا بفلسطين إلا بعد غزو الفلسطينيين لها، حيث حاربهم رمسيس الثالث (٢٥) بعد ذلك. وقد وضعت تلك المعارك فى زمن يلى الخروج بخمسين عاماً ويسبق غزو الإسرائيليين لأرض كنعان بعدة أعوام.

إن وصول الإسرائيليين المفترض فى عهد ميرنبتاح ووصول ما تبقى منهم فى عهد رمسيس بعد حربه هناك وذلك عام ١١٨٦ ق. م. لا يترك مجالاً زمنياً لفترة القضاة الذين قادوا الشعب الإسرائيلى لما يزيد عن أربعة قرون، قبل حكم شاؤل وداود عام ١٠٠٠ ق. م. ولكن مجموعة من المؤرخين تبنوا هذه النظرية مؤكدين أن «دخول الإسرائيليين إلى فلسطين مستحيل أن يقع إلا بعد آخر الحروب التى شنها ملوك مصر على تلك البلاد أى فى عهد رمسيس الثالث وليس هناك مجال للتشكيك فى ذلك» (٢٦).

وقد دعمت النظرية السابقة بمعطيات من علم الآثار وهى الحفريات التى تمت فى «بيت حال» فى فلسطين والتى أظهرت أن إقامة السكان فى المدينة كان حتى عام ١٢٠٠ ق. م. وذلك قبل أن يغزوها الإسرائيليون ويحرقوها وأن غزواً إسرائيلياً لفلسطين قبل ذلك غير محتمل» (٢٧).

وتتفاوت النظريات من النقيض إلى النقيض. فقد قيل كما أسلفنا إن الخروج تم فى عهد ميرنبتاح، ولا يمكن أن يكون بعد ذلك. وإذا بأحد الباحثين يتحدى كل الآراء السابقة، ويدعى أن الإسرائيليين قد دخلوا مصر فى عهد ميرنبتاح بعكس ما يقال عن خروجهم فى ذلك العهد (٢٨)، وقال إنه أثناء حكم مرنبتاح قام الآسيويون بعبور الحدود إلى مصر وحصلوا على موافقة السلطات بقبولهم كمهاجرين.

طرد الهكسوس .. غزو العبرانيين .. هزيمة الإسرائيليين فى عهد ميرنبتاح تلك هى الأحداث التى اعتمدت عليها كل مدارس المؤرخين فى افتراض نظرياتهم. وأنه من المستحيل فعلا محاولة التوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه. وكل مجموعة تشير إلى الأخطاء التى وقع فيها معارضوها، فمائة عام من التيه فى الصحراء تهدم نظرية .. ومائة عام

لعصر القضاة تقوض أخرى .. وهكذا. راح كل منهم يدور حول العقبة نفسها التى تبحث عن حل..

وتحت أى ترتيب زمنى معقول يمكن تقديمه، فإن تاريخ الغزو الإسرائيلى واستقراره وإنشاء الدولة، يقع فى الفترة الممتدة ما بين عام ١٥٠٠ حتى عام ١١٠٠ ق. م. حين كانت فلسطين تحت قبضة مصر كمنطقة حيوية من إمبراطوريتها فى سوريا (٢٩). ولكن لو كان الأمر كذلك كيف استطاع الإسرائيليون مغادرة مصر؟ وبعد أن غادروا مصر كيف استطاعوا دخول فلسطين؟ وأكثر من ذلك لماذا تجاهلت أسفار يشوع والقضاة فى الكتاب المقدس - والتى تغطى زمناً يقدر بأربعمائة عام دور مصر - بل خلت من أى ذكر لها على الإطلاق؟

وإن وجدت تفسيرات لترك الإسرائيليين مصر فى عصور فراعنة أقوياء فلماذا لم توجد تفسيرات لهذا التجاهل الغريب لمصر فى أسفار يشوع والقضاة من الكتاب المقدس؟ هل كان الفراعنة فى غاية القوة، ولم يكن الخروج إلا عبوراً يومياً عبر الحدود من قبل بدو رعاة رحل؟ وحين أتى الإسرائيليون إلى مصر خلال أعوام الجفاف سمح لهم بالدخول، ولكن مقابل أن يؤدوا عملا ما، نظير تمتعهم هم وقطعان مواشيهم وأغنامهم بالإقامة فى البلاد؟ وحين غادروا مصر أعطاهم أحد ضباط الجيش إذنا بالرحيل، فكأن رحيلهم كان حدثاً هامشياً ومكرراً مما لا يستدعى تسجيله على وثائق من أى نوع. إن الخروج من مصر كان يبدو كحادث بسيط فى ذلك الوقت، وكان من البساطة بحيث لم يسترع انتباه الشعب الثانى بعد اليهود المعنى بهذا الحدث وهم المصريون حتى إنهم لم يشعروا بأى داع لتسجيله (٣٠).

يجب أن يفكر الإنسان ماذا عنى هذا الحدث ولماذا لم يعن شيئاً لأهل مصر؟ (٣١) ولو كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فإن علماء المصريات ينعدم لديهم الأمل فى العثور على أثر مصرى مواز لأحداث قصة الخروج، كما لا يملك المؤرخون أية قاعدة يقررون على أساسها وقوع حدث بلا ملامح تاريخية محددة.

ولو كان الشعب المصرى لم يهتم بملاحظة خروج الإسرائيليين، فإن البحث عن دليل فى الآثار المصرية يؤيد ما مر دون ملاحظة، قد يصبح

ضرباً من إضاعة الوقت والجهد.

البلاء والمعجزة

لم تبرز التوراة الخروج من مصر كحدث يومي بل عرضته كحدث عنيف صاحبته كوارث طبيعية مدمرة. لقد سبق الخروج علامات خطيرة ونذر شؤم: أظلمت السماء بسحب كثيفة من الدخان والغبار الأحمر الذى سقط على مياه الأنهار وصبغها بلون الدم، واخترقت ذرات الغبار جلد الإنسان والحيوان مسببة قروحاً دامية، وتكاثرت هوام حارة متوهجة كما تكاثرت زواحف وثعابين البرارى، فامتلأ بهما الفضاء والأرض وهاجمت الحيوانات البرية المتوحشة التى تساقطت عليها الرمال والرماد الحارقان بيوت السكان هرباً من البرارى، وأسقطت السماء سيلا جارفاً من حبات البَرَد، فيما جرت حمم من النار المستعرة على سطح الأرض، وكانت الرياح العاصفة تقذف بأسراب من الجراد حجبت ضوء الشمس، واستمرت موجات الحمم المتوهجة تجتاح الأرض ليلا ونهاراً بلا انقطاع، وتحولت العتمة بالتدريج إلى إظلام كامل مستمر .. ليل لا ينتهى ولا يخترقه شعاع نور واحد، ثم جاء البلاء العاشر وأكثرهم هولاً «حيث طار ملاك الرب فوق بيوت بنى إسرائيل ولما تجاوزها وصار فوق منازل المصريين سحقها ودمرها مستثنياً منازل بنى إسرائيل» «سفر الخروج». أما العبيد الذين نجت منازلهم من الهلاك، وفى شدة الأنين والبكاء المتصاعد من أرجاء المدينة، فقد أمروا أن يغادروا البلاد فى ذات الليلة. وفى فجر معتم مغبر تحركت القافلة تاركة خلفها حقولا محترقة وأنقاضاً كانت قبل ساعات قليلة مدناً تضج بالحياة.

هناك موقفان للدارسين تجاه البلاء كما ورد فى سفر الخروج (الإصحاح السابع) (٣٢) والموقف الأول يتناولها كقصة تخيلية (٣٣). لقد تناول الدارسون القصة وقسمت إلى أجزاء وحللت أحداثها بدقة وقد تناولت القصة فى بدايتها حادث موت ولى العهد، ثم امتد موت فرد واحد ليتحول إلى بلاء يصيب كل النبلاء والصفوة، وبعدها يتطور الحدث من بلاء واحد ليصبح ثلاث مصائب، لكن رواة القصة ما زالوا غير راضين عن الشكل

الذى وصلوا إليه، فاستمروا فى غزل نسيج أحداث جديدة حتى أتموا القصة إلى عشر بلاو. ومع اكتمالها اكتمل تأليف «إلوهست» و «ياوست» ولا يوجد مصدر تاريخى صادق يدعم هذا القصص الدينى، والبلاء هنا يعد بديلا مستحدثاً للمعجزات القديمة، بالرغم من أن المعجزات لم تحدث فى أى مكان على الإطلاق، وبما أن البلاء والمعجزات القديمة لا تعد أحداثاً تاريخية يمكن الركون إليها، فإنه لا يمكن استخلاص أية دلالات عن توقيت الخروج من سفر الخروج (٣٦).

وحين طبقت طريقة تحليل حدثى واقعية تماماً تعرت طريقة الراوى فى نسيج أحداث القصة، وكانت الانطباعات عن خيال الراوى كما يلى: البرد المتساقط فى البلاء الأول، أتلف فقط الكتان والشعير، لأنهما كانا قد نضجا بالفعل ولم يتلف القمح والقطانى (*) لأنهما ينضجان فى وقت متأخر عن الكتان والشعير. لقد لجأ الراوى إلى ذلك حتى يجد الجراد ما يدمره فى البلاء التالى (٣٧)، وأحياناً كانت تخون الراوى قدرته على نسج الأحداث فيقع فى التناقض. ففى قصة القروح نجد «لم تكن الحشرات التى تسبب القروح قادرة على الطيران ولا ذرات الرمال ذاتها أخذ موسى ينثر رماد الفرن باتجاه السماء» (٣٨).

والموقف الثانى حاول أن يجد تفسيراً طبيعياً للكوارث، ففى مصر تهب رياح ساخنة رطبه محملة بالأتربة فى الخريف والربيع، وهذه الرياح الساخنة تسمى بالخماسين. فلمدة خمسين يوما من كل عام تهب هذه الرياح الساخنة من الصحراء الليبية محملة بسحب من الأتربة، والصورة السابقة التى رسمت تصور إظلام السماء فى يوم بدأت فيه رياح الخماسين. ومن المعروف أن رياح الصحراء من الممكن أن تجلب معها أسراب الجراد الذى يغطى سطح السماء كستارة. ومرور أسراب الجراد من الممكن أن يحجب الشمس فيسود الظلام.

أما اللون البنى أو الأحمر لمياه نهر النيل وخاصة قبل الفيضان، فهى ظاهرة معروفة جيداً لكل من زاروا مصر، وتتضح هذه الملاحظة أكثر عند مساقط المياه فى أسوان حيث وصفت كثيراً وبالتفصيل فى عديد من المراجع (٣٩). أما وجود القمل والبراغيث والضفادع فى مصر فهى لا زالت

(*) القطانى أو الجويدار: نبات كالشعير (المترجم).

موجودة حتى هذه الأيام، وقد كانت موضع دراسات جادة لعلماء موقرين. لقد أشير مراراً إلى أن ترتيب الكوارث كما ورد فى سفر الخروج هو نفس ترتيب متاعب الطقس التى تسببها التغيرات الفصلية فى مصر، مع تكاثر الحشرات الذى مازال معروفاً ومسجلا فى الأبحاث التى أجريت حول مصر تحت الحكم التركى وحتى الآن.

إن دراسة موضوع الكوارث وترتيبها يجعلنا ندرك أنها شكل من أشكال تغير الطقس الذى يحدث عاماً بعد عام. ولا نعجب إذا كان ذلك لم يلفت نظر ولا انتباه المصريين كحدث عادى، بالقدر نفسه الذى لم يثر انتباههم فيه حدث سنوى متكرر، كدخول وخروج البدو من حدودهم مع قطعان ماشيتهم أوما سمى بالخروج.

على مدى أربعمائة عام دفع آلاف من الدارسين ضريبة قصة البلاء، الورعون منهم لم يراودهم سؤال ولا تشكك. والمثقفون العقلانيون دافعوا عن الجانب القصصى مبرهنين أن ما ورد بها من عجائب ليس إلا ظواهر هامشية وإن تطرقوا لنقدها بالكامل صنفوها بأنها أسطورة ذات منشأ حديث نسبياً.

ويبرز الكتاب المقدس فى سفر الخروج بعد ذلك كيف اقتفى جيش الملك آثار بنى إسرائيل بعد خروجهم. لقد ندم الملك على تركه إياهم يهربون فخرج وراءهم بجيشه ليعود بهم ويواصل سفر الخروج الرواية واصفاً كيف انحشر الهاربون بين الجبال والبحر فى ظروف مخيفة ومرعبة فالسحب الثقيلة حجبت السماء وساد ظلام كثيف لم يقطعه إلا البرق من أن لآخر، واستعر الإعصار طوال الليل، وقبل انبلاج الفجر كان الجيش يقترب من مكان الهاربين وعند الفجر، انشق البحر، تمزقت المياه بجزر مزدوج ذى قوة فائقة. ومر العبيد بين شقى الماء، ثم حاول الجيش بقيادة الفرعون اللحاق بهم، فتبعوهم على عجلاتهم الحربية. وهنا انطبق الماء، ولم يتمكن الملك ولا جيشه من الهرب ولقوا حتفهم تحت الأمواج العاتية، لقد كانت هناك محاولات لتفسير هذه القصة على ضوء عوامل طبيعية. وقد يبدو من الصعب الركون إلى الجانب الإعجازى فيها. ولكن الوصف الدقيق لتلك الليلة والإعصار والأمواج العاتية يوحى بأن حدثاً ما قد وقع فيها (٤٠). قد تكون ذكرى ذلك الحدث قد ألبست بعد ذلك أثواباً

فضفاضة عن طريق الإسهاب فى روايتها والتوسع فى أحداثها، ولكن الرجوع الدائم بالذكرى اليهودية عبر القرون إلى تجربة البحر. توحى بأن القصة لم تكن من نسج الخيال. ويتفق المؤرخون على أن أثمن ذكريات الشعب اليهودى قد ولدت على شواطئ يام - سوف المعروف الآن باسم البحر الأحمر.

إن انشقاق نهر أو بحر يعد حدثاً متكرراً فى قصص الشعوب، وربما كان الجيش المطارد قد تعرض لكارثة ليس بسبب انشقاق البحر وانطباقه بعد ذلك، ولكن بسبب موجة مد عاتية ضاعفها الإعصار. ولكن أى تفسير يعتمد على انحسار الماء أو فيضانه. يفتقد كثيراً من الحقيقة، فإن كان بحر العبور هو خليج السويس أو خليج العقبة أو بحيرة سيربونيس (سيربون) (*) (٤١) المرتبطة بالبحر المتوسط، أو أية بحيرة أخرى مثل بحيرة التمساح أو البحيرات المرة التى تمر عبرها الآن السفن بين البحرين الأحمر والمتوسط فإن تلك المواضع تفتقد ذلك المد والجزر الملموس والذى يشكل خطراً على جيش فى أى موضع منها إن كان فى البحر الأحمر أو المتوسط، ناهيك عن البحيرات المغلقة.

هناك تفسير آخر يسقط من حسابه المد والجزر، وهو مبنى على شدة الإعصار وحده. فالأمواج العاتية بسبب الإعصار اندفعت خارج البحر مغرقة بعض العجلات الحربية للجيش المطارد. وهنا غنى الإسرائيليون أغنية الخلاص، وأصابتهم حالة من الإلهام تولد عنها بعد ذلك مبالغة فى صورة الكارثة التى حاقت بالجيش المصرى، كما عاشت فى أذهانهم. وكيف لا يمكن أن تكون إلا مبالغة.

إذا كانت كل الوثائق والتسجيلات المصرية القديمة تجهل أن البحر قد التهم ملكهم وجيشه وعجلاته الحربية فى حين بقيت أمجاد المعجزة حية فى أذهان نسل الهاربين من الطغيان الفرعونى، وكرموا أنفسهم بقصة عاصفة إعجازية وبحر منشق لم يشهد بحدوثه المصريون فى أى من وثائقهم التاريخية.

وبعد ذلك .. هل هناك أية جدوى من محاولة إثبات أن رياح الشرق القوية والتى تهب من المساء حتى الفجر وتدفع الماء إلى الانحسار .. هل

(*) بحيرة سيربون هى بحيرة البردويل (المترجم).

هناك أية جدوى من محاولة إثبات أن اتجاه تلك الرياح قد تغير فجأة فارتد الماء المنحسر وابتلع جيشاً؟

الغريب حقاً هو مثابرة الشعب اليهودى على تعلقه بهذه القصة، جاعلا منها بدايته الحقيقية وجاعلا منها فى الوقت نفسه الحدث الأكبر فى حياته وتاريخه كأمة ..

بعد نجاة الفارين دخلوا الصحراء ... دخلوا أرضاً مهجورة خربة .. وحكى سفر الخروج أن عموداً من الدخان كان يتقدمهم نهاراً وعموداً من النار يسبقهم ليلا. والتفسير السهل لهذا النذير من الممكن التوصل إليه فعلى رأس القوافل المرتحلة عادة ما تحمل شعلة ترفع عاليا لتهدى سائر القافلة. وبسبب حرارة النهار تفضل القوافل السير ليلا، وتبقى الشعلة المضيئة ودخانها دليلا مرشداً وهادياً، يحول دون ضياع أى فرد من القافلة وهذا عدا تخويف حيوانات الصحراء بنار الشعلة فلا تجرؤ على مهاجمة القافلة (٤٢).

وبالرغم من أن هذا التفسير هو الذى كان مقبولا ووجد فى عديد من الكتب التى حاولت تفسير قصص التوراة لبساطته الشديدة، إلا أن عمودَىْ النار والدخان تركا انطباعاً عميقاً لدى الإسرائيليين. لقد قالوا إنه ملاك الرب يهديهم إلى الطريق، ألم يعرف الإسرائيليون طرق وعادات القوافل المرتحلة فى الصحراء؟ وهل تأثروا بشدة بمظاهر تبدو عادية لدرجة أن اشتياقهم للمعجزات كان من القوة بحيث تتحول شعلة فى يد قائد قافلة لتصبح فى أنظارهم ملاكا للرب؟ !

من الممكن ألا يكون عمودا النار والدخان حقيقة ولا وهماً .. وإنما مجرد إضافة من خيال الرواة الذين حكوا القصة.

فى القرن الماضى (التاسع عشر) كان هناك رجل إنجليزى يدعى تشارلز بيل تميز برؤية غير تقليدية للأمور، وقد قام بإصدار كتيب تحت اسم «جبل سيناء ... بركان» ووضع تحت عنوان الكتاب مقطعاً من جملتين، واحدة من سفر الخروج والأخرى من قصيدة للشاعر الإغريقى «بندار» والنص من سفر الخروج (١٣: ٢١) يقول: «وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضيئ لهم لكى يمشوا نهاراً وليلا». والنص المأخوذ عن «بندار» الذى يصف مدينة أتنا»

يقول:

بالنهار تيار مشتعل من الدخان
وبالليل دوامة من اللهب الأحمر

بادئاً بهذه المقارنة ثم منتقلا منها إلى الوصف الذى ورد بالتوراة ليوم نزول الأمر الإلهى لليهود .. توصل «بيك» إلى نتيجة مدهشة عبّر عنها فى المقارنة السابقة، فيوم نزول الأمر الإلهى موصوف فى التوراة بالنص التالى:

«وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا فى أسفل الجبل وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً» (٤٤).

كانت رؤية «بيك» لعمود النار والدخان المذكور فى التوراة أنه كان عموداً من الرماد المشتعل وأبخرة متصاعدة من فوهة بركان، واستشهد بأمثلة من مناطق بركانية مماثلة، مبينا أن ثورات البراكين من الممكن أن تدفع سحباً من الرماد المشتعل يحجب ضوء السماء وينتشر دخانه إلى مسافات بعيدة وعادة ما يصاحب ثورات البراكين رعود من باطن الأرض وزلازل. لقد كانت ثورات البراكين والزلازل ظاهرتين متلازمتين على الدوام، أما الزلزال الذى ضرب قاع البحر فقد خلق موجة من الجزر سحبت المياه بعيداً عن الشاطئ، ثم ارتدت بعد ذلك مبتلعة ما جاور البحر من أراض محطمة كل ما صادفها. وفى بحر العبور وطبقاً لهذه النظرية، فإن الزلزال هو سبب دمار الجيش، والإشارة إلى العجلات الحربية التى فقدت القدرة على الحركة (سفر الخروج ١٤: ٢٥) لها ما يقابلها فى وصف الزلزال الذى صاحب ثورة بركان «فيزوف» عام ٧٩ من التاريخ الحالى (بعد الميلاد) حين لقى بومبى وهيرقلانيوم حتفهما وهو وصف حفظ للتاريخ فى رسالة من «بلينى» الأصغر إلى «تاسيتوس»:

«تجمدنا رعباً فى أخطر وأفظع منظر، يمكن أن يشاهده إنسان، فقد كانت العجلات الحربية التى أمرنا بخروجها من المكان تترنح بعنف

للخلف وللإمام، ورغم استواء الأرض فلم نكن بعد ذلك قادرين حتى على تثبيت العربات فى موضعها بقطع الصخر الكبيرة وبدا البحر وكأنه ينطوى للخلف على نفسه .. كأن يساق بعيداً عن شواطئه بسبب حركة الأرض المنتفضة».

ولقى تفسير الأحداث العجيبة التى وقعت فى بحر العبور وجبل سيناء على أنها ظاهرة زلزالية وبركانية معارضة شديدة وسخرية من كبار رجال الدين وردوا «بأنه من المعروف على وجه اليقين أنه لا يوجد نشاط بركانى فى تلك الصحراء لتنسب إليها هذه الظواهر الخارقة وأن كل التعبيرات التى استخدمت فى النصوص المقدسة الأخرى هى التعبيرات نفسها تقريباً وبالوصف نفسه الذى جاءت به التوراة فى وصف العاصفة الرعدية (٤٥). غير أن «بيك» لم يعتبر أن قمم الجبال فى شبه جزيرة سيناء هى المعنية باسم جبل سيناء فى النص التوراتى.

لقد سبق أن وضع كتاباً يوضح فيه التصور الخاطئ الذى رسخ فى أذهان الناس من أن «مصريم» التى وردت فى النص التوراتى هى مصر التى يعرفها الجميع بهذا الاسم، وقال إن مصريم مملكة زائلة كانت موجودة على أرض شبه جزيرة سيناء، وأن الإسرائيليين حين خرجوا من تلك المملكة فإنهم عبروا قمة خليج العقبة ووصلوا إلى الساحل العربى من الخليج. وأضاف أنه يراهن على صحة ذلك بسمعته كرحالة وباحث توراتى متخصص، مما أكسبه دعماً عاماً وحدد موقع جبل سيناء المذكور فى النص التوراتى بموقع جبل «راجلا» الذى كان ذا نشاط بركانى فيما سبق، ولكنه خمد بعد ذلك على مدى عصور طويلة، وقال إنه استخدم دليلا من أهل المنطقة ليسير به على خطى النبى أليشع الذى قام بالحج إلى ذلك الجبل.

ولكن عاد وأعلن بعد ذلك أن جبل سيناء هو جبل النار شرق غور الأردن، وأنه قمة مثل بقية القمم الجبلية تحتوى على حفرة مجوفة ولكن لا يبدو أنها كانت فوهة بركان، وأعلن أنه قد أخطأ خطأ فظيعاً باعتقاده فى الطبيعة البركانية لجبل سيناء (٤٦). وقد طبعت اعترافاته بعد موته فى كتاب مؤطر بلون الذهب فاق فى شكله كتابه السابق «جبل سيناء وأن الوصف الوارد فى التوراة أبعد ما يكون عن ثورة بركانية وأن ما حدث كان عاصفة كما ذكر بالكتاب المقدس.» (٤٧).

بعد إعلان نظرية الطبيعة البركانية لأحداث جبل سيناء تبناها بعد ثلاثين عاماً دارس آخر (٤٨) ثم تلاه آخرون بعد عشر سنوات أخرى (٤٩) وحالياً أصبح أحد الاتجاهات الفكرية الإيمان بأن «يهوه» هو أحد آلهة البراكين المحليين. ولم يمنع ذلك دارسين آخرين من إنكار تاريخية رحيل اليهود التائهين فى الصحراء إلى جبل سيناء». (٥٠).

جيشان الأرض

إذا لم نحصر أنفسنا بين قلة من المواضع المذكورة فى سفر الخروج للاستشهاد بها وتدعيم فكرة أن جبل سيناء كان فى ثورة بركانية واكبت الخروج، ذلك الخروج الذى ترك انطباعات قوية حفرت فى ذاكرة الإسرائيليين، وإذا حولنا أنظارنا إلى مواضع أخرى عديدة فى مختلف أسفار الكتاب المقدس التى تشير إلى الخروج، فسنجد أنفسنا مجبرين أن نقر باعتراف صريح ومباشر بأن الكلمات تعنى ما تقول تماماً، وأن مدى الكارثة كان يفوق بدرجة كبيرة أى نتائج أخرى تنجم عن ثورة بركان، صحيح أن ثورة أى بركان تمتد آثارها إلى مناطق واسعة ولكن جبل سيناء لم يرد فى الكتاب المقدس إلا بكونه موضعاً يحترق وسط سهول وآفاق ووديان كلها مشتعلة.

لقد ساهمت الأرض والبحر والسماء فى الثورة المفاجئة .. البحر غمر الأرض والحمم الساخنة تدفقت من أرض ممزقة .. وقد وصفت النصوص المقدسة فوضى العناصر التى انطلقت من عقالها.

«اهتزت الأرض وارتعدت .. وارتعشت أسس الجبال .. تحركت واهتزت .. دخان ونار وانكشفت مجارى المياه فى جوف الأرض .. وانكشفت أسس الأرض» (٥١). فى كارثة كبرى انخسف قاع البحر وجرت المياه وابتلعتها الصدوع، وارتعدت الأرض وقذفت البراكين دخاناً وناراً ورماداً ملتهباً من جوفها المحموم، انشقت التلال وتمزقت القمم الصخرية وجرت الصخور المنصهرة فى الوديان، والأرض اليباب أصبحت بحراً .. وزمجرت أعماق الجبال وأرعدت السماء بلا توقف «كان برقه يضيئ العالم ونشرت الأرض ارتعدت

وذابت التلال كالشمع » (٥٢).

وتبدلت قشرة الأرض وتشكلت من جديد وتغيرت المعالم فى تحولات كبرى.

(هو) المزحزح الجبال يقلبها فى غضبه.

(هو) المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها (٥٣).

إن ذلك النشاط الزلزالى والبركانى ينسب دائماً إلى الوقت الذى خرج فيه الإسرائيليون من مصر.

« ارتعدت الأرض .. والجبال انصهرت .. حتى جبل سيناء » (٥٤).

أما المقطع الأخير الذى يذكر بعد ذلك فهو من أغنية « ديبورا » وهو واحد من أقدم النصوص فى التوراة، أن الخيال الدينى أحياناً ما يأخذ هذه الأقوال على أنها مجازية .. كما أن التحليل النقدى لا يرى فيها إلا تعبيراً عن نشوة عارمة.

هل لم تكن هناك تجربة حقيقية من أى نوع ينطبق عليها المجاز ؟

وهل النص التالى من الممكن أن ينطبق على المد والجزر فى بحيرات مصر المالحة ؟

« فظهرت أعماق المياه .. وانكشفت أسس المسكونة... » (٥٥)

الفلكلور الشعبى لا يتشكل بهذه الطريقة غير المميزة، القصص عن التبدلات الجيولوجية الأرضية تكررت باستمرار وبإصرار وإلحاح فى المقطع السابق وفى مقاطع ومواضع أخرى كثيرة مرتبطة بحدث الخروج .. لابد وأن هناك تجربة دفينة شكلها الفلكلور وأعاد تشكيلها على مدى الأجيال .. تجربة – طبقاً للتوراة – كانت مهيبة جداً ورهيبة جداً لدرجة أنها ظلت بعد أجيال طويلة متعاقبة مستعصية على النسيان.

« .. استدعى إلى ذاكرتى أغنيتى فى ظلام الليل: .. هل سينبذنا الرب إلى الأبد ؟

هل كف الرب أن يكون رحيماً ؟ ... سأتذكر المعجزات القديمة .. الأعماق التى كانت مضطربة .. والبرق أضاء العالم ... والأرض ارتعدت وارتجفت .. هديت شعبك كالغنم بيد موسى وهارون. » (٥٦).

إن شاعر هذا المزمور السابق زارته رؤى ليلية عن الماضى حين حدثت المعجزات فى البحر وفى البرية، حين كانت قافلة الهاربين تجد السير

إلى الصحراء فراراً من بيت العبودية.

إن صخب الطبيعة وثوراتها حرك فى الفارين إلى الصحراء مشاعر من النشوة العارمة «.. زلزلت الأرض .. فلقتها .. أجبر كسرها لأنها متزعزعة .. أريت شعبك عسراً سقيتنا خمر الترنح..» (٥٧).

إن الليالى التى قضوها تحت سماء ملتهبة غضباً، وفوق برية يمزقها برق لا يتوقف، وصخور تنصهر وتتدفق وتلال تذوب، كانت ليال يستحيل نسيانها. وعلى مدار الأيام الطويلة التى عاشها الإسرائيليون على أرضهم، لم ينسوا أبداً انتفاضة الصحراء ولا ارتعادها ولا انفجارات الجبال المحترقة وضراوة تجربة العجز. وأن أحداث تلك الأسابيع أو الشهور حين كان سطح الأرض يتشكل ويتبدل بعنف فى مكوناته تلك الأحداث أصبحت أهم وأغنى إرث لهذه الأمة.

إن النص التوراتى يصر على حدوث البلاء بمصر قبل رحيل الإسرائيليين عنها، وكأنه نذير سابق للدمار الذى سببته عناصر طبيعية أفلتت من عقالها. ولما رحل الإسرائيليون عن مصر، شاهدوا مداً وجزراً بأمواج كالجبال وحين ولجوا الصحراء شاهدوا تقلصات الأرض وانتفاضاتها ونشاطاً بركانياً امتد ليشمل كل مكان، وصخوراً منصهرة تتدفق من شقوق تظهر فجأة .. وينابيع ماء تتلاشى أو تصبح مرّة.

إن الأسئلة المنطقية التى تفرض نفسها فى هذا الموضوع هى: هل هذه الشهادة فرية بأكملها؟ وإذا لم تكن مجموعة من الاختلاقات المضللة هل من الممكن ألا يكون المصريون قد لاحظوا شيئاً من هذه الأحداث؟ وإن كانت بلادهم قد عانت من تلك الكارثة فهل نحن بعيدون عن طريق البحث عن لحظة تزامن بين التاريخ اليهودى والتاريخ المصرى؟ لقد ارتعدت وارتجفت صحراء ملاصقة لمصر بزلازل أرضية فهل كانت هذه الاضطرابات محصورة بمنطقة محدودة نسبياً؟ هل هناك أى زلزال على الإطلاق تم ذكره فى التسجيلات المصرية القديمة؟

إن التسجيلات المصرية التقليدية لا تحتوى على أى ذكر لهزة أرضية، ولا تحتوى على أى ذكر لكوارث. ولكننا نصر على طرح السؤال نفسه وهذا الإصرار يغذيه إحساس قوى أن شيئاً كبيراً لا زال مخيفاً، وإن كان بإمكاننا أن نعاون هذا الشاهد الصامت - سجلات التاريخ المصرى -

ليتذكر كارثة حدثت على نطاق واسع فقد نحصل على مفتاح مهم لحل مشكلة مستعصية اختلف كثيرون على أبوابها واختصموا وظلت حتى الآن ما يقرب من ألفى عام دون إجابة محددة.

شاهد عيان مصرى شهد بحدوث البلاء

فى محاكمة التاريخ سيعتمد الحكم على الإفادات التالية بعد تمحيصها بالفحص المقارن، كانت هناك كارثة طبيعية امتدت آثارها لعديد من السنين، وتركت انطباعات قاسية وانتقلت قصتها عبر الأجيال من جيل إلى جيل وتردد صداها وارتد عبر الكتاب المقدس وفى كتب أخرى عديدة، فهل لا يوجد أى مرجع يشير إليها فى الوثائق المصرية القديمة؟

أم هل كان الخروج حدثاً مبهماً ومروراً غير مميز عبر سيطرة جامعى العوائد الملكية على حدود الدولة؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف أصبحت من أقوى الذكريات الحميمة لأجيال الشعب اليهودى؟ ومتى بالتحديد جاءتهم رؤى تلك الكوارث التى اعتصرت الأرض والبحر؟ هل لن نجد فعلا فى الوثائق المصرية أثراً لذلك الاضطراب الذى أصاب الأرض والنهر والبحر والصحراء؟ هل كل ما سجل لاستعادة هذه الذكرى تلاشى من الوجود؟

وعلى ضوء خلو كل أعمال تاريخ مصر القديمة من ذكر أية كارثة طبيعية كان من الواجب عمل مسح كامل ومراجعة شاملة لكل المصادر المصرية القديمة. وقد كان ...

ليس من المعروف تحت أى ظروف تم العثور على البردية التى تحتوى على كلمات «ايبوير» وطبقاً لمالكتها الأولى (أناستازيا) فقد وجدت البردية فى ممفيس مما يعنى أنها المنطقة التى تجاور أهرام سقارة .. ثم انتقلت ملكيتها فى عام ١٨٢٨م إلى متحف ليدن بهولندا وأدرجت بقائمة محتويات المتحف تحت رقم واسم ٣٤٤ ليدن.

والبردية مكتوبة على الوجهين، ولا يتميز الوجه عن الظهر إلا باتجاه ألياف نسيج الورقة، وقصة «ايبوير» مكتوبة على الوجه، أما الظهر فقد كتبت عليه أناشيد دينية تسبح بحمد الإله ... وقد أصدرت إدارة المتحف

نسخة مطابقة للنصين مع وثائق مصرية أخرى ... ثم نشر نص بردية «ايبوير» وحده فى نسخة منقحة تتكون من سبعين صفحة تحتوى كل صفحة على أربعة عشر سطراً من العلامات الهيروغليفية (وهى علامات استخدمها الكتاب المصريون غير الهيروغليفية المؤلفة من صور). فى الصفحة الأولى لم يبق إلا ثلاثة أسطر واضحة - هناك أحد عشر سطراً ضاعت معالمها. والصفحات من ٩ إلى ١٦ فى حالة سيئة جداً تحتوى كل منها على بضعة أسطر فى قمة كل صفحة وبضعة أسطر فى نهايتها أما الصفحة السابعة عشرة فلم يتبق منها إلا بدايات السطر الأول والثانى.

وأول ترجمة لنص «ايبوير» وضعت فى مقدمة أول نسخة منشورة عن المتحف ونوه فيها أن ثمانى صفحات من ظهر البردية عبارة عن أمثال فرعونية وأقوال حكيمة سلم بصحتها أما ما تلاها من صفحات فيبدو أنه جزء من عمل فلسفى.

وقد أدرك ثانى باحث يتعرض لمحاولة ترجمة النص (أول تسع صفحات فقط) أن النص عبارة عن تجميع للأمثال وعينات من الأقوال الحكيمة لأغراض تعليمية (٦٢) وباحث آخر (٦٣) اعتبر أن البردية ليست إلا مجموعة من الأحاجى والألغاز.

وفى بداية القرن العشرين بذل أول مجهود حقيقى وصادق لترجمة كل بردية «ايبوير» (٦٤) على اعتبار أن ما ورد بها يتسم بصفات تنبؤية عن وقت من أوقات الشدة القادمة يتم إبلاغ شعب مصر به على شكل نبوءة، وأن المتنبئ قد استلهم أحداثاً ومواقف سياسية سابقة على وصول الأسرة العشرين إلى حكم مصر.

فى عام ١٩٠٩ ترجم النص مرة أخرى ونشره «آلان. هـ جاردنر» تحت عنوان «نصائح حكيم مصرى من بردية فرعونية فى ليدن» (٦٥) وأشار جاردنر فى هذه الترجمة إلى اقتناعه بأن كل الدلائل الموجودة فى النص إنما تشير إلى تشخيص حالة تاريخية كانت مصر تعانى فيها من شدة، حين انهار النظام الاجتماعى وساد العنف أنحاء البلاد .. وتعرض السكان العزل لافتراس الغزاة لهم حين جرد الأغنياء من كل ممتلكاتهم وناموا فى العراء ونهب الفقراء ما تبقى من أمتعتهم «لم يكن ذلك مجرد اضطراب محلى .. بل كان كارثة قومية قاهرة» (٦٦).

لقد فسر جاردنر - من بعد لانج - البردية على أنها كلمات لحكيم مصرى يدعى ايبوير يوجهها إلى ملك ما ويلومه على تقاعسه الذى سبب الفوضى وغياب الأمن ومعاناة الناس .. و «القادر» الذى يوجه إليه ايبوير كلماته يعد تسمية مألوفة لكبير الآلهة، وقد كان من المفترض أن يذكر كاتب البردية فى مقدمته أسماء من يوجّه إليهم الحديث (وهو جزء مفقود)، أو وجود ملك يستمع إلى الحكيم وقد كان ذلك هو الشكل الشائع فى المملكة المتوسطة، وقد سمى جاردنر بردية ايبوير فى طبعته «نصائح حكيم مصرى».

أرض مصر فى جيشان

ليست بردية ايبوير مجموعة من الأمثال (كما فسرها لاوث وشاباس) ولا ألغازاً كما فسرها (بردجسن) ولا أيضاً نبوءة (كما فسرها لانج) ولا مجموعة نصائح صاحبتها انهيارات اجتماعية (كما فسرها جاردنر وسيث)، ولكنها الرؤية المصرية لكارثة كبرى.

البردية مخطوط لمناحة ووصف لخراب ورعب ...

البردية من ٢: ٨ انظروا الأرض تدور على نفسها كما تدور عجلة صانع الفخار.

٢: ١١ المدن دمرت .. وصعيد مصر أصبح يباباً.

٣: ١١ الكل خراب.

٤: ٧ انقلب السكن رأساً على عقب فى لحظة.

٢: ٤ سنوات من الضجيج ... لا نهاية للضجيج.

ما مدلول «ضجيج» و «سنوات من الضجيج»؟ كتب مترجم البردية «من الواضح أن هناك تلاعباً بالمعنى فى كلمة هيرو (ضجيج) فى ذلك المقطع وهو تلاعب مبهم بالنسبة لنا «فهل تعنى زلزالا» أو «أعواماً من الزلازل»؟ إن كلمة (رعاش) فى العبرية تعنى «ضجيج» وثورة وفتنة واهتياج كما تعنى زلازل (٥٨) والزلازل عادة ما يصاحبها أصوات تُصمّ الآذان، وضوضاء وزمجرة باطن الأرض، وهذه الظاهرة الصوتية مقصورة على جيشان الأرض. ويبدو أن الهزات الأرضية كانت متتابعة الحدوث مرة

بعد أخرى حتى تحولت البلاد إلى حطام فانهار نظام الدولة فجأة وأصبحت الحياة لا يمكن احتمالها. يقول ايبوير:

البردية ٦: ١ آه لو تتوقف الأرض عن الضجيج.

وتنقطع الجلبة

كان الضجيج والجلبة ناجمين عن اضطراب باطن الأرض ... من الممكن أن يكون القصر الملكى قد انهار فى دقائق وتحول إلى حطام، بعد هزة أرضية ماحقة وتسبب جيشان الأرض فى دمار ما على سطح البحار، حين قذفت السفن إلى قلب دوامات مائية هائلة ودمرت المدن وجرفت التيارات السفن وأهلكت من فيها.

إن بردية ايبوير تحتوى على دليل حدوث كارثة أرضية مصحوبة بزلازل كما تحتوى على شهادة عما آلت إليه الحياة فى عصره. وسوف أقارن بعض المقاطع كما وردت فى سفر الخروج بمقاطع من بردية ايبوير. وحيث لم يجر أحد هذه المقارنة قبل نشر كتابى «عوالم فى تصادم» و «عصور فى فوضى» فلا يمكن أن يكون مترجم البردية قد تأثر بأية إيحاءات أو أهواء فى أن تكون ترجمة البردية قريبة بأى شكل من نصوص الكتاب المقدس (التوراة) (٥٩).

البردية ٢: ٥ – ٦ البلاء انتشر فى كل أنحاء البلاد ... الدماء فى كل مكان.

سفر الخروج ٧: ٢١ وكان الدم فى كل أرض مصر.

وكان ذلك هو البلاء الأول

البردية ٢: ١٠ النهر دم

سفر الخروج ٧: ٢٠ فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً ...

كانت تلك المياه كريهة ولم يستطع أحد أن يشرب منها

البردية ٢: ١٠ تقلص الناس من المذاق (كلمات مفقودة) الجنس الإنسانى ... وعطش بعد الماء ...

سفر الخروج ٧: ٢٤ وحفر جميع المصريين حول النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر...

لقد مات السمك فى النهر والبحيرات أما الديدان والحشرات والزواحف فقد تكاثرت بغزارة.

سفر الخروج ٧: ٢١ مات السمك الذى فى النهر وأنتن النهر ...

البردية ٣: ١٠-١٣ هذى مياها وهذى سعادتنا فماذا سنفعل بعد الآن .. الكل حطام ...

إن الذى أصاب الحقول أيضاً جاء متشابهاً.

سفر الخروج ٩: ٢٥ فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل .. (٧٠).

البردية ٤: ١٤ الأشجار دمرت.

١:٦ لا فاكهة ولا محاصيل موجودة.

وصاحبت تلك الأحداث نار مدمرة ... نار انتشرت فى كل أرجاء البلاد.

سفر الخروج ٩: ٢٣ – ٢٤ وجرت نار على الأرض وأمطر الرب برداً على أرض مصر فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد.

البردية ٢: ١٠ التهمت النار البوابات والأعمدة والحوائط .. والنار التى أهلكت الأرض لم تنشرها أيد بشرية ولكنها سقطت من السماء. (٧٠)

سفر الخروج ٩: ٣١ – ٣٢ فالكتان والشعير ضربا لأن الشعير كان مسبلا والكتان مبذراً وأما الحنطة والقطانى فلم تضرب لأنها كانت متأخرة.

بعد البلاء أصبحت الحقول مجدبة تماماً بلا عود أخضر واحد. وكما ورد فى سفر الخروج فإن البردية أيضاً أشارت إلى أنه لن تكون هناك عوائد أو ضرائب يمكن جبايتها للملك بسبب ما حدث للقمح والشعير، وكما ذكر أيضاً فى سفر الخروج ٧: ٢١ (مات السمك الذى فى النهر) وبالتالى لم تكن هناك أسماك لتزويد مخازن القصور الملكية بها.

البردية ١٠: ٣ – ٦ مصر السفلى تنتحب ... كل القصور الملكية بلا موارد القمح والشعير والأرز والسمك ...

كانت الحقول مخربة تماماً.

سفر الخروج ١٠: ١٥ لم يبق شئ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر.

البردية ٦: ٣ أحقاً اختفت الحبوب من كل مكان.

٥: ١٢ أحقاً اختفى كل ما كان بالأمس مرئياً. وأصبحت الأرض خاوية كبعد حصاد الكتان.

إن حصر زمن تدمير المحاصيل بيوم واحد (ما كان بالأمس مرئياً) يستبعد الجفاف كسبب تقليدى لقلة المحاصيل .. فقط الصقيع والنار أو الجراد هى التى بإمكانها أن تجعل الحقول تبدو كما لو كانت «بعد حصاد الكتان».

والبلاء موصوف فى المزامير ١٠٥: ٣٤ - ٣٥ بما يلى «فجاء الجراد وغوغاء بلا عدد فأكل كل عشب فى بلادهم وأكل أثمار أرضهم».

البردية ٦: ١ لا فاكهة ولا محاصيل موجودة - جوع - أصبحت الماشية فى حالة يرثى لها.

سفر الخروج ٩: ٣ يد الرب تكون على مواشيهم فى الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر. والغنم ... سيفتك بها الطاعون.

البردية ٥: ٥ كل الحيوانات قلوبها تنتحب ... والماشية تئن..

لقد جعل الصقيع والنيران الماشية المرتعدة تفر وتتشتت.

سفر الخروج ٩: ١٩ فالآن ارسل احم ماشيتك وكل مالك فى الحقل

جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل ولا يجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون.

٩: ٢١ وأما الذى لم يوجه قلبه إلى كلمة الرب فترك عبيده ومواشيه فى الحقل.

البردية ٩: ٢ - ٣ انظروا: تركت الماشية شاردة ... ولا يوجد من يجمعها ... كل إنسان انشغل بنفسه ... أولئك الذين سبحوا باسمه.

أما البلاء التاسع طبقاً لسفر الخروج فقد غطى كل أرض مصر بظلام دامس.

سفر الخروج ١٠: ٢٢ فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام

البردية ٩: ١١ لم تكن الأرض نوراً

لم تكن الأرض نوراً هى المقابل المصرى للظلام فى سفر الخروج ولكن هناك سؤال يفرض نفسه فى هذا الموضع عن تمام تطابق الجملتين ... إن سنوات التيه فى الصحراء وصفت بأن الدنيا فيها كانت معتمة تحت غطاء من السحب الكثيفة فى حين تصر كل الكتب المقدسة لليهود على أن ضوء الشمس ظل محجوباً بسحب كثيفة لعدة أعوام بعد الخروج، وهو أقرب لوصف التوراة التى وصفت ذلك بـ «ظلام الموت» ويبدو أن هناك

تقابلا بين وصف البردية وهذا الوصف. والمقابل المصرى فى البردية لبلاء الظلام سنجده فى الصفحات التالية كما أن ظلال الموت لها أيضاً ما يقابلها.

الليلة الأخيرة

طبقاً لسفر الخروج فإن آخر ليلة قضاها الإسرائيليون بمصر كانت تلك الليلة التى ضرب فيها الموت كل بيوت مصر فى لحظة، وكان له ضحايا فى كل بيت مصرى وموت كل هذا العدد فى ليلة واحدة وفى الساعة نفسها من منتصف الليل، لا يمكن تفسيره بوباء كالطاعون، والذى إن بدأ فى مكان فلن يضرب فى أماكن عديدة فى اللحظة نفسها أو يستمر لساعة واحدة فقط .. وتبدو قصة البلاء الأخير وكأنها أسطورة وهى قصة عجيبة بين الكوارث الأخرى والتى يمكن تفسيرها على أنها ظواهر طبيعية.

لقد كانت الكوارث السابقة مقدمة ونذيراً بالبلاء الذى وصل إلى قمته فى يام - سوف (بحر العبور)، وفى تقلصات القشرة الأرضية وانتفاضاتها فى صحراء التيه ... لقد بحثنا عن دليل فى أى مصدر مصرى قديم يحتوى على ما يتعلق بحدوث زلزال، بهدف إيجاد لحظة تزامن بين التاريخ المصرى والتاريخ اليهودى، وحين وجد الدليل فإنه قدم تماثلا وأظهر تطابقاً مع قصة الكتاب المقدس فاق كل توقع ... وها هى بين أيدينا شهادة مصرى عن البلاء.

يتضح من القراءة المتأنية للبردية أن العبيد ما زالوا بمصر، على الأقل حتى حدوث البلاء الأول، الذى ضرب المنازل ودمر الحياة والثروات وأدى إلى هروب عام للسكان من المدن إلى أقاليم الريف، بينما أدت الكوارث التى تلت البلاء الأول إلى فرار الناس من أقاليم الريف إلى المدن.

وبإعادة قراءة الكتاب المقدس اتضح أنه لم يغفل أهم الأحداث إثارة وهو البلاء العاشر. البردية تقول «إنهار المسكن فى لحظة» (٧٣). وفى الصفحات السابقة أكدنا على أن زلزالا قوياً فقط هو الذى بإمكانه أن يهدم ويحطم المسكن الملكى فى لحظة .. فالموت المفاجئ والمتعدد لا يمكن أن يحدث إلا بكارثة طبيعية ضخمة.

سفر الخروج ١٢: ٣ «فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت.».

الجل الأعظم من الناس لقى حتفه فى ضربة واحدة قوية ... لقد تلقت المنازل ضربة غاضبة.

سفر الخروج ١٢: ٢٧ «الرب الذى عبر عن بيوت بنى إسرائيل فى مصر لما ضرب المصريين وخلص بيوتنا.».

والكلمة العبرية «نوجاف» والمقصود بها «سحق» تستخدم للتعبير عن ضربة قوية كما تستخدم حين ينطح الثور بقرونه.

لقد دمر قصر الملك وقصور الأغنياء التى استوت بالأرض وانهارت مساكن الشعب ومغارات السجون والأقبية فوق من كانوا بها من مساجين وأسرى.

سفر الخروج ١٢: ٢٩ فحدث فى منتصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة.

البردية ٤: ٣و٥: ٦ «أحقاً ... كل أبناء الأمراء سحقت أجسادهم فى الحوائط ٦: ١٢ أحقاً ... تشرد أبناء الأمراء فى الطرق.».

لقد حرك مشهد أبناء الأمراء المسحوقين على أرض الشوارع الصخرية المظلمة والجرحى والموتى بين الأنقاض - حرك المشهد - لوعة وأسى الشاهد المصرى ولم ير أحد ما حدث فى أقبية الحبوس التى حفرت تحت الأرض وأغلقت أبوابها على السجناء، ولم ير أحد العذاب الذى تعرضوا له حين انهارت تلك الأقبية فوق رؤوسهم ودفنتهم أحياء تحت الأرض.

البردية ٦: ٣ «السجن حطام» (٧٥).

لماذا دخلت كلمة البكر بطريقة غير مبررة فى النص العبرى؟ إن تفسير ذلك سيتضح فيما بعد. فى البردية (٢: ١٣) مكتوب: فى كل مكان كان الأخ يسجى جسد أخيه على الأرض. يقابلها فى سفر الخروج (١٢: ٣٠): لم يكن بيت ليس فيه ميت.

وأيضاً (١٢: ٣٠): وكان صراخ عظيم فى مصر

يقابلها فى البردية ٣: ١٤ النواح فى كل أنحاء البلاد يختلط بالنحيب. وسقطت تماثيل الآلهة مهشمة إلى أجزاء (٧٦) «.. وأصنع أحكاماً بكل

آلهة المصريين أنا الرب» (سفر الخروج ١٢: ١٢) وقد وردت فى كتاب وضعه «أرتبانوس» – ولم يعد أصله موجوداً – أحداث غير معلومة المصدر، كان قد نقلها بدوره من «أيزيبيوس» يحكى فيها عن «صقيع وزلزال أثناء الليل (البلاء الأخير) حتى إن أولئك الذين فروا من بيوتهم خوفاً من الزلزال قتلهم البرد، وأولئك الذين بحثوا عن مأوى يقيهم من البرد قتلهم الزلزال. وفى تلك الليلة انهارت كل المنازل وأغلب المعابد» (٧٧).

ولم تكن الأرض أكثر رحمة بجثث الموتى فى قبورهم فالمقابر لفظت موتاها وتمزقت الأكفان.

البردية ٤: ٤ وأيضاً ٦: ٤ أحقاً أن أولئك الذين كانوا محنطين فى أكفانهم صاروا ملفوظين على سطح الأرض.

وهناك قصة دينية مشابهة موجودة بالهاجاداه (القصص الدينى اليهودى) عن آخر ليلة وأحداثها عندما سحقت أرض مصر فى آخر ليلة وجد كفن يوسف على سطح الأرض بعد أن خرج من القبر.

وهناك تأثيرات متشابهة قد تم رصدها فى العصر الحديث ناجمة عن الزلازل (يقول) ايبوير – متفجعاً على الأجنة فى أرحام النساء – إنهم سيدخلون الحياة الأخرى الأبدية لأنهم لم يروا نور الدنيا.

ونجد فى «المدراش ربا» (*) عن سفر الخروج ما يلى: وحتى النساء اللائى كن على وشك الوضع أجهضن ثم متن لأن المحطم ترصد فى كل مكان وحطم كل ما وجده (٨٠).

البكر أو المختار

إن قصة الكتاب المقدس عن البلاء الأخير تتسم بصبغة مميزة عن قوى ما فوق الطبيعة حين تحدد أن كل الأبكار وفقط الأبكار هم الذين قتلوا فى ليلة البلاء الأخير (٨١) ... وبالطبع لا يمكن الاقتناع أن زلزالا يقتل فقط الأبكار لأن الأحداث لا يمكن أن يتوافر لها هذا القدر من الصدفة والتزامن فى آن واحد ولذلك لا يمكن أن نعوِّل كثيراً على ذلك المصدر.

وعلى ذلك فإما أن تكون قصة البلاء الأخير فى شكلها الدينى محض

(*) المدراش ربا: هى التفسير اليهودى التقليدى للتوراة (المترجم).

خيال، وإما تخفى فى طياتها تزييفاً ما فى النص ذاته .. ولكن قبل أن ندعى أن القصة بأكملها محرفة، فمن الحكمة أن نتأكد أولا إن كان ذلك الجزء الغريب منها قد تعرض للتحريف أم لا .. وربما نجد عدا ذلك أن كلمة بكر تأتى هنا للدلالة على معنى آخر.

سفر أشعياء ٤٣: ١٦ هكذا يقول الرب الذى شق طريقاً فى البحر وفى المياه القوية مسلكاً.

٤٣: ٢٠ لأنى جعلت فى البرية ماءاً انهاراً فى القفر لأسقى شعبى مختارى».

وفى سفر الخروج ٤: ٢٢ – ٢٣ فتقول لفرعون هكذا يقول الرب، إسرائيل ابنى البكر فقلت لك أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه. ها أنا أقتل ابنك البكر.

إن المختار فى النصوص السابقة يسمى أيضاً البكر. فلو كانت إسرائيل هى المختارة من الله فإن انتقام الرب سيكون بقتل المختارين من مصر أو نبلائها ولو كان الإسرائيليون فى النص هم الأبكار، فإن انتقام الرب سيكون موجهاً ضد أبكار المصريين.

إسرائيل شعبى مختارى
إسرائيل ابنى البكر

إنه الجزء الأول الذى يحدد العلاقة بين الرب والبشر، وعلى ذلك فإن النص التالى: «فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن» (سفر الخروج ١٢: ٢٩) يجب أن يقرأ أن الرب ضرب كل نبلاء مصر «كما يتضمنها معنى النص أو كل زهور شباب مصر. بنى إسرائيل هم من اخترتهم ولذا سأقضى على كل من اختارتهم مصر».

الموت الطبيعى عادة ما يقتنص الضعفاء والمرضى وكبار السن، ولكن فى حالة زلزال مدمر فالأمر يختلف، إذ إن الجدران والحوائط والأسوار والمبانى. تنهار فوق القوى والضعيف على حد سواء. ولقد ذكر فى «المدراشيم» «أن ما يقرب من تسعة أعشار السكان قد لقوا حتفهم.».

ويصور المزمور ١٣٥ فكرتى عن العلاقة بين المختار والبكر.

«لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته - الذى ضرب أبكار مصر».

وفى المزمور ٧٨ فإن قصة الخروج تذكر مرة أخرى:

المزمور ٧٨: ٤٣ حيث جعل فى مصر آياته وعجائبه.

٥١ وضرب كل بكر فى مصر

٥٢ وساق مثل الغنم شعبه وقادهم مثل قطيع فى البرية

٥٦ فجربوا وعصوا الله العلى وشهاداته لم يحفظوا

٣١ فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم وصرع مختارى إسرائيل

هل أهلك الأبكار حين كانت النقمة على مصر، وهل أهلك المختارين حين كانت النقمة على بنى إسرائيل؟

سفر عاموس ٤: ١٠ أرسلت بينكم وباء على طريقة مصر. قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم. فى أيام الفوضى والثورة أثناء حكم عوزياه اليهودى محق الرب المختارين وزهرة شباب الشعب اليهودى كما محق مختارى مصر وأقوياءها كما جاء فى نبوءة عاموس.

ومن المحتمل ألا يكون الأبكار من أبناء الملك والأمراء قد لقوا حتفهم فى ليلة الزلزال أو ثورة الأرض وجيشانها .. ومن الممكن أن يكون موت ولى العهد سبباً خارجياً لتغيير النص، أما السبب الداخلى فموجود فى المصدر نفسه الذى قطع أحداث قصة الخروج فى أكثر مواضعها إثارة بعد انهيار منازل المصريين بالمقاطع التالية.

سفر الخروج ١٣: ٢ قدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل من الناس من البهائم أنه لى.

١٣: ١٣ وكل بكر إنسان من أولادك تفديه.

ويقر أرميا بأن التقدمات والأضاحى لم يأمر بها الرب يوم خرج الإسرائيليون من مصر.

سفر أرميا ٧: ٢٢ لأنى لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة.

وهذا بعكس ما ورد بسفر الخروج من ١٢: ٤٣ حتى ١٣: ١٦ «لتحرير الناس من تلك العبودية فهذه مهمة عاموس وأشعياء وأرميا».

سفر عاموس ٥: ٢٢ إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها.

٥: ٢٤ وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم.

٥: ٢٥ هل قدمتم لى ذبائح وتقدمات فى البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل؟

تمرد وفرار

كان كل مسعاى أن أجد فى المصادر المصرية أى ذكر لكارثة طبيعية كما ذكرت والنص الذى ورد فى بردية ايبوير مع مقارنته بالقصص الدينى يعطى انطباعاً قوياً أن المصدرين يتحدثان بتطابق كامل عن الحدث نفسه، ومن الطبيعى بعد ذلك أن نبحث عن أى ذكر لتمرد قد وقع وعن هروب عبيد بؤساء من بلاد حلت بها الكوارث، وعن طوفان جرف فى طياته أحد الفراعنة.

وبالرغم من أن البردية المهترئة لم تحتو على أى ذكر للإسرائيليين صراحة أوحتى تلميحاً ولم تشر إلى أى من قادتهم، فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح تام كنتيجة للكارثة أو مجموعة الكوارث المتتالية وهى: تمرد السكان - فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية - اختفاء الملك فى ظروف غامضة.

وبالرغم من التطابق الوصفى للكوارث بين ما ذكرته البردية وما سردته أحداث الكتاب المقدس، فإننى أن حاولت أن استخرج من البردية أكثر من الحقائق السابقة، قد أعرض نفسى للريب والظنون بمحاولة استغلال الحالة الرديئة التى وجدت عليها البردية لإثبات نتائج مسبقة بتضمينها ما لم تتضمنه.

لكن الإشارة إلى الكارثة وإلى الجماهير التى تمردت وفرت ليست غامضة ومعناها واضح، وليس بها مجال للبس أو غموض وبالتالى فحين أحاول فى المقاطع التالية أن أسلط الضوء على المعانى المقابلة فإننى أفعل ذلك مع كثير من التحفظ. فالبردية تالفة وغامضة فى مواضع كثيرة، ولو كانت إحدى المقارنات غير كاملة واعتباطية، فلن تضيف أو تنقص شيئاً

من الحقيقة الثابتة هنا، وهى أن زلازل متتابعة صاحبتها ظواهر طبيعية أخرى قد اجتاحت أرض مصر، صاحبها أكثر من بلاء سبب هلاك الإنسان والحيوان والنبات وأتلف كل مصادر المياه.

بثت النذر الأولى للكارثة حالة من عدم الاستقرار، وتاق العبيد إلى الفرار من الأسر إلى الحرية .. وذكرت البردية أن الرجال جازفوا بالتمرد على رموز السلطة الملكية، وضاعت هيبة التعويذة السحرية للأفعى الملكية (٦: ٦ - ٧ إلى ٧: ٥ - ٦من البردية) وعن تلك القلادات والحلى الذهبية التى جمعتها نساء العبيد (٣: ٢ - ٣ قارن مع سفر الخروج ١١: ٢) «تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب» وبث انهيار المبانى الحجرية والموتى والجرحى بين الأنقاض ومشاهد سقوط عديد من تماثيل الآلهة بث كل ذلك الرعب والهلع فى النفوس ونظر المصريون إلى كل ذلك على أنه من فعل رب العبيد.

سفر الخروج ١٢: ٣٣ وألح المصريون على الشعب أن يخرجوا عاجلا من الأرض لأنهم قالوا جميعنا أموات إن بقيتم.

ومع استمرار الكوارث والنكبات ظهرت على ألسنة المصريين كلمات أشد مرارة ولم يعد الفزع والخوف من الموت مسيطراً عليهم وصار التماس الموت أقرب من أى رغبات أخرى.

البردية ٤: ٢ حقاً ... الكبير والصغير.. العظيم والحقير .. يقول ليتنى أموت ٥: ١٤ هل هذه نهاية الإنسان ... لا حمل من بعد ولا ولادة ..

آه ... لو يتوقف الضجيج

كما تحكى الأسطر التالية فى كل من البردية وسفر الخروج عن الشعب الهارب من الكارثة. البردية ١٠: ٢ هرب الرجال .. وأقاموا خياماً سكنوها كسكان التلال.

وسفر الخروج يحكى القصة نفسها عن الإسرائيليين الذى خرجوا فى تعجل.

سفر الخروج ١٢: ٣٣ أخرجوا عاجلا.

١٢: ٣٩ ولم يقدروا أن يتأخروا.

لاشك أن الهرب والمعيشة فى خيام متنقلة اشترك فيه أغلب الفارين الذين بقوا على قيد الحياة كما يحدث عادة حين تدك الكوارث العظمى المدن وتخربها، وسيطر الفزع والهلع على الناجين بحياتهم خوفاً من حدوث موجة أخرى من الدمار.

وكان خليط من عامة المصريين قد انضم إلى العبيد الإسرائيليين فى فرارهم، حيث أسرعوا الخطى نحو الصحراء (سفر الخروج ١٢: ٣٨). وكانت أول وقفة لالتقاط الأنفاس عند «سكوت» (سفر الخروج ١٣: ٢٠) وهى تعنى فى العبرية «الأكواخ» وأسرع العبيد الفارين باتجاه حدود الدولة يسبقهم نهاراً عمود من الدخان يمتد إلى السماء وليلا عمود من النار.

سفر الخروج ١٣: ٢١ وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلاً فى عمود نار ليضيئ لهم لكى يمشوا نهاراً وليلاً.

البردية ٧: ١ يا ويلاه .. تسلقت النار الأعالى وامتد لهيبها أمام أعداء البلاد ثم أضاف مترجم البردية هذه الملحوظة «النار تعنى هنا كارثة ما ...».

بعد انقشاع المظاهر والآثار الأولى للكارثة الكبرى، حاول المصريون إعادة الأمور إلى نصابها وفرض النظام واستعادة هيبة الدولة. وكانت أول مهمة هى تعقب العبيد الفارين .. أما الفارون فقد تعقدت المسالك فى وجوههم. وأطبقت عليهم وحشة الصحراء، فغيروا اتجاههم إلى البحر، وتوقفوا عند بى – ها – خيروث (البحر الأحمر) ... طاردهم المصريون وغزوا السير فى أثرهم وفى الليل هب إعصار شديد استمر طوال الليل فانحسر الماء.

ثم انهار جبل عظيم من المياه التى انحسرت حين « استعاد البحر قوته».

و «المصريون هاربون إلى لقائه» وابتلع البحر العجلات الحربية والفرسان والفرعون وكل الحشد الذى صحبه.

كل ما سجلته بردية ايبوير «٧: ١ – ٢» إن الفرعون قد فقد فى ظروف غيرعادية وأن «ذلك لم يحدث من قبل قط لأى فرعون آخر» وكتب المصرى

فى صفحاته ما يلى وبالرغم من الكلمات الضائعة فى السطور إلا أنها مفهومة.

«ابكوا .... إن الأرض .... على كل جانب .... ابكوا»

الهكسوس يغزون مصر

لم تعد هناك أية قوة حكومية تهيمن على مصر وتحولت المدن فى الأسابيع التى تلت ذلك إلى فوضى كاملة وسلسلة متصلة من مشاهد النهب والسلب فى كل مكان .. ولم يعد هناك عدالة ولا قضاء، فنبش الدهماء فى حطام البيوت وتلاعبوا فى سجلات الدولة حيث تحفظ العقود والحجج والرهونات وصكوك الملكية التى تثبت حقوق أصحابها ... ونقب الدهماء فى حطام المخازن الملكية عن كل ما يمكن نهبه.

البردية ٦: ٩ أحقا ... بطلت قوانين بيوت العدل ووطأها الناس.

١٠: ٣ أصارت مخازن الملك منهوبة وملكاً مشاعاً للجميع.

إن البردية تمهد لما سيحدث بعد ذلك ... لقد تقلصت القشرة الأرضية فى هزات متشنجة (أعوام الضجيج)، وأصبحت الطرق فى حالة بائسة غير صالحة للسير عليها وغارقة فى الأوحال وبرك المياه (البردية ١٢: ١١ ف).

ضاعت هيبة الدولة وافتقدت التفاف الناس حول رموزها وايبوير ينعى «اندثار الشعب» لقد تحول قصر الفرعون إلى كومة من الأنقاض وانهارت سلطة الحكومة تماماً.

يا ويلاه .. لقد هرب كبار رجال الدولة (٨: ١٤) يا ويلاه لم يبق الكتبة فى أماكن عملهم وفروا كقطيع مذعور بلا راع يوجهه (٩: ٢) ».

وهام «الفقراء» الفارون على وجوههم فى الصحراء، فيما رفع العبيد ممن بقوا فى مصر رؤوسهم.

البردية ٦: ٧ «أحقا .... اقتحمت دواوين الدولة واغتُصبت كل سجلاتها.» ثم ... هبط الغزاة من غبرة الصحراء بعد أن عبروا الحدود واقتحموا الدولة المحطمة.

البردية ٣: ١ «أحقا صارت الدولة خراباً كالصحراء وأصبحت الولايات

يباباً واقتحمت البلاد قبائل غريبة من وراء الحدود».

إن الكارثة حولت مصر إلى دمار شامل بلا قوة متماسكة تدافع عن أرض أغرت الغرباء وكانت حافزاً لقبائل الصحراء العربية أن ينقضوا عليها.

البردية ١٥: ١ «ماذا حدث؟ - لقد علم الأسيويون بحالة البلاد».

١٤: ١١ «الرجال قد جاء حتفهم إليهم لم يعد هناك من يتصدى لحمايتهم».

وتحت وطأة ضربات الطبيعة المفزعة، كان انهاك المصريين السبب الرئيسى فى عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، هذا عدا غياب السلطة ونظام الدولة ... ومن غير المعلوم أن كان رقم المليون المذكور فى الجملة التالية يمثل عدد الغزاة أو عدد من هلكوا من شعب مصر على أيدى الغزاة.

البردية (١٢: ٦فف) اليوم رعب - أكثر من مليون إنسان.

«غير مرئيين - الأعداء - اقتحموا المعابد - ابكوا»

وبالرغم من كل الكوارث التى سبقت الغزو فقد أكمل الغزاة على ما تبقى من البلاد بقتل الرجال واغتصاب النساء.

إن الكارثة المزدوجة - بسبب كوارث الطبيعة والغزاة - حطمت كل تميز طبقى وجلبت معها ثورة اجتماعية من نوع خاص.

«يا ويلاه ... تهيم زوجات النبلاء جائعات».

«وكل من لا زوجة له يبحث عن نفائس الأشياء والنساء».

«وذلك الذى ينام فى الخرائب رفع رأسه».

«وتلك التى كانت ترى وجهها على صفحة الماء أصبحت تملك مرآة».

لقد عمت الفوضى السياسية والاجتماعية بضياع الحكومة وافتقاد هيبتها ... ولم يعد أحد يعمل.

«يا ويلاه ... لم يعد الصناع يشتغلون».

«اعتدى الأخ على شقيقه والابن على أمه».

«واختبأ الأغنياء بين أجام الشجر حتى داهمهم الناهبون فى مواضعهم».

«كل واحد يواجه بالعنف الآخرين ... لو ارتحل ثلاثة على طريق سينتهى بهم إلى اثنين».

«الجماعات الأكبر تذبح الأقل عدداً ... والأرض أصبحت كالأعشاب الضارة تلتهم البشر».

«ما أفظع ذلك ماذا أفعل».

وينوح ايبوير:

«يا ويحى من بؤس هذا الزمان».

هناك تعبيرات عديدة فى بردية ايبوير تدل على أن واضعها قد كتبها مباشرة بعد كارثة رهيبة وفى إبان فوضى الطبيعة واضطرابها الذى لم يكن قد انتهى بعد.

لقد كانت نقطة البداية والانطلاق فى هذا البحث هى ما يلى: حدث الخروج فى وقت كارثة طبيعية عظمى، ومن أجل التوصل إلى تحديد عصر الخروج فى التاريخ المصرى القديم كان يجب أن نتوصل إلى دليل مادى أولا يثبت وقوع كارثة عظمى وهذا الدليل وجدناه فى بردية ايبوير.

إن أجزاءً عديدة من البردية مفقودة وبداية البردية ونهايتها، واللتان كانتا بلاشك تحتويان على تفاصيل أكثر، وربما أسماء محددة، تلك البداية والنهاية تالفتان، ولكن ما بقى منها كاف لأن يترك لدينا الانطباع بالحقيقة التالية:

ما بين أيدينا ليس مجرد قصة كارثة ولكنه النسخة المصرية عن البلاء الذى ورد ذكره فى التوراة. لقد كان من المدهش أن نجد فى البردية عدا قصة «الهائمون على وجوههم» و «شعب العبيد الفقراء» الذى فر من أرض ضربها البلاء، أن نجد أيضاً رثاء يخص غزو البلاد على أيدى غزاة قدموا من صحراء آسيا ليفترسوا بلادا منهكة تسودها الفوضى ويصبحوا حكامها القساة الطغاة بعد ذلك ... كان الـ «آمو» كما سماهم المصريون و «الهكسوس» كما أطلق عليهم اليونانيون هم الغزاة الذين حكموا مصر أثناء القرون التى فصلت بين انهيار حكم المملكة المتوسطة فى مصر، وبداية حكم المملكة الحديثة. وفى قسم آخر من هذا الكتاب سنستعرض وجهات النظر المختلفة فى العصر الحقيقى الذى تنتمى إليه بردية ايبوير.

بى - ها - خيروث

فى الستينيات من القرن الماضى (التاسع عشر) وفى مدينة العريش تلك المدينة المصرية التى تقع بالقرب من الحدود المصرية - الفلسطينية، جذب انتباه أحد الرحالة كتلة من الجرانيت الأسود محفوراً عليها نصوص هيروغليفية من جميع جوانبها، ويستخدمها السكان المحليون كمعلف للماشية. وقد نشرت عام ١٨٩٠ عجالة عن ذلك الأثر مع ترجمة جزئية لما حفر على جوانبه. وكان حتى وقت نشر تلك العجالة ما زال مستخدماً كمعلف للماشية. وفى وقت ما من القرن الحالى تم نقل الأثر إلى متحف الإسماعيلية مع محاولة جديدة لترجمة كل النص الذى حفر عليه.

ومنذ اكتشافه لم يعد أحد يذكره إلا لماماً، واعتبر النص الغريب - الذى حفر عليه - أحد النصوص الدينية، على الرغم من احتوائه على أسماء ملوك ومدن وأماكن جغرافية، وأيضاً غزو قوم غرباء للبلاد. أما أسماء الآلهة التى وردت به فهى أسماء ملكية ويعود تاريخ الكتابة إلى العصر البطلمى والهيلينى، ولكن الأحداث المسجلة تخص فترة مبكرة وهى عن «الملك توم» ومن خلفه على عرش البلاد. وقد ورد اسم الملك توم محفوراً داخل خرطوش ملكى وهو إطار فرعونى مميز لملوك الفراعنة مما يؤكد الأصل التاريخى للأثر.

والنص كما سنرى بعد ذلك يستحق دراسة يقظة وترجمة حديثة دقيقة وليس مجرد استخلاص نتائج عامة.

فى النص الذى انمحت بعض أجزائه كتب ما يلى:

«مرت البلاد ببلوى عظيمة ... سقط الشر على أرضها وثارت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد ... لم يغادر أحد القصر الملكى خلال تسعة أيام كاملة وأثناء هذه الأيام التسعة من جيشان الأرض كانت هناك عاصفة بلغت من قوتها أن لا الإنسان ولا الآلهة كان باستطاعته رؤية وجوه من جاورهم».

ولقد ذكر سفر الخروج الظلام نفسه الذى دام عدداً من الأيام، والذى أجبر كل إنسان أن يلزم مكانه، والذى صحبه جيشان عنيف للأرض، والذى بلغ من الكثافة حداً لا يستطيع معه أحد أن يميز وجه من جاوره، وقد أتى

كل ذلك فى وصف البلاء التاسع.

سفر الخروج ١٠: ٢٢ – ٢٣ فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام.

ولكن النص المصرى يختلف عن النص العبرى فى تحديد عدد أيام الظلام حيث حددها المصدر المصرى على حجر العريش بتسعة أيام. ولقد ذكر أيضاً فى التوراة أن رياحاً قوية قد أزالت البلاء الذى سبق الظلام وهو بلاء الجراد .. لقد حل الجراد على البلاد محمولا برياح شرقية وغطى وجه الأرض وغشيها ظلام (سفر الخروج ١٠: ١٣ ف ف) ثم زال الجراد «برياح غربية قوية».

سفر الخروج ١٠: ١٩ فرد الرب ريحاً غربية شديدة جداً فحملت الجراد وطرحته إلى بحر – سوف.

وبعدها مباشرة حل البلاء التاسع ... بلاء الظلام الحالك.

فى قصة الظلام، كما حكت كتب المدراشيم العتيقة، مزيد من التفاصيل منها أن الظلام بقى لمدة سبعة أيام ... فى الأيام الثلاثة الأولى كان بمقدور الفرد أن يميز موضعه ويبدله، بينما خلال الأيام الثلاثة الأخيرة منه لم يكن بقدرة أحد أن يتحرك من مكانه. وكتابات الأحبار التى تصف نكبة الظلام عديدة، وينتمى إلى أولئك الأحبار جوزيفوس فلافيوس الإسكندرى من القرن الأول الميلادى. ومقارنة المادة التاريخية فى هذا الموضوع توضح الصورة التالية:

بعد رياح غربية قوية دامت سبعة أيام، غلف البلاد ظلام دامس، وبلغ الظلام حداً لا يجدى معه التغلب عليه بأية وسيلة إضاءة، وضوء النار إما كان ينطفئ بفعل الرياح الغربية القوية، أو يبتلع ضوءها كثافة الظلام. لم يكن أحد قادراً على الكلام أو السمع، ولم يستطع أحد أن يجازف بالسعى إلى طعام، فطرحوا أنفسهم أرضاً وكل الحواس كانت فى غشية. وهكذا ظلوا مغمورين بالبلوى (٩١).

وحل اليوم السابع والأخير من الظلام على البلاد حين وصل الإسرائيليون إلى بحر العبور (٩٢)، وفى سفر الخروج ذكر أن الدنيا «كانت سحباً وظلاماً» لدرجة أن المكان الذى عسكر فيه المصريون لم يكن قريباً من المكان الذى توقف عنده الإسرائيليون «طوال الليل» لصعوبة

تمييز معالم المكان و «أجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل».

وقدر العرف اليهودى الزمن الذى انقضى من البلاء العاشر الذى تلى بلاء الظلام، وحتى المرور من البحر بستة أيام وبضع ساعات. والخروج الذى تلى ليلة البلاء العاشر يحتفل به فى أول أيام الخلاص (*)، وهو اليوم الخامس عشر من نيسان (إبريل)، والمرور من البحر فى اليوم السابع والأخير من أيام الخلاص وهو اليوم الحادى والعشرين من نيسان.

والرؤية العبرية لبلاء الظلام لا تختلف عن الرؤية المصرية. فالظلام فى بدايته لم يكن ظلاما تاما بل كان عاصفة قوية محملة بالرماد «أتى الظلام من الجحيم وكان من الممكن الإحساس به» (٩٣) وفى شدة بلاء الظلام الذى دام أياماً وليالى كان من الصعب قياس الزمن، وكان الناس فى غمرة معاناتهم من الكارثة مجردين من القدرة على الحكم الصحيح على مرور الوقت ومقداره، وتحت وطأة هذه الظروف فإن اختلافاً بين النص المكتوب على أثر العريش (تسعة أيام من الظلام) (٩٤) وبين العرف الذى ذكر فى المدراشيم (سبعة أيام من الظلام) يعد اختلافاً من الممكن إهماله.

وتحكى المصادر العبرية عن المدن التى دمرت فى الظلام، وأن عديداً من الإسرائيليين كانوا من بين من لقوا حتفهم فى البلاء التاسع (٩٥)، وأن البلاد كانت فى محنة وخراب شامل.

ويصف حجر العريش الكارثة بقوله «حط الشر على هذه الأرض ... وجلب إليها محنة فظيعة وفوضى كبيرة لم يسلم منها قصر الملك» والمقطع السابق يصف تسع ليال من الظلام والعاصفة، حيث لم يتمكن أى إنسان من رؤية أى شئ حوله، ولم يتمكن قاطنو القصر الملكى من مغادرته.

وفى خضم المحنة وتقلبات الطبيعة الوحشية جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه إلى مناطق وعدهم بأنهم سيرون فيها النور من جديد «سنرى أبانا رع - هاراختى فى منطقة باخيت المضيئة».

وفى هدأة الليل وتحت أستار الظلام، اقتربت جحافل الغرباء من حدود مصر ثم اجتازتها «وذهب صاحب الجلالة الملك لمحاربة أبوبى وزمرته» كان

(*) عيد الخلاص: هو العيد الذى يحتفل فيه اليهود بذكرى خلاصهم من العبودية فى مصر لما يزيد عن ٤٠٠ عام. (المترجم).

أبوبى هو إله الظلام والشر ... ولكن لم يعد الملك ولا جيشه بعد ذلك أبداً.

«وحين قاتل جلالة الملك رع هارماكيس (هاراختى؟) حين قاتل إله الشر بالقرب من البحر فى مكان الدوامة فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى دوامات البحر» (٩٦).

وفى سفر الخروج ذكر ما يلى: سفر الخروج ١٤: ٢٧ - ٢٨ «فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه فدفع الرب المصريين فى وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر لم يبق منهم ولا واحد»

سفر الخروج ١٥: ١٩ فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر ورد الرب عليهم ماء البحر.

إن قصة الظلام فى مصر، فى مصدريها العبرى والمصرى، متطابقة تماماً وموت الفرعون فى دوامات الماء وبين طيات الأمواج متطابقة أيضاً فى المصدرين.

وقيمة هذا التطابق الرئيسية مستمدة من حقيقة ثابتة فى كلا المصدرين وهى أن الملك قد هلك فى دوامات البحر أثناء أو بعد أيام من محنة الظلام الكبرى والعاصفة المدمرة ... ولكن التطابق المطلق مازال بعيداً بشكل ما .. فالقصة فى المصدرين ستعد متطابقة بشكل أكمل إن وجد فى كلا المصدرين بعض التفاصيل المتطابقة والتى لا يمكن أن نعزوها إلى المصادفة.

إن مسيرة الفرعون بجيشه حدثت أثناء ما وصف بجيشان الأرض وثورتها حين أدت إلى تدمير البلاد بما فيها قصر الملك، وأثناء إعصار أحال الأرض ظلاماً، ثم انتهت مسيرة الملك بجيشه إلى مكان محدد بالاسم.:

«وصل جلالته (فى هذا الموضع كلمات غير واضحة) إلى مكان يسمى (بى - خاروتى) وبعد عدة أسطر أخرى ذكر أن جلالته قد أطيح به بقوة كبرى حين أطاحت به دوامة مائية وأخذته إلى السماء».

وقد كان تفسير المترجم فيما يختص بالموقع الجغرافى لـ (بى - خاروتى) أن ذلك المكان والاسم غير معروفين إلا فى هذا النص (٩٧).

وهنا نذكر مرة أخرى أن محاولتنا إثبات التطابق بين القصتين المصرية والعبرية تصبح فقط ذات جدوى، لو كان المكان الذى هلك فيه

الفرعون كما ذكر فى النص المصرى هو اسم ذات المكان الذى تم عنده عبور البحر كما ورد فى النص اليهودى وقد جاء فى سفر الخروج.

سفر الخروج ١٤: ٩ فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم. جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الخيروث.

وبى - خروتى فى المصدر المصرى هى بى - خيروث فى المصدر العبرى (٩٨) إنه المكان نفسه والمطاردة نفسها وغير صحيح ما ذكره مترجم النص أن هذا الاسم لم يوجد إلا على الأثر الفرعونى لحجر العريش وحده.

ويحكى النقش الذى وجد على حجر العريش أنه بعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون «صاحب السموجب» باحثاً عن أبيه وقد أخبره الشهود «بكل ما حدث لرع فى يات نيبيس ... والصراع الذى خاضه الملك تووم». ويحكى النقش أن كل من رافقوا الأمير فى رحلة بحثه عن أبيه قد ماتوا حرقاً. أما الأمير نفسه «صاحب السموجب»، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث وهو يائس من العثور على أبيه الذى لقى حتفه. ومن غبرة الصحراء فى طريق يات نيبيس وصل الغزاة واحتلوا مصر ..

« أتى أبناء أبوبى ... المتمردون الذى كانوا يعيشون فى أوشيرو (لم يعرف معناها ولكن صاحبتها علامة تدل على الجفاف فى الهيروغليفية وربما تعنى الصحراء) وساروا على طريق يات نيبيس وحلوا على مصر مع حلول الظلام».

أولئك المتمردون من جبال الشرق الذين أتوا عن طريق يات نيبيس غزوا البلاد فقط ليحطموها ويدمروها » (٩٩).

وتقهقر الأمير أمام الغزاة، ولكنه لم يعد إلى هليوبوليس « لم يذهب إلى أون مع من سلبوه ملكه وصولجانه » فقد سلب منه ميراثه واعتزل فى مسكن ناءٍ فى هى - تاوى « فى أرض النباتات هينو »، ومن هناك بذل محاولة كانت فاشلة كلية للاتصال بالأغراب الـ « آمو » ومفاوضتهم على الانسحاب من البلاد وفى وحدته وعزلته تذكر أباه الذى غرق فى البحر وكيف كان يخرج بجيشه لتأديب المتمردين وكيف كان «يذبح أبناء أبوبى».

بمرور الوقت برد الجو فى مصر وجفت الأرض. ومن غير المعروف ماذا حدث بعد ذلك للأمير التعس ولكن نهايته كانت بائسة بالتأكيد ... لقد دمرت مصر بالإعصار وأكلتها النيران أما العاصمة فقد احتلها الـ «أمو».

إن النقش الموجود على حجر العريش يحدد أن اسم الفرعون الذى هلك فى دوامة البحر كان توم أو تووم. ومن المثير أن اسم بى – توم تعنى مسكن أو مقر إقامة توم، وبى – توم كانت إحدى المدينتين اللتين شيدهما العبيد الإسرائيليون للفرعون الطاغية بأمر منه (١٠٠). وطبقاً لمانيتو فإن الفرعون الذى حل غضب السماء على مصر فى عهده قبل غزو الهكسوس كان يدعى توتيموس أو تيمايوس (١٠١).

أما السؤال الذى يعود إلى مئات بل آلاف من السنين بلا إجابة، وهو أين كان يقع بحر المرور، فمن الممكن التوصل إلى إجابته بمساعدة النقش الموجود على حجر العريش، فعلى ضوء بعض الأدلة فى النص، فإن بى – ها – خيروث، حيث جرت أحداث المرور عبر البحر، تقع على الطريق بين ممفيس وبيزوبيد (١٠٢).

بردية الأرميتاج بردية نفر – رحو

هناك بردية مصرية قديمة محفوظة فى متحف الأرميتاج بلينجراد بروسيا ومصنفة بالمتحف تحت رقم ١١١٦ ب، واعتبر الباحثون أن النص المكتوب عليها ليس إلا الصدى الأدبى لتلك الأيام المصيرية، حين زالت الإمبراطورية المصرية وسقطت البلاد فى قبضة القبائل الغازية.

فى البردية نجد القصة نفسها التى عرفناها من بردية أيبوير، ولكن بطريقة مختلفة إن ثورة الطبيعة ثم احتلال مصر من قبل قبائل من الصحراء تعاد روايتها مرة ثانية، ولكن ليس كأحداث تقع فى الحاضر ولا كأحداث وقعت فى الماضى، ولكن كأحداث ستقع فى المستقبل، ولا يدل ذلك على قدرات خارقة فى التنبؤ، ولكنه كان شكلاً أدبياً مفضلا فى رواية الأحداث على ألسنة حكماء كانهم يرون ما يدخره الغيب.

تحكى البردية عن حكيم مصرى قديم يدعى نفر – روحو يسأل مستمعه الملك إن كان يحب أن يروى له عن أحداث قد وقعت فى الماضى، أم يفضل

أن يعرف أحداثاً ستقع فى المستقبل، ويرد صاحب السمو: «أحب أن أسمع عن المستقبل» وكأن الراوى «كان يتأمل فيما سيأتى من أحداث على الأرض مستحضراً فى ذهنه أحوال الشرق حين يأتى الآسيويون الـ «آمو» بقوتهم وقلوبهم مليئة بالبغضاء «ثم قال: ملء قلبى رثاء لهذه الأرض التى نبع الفن منها».

«ستهلك هذه البلاد وما عليها ولن يبق إلا الشر ... فانية هذه البلاد ستحجب الشمس ولن يرى إنسان ضوءاً ... لن يبقى أحد حياً حين تحجب الشمس بالسحب الكثيفة»، «النهر جاف (حتى النهر) فى مصر»، «ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية .. وتكابد الأرض بؤساً لم تعرفه ويحتل البدو البلاد حين يأتون من الشرق (أو من حيث تشرق الشمس) سينزل الآسيويون بأرض مصر»، «ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر»، «ستمر هذه البلاد باضطرابات عظيمة»، «وأرى هناك الأرض مقلوبة رأساً على عقب .. لقد حدث مالم يحدث أبداً فيضحك الرجل ضحكاً كالبكاء .... ولن يوجد هناك من يبكى الموت ولن يدرك أحد أنه فى منتصف النهار لأنه لن يرى ظله .... ولن تبهر ضياء الشمس أحداً حين ينظر إليها لأنها ستكون فى السماء كالقمر».

ومن وصف تغيرات الطبيعة كما يصفها الحكيم، نتعرف عليها كتلك التى واكبت الفترة التى قضاها الإسرائيليون فى تيه الصحراء، تحت سماء ملبدة بالسحب الكثيفة فى «أرض الظلال ... ظلال الموت» (١٠٤). لقد تشكك أرميا بعد ذلك بقرون متسائلاً «ولم يقولوا أين هو الرب الذى أصعدنا من أرض مصر الذى سار بنا فى البرية فى أرض قفر وحفر فى أرض يبوسة وظل الموت فى أرض لم يعبرها رجل ولم يسكنها إنسان» (أرميا ٢: ٦) وظل الموت هذا مذكور فى مقاطع عديدة من الكتاب المقدس: فأثناء أعوام التيه فى الصحراء كانت السماء والشمس محجوبتين بسحب كثيفة معلقة فوق الصحراء «كل مظاهر وأشكال الحياة كانت مختلفة، ولذات السبب أطلق على ذلك الإعتام «ظل الموت». وفى بلاء الظلام الذى أؤكد حدوثه، فإن ظل الموت هذا كان ما تبقى منه. وقد تناولت ذلك فى كتاب «عوالم فى تصادم» والذى يبحث أساساً الجوانب الطبيعية للكارثة ... وبعد أن انتهى الراوى من عرض ما سيحدث للبلاد من كوارث

طبيعية سينتج عنها خضوع مصر سياسياً ووقوعها تحت سيطرة الآمو فإن الرائى «نفر - روحو» يتنبأ بتحرير مصر على يد ملك مصرى يولد لأم نوبية ويسمى أمنى وهو الذى «سيقتل الآمو بسيفه»، وبعدها سوف يبنى «سور الأمير» حتى لا تتكرر عودة الآمو إلى مصر.

إنه لما يدعو إلى التساؤل وجود شخصية تاريخية باسم أمنى، وذلك لبعض الشكوك التى تحيط بوجود مثل هذه الشخصية. فالبردية من المفروض أنها كتبت أثناء المملكة القديمة أو بعد فترة قصيرة من انتهائها، ومن الواضح أيضاً أن هذه البردية والنص الذى عليها ذو علاقة مشتركة مع نص بردية ليدن. وكيفما كانت العلاقة فإن فترة سيادة الهكسوس (الآمو) فى مصر تلت نهاية المملكة المتوسطة. واسم أمنى قد يشير إلى أمينوحتب الأول وهو واحد من أوائل الملوك الذين حكموا مصر بعد أن تم تحريرها من الهكسوس. وكان وقت بداية حروب التحرير ما زال أميراً ... وكانت كل صورة على جدران المعابد تشير إلى لون بشرته الأسود، وهذا يتفق مع مقولة إنه سيولد لأم نوبية وقد تم تبجيله فيما تلا ذلك من عصور.

هناك أثر أدبى مماثل لبردية الأرميتاج رقم ١١١٦ ب، وهو نبوءة خزاف عاش فى عهد أمينوفيس (أمينوحتب)، ومنها «أن نهر النيل الجاف سيمتلئ بالمياه ويعود موسم الشتاء إلى موقعه الصحيح من العام وتستعيد الشمس مجراها الطبيعى وتهدأ الرياح بعد أن كانت الشمس محجوبة بسبب العاصفة» وهذه البردية مكتوبة باليونانية نقلا عن نص أصلى لبردية مصرية أقدم منها (١٠٧)، واسم الفرعون فيها يشير إلى واحد من الفراعنة ممن حملوا اسم أمينوحتب، والذين حكموا المملكة الحديثة (١٠٨). وأنا أعتقد أنها تشير إلى أمينى نفسه السابق ذكره، وهو أمينوحتب الأول. أو أمنمحات كما ذهب آخرون.

استفساران

هناك سؤالان مازالا بحاجة إلى إجابة:

الأول: ماذا كانت طبيعة وأبعاد هذه الكارثة أو هذه السلسلة من

الكوارث المصحوبة بالبلاء، كما ذكرها الكتاب المقدس، والتى توصلنا إلى إيجاد المقابل المصرى المتطابق تماماً معها كشهادة إثبات مصرية؟

فى الفصل التالى سنحصل على الإجابة والدليل المحلى المواكب لسلسلة الكوارث والذى يؤيد حدوثها، ولكن من أرض شبه الجزيرة العربية. وكما تتضمن الإجابة على السؤال السابق ما هو أبعد من مجرد دراسة تاريخية، فهى تشمل دراسة حقول ومجالات أخرى من المعارف، وهو عمل يتضمن أيضاً البحث فى طبيعة الكوارث الطبيعية الكبرى التى حدثت على الأرض فيما مضى وهو ما حققته فى جزء سبق صدور هذا الكتاب، ألا وهو كتاب «عوالم فى تصادم».

وإذا نحينا جانبا مشكلة طبيعة الكارثة ومداها فإننا نواجه السؤال الثانى وهو متى حدثت ثورة الأرض هذه وجيشانها؟! والإجابة متاحة فى متناول اليد من التاريخ اليهودى وهى أنها حدثت فى أيام الخروج أما بالنسبة للتاريخ المصرى، فيجب أولا أن نكتشف متى وقعت الأحداث المذكورة فى بردية ايبوير.

الدارسون الذين اهتموا بدراسة هذه البردية، متفقون على أنها منسوخة عن بردية أقدم منها: «الناسخ نقل عن بردية أقدم بعدة قرون (١٠٩) والنسخة مكتوبة فى وقت ما أثناء حكم الأسرة التاسعة عشرة، ولكن الهجاء وأسلوب الكتابة ككل، يشير إلى نص أدبى من نصوص المملكة المتوسطة، إذا كان من الممكن إدراك وفهم ذلك بعقلية متحررة» (١١٠).

إلى أى عصر ينتمى النص؟ سؤال مثل هذا يكتسب أهمية متزايدة على ضوء توازيه مع أحداث سفر الخروج المذكورة هنا.

لقد كان مفهوماً أن السؤال الخاص بعمر النص «مرتبط ارتباطاً لا فكاك منه مع المشكلة الخاصة بالموقف التاريخى الذى كان المؤلف (ايبوير) يحمله فى ذهنه» (١١١).

و «النص يحكى عن حرب أهلية واحتلال آسيوى لدلتا النهر» و «هناك فترتان زمنيتان يحتمل أن تكون إحداهما هى الملائمة كإجابة للسؤال عن زمن النص الأولى هى العصر المظلم الذى يفصل الأسرة السادسة عن الأسرة الحادية عشرة (أو المملكة القديمة عن المملكة المتوسطة) والأخرى

هى زمن غزو الهكسوس (بين المملكة المتوسطة والمملكة الحديثة)». ولقد انقسم رأى علماء البرديات (جاردنر وسيث) حول الإجابة عن هذا السؤال. فإلى أى عصر من العصرين ينتمى النص»؟

لا توجد معلومات قاطعة عن أى غزو آسيوى (آمو) تم فى الفترة الأولى - والتى بين المملكة القديمة والمملكة المتوسطة - وحتى ينطبق ذلك مع الخلفية التاريخية للنص، فإن مثل ذلك الغزو فى ذلك الوقت، كان لابد أن يبدو أمراً مسلماً به فى البردية ذاتها كحدث فى الماضى» (١١٢). ولا توجد مثل هذه الصعوبة فى وجهة نظر سيث الذى يؤمن بأن الزمن فى البردية هو زمن غزو الهكسوس لمصر. وسلم جاردنر بذلك وأضاف «أن وجهة النظر القائلة أن بردية ليدن تحتوى على إشارات ضمنية لغزو الهكسوس، تلقى دعماً يستند إلى التاريخ «ولكن الاعتبارات اللغوية تجعلنا نضع تاريخ كتابتها فيما قبل ذلك بقدر الإمكان». لقد كانت اللغة والأسلوب المستخدم فى البردية بلا أدنى شك لا ينتميان إلى لغة وأسلوب المملكة الحديثة ومن الواضح أنهما ينتميان إلى عصور سبقت المملكة الحديثة. والنص يحتوى أيضاً على إشارات عن بناء «البيوت العظيمة» (قاعات المحاكم) والتى أصبحت مهجورة أثناء أو بعد المملكة المتوسطة مباشرة».

ويجب أن نتذكر هنا أن هذه البيوت العظيمة، قد سقطت وكانت تطأها أقدام حشود الناس الذين حفروا أنقاضها إبان الفوضى، بحثاً عن أى شئ ذى قيمة وذكر هذا الأمر يشير بدقة أكبر إلى الوقت الذى انهارت فيه المملكة المتوسطة. ولذا فالبردية لا يجب أن تفهم على أنها وثيقة أدبية كتبت قبل زمن الهكسوس. أما من ناحية الشكل واللغة فقد اعترف جاردنر «أنه من الممكن أن تكون البردية قد كتبت بينما كان الهكسوس ما زالوا بأرض مصر».

والمناقشات حول ما إذا كان النص يصف الفترة التى ما بين المملكة القديمة والمتوسطة أو بين المملكة المتوسطة والحديثة، انتهت بمؤيدى الفترة الأولى إلى تسجيل الملحوظة التالية «مما لا شك فيه أنه من الحكمة أن نترك أمر إيجاد إجابة قاطعة لهذا السؤال مفتوحاً فى الوقت الراهن».

وبدورى فقد تناولت المشكلة واستعرضت جميع وجهات النظر ووجدت أن الخلفية التاريخية فى النص هى لغزو الهكسوس (كما قال سيث)، أما

الاعتبارات اللغوية، فإنها تدل على نص أدبى من المملكة المتوسطة (كما قال جاردنر) (١١٣).

وحين ندمج الاعتبارات التاريخية مع الاعتبارات اللغوية، نصل إلى نتيجة تشير إلى نهاية المملكة المتوسطة والبدايات الأولى لغزو الهكسوس. فطريقة الكتابة ستظل بلا شك منتمية إلى أسلوب المملكة المتوسطة، لأنه فى الأشهر القليلة التى تلت ذلك العصر العظيم، لا يمكن أن يحدث تغيير يذكر فى اللغة وفى الشكل الشعرى فى مثل ذلك الزمن الوجيز ... وفى خلال القرون التى سيطر فيها الهكسوس على مصر توقفت تماماً، بل انتهت كل أشكال الأدب فى مصر .. هذا بالإضافة إلى أنه من الواضح أن إيبوير ينعى مأساة زمنه الذى عاشه لا زمناً قديماً سبقه.

فى الخلاف بين جاردنر وسيث، نجد أن جاردنر على صواب فى وجهة نظره الخاصة بالشكل اللغوى، وأن آخر زمن من الممكن أن ينتمى إليه النص هو زمن الهكسوس. أما بعد ذلك فقد تغير الشكل اللغوى وطرأت عليه تطورات كثيرة ... ولكنه أخطأ حين اعتقد أن البردية تصف أحداثاً سبقت كثيراً عصر كتابتها، أى بين المملكة القديمة والمملكة المتوسطة .. وسيث على حق من وجهة نظره التاريخية فيما يختص بزمن أحداث البردية، وأن الأحداث المذكورة فى النص هى غزو الهكسوس لمصر بعد سقوط المملكة المتوسطة. ولكنه أخطأ حين اعتقد أن زمن كتابة البردية كان أثناء المملكة الحديثة. لقد كتبت البردية مباشرة بعد سقوط المملكة المتوسطة وتتفق الدلائل التاريخية واللغوية تماماً مع هذا الحل.

والغريب أن أولئك الذين حاولوا وضع الخروج فى ثنايا التاريخ المصرى، لم يجرؤوا على وضعه فى مثل ذلك الزمن القديم، الذى يقع بين المملكة المتوسطة والحديثة (زمن الهكسوس) ناهيك عن وضعه فى زمن أقدم كثيراً، أى بين المملكة القديمة والمتوسطة.

إن الخلفية التاريخية فى البردية ليست فقط غزو الآمو - الهكسوس - لمصر، ولكنها أيضاً الكارثة الطبيعية والبلاء، وهو مما يشكل فى مجموعة الملابسات التى لازمت الخروج. وعلى ضوء الملابسات نفسها، فإنه لا يوجد شك أن نسبة الأحداث إلى ما قبل ذلك - أى بين المملكة القديمة والمتوسطة - مستبعد تماماً عدا أنه يبدو مبكراً جداً لحدوث الخروج خلاله.

هل هناك أى دليل طبيعى من الممكن أن يشير إلى تغيرات كبرى قد حدثت فى التكوين الطبقى لأرض مصر فى وقت مواكب لنهاية المملكة المتوسطة فى مصر؟

لاحظ «ليبسيوس» حقيقة مدهشة وهى أن مقياس النيل عند «سيمنه» وهو موجود من عصر المملكة المتوسطة، يظهر ارتفاعاً عظيماً لمستوى الماء فى ذلك المكان، حيث يجرى النهر فوق أرض صخرية، ومقدار الارتفاع يزيد عن أعلى ارتفاع للمياه مسجل فى العصر الحديث بمقدار ٢٢ قدماً (١١٤). ونظرياً فإن هبوط مستوى المياه فى هذا الموضع بعد ذلك بمقدار اثنين وعشرين قدماً، قد يعزى إلى واحد من احتمالين، فإما إلى تغير فى كمية المياه المتدفقة فى نهر النيل من المملكة المتوسطة، أو إلى تغير فى التركيب الصخرى والطبقى لأرض مصر (١١٥). ولو كان النهر يحمل هذا القدر العظيم من الماء قبل الكارثة فإن عديداً من المعابد والمساكن كان من المفروض أن يغطى تماماً بالمياه بانتظام كل عام فى وقت الفيضان. ولكن من الواضح أن التغيير الذى تم رصده عند مقياس «سيمنه» يدل على حدوث تغيرات ضخمة فى التكوين الصخرى وطبقات الأرض بمصر فى أواخر المملكة المتوسطة أو بعدها.

وحدث الشئ نفسه فى عصر مينوان الثانى الأوسط وهو عصر حضارة جزيرة كريت والمواكب للمملكة المتوسطة فى مصر، فإن الجزيرة قد دمرت بكارثة طبيعية مروعة، كما بينت الحفريات فى مدينة نوسوس (١١٦).

وهناك نقش حجرى مصرى آخر فى غاية من الأهمية ويرجع إلى عهد الملكة حتشبسوت، التى وصلت إلى حكم البلاد بعد جيلين أو ثلاثة من طرد الهكسوس وقد كتبت فيه ما يلى:

«إن مقر «ربة كيس» قد تحول إلى أنقاض وابتلعت الأرض حرمها المقدس ولعب الأطفال فوق معبدها .. وقد أزالت عنه ما تراكم، أعدت بناءه واستعدت ما كان أنقاضاً وأكملت ما كان قد ترك بلا بناء، فقد كان هناك آمو فى وسط الدلتا وفى هاوار (حوارس عاصمة الهكسوس) وكانوا هم من دمرت قبائلهم كل المبانى القديمة وقد حكموا البلاد غير مؤمنين بالإله رع» (١١٧).

والسطور السابقة تحمل الدليل على أن تلك المعابد قد ابتلعتها الأرض، وأن الهكسوس الذين سيطروا على البلاد لم يهتموا بإصلاح ما تهدم، بل

أتوا على ما بقى منها قائماً .. صحيح أن الهكسوس دمروا ولكنهم لم يدفنوا المبانى فى الأرض. «فهل ذلك يعنى أن المعابد دفنت فى الأرض بسبب زلزال؟» (١١٨)

فى كل المصادر المصرية الثلاثة المذكورة سابقاً من بردية ليدن (ايبوير) وحجر العريش وبردية الأرميتاج وكما فى نقش حتشبسوت، وصفت الكارثة الطبيعية وغزو الآمو - الهكسوس - للبلاد كحدثين متتابعين، وأن الكارثة الطبيعية كانت عبارة عن سلسلة متتابعة من ثورة الأرض والطبيعة، وأن غزو شعب من آسيا لأرض مصر قد تم قبل أن تهدأ تماماً عوامل ثورة الطبيعة وتعود إلى مجراها العادى.

فى أحيان كثيرة وعلى مدى التاريخ، كان عديد من الباحثين والمؤلفين يقرنون الإسرائيليين بالهكسوس (آمو)، ووضع مفكرون آخرون وصول الإسرائيليين إلى مصر فى عصر حكم الهكسوس لمصر، كما وضعوا خروجهم منها إبان حكم أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة.

وأغلب الباحثين يظنون أن إقامة الإسرائيليين بمصر كانت فى فترة متأخرة عن ذلك كثيراً، وينسبون الاضطهاد إلى رمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة، كما ينسبون الخروج إلى عصر خليفته ميرنبتاح (١١٩).

لقد توصلت إلى نتائج مختلفة تماماً. فالإسرائيليون قد غادروا مصر أثناء تفجر كارثة طبيعية كبرى، والآمو الذين غزوا مصر وأصبحوا سادة البلاد بعد الكارثة مباشرة لم يكونوا من الإسرائيليين. والمعتقدات الإسرائيلية المتوارثة ربطت بشكل قاطع بين مغادرتهم أرض مصر، وبين تلك الأيام حين كانت الأرض والسماء والبحر تتنافس فى قوة غضبها وتدميرها. وعلى العكس من ذلك لا تحتوى تلك المعتقدات على أى شئ عن حلولهم بأرض مصر فى أيام اضطرابات الطبيعة والزلازل.

وأن «مسيرات السكان» أو «الناس الفقراء» الذى غادروا البلاد فى ظل تلك الظروف ذاتها، لم يكونوا إلا الإسرائيليين مع جماعات من المصريين الذين صاحبوهم فى الخروج (١٢٠)، وأن الآمو - الهكسوس - وصلوا أرض مصر وحكموها بعد فترة قصيرة من الكارثة.

لو كانت المقارنات السابقة والنتائج المترتبة عليها صحيحة، فإن خروج الإسرائيليين سبق بأيام قليلة أو أسابيع غزو الهكسوس لمصر.

هوامش الفصل الأول

1. The name Hyksos as "rulers of foreign countries" is found in the Egyptian text of the Turino Papyrus and on a few scarabs.
2. The Seventeenth Dynasty is generally regarded as the native dynasty of princes in submission to, and then in revolt against, the last kings of the Sixteenth, the Hyksos, Dynasty. But in Manetho's list, as given by Julius Africanus and Eusebius, the Seventeenth Dynasy is the last of the Hyksos,
3. The divison into kingdoms is modern, but the Egyptians themselves had similar concepts of their past. Compare H. Ranke in Chronique d'Egypte, VI (1931), 277, 86.
4. T. E. Peet, Egypt and the Old Testament (Liverpool, 1922), p. 7.
5. Manetho, though making the Hyksos expelled from Egypt the builders of Jerusalem, told another story, that he assigned to a later epoch, in which he related that lepers, segregated in Auaris on the eastern border of Egypt, usurped the power in Egypt with the help of the Solymites (the people of Jerusalem) and utterly cruel, and their chief osarsiph adopted the name of Moses and led them to Palestine when they were expelled. Josephus did not separate the two Manetho stories.
6. Julius Africanus, "Chonography", in The Ante-Nicene Fathers, ed. A. Roberts and J. Donaldson (New York, 1896), VI, 134. There he confused

Ahmose I, the first king of the New Kingdom, with Ahmose II (Amasis of Herodotus), the last king before the conquest of Egypt by Cambyses, the Persian.

But in his Canon condensing the list of Dyhasties of Manetho, he added this remark to the list of the kings of the Eighteenth Dynasty: "The first of these was Amos {Ahmose}, in whose reign Moses went forth from Egypt, as I have declared; but, according to the convincing evidence of the present calculation it follows that in this reign Moses was still young." Manetho (trans. W. G. Waddell; Loeb Classical Library, Cambridge, Mass., 1941), p. 111.

7. Georgius Syncellus, a Byzantine chronographer, who copied Eusebius added: "Eusebius alone places in this reign the Exodus of Israel under Moses, although no argument supports him, but all his predecessors hold a contrary view-as he testifies."

8. Augustine, The City of God. BK. 18, Chap. 8.

9. Cf., for instance, A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria (New York, 1931), p. 128.

10. H. R. Hall, "Israel and the Surrounding Nations", in The People and the Book, ed. A. S. Peake (Oxford, 1925), p. 3; Sir E. A. W. Budge, Egypt (New york 1925), p. 110, A. H Gardiner, in Erudes champollion, 1922, pp. 205ff.; Journal of Egyptian Archeology, X (1924), 88.

11. Hall, in The People and the Book, ed. Peake, P. 7.

12. Scholars writing in English have no unified method of transliterating the guttural letters in Semitic languages. The Cambridge Ancient History achnowledges the inconsistency, in some cases following the established spelling of names in English, in others preferring the closest phonetic equivalents.

13. Eduard Meyer, Geschichte des Altertums, Vol. 2, Pt. II (2nd ed.; Stuttgart, 1931), p. 214.

14. John Garstang, The Foundations of Bible History (New York, 1931): "The Israelite invasion ... corresponds with a period of apathy under Amenhotep III."
15. Peet, Egypt and the Old Testament, pp. 74-75.
16. Hall, in The People and the Book, ed. Peake, p. 7.
17. Sir W. M. Flinders Petrie, Palestine and Israel (London, 1934), p. 56.
18. S. Freud, Moses and Monotheism (New York, 1939). Compare Strabo, The Geography, XVI, 2, 35.
19. This view is found in R. Lepsius, "Extracts from the Chronology of the Egyptians", in his Letters from Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai (London, 1853), p. 449. Even before the discovery of the Merneptah stele, he was identified by not a few scholars as the pharaoh of the Exodus, because his predecessor, Ramses II, was thought to be the Pharaoh of Oppression. This role was ascribed to Ramses II because of the mention of the city of Ramses in the Book of Exodus. The adherents of the Habiru theory do not regard this as a weighty argument. "Plusieurs historiens remarquant que ces villes {Ramses and Pithom} sont antérieures à Ramsès II estiment que les travaux en question ont pu être ordonnés par un roi de la XVIII Dynastie." P. Montet, Le Drame d' Avaris (Paris, 1941), p. 144.

Under the statue of Merneptah in the hall of the Metropolitan Museum of Art in New York, until recently a sign by a modern hand read, "Pharaoh of Exodus", and under that of Ramses II, "Pharaoh of Oppression". See H. E. Winlock, The Pharaoh of the Exodus, Metropolitan Muesum Bulletin 17 (New York, 1922), pp. 226-34.

20. "If Israel did not leave Egypt until the reign of Merneptah, and if they spent about forty years en route to Palestine, how could Merneptah have defeated them in Palestine in the third year of his reign?" S. A. B. Mercer, Tutankhamen and Egyptology (Milwaukee, 1923), pp. 48ff.

21. Hall, in The People and the Book, ed. Peake, p. 7.

22. In an inscription of Ramses II, and also in one of his predecessor Seti, there is mention of Asher in Palestine, which is the name of one of the Twelve Tribes. This reference and other similar instances led scholars to suppose that the Exodus took place in successive waves.

23. S. A. B. Mercer, Extra-Biblical Sources for Hebrew and Jewish History (New York, 1913). He identifies the Habiru as Hebrews, and the Pharaoh of Oppression as Ramses II, one hundred years later.

24. Peet, Egypt and the Old Testament, p. 124, referring to the theory of Driver and others.

25. Cf. W. F. Albright, The Archaeology of Palestine and the Bible (New York, 1932), p. 144, ascribing Exodus to the early thirteenth century. However, Albright advocates the sojourn of the Israelites in Egypt in the days of the Hyksos.

26. Petrie, Palestine and Israel, P. 58.

27. Albright, quoted by Petrie, Palestine and Israel, p. 57. Bethel fell "sometime about the first half of the thirteenth century, in Albright's opinion"-thus Wright, "Epic of Conquest", Biblical Archaeologist, III (1940), p. 36.

28. B. D. Eerdmans, Alttestamentliche Studien (Giessen, 1908), II, 67.

29. Garstang, The Foundations of Bible History, p. 51.

30. S. W. Baron, A Social and Religious History of the Jews (New York, 1937), I, 16.

31. Hugo Winckler, Kritische Schriften (Berlin, 1901-7), I, 27. Cf. also Peet, Egypt and the Old Testament, p. 21: "The sojourn may well have been on so small a scale that the Egyptians never thought it worthy of recording."

32. Variations, with somewhat differing sequences of the plagues, are found in Psalms 78 and 105.

33. The details of the story ought to be regarded as no less mythical that the details of creation as recorded in Genesis."A. H. Gardiner, in Etudes Champollion. 1922 p. 205.

34. Eduard Meyer says that the only plague, in the early version of the legend, was that of the locusts (Die Israeliten und ihre Nachbarstämme {Halle, 1906}, p. 30). He says also, "There is no folkloristic tradition in the tale of the plagues. They are the creation of the narrator" (ibid., p. 31).

35. H. Gressmann, Mose und seine Zeit (Göttingen, 1913), p. 107.

36. Ibid., p. 108.

37. Ibid., p. 73.

38. Ibid., p. 92.

39. Vansleb (1677) observed that water in the Nile changed its color from green to ocherous red. "When the Nile first begins to rise, toward the end of June, the red marl brought from the mountains of Abyssinia stains it to a dark colour, which glistens like blood in the light of the setting sun." A. . Sayce, The Early History of the Hebrews (London, 1897), p. 168.

40. Gressmann, Mose und seine Zeit, p. 117: "The picture is drawn so graphically that every detail is clear before the eyes and one would almost think of a realistic description of historical events, but for the miracles. Thus the vividness of description is also a mark of a saga."

41. So A. H. Gardiner, Etudes Champollion, 1922, pp. 205ff.; Journal of Egyptian Archaeology, X (1924), 82f.

42. See, for example, S. R. Driver, The Book of Exodus in the Revised Version (Cambridge, England, 1911), p. 113: "...the variously attested custom of a brazier filled with burning wood being borne at the head of a caravan of pilgrims."

43. London, 1873.

44. Exodus 19: 16, 18; 20: 18.

45. Dean Arthur p. Stanley, Lectures on the History of the Jewish Church (New York, 1863-76), I, 167.

46. Charles Beke, Discoveries of Sinai in Arabia and of Midian (London, 1878), p. 561.

47. Ibid., p. 436.

48. H. Gunkel, Deutsche Literaturzeitung, 24 (1903), col. 3058f.

49. Meyer, Die Israeliten und ihre Nachbarstämme, pp. 69ff.; H. Gressmann, Der Ursprung der israelitisch-jüdischen Eschatologie (Göttingen, 1905), pp. 31ff.; also Gressmann, Mose und seine Zeit, pp. 417ff. A Musil identified Mount Sinai with the extinct volcano al-Bedr.

50. Meyer, Geschichte des Altertums, Vol. II, Pt. 2 (2nd ed.), p. 210: "So kann Kein Zweifel bestehen, dass der Sinai in einem der zahlreichen jetzt erloschenen Vulkane der Harra's zu suchen ist"; compare ibid., p. 205: "It is very possible that the saga {of the Sinai experience} belonged first to some tribe of the Sinai Peninsula, and then was taken over by the Israelites as a great act of Yahwe."

Gressmann (Mose und seine Zeit, p. 418) also denied the visit of the Israelites to Mount Sinai.

51. Psalms 18: 7-8, 15.

52. Psalms 97: 4-5.

53. Job 9: 5-6.

54. Judges 5: 4-5.

55. Psalms 18: 15.

56. Psalms 77.

57. Psalms 60: 2-3.

58. Numbers 16:32.

59. Exodus 15: 23; Psalms 107: 33-35.

60. C. Leemans, Aegyptische Monumenten van het Nederlandsche Museum van Oudheden te Leyden (Leiden, 1846), Pt. 2, Face: Plates 105-13.

61. By F. Chabas, reprinted in Bibliothèque égyptologique, X (Paris, 1902), 133ff., especially 139-40.

62. F. J. Lauth, "Altaegyptische Lehrsprüche", Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-philologische und historische Classe (1872).

63. H. K. Brugsch, cited by Lange (see note 65).

64. H. O. Lange, "Prophezeiungen eines aegyptischen Weisen", Sitzungs berichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1903, pp. 601-610.

65. Published in Leipzig.

66. Gardiner, Admonitions, note to 1: 8.

67. "Er steht vor dem Allherscher, was sonst ein Epitheton der grossen Goetter ist, hier aber wohl den König bezeichnet." Lange, Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1903, p. 602.

68. The other Hebrew word for "noise", shaon, also means "earthquake". See S. Krauss, "Earthquake", The Jewish Encyclopedia (New York, 1901-1906).

69. The Bible quotations are from the King James version; the quotations from the text of the papyrus are from the translation by A. H. Gardiner.

70. In Psalms 105: 33 this plague is described: "He smote {with hail} their vines also and their fig trees; and brake the trees of their coasts."

71. See the Notes to the text of Gardiner, Admonitions, with a reference to Papyrus Leiden 345 recto, 1.3.3.

72. Jeremiah 2: 6.

73. Gardiner accompanies the translation of the word "to overturn" With an explanatory example: "To overthrow a wall".

74. J. Levy, Wörterbuch über die Talmudim und Midrashim (Vienna, 1924).

75. In his notes to another Passage Gardiner translates "storehouse" as

"prison".

76. Eusebius, Preparation for the Gospel (trans. E. H. Gifford; Oxford, 1903); Book IX, Chap. xxvii.

77. Ibid.

78. Cf. Louis Ginzberg, Legends of the Jews (1925), III, 5-6.

79. Compare C. S. Osborn, The Earth Upsets (Baltimore, 1927), p. 127, on the earthquake at Valparaiso, Chile, the night of August 15, 1906: "I visited the scene as soon as I could get there. Untombed coffins protruded from the graves in hillside cemeteries that had shaken open."

80. Midrash Rabbah (English trans. edited by H. Freedman and M. Simon; London, 1939), 10 vols.

81. According to the haggadic tradition, not only the firstborn but the majority of the population in Egypt was killed during the tenth plague.

82. Bechor, to choose, select, prefer; bachur, a young man, is of the same root-Bekhor, to be early, produce first fruits, to be first in ripening. Levy, Wörterbuch über die Talmudim und Midrashim.

83. Ginzberg, Legends, II, 369.

84. V. Guérin, Judée (Paris, 1869), II, 241.

85. F. L. Griffith, The Antiquities of Tell el Yahudiyeh and Miscellaneous Work in Lower Egypt during the Years 1887-1888 (London, 1890) (published with Naville, The Mound of the Jew and the City of Onias).

86. Georges Goyon, "Les Travaux de Chou et les tribulations de Geb d'aprés le Naos 2248 d'Ismailia", Kêmi, Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes, VI (1936), 1-42.

87. In A. S. Yahuda, The Accuracy of the Bible (London, 1934), on p. 84, we find the following passage: "In the 'Myth of the God-Kings' which is as old as Egypt itself it is said that the world was filled with darkness and the text proceeds literally, 'and no one of the men and the gods could see the face of the other eight days'. The Hebrew author was less fantastic

and excessive than his Egyptian predecessor and therefore reduced the 8 days to only 3." With this remark the author of The Accuracy of the Bible contented himself.

88. Ginzberg, Legends, II, 359-60; V, 431-39. Among the sources are Midrash Shemoth Raba, midrash Shir Hashirim Raba, Targum Yerushalmi, Mid rash Tanhuma Hakadom Hajashan, Sefer Hajashar, Sefer Mekhilta Divre Ishmael.
89. Jewish Antiquities, II, 14, 5.
90. Vita Mosis, I, 21.
91. Ginzberg, Legends, II, 359-60.
92. Ibid.
93. Ibid.
94. See the reading of A. S. Yahuda, note 87, above.
95. Josephus, jewish Antiquities, II, 14, 5. Ginzberg, Legends, II, 345.
96. Griffith, The Antiquities of Tell el Yahudiyeh, p. 73.
97. "N' est connu que par cet exemple; sans doute peu éloigné de Saft el Henneh on sur la route de Memphis à pisoped." Goyon. Kémi, VI (1936), 31 note 4.
98. "Ha" in Pi-ha-Khiroth is the Hebrew definite article. It belongs between Pi and Khiroth. The vowels in the translation of the Egyptian text are a conjecture of the translator: the name can also be read Pi-Khirot.
99. Goyon, Kêmi, VI (1936), II (text), and 27 (translation).
100. The treasury, city of pithom was discovered by E. Naville in 1885 at Tell el Maskhuta, and identified with the help of an inscription.

The name of the other city, Ramses, was largely the reason why Ramses II of the Nineteenth Dynasty was identified as the Pharaoh of Oppression. It is well to remember that "second: is our modern reckoning of kings, and Ramses of the Nineteenth Dynasty may have had some predecessors of the same name in pre-hyksos dynasties. Ramses could also be a city

named for divinity. It is also possible that the name of the city Ramses (Exodus 12: 37) is a later name of the place; similarly we call by the name Tell el-Amarna the historical Akhet-Aton. The argumeht of the Ramses city was sometimes raised against the identification of the Habiru with the Israelites.

101.Gutschmidt and Reinach read the name Tuqtos. See Josephus, Against Apion (trans. H. St. Thackeray; London, New York, 1926), I, 75, note.

102. See note 14.

103. A. H. Gardiner, "New Literary Works from Ancient Egypt", Journal of Egyptian Archaeology, I (1914), 100-106.

104. Compare Psalms 23: 4; 44: 19; 107: 10, 14; Isaiah 9: 2; 51: 16; Jeremiah 13: 16; Amos 5: 8; Job 24: 17; 28: 3; 34: 22, etc.

105. A thick veil of clouds over the desert is mentioned repeatedly in the scriptures and in the Talmud and Midrashim.

106. However, his being pictured as black may refer to his being worshiped as a deceased saint.

107. Literature on this prophecy is found in G. Manteuffel, De opusculis graecis Aegypti ...(Warsaw, 1930); Mélanges Maspero, II (1934), 119-27.

108. H. Ranke in Gressmann, Altorientalische Texte (Tübingen, 1909), pp. 207-208; "Der Name Amenophis weist jedenfalls auf einen der Amenhotep der XVIII Dynastie:.

109. Gardiner, Admonitions, p. 3.

110. Ibid., p. 2.

111. Ibid., p. 17.

112. In this case "Amu" would designate not only the Hyksos people, but Asiatics generally.

113. Both Sethe and Gardiner regarded the text as not contemporaneous with the events described, but in discussing the age of the text, Sethe saw in it

a description of the events of the Hyksos period and considered the beginning of the New Kingdom as the time of the composition; Gardiner thought the Middle Kingdom, or perhaps the Hyksos period, was the time of the composition.

114. Lepsius, Letters from Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai, pp. 19-20: "Semneh. The Nile is here compressed within a breadth of only about 1150 feet between high rocky shores. ... We found a considerable number of inscriptions from the Twelfth and Thirteenth Manethonic Dynasties. ... Many of them were intended to indicate the highest rising of the Nile during a series of years, especially in the reigns of the Kings Amenemhet III and Sebekhotep I, and by comparing them, we obtained the remarkable result, that about 4000 years ago the Nile used to rise at that point, on an average, twentytwo feet higher than it does at present."

But compare L. Borchardt, Altägyptische Festungen an der zweiten Nilschwelle (Leipzig, 1923), p. 15, and S. Clarke, Journal of Egyptian Archaeology, III (1916), 169; also Borchardt, "Nilmesser und Nilstandsmarken", Anhang of the Abhandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1906, pp. 1-5, and Sitzungsberichte, 1934, pp. 194-202.

115. The Nile was low at least temporarily after the catastrophe, as "references to foreign invaders, to the scanty Nile and to a veiled or eclipsed sun" are "much of the characteristic stock-in-trade of the Egyptian prophet". Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, I (1914), 101.

116. Sir Arthur. J. Evans, The Palace of Minos (London, 1921-35), III, 14.

117. Inscription at Speos Artemidos. W. M. Flinders Petrie, A History of Egypt: During the Seventeenth and Eighteenth Dynasties (7th ed.; London, 1924), II, 19. Breasted, Records, II, 300ff., differs in translation. A new translation was published by Gardiner, Journal of Egyptian

Archaeology, XXXII (1946), 46f.

118. Old Midrash sources narrate that the walls of Pithom and Ramses fell and were partly swallowed by the earth, and that many Israelites perished on that occasion. If the place Edouard Naville identified as Pithom (The Store-City of Pithom and the Route of the Exodus {2nd ed.; London 1885}) is the site mentioned in the Book of Exodus, excavation into deeper strata (Naville explored the level of the Nineteenth Dynasty, as he referred the Exodus to that time) may show whether or not this Midrash account is legendary.

In general, the swallowing up of cities and villages in earthquakes is authenticated.

119. "It is not easy to understand what the queen means. ... I translate, as Golenischeff does, 'the land which had swallowed up the sanctuary'. Does this mean that the temple disappeared in an earthquake?" Edouard Naville, "The Life and Monuments of Hatshopsitu" in The Tomb of Hatshopsitu by Theodore M. Davis (London, 1906), p. 69.

120. Exodus 12

الفصل الثانى

الهكســـــوس

من هم الهكسوس

يعد المؤرخ المصرى مانيتو الذى عاش فى العصر البطلمى مصدرنا الرئيسى فيما يخص غزو الهكسوس لمصر (وتاريخه لمصر بنسخته الأصلية لم يعثر عليه)، ولكن بعض المقاطع التى تتعلق بهذا الغزو حفظت بالنقل فى كتب جوزيفوس فلافيوس وأيزيبيوس - وسيكتس جوليوس الأفريقى (١).

وأغلب ما حفظ من كتاب ما نيتو الثانى عن مصر وتاريخها كان فى مخطوطة جوزيفوس والتى سماها «ضد آبيون» وكان ما حفظ بتلك المخطوطة يفوق كثيراً كل ما سجله أيزيبيوس وجوليوس الأفريقى .. والمقطع الأول من مخطوطة جوزيفوس يبدأ كما يلى:

سوف أسجل كلماته (مانيتو) كما هى كما لو كنت قد استدعيت الرجل نفسه إلى منصة الشهادة: خلال حكم تيوتيموس ولسبب غير معروف وقع على البلاد غضب إلهى فاق فى تدميره الخيال وبلغت الجرأة بشعب من شعوب الشرق المجهولة الوضيعة الأصل أن يقدموا على غزو البلاد حيث حكموها بالقوة وبلا أدنى مقاومة أو معركة (٢).

من أين أتى الهكسوس؟ اختلفت نظريات الباحثين كثيراً حول إجابة هذا السؤال .. أكد بعضهم أن «الهكسوس من الميتانيين الذين إنحدروا عن الجنس الآرى (٣) ». واعتقد آخرون أنهم ساسانيون من بلاد فارس. وبقى غيرهم وعلى مدى ألفى عام يفترضون أن الهكسوس هم الإسرائيليون الذين تحكى التوراة تاريخ إقامتهم فى مصر بقصة مختلفة عن ذلك تماماً،

وأخيراً كان هناك - أيضاً - من يشكك فى الحقيقة المجردة لغزو مصر على أيدى قبائل تسمى الهكسوس حيث بذل أحد الباحثين جهداً فائقاً أكثر من غيره (٤)، فى البحث عن بقايا أو آثار لما يسمى أسر الهكسوس فى مصر (٥)، وعلى أية حال فإنه لم يجد مؤيدين لفرضيته وحتى فى عصر مانيتو فإن أصلهم لم يكن معروفاً على وجه التعيين، وكل ما سجله عنهم أن «البعض يقول إنهم كانوا عرباً» (٦).

وقد كتب مانيتو باليونانية مفسراً أصل تسميتهم بالهكسوس ما يلى: «لقد حمل جنسهم بوجه عام اسم الهكسوس، والذى يعنى تفصيلا ملوك الرعاة حيث تعنى «هيك» فى اللغة المقدسة ملك و «سوس» من اللغة اليونانية الدارجة وتعنى راع أو رعاة. واجتماع الشقين يكون كلمة هكسوس (٧)، وكما لوحظ فى الفصل السابق فإن ما تبقى من آثار الحضارة المصرية المدوّن يطلق على الهكسوس اسم (آمو).

كان الهكسوس من الشعوب التى تشربت حتى النخاع بروح التدمير والتحطيم وعلى قدر ما هو معروف لم يشدْ الهكسوس أثراً أو نصباً تذكارياً ذا قيمة تاريخية أو فنية طوال فترة حكمهم، ولم تنتعش أية أعمال أدبية أو فكرية فى عصرهم باستثناء برديات العويل والنواح كبردية أيبوير ولم تبق إلا ذكرى الشر المطلق لتلك القبائل والتى حفظها مانيتو/جوزيفوس (٨) فى تاريخهما لحكم الهكسوس.

وحتى الكتب المقدسة لم تحتو على أية معلومات عما حدث فى مصر بعد مغادرة الإسرائيليين الذين رحلوا فى إبان جيشان عنيف للأرض تاركين خلفهم مذبحة دامية وتضيف بردية ايبوير بعض المعلومات إلى التسجيلات السابق ذكرها، فهى تحكى عن غزاة كانوا مصدر تعاسة وعذاب وهوان لكل أرض مصر فالبلاء العاشر لم يكن الأخير .. وكان ما يزال هناك بلاء آخر يتبعه، هو بلاء الغزو على أيدى غزاة قساة قهروا ما كان قبل قليل مملكة قوية مكينة أحالتها الكوارث إلى دولة ممزقة منهكة فأخضعوها دون أدنى مقاومة، وانتهكوا حرماتها المقدسة واغتصبوا من نسائها من بقى منهن على قيد الحياة واستعبدوا رجالها بعد أن قتلوا ما يربو على عشرهم ودمروا المعابد كلية أو ما بقى منها قائماً ونبشوا مقابر الموتى ونهبوها ثم مثلوا بالأحياء وقطعوا أطرافهم. إننا نقرأ شكوى واتهاماً

واحداً ممن بقوا أحياء بعد غضبة الأرض المرتجفة وممن شهدوا البؤس الذى سببه عدو قاس طاغ. وبمقارنة الأدلة من سفر الخروج وتلك التى وردت فى بردية ايبوير يتضح أن البلاء الحادى عشر تبع البلاء العاشر حين كان الإسرائيليون قد أصبحوا خارج أرض مصر، لقد ترك الإسرائيليون البلاد مدمرة تحت وقع ضربات السماء - وشعب آخر - أسماه المصريون آمو - اجتاح أرض مصر مستغلا حالة الإنهاك التى كانت عليها البلاد لصالحه، ولم تكن ثورة الأرض قد انتهت بعد، وكانت آثارها ما زالت تتوالى حين غزاها الآمو.

لقد قدم الغزاة من آسيا وذلك محدد بوضوح فى بردية ايبوير، ولقد تحرك الإسرائيليون باتجاه آسيا والقارتان - آسيا وأفريقيا - مرتبطتان بقطعة صغيرة مثلثة من الأرض (سيناء) وكانت هناك احتمالات كبيرة جداً بأن يلتقى اليهود المتحركون باتجاه آسيا بشعوب الآمو الغزاة السائرين باتجاه أرض مصر فهل تقابلوا ؟ لقد تقابلوا فعلا.

الإسرائيليون يقابلون الهكسوس

لقد قابل الإسرائيليون - حتى قبل وصولهم إلى جبل سيناء - مجموعات من الهكسوس - ففى ميريبا عند سفح جبل حوريب كان الشعب الإسرائيلى يعانى من الظلم فى واد صخرى « أتى العماليق وقاتلوا الإسرائيليين عند رافيديم (سفر الخروج) وصعد موسى وهارون وحور إلى قمة التل وراحوا يصلون هناك حينما كان يشوع يقاتل العماليق، وفى بعض مراحل القتال كانت كفة العماليق ترجح، ولكن سفر الخروج يذكر (١٧: ١٣ - ١٦) هزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف، فقال الرب لموسى «اكتب هذا تذكاراً فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع فإنى سوف أمحو ذكرى عماليق من تحت السماء فبنى موسى مذبحاً ودعا اسمه يهوَنسّى وقال إن اليد على كرسى الرب وللرب حرب مع عماليق من جيل إلى جيل» وذكرت كتب الأحبار فى هذا الشأن أن يشوع واجه أربعمائة ألف عماليقى (٩)، وكان النصر فى رافيديم مكلفاً ففى هذه المعركة رجحت كفة الإسرائيليين فقط، حين ضغطوا على أعدائهم بشدة بعد أن كانوا

أقرب للهزيمة.

لم تكن تلك إلا واحدة من المعارك ضد العماليق، فإن الإسرائيليين بعد أن غادروا مصر تعرضوا لهجمات فى كل الاتجاهات التى ساروا إليها، كانت هناك قبائل الصحراء المرتحلة فى جماعات كبيرة تجاه سوريا ومصر، وكان منها جماعات تخصصت فى المناوشات والإغارات الليلية والهجمات المتقطعة، وعلى معاناتهم من نقص المياه فى صحراء غطاها الغبار والرماد بعد ثورة الطبيعة فقد ابتلى الإسرائيليون بناهبين لا يعرفون الرحمة حيث سرقوا ونهبوا ما استطاعوا الوصول إليه. لقد خلق ما حدث عند البحر كما تقول «الهاجادا» نوعاً من الذعر والفزع لدى الوثنيين من سكان الصحراء، ولذا لم يتعرض أحدهم للإسرائيليين وتلاشى هذا الذعر بمجرد أن هاجمهم العماليق (١٠)، وكان الاقتراب من أرض كنعان مغلقاً فى وجه الإسرائيليين فالعماليق يسكنون فى الجنوب (١٣: ٢٩) ولقد عرف القوم فى البرية هذا الأمر من الإثنى عشر رجلا الذين أرسلوا فى مهمة استطلاعية لاستكشاف أرض كنعان «وليزداد الخوف إلى حده الأقصى» كما تقول المدراشيم فقد خوفهم المستطلعون من سكان فلسطين حين ذكروا «أن العماليق تسكن فى أقصى الجنوب» وفيما يختص بالعبارة الأخيرة فقد كانت صائبة فبالرغم من أن جنوب فلسطين لم يكن أصلا وطناً للعماليق ولكنهم كانوا قد حلوا به مؤخراً. أما الشعب الذى تلقى الرسالة من المستكشفين الإثنى عشر فقد «بكى طوال الليل» (١٤: ١) «هل كتب علينا الرب أن نموت فى أرض مصر أو كتب علينا أن نموت فى هذا القفر» (١٤: ٢).

ولنتخيل ذلك الخوف الهائل الذى اعتراهم فإننا يجب أن ندرك أن العماليق لم يكونوا مجرد مجموعات من بدو الصحراء وقاطعى الطرق ولكنهم كانوا أكبر قوة بين شعوب تلك المنطقة.

فى البداية اتهم موسى الإسرائيليين بأنهم يحاولون اختراق أرض كنعان من حدودها الجنوبية، ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا خائفين وهمّوا برجم قائدهم ثم جاءتهم الإدانة: قطعاً لن يروا الأرض التى وعد بها آباؤهم وقد حكم عليهم أن يتوهوا فى البرية أربعين عاماً. ولقد قال لهم سفر الأعداد (١٤: ٢٠) «الآن يسكن العماليق والكنعانيون فى الوادى وغداً

تعودون إلى البرية على طريق البحر الأحمر».

لقد أرعبت الصحراء بتجربتها المريرة وزلازلها وتشققات أرضها ولهيبها المنبعث من الصخور واختفاء ينابيع المياه كل الإسرائيليين: قتل الطاعون منهم آلافاً ولازال لحم طيور البرية بين أسنانهم. طيور السمان التى أجبرت على الفرار كما فر الإسرائيليون من مصر. وكذا عماليق الجزيرة العربية وبدو الصحراء الذين فروا إلى حيث يعيش البشر والجراد الذى حملته الرياح إلى البحر الأحمر، مسكن الإنسان ومأوى وحش البرية وأعشاش الطيور أصبحت كلها غير آمنة. وغريزة التجوال القوية تيقظت بشدة لدى الجميع وسعى الإسرائيليون باتجاه أرض كنعان أرض أجدادهم، وأثبطت همتهم حين واجهوا خيار الدخول فى معركة ضد العماليق أو العودة إلى البرية، وحياة التجوال فى القفر المعزول أرعبتهم وفى يأس قرروا أن يحاربوا ويشقوا طريقهم إلى أرض كنعان. وهنا قال موسى (سفر الأعداد) «١٤: ٤٢ - ٤٥» «لا تذهبوا هناك لأن الرب لن يكون معكم لأن العماليق والكنعانيين هناك من قبلكم وستسقطون قتلى بالسيوف» ولكنهم قرروا الذهاب.

ثم نزل العماليق إلى الجنوب، وكذلك الكنعانيون الذين يسكنون ذلك التل وقهروهم وطاردوهم حتى حورماه، وكانت تلك هى المعركة الثانية بين الإسرائيليين والعماليق، ويشد انتباهنا تلك الملحوظة التى وردت فى المدراشيم من أن جنوب فلسطين لم يكن أصلاً موطناً للعماليق، وأنهم كانوا قد احتلوا ذلك المكان مؤخراً، كانوا بالكاد قد انتهوا من احتلاله بدليل أن القادمين من مصر لم يكن لديهم أدنى فكرة عن وجود العماليق بتلك المنطقة: ولقد انقسم العماليق، فى طريق هجرتهم وتحولوا فى توقيت واحد إلى مصر وإلى جنوب فلسطين. وبسبب وجود العماليق فى جنوب فلسطين اضطر الإسرائيليون أن يتجولوا فى الصحراء على مدى جيل كامل، وعند هذا الموضع وقبل أن نقدم الأدلة كاملة من المصادر العبرية والعربية والتى ستبنى عليها النقطة الأساسية فى الكشف عن هوية الهكسوس يجدر بى أن أوجه سؤالا: فلو كان الهكسوس قد جاءوا فعلا من الجزيرة العربية «فهل من الممكن التوصل إلى بعض الأدلة لإثبات هذه الحقيقة من مصادر بالجزيرة العربية ذاتها»؟

إن المخطوطات العربية القديمة عند فحصها زودتنا بالدليل، ولذلك سنتناول بالمقارنة المصادر الثلاثة معاً. وهى المصرية والعبرية والعربية.

كان العماليق قبيلة عربية قديمة سادت الجزيرة العربية من قديم الزمن، وفى سفر التكوين من التوراة، وعند نسب القبائل كتب أن العماليق كانوا ذرية أليفاز بن إيسو بن إسحاق (١٢)، ولكن من الواضح أن ذلك لا يشير إلى عماليق الذى كان أبًا للقبيلة وسفر التكوين به تسجيل آخر فقبل تدمير سادوم: كان العماليق فى حرب مع ملوك بلاد الرافدين الذين كونوا تحالفاً قوياً والعماليق الذين اشتركوا فى هذه المعارك فى أيام إبراهيم لا يمكن أن يكونوا نسل عماليق بن إيسو بن إسحاق نفسه.

وهذا يثبت أن العماليق المعنيين من أصل مختلف، وليسوا من القبائل العشر المنتسبة إلى إبراهيم.

والمؤرخون المسلمون اعتبروا العماليق واحدة من أقدم القبائل العربية حيث ذكر أبو الفدا وهو مؤرخ عربى من القرن الثالث عشر ما يلى: كان لشيم ابن نوح عديد من الأبناء منهم لاود الذى أنجب فارس وجورجان وقاسم وعماليق (١٣). وهكذا نسبت هذه القبائل إلى أصلها الأول. ولكن هناك مؤرخون مسلمون آخرون أعلنوا أن هذه القبائل العربية تنتمى إلى حام ويذكرون تسلسل نسبها طبقاً لذلك (١٤).

ولقد حكم العماليق من مكة. ومن ذلك الموضع المركزى فى شبه الجزيرة سيطروا على بقية القبائل العربية، وكل بقاع شبه الجزيرة التى كانت على مرمى أقواسهم وسهامهم إلى أن حدث جيشان الأرض.

جيشان الأرض فى شبه الجزيرة العربية

«لقد كان هناك فيضان على درجة كبيرة من القوة وانفجارات كنست الناس كنساً واهتزت الأرض بعنف وسبق تلك الكارثة الكثير من البلاء».

كان هذا بعض مما نقله أبو الفرج الأصفهانى (٨٩٧ – ٩٦٧م) فى كتاب الأغانى ويقول «لقد نقل إلينا عبر الأجيال أن العماليق قد انتهكوا حدود الأرض المقدسة فحلت عليهم نقمة الله وأرسل عليهم النحل فى أصغر أحجامه مما أجبرهم على ترك مكة ثم أرسل الله عليهم قحطاً ومجاعة

وأظهر لهم سحباً بعيدة فى الأفق فرحلوا باتجاهها حين ظنوا أنها قريبة منهم، ولكن لم يصلوا إليها فاستمروا سائرين يلاحقهم الجفاف خلف أعقابهم وساقهم الله إلى منشأهم حيث أرسل عليهم الطوفان ».

لقد ضرب الزلزال مدينة سبأ وهى فى جنوب شبه الجزيرة العربية كما ضرب مكة وآلاف الأميال من ساحل تهامة، وكل قبائل شبه الجزيرة بلا استثناء عانت كثيراً من ذلك الحدث المفزع.

كما كتب المسعودى الذى توفى عام ٩٥٦م. عن الكارثة نفسها واصفاً السحب السريعة والنحل وكل علامات الغضب الإلهى حين لقى كثيرٌ حتفهم فى مكة. كما وصف السيل الجارف الذى ضرب أرض جهينة وأغرق كل منشآتها فى ليلة واحدة، وعرفت هذه الكارثة بين العرب باسم أيدام أو الغضب وكتب أمية ابن أبى السلط من قبيلة ثاقف أبياتاً من الشعر عن الكارثة، وكان معناها أنه فى الزمن الماضى تعرض الجرهميّون الذين سكنوا فى أرض تهامة لفيضان عاتٍ جرفهم معه جميعاً.

وأجبر العماليق على الهرب من البلاء الذى وقع عليهم فى شبه الجزيرة العربية، وفى هروبهم ساروا باتجاه سحب كانوا يرونها على البعد، وفى الوقت نفسه دمرت مكة فى ليلة واحدة بضجيج يصم الآذان وتحولت كل المنطقة إلى صحراء خربة يذكر المسعودى: « أصبحت كل الأرض من الحجون حتى الصفا صحراء قفراء ودمرت مكة. كانت الليالى صامتة مقبضة بلا صوت آدمى يذهب وحشتها وأقمت هناك حيث مر علينا أفظع ليل فى تلك الكارثة المدمرة التى حطمتنا »، والوصف السابق نقله المسعودى عن قصيدة قديمة باسم الحارث.

وفى اضطراب وفوضى عظيمة وصلت جماعات العماليق إلى شاطئ البحر الأحمر هاربين من الغضب الإلهى يسوقون قطعانهم من الحيوانات هلعين من الهزات الأرضية ونذر الشر التى تلاحقهم.

لقد كانت الكوارث المتتابعة والبلاء المتلاحق من حشرات إلى جفاف وزلازل فى « ليلة التدمير الكبرى » والسحب التى كنست الأرض بمن عليها والفيضان العارم الذى أخذ معه قبائل بأكملها كانت تلك الكوارث وجيشان الأرض – هى ذات التجربة التى عانت منها شبه الجزيرة العربية ومصر فى ذات الوقت.

وتعاقب الظواهر يساعدنا على التحقق من أن وقت حدوثها واكب خروج الإسرائيليين من مصر التى مسها البلاء نفسه. ولقد شهد الإسرائيليون الفيضان المدمر لبحر العبور فى بى - حا خيروث قبل أن يلتقوا بالعماليق بوقت قصير .. لقد التقوا بهم لأول مرة بعد عبورهم البحر بأيام قليلة.

لم يكن المصريون وحدهم هم الذين لقوا حتفهم فى كارثة البحر بل إن عديداً من قبائل العماليق هلكوا بسبب الكارثة نفسها، وكان منهم قبائل بكاملها مثل الجرهميين وقاتان (يقطان) جرفهم الفيضان وهلكت .. وكثيراً ما تذكر التوراة والمدراشيم تلك السحب الثقيلة التى غطت الصحراء كما تقص المدراشيم أن الإسرائيليين التقوا بالعماليق أول مرة تحت حجاب سميك من السحب.

لم يكن المؤرخون العرب على وعى بأى ارتباط بين قصتهم عن الفيضان فى شواطئ البحر الأحمر وبين أحداث الخروج، ولو كانوا قد ربطوا بين الحدثين لبدا الأمر محاطاً بكثير من الريب بأنهم سجلوا نسخة احتياطية من الكتاب المقدس ولكنهم لم يدركوا بشكل كامل المعانى التى انطوت عليها نسختهم عن أحداث شبه الجزيرة العربية.

المعتقدات العربية عن الفراعنة العماليق

لقد سجل عديد من الكتاب العرب القدامى غزو العماليق لمصر، وهناك كثير من الخيال يحيط بتلك القصص .. كما نجد أن أجزاء كثيرة من تلك القصص أفسدتها المحاولات التى تنقصها البراعة لمواءمة المعتقدات العربية بالمعتقدات اليهودية. ومن ذلك أن يوسف قد بيع فى مصر حين كان فرعون مصر من العماليق.

كما أقر واحد آخر من المؤلفين العرب أنه غير معروف على وجه التعيين إلى أى جنس كان ينتمى الفرعون الذى تربع على عرش مصر فى أيام موسى. وأنه من غير المعروف إن كان ذلك الفرعون مصرياً أم سورياً أم كان واحداً من العماليق.

ومن الأفضل أن نتغاضى هنا عن تلك الأعمال التى حاول فيها المؤلفون

العرب إدخال أجزاء منتقاة من قصص الكتاب المقدس على حكايات مؤلفة عن الجزيرة العربية. وسنكرس جهودنا فقط لتتبع القصص التى لم تستمد مصادرها من الكتاب المقدس أو الهاجادا، وذلك للأصالة التى تميزت بها، والتى ساعدت على انتقالها عبر الأجيال فى شبه الجزيرة العربية، ومن تلك الروايات واحدة تحكى أن سوريا ومصر قد أخضعتا فى التوقيت نفسه لسيطرة العماليق الذين فروا من شبه الجزيرة العربية حين حط عليها بلاء الحشرات والجفاف والمجاعة والزلازل والفيضان العاتى عند الصفا وأرض تهامة.

إن ذلك الكشف عن لحظة تاريخية مهمة فى سياق الأحداث يتلخص فى أنه كانت هناك كارثة طبيعية اتسمت بتعدد مظاهرها وظواهرها وكانت سبباً فى الهجرة السريعة للعماليق باتجاه سوريا ومصر.

والمعتقدات العربية التى عاشت إلى أيامنا هذه كتبها كُتّاب عاشوا ما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر الميلادى وهم يشيرون إلى معتقدات وكتاب أقدم منهم وأحياناً ما كانوا يحددونهم بالاسم.

وبعد غزو العماليق لكل من سوريا ومصر أسسوا أسراً حاكمة من الفراعنة العماليق وقد كتب المسعودى (٨٤٤ - ٩١١م) ما يلى «وصل العماليق إلى سوريا ومصر وامتلكوا البلاد وكان طغاة سوريا وفراعنة مصر من العماليق» والمسعودى الذى كتب عن البلاء والكوارث التى حدثت بالجزيرة العربية وهروب العماليق من مكة وعن الفيضان وكتب أيضاً عن الغزو العماليقى لمصر:

«وقدم من سوريا ملك العماليق الوليد بن دوما وغزا مصر وقهرها واستولى على العرش واحتل البلاد كلها دون مقاومة طوال فترة حكمه» (٢٣).

وذلك يذكرنا بكلمات مانيتو التى سجلناها من قبل «لقد كان لدى شعب من شعوب الأرض المجهولة الوضيعة الأصل والذين كان مجيؤهم بلا سابق إنذار كان لدى ذلك الشعب - الجرأة أن يغزو البلاد حيث حكمها بالقوة وبلا أدنى مقاومة ناهيك عن معركة».

وفى عمل آخر من أعماله ذكر المسعودى (٢٤) تفاصيل أكثر عن غزوة الوليد «تقدم الوليد بن دوما على رأس جيش كبير مجتاحاً كثيراً من

البلاد مطيحاً بحكامها واحداً بعد آخر».

والمقطع الأخير يذكرنا بدوره بجملة أخرى فى كتاب الهاجادا .. «والعماليق فى قسوتهم ووحشيتهم أخذوا على عاتقهم مهمة تدمير العالم» (٢٥).

ويضيف المسعودى «وحين وصل الغازى إلى أرض سوريا سمع كثيراً عن ثروات مصر، فأرسل إلى هناك واحداً من أتباعه يدعى أونا على رأس قوة عظيمة من المحاربين، وطغى الوليد وظلم أهل البلاد فانتزع أملاكهم وكل الكنوز والنفائس التى وصلت إليها يداه».

ويحكى المسعودى عن نزاع بين العماليق وعن غزو مصر بموجة ثانية من الجنود قادها الكان الملقب بأبى قابوس.

«ودخل العماليق مصر محطمين كثيراً من آثارها وأعمالها الفنية، غزا العماليق مصر بعد أن عبروا حدودها، ثم بدأوا فى نهب البلاد وحطموا جل أعمالها الفنية وخربوا آثارها» (٢٦).

ويذكرنا هذا مرة أخرى بمقطع آخر مما سجله مانيتو ونقله عنه جوزيفوس فى كتابه «ضد أبيون» الذى سبق ذكره - .. يقول مانيتو: «هاجم الهكسوس المدن بوحشية وأحرقوها وسووا معابد الالهة بالأرض وعاملوا البلاد بقسوة متناهية» (٢٧).

وتتفق كلمات المسعودى مع ما ذكر عن تحطيم الأثر المنقوش فى معبد الملكة حتشبسوت إحدى حكام الأسرة الثامنة عشرة وفى ذلك النقش الذى أشرنا إليه من قبل ذكر ما يلى:

«كانت هناك قبائل آمو فى وسط الدلتا وفى مدينة هاوار (حواريس) وحطمت قبائلهم وجماعاتهم كل المنشآت القديمة وحكموا دون إيمان بالإله رع (٢٨) ».

وذكر الطبرى (٨٣٨ - ٩٢٣م) أيضاً قصصاً وأساطير عن الفراعنة العماليق كما ذكر نسبهم وأصلهم، والمقطع التالى ذو دلالة مميزة:

«ثم مات ملك مصر وارتقى ملك آخر من الأسرة عرش البلاد، وكان أيضاً من جنس العماليق وكان يدعى قابوس بن مصعب بن مويا بن نمير بن سلواز بن عمرو بن عماليق (٢٩)».

وكتب أبوا الفدا (١٢٢٣ - ١٣٣١م) فى تاريخ الجزيرة العربية قبل

الإسلام مايلى: «كان هناك فراعنة مصريون من أصل عماليق» (٣٠).

وذكر أبو الفدا أيضاً أن عاصفة وحشية قد اجتاحت البلاد فى تلك الأيام البعيدة (٣١)، وذكر أسماء العماليق الفراعنة وتتابعهم، كما ذكر أنهم هيمنوا كذلك على سوريا (٣٢) من الممكن أن نستشهد بعديد من الأسماء والأعمال كابن عبد الحكم ونقله عن ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩م) وأسماء آخرين ممن تناولوا ذلك، ولكن من ذكرناهم كافين لإثبات أن الاعتقاد بوجود أسر من الفراعنة العماليق كان معروفاً بين الدارسين العرب، ولكن الخلفية التاريخية (٣٣) عن الفراعنة العماليق فى مصر هى التى لم ينظر إليها بثقة (٣٤)، وكان هناك دارسون آخرون اعتنقوا وجهة نظر متطرفة وقرروا أن العماليق لم يوجدوا أبداً فى مصر، واعتمدوا فى استدلالهم على ذلك أن اسم قبائل العماليق لم يذكر فى أثر مصرى ولا على أى نقش مصرى (٣٥).

«من جهة أخرى كانت هناك وجهة نظر لا تقل تطرفاً شككت فى الحقيقة المجردة لغزو الهكسوس لمصر وفسروا الأمر على أنه مجموعة قصص ذات أصل أسطورى وأن الهكسوس لم يكونوا إلا أسرة من أسر الحكام المصريين أنفسهم (٣٦).

والافتراض المقبول أن العماليق لم يكونوا معروفين لشعب مصر قبل قدومهم إليها والهكسوس (آمو) كانوا بالقدر نفسه مجهولين للشعوب الأخرى، وعلى ذلك فوجودهم تاريخياً بالنسبة لشعب أو لآخر كان موضع شك فى بعض الأحيان.

الهكسوس فى مصر

استمر حكم الهكسوس لمصر طوال الفترة التى امتدت بين نهاية المملكة المتوسطة وبداية المملكة الحديثة. وقد كتب نص بردية ايبوير فى وقت غزو الهكسوس، والبردية تشير إلى ذلك الغزو، وقد وصف طرد الهكسوس والفترة التى سبقته مباشرة فى وثائق أخرى معاصرة لتلك الفترة، ولكن المدى الزمنى الممتد ما بين الغزو والطرد فقير للغاية فى تسجيلاته وآثاره، وقد كانت فترة مظلمة بكل المعانى.

ومانيتو هو المصدر الأخير الذى سجل عن سيادة الهكسوس على مصر ثم طردهم منها، بينما فصل بين المؤرخ وموضوعه ألف سنة كاملة. ولقد ذكر مانيتو أن الهكسوس بعد غزوهم للبلاد لم يتوانوا عن تدمير كل شئ وإضرام النيران والاغتصاب والنهب والتخريب، وأسسوا أسرة من الهكسوس الفراعنة، وكان أول أولئك الفراعنة يدعى ساليتيس أو سالاتيس، الذى أقام فى معفيس وجبى الضرائب من مصر العليا والدنيا، وترك حاميات عسكرية فى أماكن ملائمة للدفاع، وعلى الأخص على الجبهة الشرقية ليحمى المملكة من المخاطر التى تاتى من الشمال «حيث تنبأ أن الآشوريين مع تنامى قوتهم فى المستقبل ستتسع شهيتهم ويهاجمون مملكته» (٣٧).

وهناك فى شرق الدلتا اكتشف الملك ساليتيس موضعاً ذا موقع متميز يدعى أواريس وهى منطقة استراتيجية يستطيع منها أن يسيطر على كل من سوريا ومصر، فأعاد بناءها ودعمها بالأسوار القوية، ثم أنشأ هناك حامية بلغ تعداد جنودها المسلحين مائتين وأربعين ألف رجل لحماية الحدود الشرقية، واعتاد أن يزور ذلك الموضع كل صيف، ليزود الحامية بالمؤن والعتاد، وليشرف بنفسه على تدريبات الجنود ومناوراتهم العسكرية، ولبث الرعب فى قلوب «الأجانب والأعداء». (٣٨).

والملك الرابع كان اسمه «أبوفيس» كما ذكر مانيتو، وقيل إن حكمه دام واحداً وستين عاماً وإن أول ستة ملوك من الرعاة اعتبروا الأسرة الأولى من الفراعنة الهكسوس، وقد ذكر عنهم طبقاً لمانيتو - جوزيفوس:

«كان الطموح المتنامى والأوحد لأولئك الستة - أول أسرة - هو استئصال شأفة الشعب المصرى» (٣٩).

كان حكم الهكسوس قاسياً. ولم تعرف قلوبهم شفقة ولا رحمة. والأدلة على ذلك وجدت حتى فى المقابر، وكشفت الحفريات فى موقع إحدى الحاميات الصغيرة عندما وصفت محتوياتها بما يلى: كومة من العظام متراكمة فوق بعضها وكان أغلبها لحيوانات ولكن من بينها كانت توجد عظام فك آدمى وعظمة ركبة وعظام كتف آدمى لا ينتمى لغيره من العظام» (٤٠).

وحين نتذكر ما قاله مانيتو عن القسوة الوحشية لأولئك الغزاة

ونقارنه بالقصص اليهودى عن العماليق، وعما فعلوه بالأسرى السجناء من تشويه وتقطيع لأطرافهم (٤١) والتمثيل بأبدانهم أحياء، فإن العثور على عظام يد أو فك لا يعد مستغرباً على ضوء ذلك، فلقد كانت الحاميات أماكن للتعذيب أيضاً.

ولم تقتصر هيمنة آمو - الهكسوس على مصر وحدها، فقد وجدت جعارين وأختام رسمية فى عديد من البلاد، تحمل اسم الملك أبوب والملك خيان، كما وجد اسم الملك خيان أيضاً على تمثال لأبى الهول اكتشف فى بغداد وعلى غطاء آنية فى نوسوس بجزيرة كريت، كما وجد نقش يعود للملك أبوب يذكر فيه أن «أبوه الملك سيث رب أواريس قد أخضع كل البلاد تحت قدميه» وكان هناك معبد فى حواريس لعبادة سيث الذى عبده الهكسوس والذى اعتبره المصريون حتى عهد الرعامسة التشخيص الحى للقوة المظلمة السوداء (وهى القوة المضادة لآلهة الخير إيزيس وحورس وهى أيضاً ما يقابل الإعصار الإغريقى). والعثور على قطع وآنية قديمة فى بلاد بعيدة تحمل اسم أبوب وخيان، يثبت أن كلمات أبوب لم تكن مجرد تفاخر أجوف، ووجد بعض المؤرخين أنفسهم مجبرين على قبول حقيقة كون الهكسوس أصحاب إمبراطورية كبرى ولو فترة محدودة من الزمن (٤٢)، وأن نفوذهم السياسى على الأقل امتد ليشمل مناطق شاسعة.

وطبقاً لمانيتو فإن آخر أسر الهكسوس، وهى الأسرة السابعة عشرة، كانت أسرة مكونة من «الرعاة» وملوك طيبة، مما يعنى أنه كان فى طيبة أمراء من أصل مصرى، تحت إمرة الفراعنة الهكسوس، وكان آخر ملوك الفراعنة الهكسوس ملكاً قوياً يدعى أبوب الثانى.

ملك الرعاة

ترك الإسرائيليون مصر قبل غزو الهكسوس لها ببضعة أسابيع، وربما بضعة أيام، ولم يكن باستطاعتهم تجنب الالتقاء بالهكسوس القادمين من آسيا، وقابلوهم بالفعل قبل أن يبلغوا جبل سيناء.

فهل أدرك الإسرائيليون أن مصر قد تعرضت للبلاء الحادى عشر الأقسى والأمر من كل مما سبقه واستمر قروناً وهو غزو ملوك الرعاة

لمصر؟ وربما لم يدركوا ذلك حين التقوا بهم في الصحراء التي كانت مازالت ترتجف تحت وطأة الزلازل، ولم يدر بخلدهم أن أولئك الناهبين متجهون إلى أرض مصر. ولكن طوال فترة زمن القضاة، حين كان الإسرائيليون بأرض كنعان، عانوا كثيراً من جراء الهجمات الضارية التي شنها عليهم العماليق، ولابد أنهم علموا في ذلك الوقت أن مصر - أيضاً - تعاني من البلاء الذي أصابها، ولكن بدرجات أكبر. فهل يوجد أي مرجع يهودي قديم يشير بشكل ما إلى غزو الهكسوس لمصر مباشرة بعد خروج الإسرائيليين منها؟

لقد قيل في تعداد وذكر المصائب والكوارث التي انصبت على مصر ما يأتي:

المزامير ٧٨: ٤٩ «قد أنزل عليهم الرب أشد غضبه وعقابه. ورجزاً وضيقاً. جيش ملائكة أشرار».

فما الذي يعنيه ملائكة الشر أو الملائكة الأشرار؟ لم يكن هناك بلاء معروف باسم «زيارة الملائكة الأشرار» ولا يوجد في التوارة أي ذكر آخر لتعبير مثل ذلك. صحيح أنه يوجد تعبير «ملاك الموت» ولكن «ملاك الشر» هذا مستغرب مما يبدو معه أن النص قد تعرض للتلاعب.

وبالبحث في هذا الأمر، وجد أن تعبيريْ «أرسل عليهم ملائكة أشرار» و «غزو ملوك الرعاة» لا يوجد بينهما أي فرق في العبرية القديمة إلا حرف واحد هو الألف، مما يرجع معه أن القراءة الثانية هي الصحيحة.

أما في حالة القراءة الأولى. فإنها لا تبدو فقط كلغة عبرية غير طبيعية، ولكنها أيضاً تبدو مخالفة لقواعد اللغة، ويبدو أن ناسخ هذه الجملة لم يجد أي معنى لتعبير ملوك الرعاة، فزاد عليها حرف الألف لتصبح ملائكة أشرار دون أن يغير تركيب الجملة طبقاً لقواعد اللغة، فجاء المعنى كما أراد «ملائكة أشرار» ولكن بتركيب لغوي مخالف لقواعد اللغة. وعلى ذلك فالنص ٤٩ من المزمور ٧٨ يجب أن يقرأ على النحو الصحيح التالي:

«أرسل عليهم أشد غضبه وعقابه سخطاً ورجزاً وضيقاً جيش ملوك الرعاة» هناك أيضاً أسطورة عبرية قديمة تلقي ضوءاً جانبياً على المشكلة نفسها .. تقول الأسطورة:

«وجلب العماليق معهم من مصر قوائم الأنساب اليهودية (الإسرائيلية) والتى كانت فى المحفوظات المصرية، وتقدم العماليق أمام معسكر الإسرائيليين ونادوا عليهم وأمروهم بمغادرة المعسكر والمثول أمامهم خارجه».

والأسطورة تحتوى ضمناً معرفة الإسرائيليين بحقيقة وصول العماليق إلى أرض مصر واستيلائهم على الحكم، وإلا فبأى طريقة أخرى كان بإمكانهم الاستيلاء على قوائم الأسماء والإحصاء من السجلات والمحفوظات المصرية؟

وفى بردية ايبوير أيضاً ورد ما يلى:

البردية ٦: ٧ أحقاً اقتحمت الإدارات العامة واغتصبت منها قوائم الأسماء والإحصاء وأصبح العبيد سادة.

ويبدو أن العماليق بعد ما قهروا مصر، نظروا إلى أنفسهم كورثة شرعيين وأصحاب حق فى كل الإمبراطورية المصرية بمستعمراتها وكل ما كان تحت هيمنتها، ففى حروبهم ضد الإسرائيليين خلال القرون التى تلت ذلك، كانوا يؤمنون أن الإسرائيليين ممتلكات مصرية وأنهم عبيد مارقون.

فلسطين فى عصر سيادة الهكسوس

والسؤال الذى فرض نفسه من قبل، والذى يواجهنا الآن مرة ثانية هو: كيف خلا سفرا يشوع والقضاة، واللذان يغطيان أحداث فترة تزيد عن أربعمائة عام من أى ذكر لسيادة مصر على أرض كنعان أو أية إشارة خطية لحملات عسكرية قادها الفراعنة، فى الوقت الذى نجد فيه طبقاً للتاريخ التقليدى أن فلسطين كانت طوال تلك الفترة تحت هيمنة مصر ؟

إن إعادة التزامن الصحيح للتاريخ، والتى يتناولها هذا الكتاب تضع زمن التيه فى الصحراء، وحكم يشوع والقضاة، فى توقيت واحد مع حكم الهكسوس العماليق لمصر. وطبقاً لذلك التقويم فإن العماليق كانوا يعدون فى ذلك الوقت أقوى أمة بين الأمم. حين استدعى الساحر (بالعام) ليصيب بلعنته الإسرائيليين المقتربين من أرض مواب والقادمين من الصحراء، فإنه ولى وجهه شطر البرية ولكن بدلا من أن يلعن قوم إسرائيل فإنه

باركهم بهذه الكلمات: سفر الأعداد ٢٤: ٧ «يجرى ماء من دلائه ويكون زرعه على مياه غزيرة ويتسامى على أجاج وترتفع مملكته». وأجاج أو (أجوج) (٤٤) كان اسم ملك العماليق وكان «بالعام» منتصباً فوق حافة الجبل ثم أدار وجهه إلى اتجاه آخر.

سفر الأعداد ٢٤: ٢٠ «ثم رأى عماليق فنطق بمثله وقال عماليق أول الشعوب وأما آخرته فالى الهلاك».

والنص لا يبدو واضحاً فالعماليق كان من المفروض أنهم ليسوا إلا مجموعات غير مهمة من لصوص الصحراء، فلماذا سماهم (أول الشعوب)، وما الذى تعنيه مباركته (أعلى من أجاج)؟ لم يقدم أحد تفسيراً مفهوماً لذلك.

كان العماليق فى ذلك الوقت الأول بين الأمم، وأكبر درجات القوة كان يعبر عنه مقارنة بقوة ملك العماليق أجوج، حين كان حاكماً لشبه الجزيرة العربية ومصر. واسم الملك أجوج هو الاسم الوحيد لملك من ملوك العماليق يذكر فى النص التوراتى. (٤٥) وبالإضافة إلى ذكر اسم الملك أجوج فى سفر الأعداد، كان هناك ملوك آخرون من العماليق يحملون الاسم ذاته، ومنهم ملكهم الأخير والذى حكم بعد الأول بمئات من السنين وكان معاصراً لشاؤل (٤٦). وفى تاريخ مصر فإن الاسم الذى تكرر كثيراً من ملوك الهكسوس كان اسم أبوب، فقد حمله أوائل ملوك الهكسوس، وحمله آخر ملوكهم، كما ورد فى التاريخ المصرى القديم.

كانت الكتابة العبرية القديمة فى أوائل صورها كما حفظت على لوح «ميشع» تظهر تشابهاً وتماثلا بين حرفى الجيم (جيميل) والباء (بيت) ملفتاً للنظر، ولا يوجد حرفان آخران، من حروف الهجاء العبرية يحملان مثل هذا التشابه، وكلا الحرفين عبارة عن خط مائل متصل أقصر وأكثر ميلا وهو ما يشبه رقم ٧ فى اللغة الإنجليزية والزاوية المحصورة بين الخطين المائلين فى كل حرف تمثل الفارق الوحيد بينهما.

وبالرغم من ذلك فإن ما يحتاج إلى التصحيح هو القراءة المصرية وليست القراءة العبرية، ولقد سبق أن بينت الأسباب فى موضع آخر (٤٧). وتقريباً فإن كل حرف هيروغليفى يمثل أكثر من صوت. وبالتجربة والخطأ فقط يتم ترميز الأصوات بواسطة الحروف الموجودة. وعلى أية حال

فإن أجوج الأول هو أبوب الأول وأجوج الثانى هو أبوب الثانى وأجوج الأول حكم فى بداية عصر الهكسوس طبقاً لما ذكره مانيتو، وأبوب هو الملك الرابع من أسرة الهكسوس وحكم لمدة واحد وستين عاماً وحكم أجوج الثانى بعد ذلك بعدة مئات من السنين مع اقتراب نهاية حكم الهكسوس.

حَكَم الامو – الهكسوس – مصر وسيطروا عليها من قلعتهم الحصينة فى حواريس التى بنوها بالقرب من حدود البلاد، أما فى أغلب أنحاء البلاد فقد أقاموا نقاطا حصينة وحاميات (مانيتو). وفى فلسطين وبطريقة مماثلة بنى العماليق قلعة لحمايتهم هناك، وكانت ذات موقع حيوى فى قلب البلاد فى أرض إبراهيم.

إن نشيد «ديبورا» مثله مثل مباركة «بلعام» شذرات قديمة، ومن نشيد «ديبورا» مقطع غامض يقول (خارج أرض إبراهيم وحدودهم فى العماليق) سفر القضاة ٥: ١٤ (٤٨).

والضمير هم فى كلمة حدودهم يعود على الكنعانيين «ويابين» ملك كنعان الذى حكم من «عازر» وقائد جيشه «سيسيرا» الذى كان تحت إمرته تسعمائة عجلة حربية .. لقد طغوا على إسرائيل ثم نجح الإسرائيليون جزئياً تحت قيادة «ديبورا» و «باراق» فى كسر حدة طغيانهم والمقطع المشار إليه يبدو وكأنه يعنى أن قوة الكنعانيين كانت تعتمد على الدعم الذى تلقاه من العماليق المتمركزين فى قلعتهم على أرض إبراهيم.

والقلعة نفسها أتى ذكرها فى مقطع آخر من سفر القضاة: «فرعون فى أرض أفرايم فوق جبل العماليق» (القضاة ١٢: ١٥).

لقد دعم العماليق الكنعانيين، وهذا يفسر توقف تطوير الاختراق الإسرائيلى لأرض كنعان واكتسابهم أحيانا لصفة التابع للكنعانيين، نظير تقديم المعاونة العسكرية حين تطلب منهم.

لقد هيمن العماليق على أراضٍ شاسعة، وبسياسة المستعمرات تحالفوا مع الشعوب المنحدرة من أصل عماليقى، وكانت تلك التحالفات هى السبب الرئيسى وراء الاعتقاد اليهودى أن كل الحروب التى خاضوها كان العماليق وراءها بشكل ما ... فحروبهم ضد المؤابيين وضد الكنعانيين ثم مع شعوب أخرى كلها كانت فى تحالفات مع العماليق وتلقى دعماً مباشراً منهم ... كان العماليق فى حروبهم ضد اليهود يتخفون خلف شعوب أخرى،

هذا عدا دعمهم المباشر للكنعانيين (٤٩). وكان الميديانيون أيضاً ينتمون إلى أصل عماليقي بالنسب والمصاهرة وتعود تلك الصلة إلى تاريخ أقدم، حين احتل أحد أجداد الميديانيين مكة واحتل جد آخر لهم المدينة (٥٠). وغالباً ما قام الإثنان معاً – العماليق والميديانيون – بغارات مشتركة وغزوات لأرض إسرائيل في توقيت محدد سابق لحصاد الحبوب مباشرة.

سفر القضاة ٦: ٣ – ٦ «وإذا زرع إسرائيل كان يصعد الميديانيون والعمالقة وبنو المشرق يصعدون عليهم. وينزلون عليهم ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنماً ولا بقراً ولا حميراً. لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد ودخلوا الأرض لكي يخربوها».

ولأن ماشيتهم وجمالهم كانت بلا عدد، أسماهم المصريون ملوك الرعاة، وحين كانوا يسيرون لنهب أرض وتدميرها، كانوا يسوقون ماشيتهم معهم وهم كذلك يوصفون في سفر القضاة ..

سفرالقضاة ١٢:٧ «وكان الميديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالين في الوادي كالجراد في الكثرة وجمالهم لا عدد لها كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة». وقد مارسوا أساليب النهب نفسها التي استخدموها في مصر، حيث كانوا ينتظرون حتى ينتهي المزارعون من حصد محاصيلهم ثم ينقضون قبل جمعها بأعداد لا تحصى مع قطعانهم، ليستولوا على محاصيل الأرض وثيران الحراثة وكل الحيوانات الحقلية التي يجدونها.

بردية الأرميتاج ١١١٦ ب وجه خلفي: يقترب الآمو بقوتهم الغاشمة وفي قلوبهم سعار ضد أولئك الذين يجمعون المحاصيل ويأخذون الأبقار من محاريثهم وتخرب الأرض ولا يبقى إلا الشر (٥١).

من المعتقد أن زمن التيه في الصحراء كان أربعين عاماً، وزمن القضاة يقدر بوجه عام بأربعمائة سنة، كما دام العصر المظلم في الشرق الأدنى طوال الفترة التي دام فيها حكم العماليق .. ويبدو أن الإسرائيليين كانوا هم الشعب الوحيد الذي قاوم وقاتل ودخل حروباً مستمرة وبإصرار شديد حتى يظلوا مستقلين غير خاضعين لسيطرة العماليق والقبائل والشعوب المتحالفة معهم، وبمقاومتهم تلك استطاعوا أن يحموا ويأمنوا الموانى

البحرية فى مدينتى صور وصيدا، وحين كان حكم الشعب الإسرائيلى يؤول إلى قيادات باسلة، كان زمام المبادرة بالحرب ينتقل إلى الشعب الإسرائيلى. فتحت قيادة جدعون وصل الإسرائيليون إلى مدن ميديان ذاتها .. لقد كان زمناً بطولياً لإسرائيل انفردت به دون سائر الأمم، فى الوقت الذى لم تقم فيه أية ثورة أو تمرد من أى نوع كان فى مصر أو غيرها من البلاد، ضد العماليق فى تلك الإمبراطورية الواسعة، خلال كل القرون التى حكموا فيها تلك البلاد. ولكن كل الجهود التى بذلت من جانب الإسرائيليين لتحقيق الاستقلال والمحافظة عليه، كان محكوماً عليها بالفشل، طالما كان العماليق يحكمون شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية حتى نهر الفرات، وطالما كانت هناك تلك الحاميات العسكرية والمتمركزة فى أماكن حصينة منتشرة فى بلاد كثيرة محيطة بإسرائيل، ما دامت تلك الحلقة العسكرية القوية متصلة تقود باتجاه الساحل بين أراضى أفريقيا وآسيا. وأخيراً ما دامت تلك الحلقة غير مكسورة فى مكان ما.

كان قول الرب فى تلك الأثناء يتحول إلى حقيقة وواقع. سفر الخروج ١٧: ١٦ سيحارب الرب العماليق من جيل إلى جيل». (*).

زمن حكم الهكسوس

طبقاً لما نقله جوزيفوس فى كتابه ضد أبيون الجزء الأول ٨٤ عن مانيتو، فإن زمن حكم الهكسوس دام أحد عشر عاماً وخمسمائة، فى حين تجد أن الكتب الحديثة المعاصرة التى تتناول تاريخ مصر قد اختصرت ذلك الزمن بشكل كبير. ولم يعتمد هذا الاختصار على أية حقائق موضوعية من مكتشفات علمية أو ثقافية أو أثرية أو عمرانية أو خرائط قديمة أو تواريخ مثبتة، ولكن فقط اعتماداً على أن نهاية الأسرة الثانية عشرة من المملكة المتوسطة، حسبت على أسس فلكية طبقاً للجداول الزمنية المحسوبة وفق النجم سوثيس لتكون عام ١٧٨٠ ق. م، ثم تلتها الأسرة الثالثة عشرة (وهى الأخيرة فى المملكة المتوسطة)، ثم فترة

(*) فى النسخة العربية من التوراة: للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور (المترجم).

الهكسوس، وذلك قبل أن يبدأ عصر المملكة الحديثة التى بدأ عصرها بقيام حكم الأسرة الثامنة عشرة فى عام ١٥٨٠ ق. م. ومرة ثانية نجد أنه طبقا للحسابات التى اعتمد عليها الباحثون المحدثون نتيجة لتقويم سوثيس وبافتراض صحة التواريخ نجد أنه لم يبق إلا مائتا عام تركت للأسرة الثالثة عشرة والهكسوس معاً.

وحيث إن بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة حكموا لفترات طويلة، فإن أطول ما يمكن إتاحته من زمن لفترة حكم الهكسوس لن تزيد عن مائة عام بأية حالة .. وكان صاحب وجهة النظر هذه والمدافع عنها هو إدوارد ماير.

أما طبقاً لوجهة نظر «فلاندرز بترى» وبعض مؤيديه، فإن ذلك المدى الزمنى لا يعد كافياً بأى شكل من الأشكال للفترة ما بين المملكة المتوسطة والمملكة الحديثة .. فالمتغيرات الثقافية والفكرية بين المملكتين كانت كبيرة ومتعددة، كما لو كان ستاراً قد أسدل على نهاية المملكة المتوسطة، ليرتفع مرة أخرى عن مشهد مختلف تماماً للمملكة الحديثة. وبسبب تلك التغيرات الكبيرة والمتعددة اقترح «بترى» فكرة ارتأى فيها أن الزمن الساقط يقع بين نهاية الأسرة الثانية عشرة للمملكة المتوسطة وبداية الأسرة الثامنة عشرة فى المملكة الحديثة، لم يكن مائتى عام ولكنه كان ٦٦٠ عاماً أى ٤٦٠ عاماً زائدة عن تقدير سوثيس، أضافها «بترى»، وبدلا من اختصار الفترة التى ساد فيها الهكسوس، عن تلك التى سجلها جوزيفوس، فإن «بترى» قد زاد عليها كثيراً.

والنظريتان السابقتان أطلق عليهما اسم الزمن «الطويل» والزمن القصير وما يجمع بينهما هو اشتراكهما فى بداية واحدة هى عام ١٥٨٠ ق. م، كبداية للمملكة الحديثة، ولم يحاول أى منهما أن يبدل تاريخ البداية، وكلاهما يعتمد على حسابات سوثيس فى حساب عصور التاريخ المصرى. وفى نهاية هذا العمل سنفحص بدقة مدى صلاحية هذا المفهوم والذى يعتمد على النجم سوثيس والذى يزودنا بقاعدة منتظمة لحساب الزمن.

إن الخلاف الكبير بين مدارس المؤرخين والذى وصل إلى تقديرات تراوحت بين ٢٠٠ إلى ٦٦٠ عاماً قبل المملكة الحديثة، يدعو حقاً للدهشة وبالذات أنها تذكرنا أن التاريخ المصرى القديم كان حجر الأساس الذى اعتمد عليه تاريخ وزمن منظومة أكثر تركيباً وتعقيداً تسمى الشرق

القديم.

لقد حاول بعض الدارسين أن يأخذوا سبيلا متوسطاً، وتغاضوا عن الحسابات على أسس سوثيس، واقترحوا فترة زمنية مقدارها أربعمائة أو خمسمائة عام لحكم الهكسوس «بافتراض أن تاريخ سوثيس غير أكيد فإن التقدير المناسب لن يزيد عن أربعمائة أو خمسمائة عام بين الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة» (٥٢).

وهذا الحل التصالحى لم يجد له جذوراً بين الباحثين، وكذا نظرية الزمن «الطويل» لم تجد إلا أقلية من المؤيدين بعد موت «بترى»، أما نظرية الزمن «القصير» فقد سميت زمن «مدرسة برلين» وأصبحت أكثر قبولا.

إن مهمتنا فى هذا الكتاب بالنسبة للتاريخ المصرى، تبدأ من اللحظة التى انتهت فيها المملكة المتوسطة بغزو الهكسوس لمصر. ولو كان قياس فترة حكم الهكسوس يقاس بالوقت الذى هيمن فيه العماليق على أراضى الشرق الأدنى، أو يقاس بعدد السنوات الموزعة فى التوراة بين سنوات التيه فى الصحراء وحكم القضاة، فإن المدى الزمنى لحكم الهكسوس يزيد عن أربعمائة عام. وهى الفترة التى اختلفت حولها النظريات.

التسجيلات المصرية
والتسجيلات العبرية عن طرد الهكسوس

طوال فترة خضوع مصر لحكم الهكسوس، حكمت مصر من حواريس حيث احتفظ ملوك الرعاة بحامية ضخمة، ومنها حكم الهكسوس وتلقوا الجزية من أنحاء البلاد، وأصدروا تعليماتهم لحكام المحليات. وكان أمراء الولايات من الأتباع المعينين فى تلك المناصب مقابل إعداد التجهيزات العسكرية حين يطلب منهم ذلك. وكانوا يعاملون أمراء الولايات من المصريين بازدراء واحتقار متناه. وقد وصف ذلك فى بردية ساللبير الأولى (٥٣)، حين أرسل الملك أبوب الثانى (أجوج الثانى) رسولا من حواريس بأوامر مهينة إلى الأمير المصرى سقنن - رع.

بردية ساللبير: «ظل أمير المدينة الجنوبية (طيبة) صامتاً ثم بكى

لوقت طويل، ولم يدر بم يجيب على رسالة الملك أبو فيس (أبوب)، وقبض على الأمير المصرى وساقه رسول الملك أبوب الثانى إلى حواريس» ونهاية البردية مفقود.

إن لفافة البردى تلك تحكى عن المعاملة السيئة والمهانة التى كان يتلقاهما أمراء الأقاليم من المصريين الخاضعين لملك الرعاة.

ولكنه كان الظلام الذى يسبق انبلاج الفجر. فالبلاء الأخير وسيطرة الرعاة التى دامت من أيام الخروج كانت تقترب من نهايتها.

إن لوحة «كارنرفون» تسجل مساهمة الأمير المصرى كاموس ابن الأمير سقن – رع فى العمليات ضد الهكسوس (٥٤)، وعاونته على ذلك قوات أجنبية. وهناك أثر مصرى آخر احتفظ بوصف المعركة الأخيرة:

إن قصة طرد الهكسوس محفورة على جدران مقبرة أحد ضباط أحمس، وهو أمير مصرى وحاكم ولاية وتابع لملك الرعاة، ومن المحتمل أنه كان أخا للأمير كاموس، وللمصادفة فإن اسم ذلك الضابط كان أحمس أيضاً، والقصة مسجلة على شكل حكاية تدور حول الحصار والمعارك التى شارك فيها ذلك الضابط.

وفى وصف الضابط أحمس والذى يعد أحسن المصادر المصرية المتاحة حتى الآن وأفضلها عن حرب الخلاص من حكم الهكسوس، نجد لغزاً فى غاية عظيمة من الأهمية، نتبين منه بوضوح أن الأمراء المصريين المتمردين على حكم الهكسوس، لم يكونوا هم من حرر مصر، ولكن مقاتلين أجانب من خارج مصر هم المحررون الحقيقيون لها .. والنقش يقول:

«تابعت الملك سيراً على قدمى حين ركب عجلته الحربية فى طريقه إلى خارج الولاية وكانوا (هم) يحاصرون مدينة أفاريس. أظهرت بسالة فى القتال مترجلا أمام سموه ... كانوا (هم) يحاربون من جهة قناة فى أفاريس ثم نشب قتال جديد فى ذلك المكان ... وشاركت فى القتال مرة أخرى .. حاربوا (هم) فى مصر هذه، جنوب تلك المدينة ... ثم استطعت إقتياد أسير حى .. استولوا (هم) على أفاريس .. (هم) حاصروا شارهين (ش. ر. هـ ن) لستة أعوام (٥٥) ثم أخذها جلالته» (٥٦).

والضمير المجهول ما كان ليستخدم إذا ما كان الملك المصرى على رأس الجيش المحاصر للمدينة. ولو كان الأمير المصرى هو الشخصية الرئيسية

الوحيدة فى حرب التحرير هذه، فإن الانتصار لم يكن ليعزى إلى ضمير مجهول.. كان الكاتب سيسجل «حاصر جلالته ..» و «قاتلت قواتنا ...».

تقرر الوثيقة المصرية كحقيقة ثابتة: إن فى حرب التحرير ضد الهكسوس كان هناك جيش أجنبى يقاتل ضد الهكسوس (٥٧)، وبالرغم من ذلك لم يسجل النقش المصرى أى مآثر لملوك أجانب، ومن ثم فإن اسم الملك الذى حطم الهكسوس يعد مفقوداً، أو تم تجهيله أو تجاهله فى الوثائق المصرية. لقد خاض الحرب ضد الهكسوس «واحد» أجنبى، والتاريخ المكتوب والمسجل على جدران المقبرة لا ينسب الحصار وطرد الهكسوس إلى القائد صاحب المقبرة، بقدر ما ينسبه إلى المحرر الأجنبى والذى لم تتم هزيمة الهكسوس إلا بمعاونته.

يقول النبى صموئيل لشاؤل الذى كُرّس ليصبح ملكاً على إسرائيل:

«سفر صموئيل الأول ١٥: ٢ - ٣»: «هكذا يقول رب الجنود إنى قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له فى الطريق عند صعوده من مصر فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا (*) كل ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة وطفلاً رضيعاً بقراً وغنماً وجملاً وحماراً».

جمع شاؤل مائتى ألف جندى من المشاة وعشرة آلاف رجل من يهوذا.

صموئيل الأول ١٥: ٥ «ثم جاء شاؤل إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى» كانت عبارة مدينة عماليق دائماً ما تشكل حجر عثرة أمام دارسى التوراة والمحللين لها .. فقد كانوا يفترضون أن العماليق لم يكونوا إلا مجرد قبيلة صغيرة من البدو الرحل، وعلى ذلك فقد كانوا يتساءلون ما الذى تعنيه «مدينة عماليق» (٥٩).

لقد قيل من قديم الزمن إن العماليق قد أقاموا بجنوب فلسطين، والأدلة الوحيدة التى قد تشير إلى موقع المدينة هى العلامات الطبوغرافية لموقعها: فالمدينة حوصرت من جهة مجرى قناة للمياه أو نهر (ناخال). وعلى ذلك فالمدينة كانت تقع بقرب نهر، وفى جنوب فلسطين وصحراء سيناء وشمال الجزيرة العربية حتى حدود مصر لا توجد أية أنهار وباستثناء نهر مصر فلا يوجد فى كل تلك المنطقة سوى نهر وادى

(*) التحريم كما يرد فى التوراة يعنى استباحة ممتلكات غير اليهود فى أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم (المترجم).

العريش، وهو ما داوم النص التوراتى على ذكره باسم (ناخال) حيث تجرى مياهه غزيرة بالشتاء ويجف مجراه صيفاً.

إن تحديد موقع مدينة حواريس من الممكن الاستدلال عليه جغرافياً بشكل غير محدد تماماً وذلك بالرجوع إلى النص التالى «.. حتى تصل إلى شور تنتهى حربك أمام مصر...» كانت شور هى أقصى نقطة فى الجنوب لم يتعداها جيش شاؤل المنتصر بعد استيلائه على «مدينة عماليق».

«سفر صموئيل الأول ١٥: ٧ - ٨»: «وضرب شاؤل عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر وأمسك أجاج ملك عماليق حياً».

إن شخصية المحرر الأجنبى لمصر تتضح من خلال نصوص التوراة و «الواحد» و «هم» أو ذلك الضمير المجهول فى النقوش المصرية كان يعود على الملك شاؤل، وأبوب الثانى فى النقوش المصرية كان هو أجاج الثانى فى التوراة ومدينة العماليق كانت حواريس. وفى المصادر المصرية يتماثل الاستخدام التكتيكى والاستراتيجى لقاع النهر الجاف فى حصار المدينة بإحكام مؤكد، والغنائم الكثيرة لمدينة الرعاة مذكورة فى كلا المصدرين والتى اشتملت على الثيران والغنم والماعز «سفر صموئيل الأول ١٩: ٥» وفى كلا المصدرين قيل إنه خلال تلك الحملة الحربية كانوا «هم» (فى نقش الضابط أحمس على جدران مقبرته) أو شاؤل (فى سفر صموئيل) الذى قاتل أمو - العماليق وحطمهم حتى جنوب حواريس أو «حتى تصل إلى شور تنتهى حربك أمام مصر».

إن مضاهاة المصدرين: المصرى واليهودى، ستعاون كثيراً من التعرف على موقع مدينة حواريس، والمادة المجمعة من هذه المضاهاة ونتائجها ستأتى فى موضع آخر من هذا الكتاب وانطوت أيضاً الإشارة إلى «من هافيلاه» على مشكلة عند تفسيرها (٦٠). فكيف يتأتى لمصادمات ومناوشات، ضد العماليق كقبيلة، أو حصار بعض مخيمات قبيلة، أن ينتج عنه نصر كاسح مدوٍ يمتد أثره ونتائجه من «هافيلاه» على أرض الفرات حتى حدود مصر؟ لقد كان يفترض قبل ذلك أن النص قد تعَرض للتزييف وأنه بدلا من «هافيلاه» كان هناك اسم آخر بديل (٦١). أو أن هناك «هافيلاه» أخرى غير تلك الموجودة بأرض الفرات تقع بالقرب من أرض مصر (٦٢).

ولكن، لو أدركنا الدور الحقيقى للعماليق، ومدى قوتهم طوال فترة حكم القضاة، فلن تواجهنا أية صعوبة فى قبول النص كنص صحيح، لم يتم التلاعب به أو تزييفه، فسقوط قلعة ومدينة العماليق الحصينة وأسر ملكها كان بداية لانهيار كل إمبراطورية آمو - العماليق مع نتيجة مباشرة مترتبة على ذلك، إن كل البلاد من أرض الفرات مروراً بسوريا حتى أرض مصر، قد استعادت حريتها واستقلالها.

تقهقر الهكسوس إلى أيديوما يا

هناك تفاصيل أخرى لحصار حواريس محفوظة فى وثيقة كتبت فى وقت متأخر عن تلك الأحداث .. فمانيتو يقص فى تاريخه عن مصر - كما نقل عنه جوزيفوس - أن الهكسوس بعد ما تم حصار عاصمتهم لفترة طويلة قد سمح لهم طبقاً لاتفاقية بين الطرفين أن يرحلوا عن البلاد.

«كان عليهم جميعاً أن يغادروا مصر ويرحلوا عن أرضها إلى حيث شاءوا دون أن يتعرضوا إلى أية مضايقات، وطبقاً لهذه الشروط غادر أرض مصر مائتان وأربعون ألفاً بكل ممتلكاتهم وعبروا الصحراء إلى سوريا. وخوفاً من قوة الآشوريين الذين كانوا سادة آسيا فى ذلك الوقت، بنوا مدينة تسمى «يهوذا» وكانت مدينة كبيرة لتستوعب أعدادهم الضخمة ثم أسموها أورشليم (٦٣) بعد ذلك».

وهذه الحقائق المغلوطة كما ذكرها مانيتو تتعارض مع نقش الضابط أحمس على جدران مقبرته، حيث ذكر أن الاستيلاء على المدينة تم بعد حصارها، ولكنه لم يذكر أية اتفاقيات أبرمت بين الجانبين.

إن التسجيل التوراتى للأحداث يضع حداً للتناقض الواضح بين تقرير محارب معاصر للأحداث وبين مؤرخ سجل عن الأحداث بعد زمن طويل من وقوعها، وذلك فيما يختص بالمصير المباشر للشعب المحاصر داخل المدينة، فقبل اجتياح المدينة المحاصرة توصل شاؤل إلى إبرام اتفاقية مع قبيلة القينيين والمتحالفين مع العماليق، والاتفاقية تقضى بمغادرتهم المدينة المحاصرة دون التعرض لأذى.

«سفر صموئيل الأول (١٥: ٦)»: وقال شاؤل للقينيين اذهبوا حيدوا

وانزلوا من وسط العمالقة، لئلا أهلككم معهم، فحاد القينى من وسط عماليق.»

وطبقاً لتسجيلات الضابط أحمس فإنه بعد الاستيلاء على حواريس، هرب الآمو - الهكسوس الذين نجوا من الموت إلى شاروهين فى جنوب فلسطين، أما مانيتو فإنه يذكر أن الهكسوس المنسحبين من حواريس هربوا إلى أرض يهوذا، إلى مكان بنوا فيه مدينة اسمها أورشليم، وبالطبع فإنه ليس هناك أدنى شك فى أن الوصف المعاصر للأحداث والمسجل على جدار مقبرة الضابط أحمس يحتوى على الاسم الصحيح للمكان الذى تقهقر إليه الهكسوس وأن الاسم والمكان الذى ذكره مانيتو لم يكن صحيحاً على الإطلاق.

من المحتمل أن المصادر التى استقى منها مانيتو معلوماته لم تكن دقيقة، أو أن النص الذى سجله جوزيفوس فى كتابه نقلا عن مانيتو قد تعرض للتلاعب واستبدلت شاروهين الأقل شهرة بأورشليم الأكثر شهرة.

وهذا الخطأ، مقصوداً كان أو غير مقصود، لعب دوراً مؤلماً وقاسياً فى مصير اليهود من بداية العصر البطلمى، وقد ترك أيضاً آثاراً عميقة على سياق التطور الروحى للشعوب الأخرى، ولم يكن لخطأ كتابى أن يخلف آثاراً مأساوية كما أخلف ذلك الخطأ، والذى يكشفه بشكل واضح مقارنة المصدرين المصريين عن حرب الهكسوس ولجوئهم إلى شاروهين فى أحد المصادر، وإلى أورشليم فى الثانى، وسأضيف كلمات أخرى حول هذا الموضوع عند نهاية هذا الفصل.

لقد تم تحقيق الهزيمة النهائية للآمو - الهكسوس بعد حصارين ناجحين، فبعد الاستيلاء على حواريس، تلك القلعة الحصينة ومقر الملك أبوب، تراجع الهكسوس وانسحبوا إلى شاروهين (٦٤). واعتصموا بها فى جنوب فلسطين.

وهناك بدأ الحصار الأخير. وحكاية الضابط أحمس عند انسحابهم إلى جنوب فلسطين تتوافق مع ما ذكره الكتاب المقدس. فبعد سقوط مدينة العماليق والنصر الكبير الذى حققه شاؤل لم يكن العماليق قد انتهوا تماماً وأولئك الذين فروا بحياتهم انسحبوا إلى التلال الموجودة بجنوب فلسطين.

ومن هناك بدأوا فى شن الغارات على المدن المجاورة وكان ذلك أثناء حكم شاؤل وكان داود فى ذلك الوقت واحداً من ضباطه.

«سفر صموئيل الأول: ٣٠. ١:٣ -٢ »: ولما جاء داود ورجاله إلى صقلغ فى اليوم الثالث، كان العمالقة قد غزوا الجنوب وصقلغ، وضربوا صقلغ وأحرقوها بالنار، وسبوا النساء اللواتى فيها، لم يقتلوا أحداً صغيراً ولا كبيراً بل ساقوهم ومضوا فى طريقهم، فدخل داود ورجاله المدينة، وإذا هى محرقة بالنار ونساؤهم وبنوهم وبناتهم قد سبوا».

لقد كانت عادة حرق المدن وأسر النساء والأطفال ثم الانسحاب السريع هى العادة نفسها التى مارسها الهكسوس فى مصر حين غزوها قبل ذلك بأربعمائة أو خمسمائة عام «وبوحشية أحرقوا المدن وسبوا النساء والأطفال وأخذوهم كرقيق (مانيتو كما سجل عنه جوزيفوس) » (٦٥).

وطارد داود ومعه أربعمائة رجل عصابة العماليق التى اختطفت زوجته وسبت نساء المدينة، ووجد فى الصحراء رجلا فاقداً وعيه «وكان بلا طعام ولا ماء لثلاثة أيام بلياليها».

«سفر صموئيل الأول (٣٠:١١ - ١٣): فصادفوا رجلا مصرياً فى الحقل فأخذوه إلى داود وأعطوه خبزاً فأكل وسقوه ماء وأعطوه قرصاً من التين وعنقودين من الزبيب فأكل ورجعت روحه إليه لأنه لم يأكل خبزاً ولا شرب ماء فى ثلاثة أيام وثلاث ليال فقال له داود لمن أنت ومن أين أنت فقال أنا غلام مصرى عبد لرجل عماليقى وقد تركنى سيدى لأنى مرضت منذ ثلاثة أيام».

وتبع داود الخادم المصرى ولحق بالعماليق وخلص السبايا من النساء والأطفال، وهذا الحدث ذو دلالات كثيرة فهو يبين أن العماليق قد غزوا جنوب فلسطين بعد سقوط مدينتهم الحصينة على حدود مصر، ويقدم أيضاً تفصيلاً آخر على غاية فائقة من الأهمية وهو ذكر الشاب المصرى أنه كان خادماً لسيد من العماليق.

ولنحاول أن نعيد التاريخين - اليهودى والمصرى - إلى مكانهما المتزامن الصحيح فى سياق الزمن، ما الذى يعنيه أن مصرياً ابن أمة حاكمة ذات هيبة ويكون خادماً لعماليقى من قبائل فقيرة؟

إن ذلك الرجل حين عرّف منقذيه بنفسه تحدث عن كونه «خادماً» وعن

العماليقى بكونه «السيد»، كما لو كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك الوقت.

ولكن ذلك الحدث فى تلك الأيام كان المشهد الأخير للصورة المقلوبة وهى عبودية المصرى وسيادة العماليقى، فقد كان العماليق فى تلك الأيام فى حالة تقهقر وفرار، وكانت الغارات المعدودة كتلك التى شنوها على شاروهين وصقلغ، وكلتاهما مدينتان بجنوب فلسطين - كانت تلك الغارات - هى آخر غاراتهم. كان مقاتلوهم قد تشتتوا وجاء بعضهم إلى منطقة فلسطين على الساحل، وكانت صقلغ على أطراف أرض فلسطين، أما شاروهين فقد كانت مدينة بين فلستيا وساير وهى أرض وطن العماليق الأول.

بعد فترة قصيرة من كارثة الطبيعة، وصل الفلسطينيون من جزيرة كافتور، واحتلوا سواحل كنعان (٦٦) وتبادلوا الزيجات مع العماليق وسعوا إلى اكتساب مودتهم وقبلوا زعامتهم السياسية عليهم كما زودوا العماليق بالمشغولات المعدنية والفخارية وخلال القرون التى تلت ذلك فقدوا أكثر وأكثر ميراثهم الروحى وأصبحوا أمة مهجنة.

وكان اختلاط الفلسطينيين بالعماليق هو فى ظنى الأساس الذى بنى عليه المصريون (مانيتو) اعتقادهم بأن أواخر أسر الهكسوس التى حكمت مصر كانت تنتمى إلى أصل فينيقى (٦٧)، وهو ذات السبب الذى جعلهم يعتقدون أن الفلسطينيين يجرى فى عروقهم الدم العماليقى (٦٨).

بعدما حقق شاؤل انتصاره الكبير على العماليق دخل فى معارك جديدة ضد الفلسطينيين، وبذل كل جهده بقلب لا يهاب ولا يعرف الخوف فى تلك الحروب. وكان النبى صموئيل قد وجه إليه كلاماً قاسياً وتنبأ بأنه سيفقد ملكه، وتنتهى مملكته بعد أن أغضب الرب بسبب الرأفة والرحمة التى أظهرهما حين أبقى على حياة أجوج ملك العماليق وأحجم عن قتله وهو العدو الأزلى للشعب اليهودى. وقام صموئيل بنفسه بقتل أجوج ولم يقابل شاؤل بعد ذلك حتى وافته المنية .. وحاول شاؤل بعد ذلك أن يتصل بصموئيل عن طريق تحضير روحه بعد موته، وفى اليوم الذى تلى زيارته للساحر فى أيندور أصابه رماة الأسهم الفلسطينيين فى مقتل وسط ميدان المعركة وسقط معه ثلاثة من أبنائه .. كان واحد من العماليق من خارج صفوف الفلسطينيون هو الذى أجهز على شاؤل الجريح بناء على

طلبه كما جاء فى أحد روايات الكتاب المقدس وحمل تلك الأنباء السيئة إلى داود (سفر صموئيل الثانى).

هناك دين تاريخى يدين به الشرق الأدنى لنيله حريته وتخليصه من نير عبودية الهكسوس على يد شاؤل، ولكن أعماله العظيمة لم تقدر بل حتى لم يعترف بها .. لقد كان سقوط حواريس وتدمير جيوش العماليق تغييراً حاسماً لمسار التاريخ .. ومن جديد نهضت مصر لتبنى قوتها مرة أخرى وتستعيد إشراقها بعدما تحررت من عبودية دامت لمئات من السنين وكان محررها هو أحد أحفاد اليهود والذين كانوا عبيداً فى مصر .

ولم تتعلم الأجيال أو تستوعب الأعمال التى أنجزها شاؤل، وحتى لم يدن له معاصروه بالجميل ومضى إلى معركته الأخيرة حاملا معه لعنة صموئيل والتى حلت عليه بسبب رقة قلبه التى أظهرها حين أبقى على حياة أجوج ملك العماليق .. مضى إلى معركته الأخيرة مكتئباً يحمل هواجسه عن مصيره، وقطع الفلسطينيون رأسه ورأس ابنه جوناثان وطافوا بهما القرى، وعلقت الجثث بلا رؤوس على حوائط بيت - شان فى وادى الأردن.

كانت تلك هى النهاية المأساوية لرجل كرس ليكون أول ملك ليهوذا وإسرائيل وفى صفحات غير مشهورة من القصص الدينى قيل إنه كان تقياً ورعاً أكثر من داود نفسه ودمثاً وكريماً كأفضل ما يكون اختيار الرب.

لم يعتبر الإسرائيليون أنفسهم شعباً حراً إلا بعد أن قهروا الفلسطينيين ووضعوا المهمة المزدوجة على عاتق داود، وهى تدمير العماليق فى آخر معاقلهم فى جنوب فلسطين ثم طرد الفلسطينيين من أراضى التلال.

وتبع الضابط أحمس بعد سقوط حواريس أميره المصرى أحمس إلى شاروهين جنوب فلسطين ليشارك فى حصار آخر معقل حصين للعماليق .. ذلك الموقع الذى دافع عنه الآمو - الهكسوس طوال ثلاثة أعوام وبدا أن ذلك الموقع الحصين للآمو لن يجدى معه الحصار وأنه لن يؤخذ إلا بعاصفة.

لقد حفظت لنا النصوص الدينية قصة انسحاب العماليق لجنوب فلسطين بعد الكارثة التى حاقت بهم عند حدود مصر، واحتفظت مصادر عبرية أخرى بقصة حصار عاصمة العماليق فى جنوب فلسطين (٦٩).

«ومن بين كل البطولات التى أحرزها يوآب كان أعظمها قيمة اجتياحه لعاصمة العماليق» (٧٠)، فقد دام حصار المدينة الحصينة لثلاثة أعوام بقوات مختارة ومنتقاة بعناية قوامها اثنا عشر ألف رجل من أفضل المقاتلين ولكن بلا جدوى. وهناك أسطورة عن المغامر الجرئ يوآب قائد جيش داود الذى اخترق الأسوار بمفرده إلى داخل تلك المدينة المترامية الأطراف، وأصبحت تلك الأسطورة بعد ذلك الموضوع المفضل لرواة الأقاصيص.

اقتحم الإسرائيليون المدينة كعاصفة ودمروا معابد الوثنية داخل مدينة العماليق وقتلوا سكانها، ولم يكن الملك داود على رأس الجيش طوال ذلك الحصار، وربما كان الملك المصرى أحمس موجوداً مع جيش يوآب كحليف له، فقد كتب الضابط أحمس لقد حاصر «هو» شاروهين لمدة ثلاثة أعوام ثم أخذها جلالته.

وحصل الملك المصرى على نصيبه من الغنائم كما حصل الضابط أحمس أيضاً على حصته وقد وصفها فى نقشه على حائط مقبرته.

وعاد الملك المصرى إلى مصر ليبدأ حملات حربية ضد إثيوبيا وأدار يوآب جيشه إلى الشرق، وبعد فترة نجح فى أن يضع تاج ملك العمونيين تحت أقدام الملك داود.

الملكة تاه - بى - نيس (تحفنيس)

قامت على أنقاض إمبراطورية العماليق مملكتان نهضتا معا إلى أعتاب الحرب وامتلاك زمام القوة وهما مملكتا يهوذا ومصر. وانقسم ميراث الإمبراطورية الزائلة بينهما.

واستولت مملكة يهوذا على كل المقاطعات والأراضى الآسيوية التى كانت للعماليق من أول نهر الفرات فى الشمال حتى حدود مصر فى الجنوب واتجه التمدد والزحف إلى الشرق أيضاً حيث قاد داود ويوآب الجيوش اليهودية ضد موآب وآمون وأيدوم وآرام (سوريا) وكذلك إلى المنطقة الممتدة ما بين النهرين ... وكانت أرض أيدوم تشغل كل الساحل الشرقى للبحر الأحمر وهو الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية (٧٢).

«سفر صموئيل الثانى: ١٤:٨»: وجعل فى أدوم محافظين. وضع محافظين فى أدوم كلها وكان جميع الأدوميين عبيداً لداود وكان الرب يخلص داود حيثما توجه وبقى يوآب فى أرض أدوم ستة أشهر (سفر الملوك الأول ١١: ١٦ وأفنوا كل ذَكَرٍ فى أدوم) وكان حداد وهو ممن يحملون فى عروقهم دماء ملكية فى أدوم من بين الهاربين إلى ميديان ووصل إلى باران و«من باران رحل إلى مصر حيث لجأ إلى حماية الملك الفرعون».

«سفر الملوك الأول (١١: ١٩)»: «فوجد هدد نعمة فى عينى فرعون جداً وزوّجه أخت امرأته، أخت تحفنيس الملكة». كان ذلك فى أيام داود والفرعون الجالس على عرش مصر فى ذلك الوقت من المفترض أنه أحمس (٧٣)، ومن بين زوجاته يفترض أنه توجد زوجة باسم تاه - بى ينس (تحفنيس). وبالبحث فى سجلات أسماء زوجات الملوك وجد أنه كان لأحمس زوجة تحمل ذلك الاسم وكان يقرأ بالهيروغليفية تا - نى - ثاب - أو من الجائز تاه - بى - نيس (٧٤).

موقع حواريس

أين كانت تقع حواريس تلك المدينة القوية والموقع الحصين لآمو - الهكسوس، المدينة التى كانت مهمتها الأولى الإبقاء على مصر خاضعة لنير العبودية؟

كانت المدينة من السعة بما يكفى أن تحتوى داخلها عشرات بل مئات الألوف من المحاربين والجنود المدربين على أفضل الوجوه، عدا السكان من النساء والأطفال والعبيد وما يحتاجونه من قطعان الماشية.

إن وصف مانيتو فى تاريخه عن مصر يشير إلى موقع على حدود مصر الشرقية.

«ترك (سالتيس ملك الهكسوس) حاميات عسكرية فى أماكن مناسبة للدفاع والأخص لتأمين الجبهة الشرقية حيث تنبأ أن الآشوريين مع تنامى قوتهم فى المستقبل سيطمعون فى مملكته ويهاجمونها، ولما اكتشف فى ولاية سيثرويت مدينة ذات موقع ملائم جداً فى الشرق من فرع بوباستيس لنهر النيل وتسمى حواريس طبقاً لمعتقدات دينية قديمة أعاد

بناءها وقوى أسوارها وحصونها وأسس هناك حامية وصل عدد جنودها المسلحين إلى مائتين وأربعين ألفاً لحماية حدوده » (٧٥).

وطبقاً لما ذكره مانيتو فقد كان للمدينة سور حجرى ضخم « من أجل تأمين ممتلكاتهم وغنائمهم ».

لقد لجأ عديد من الباحثين إلى الاعتماد على كثير من الحدس والتخمين فى تحديد موقع المدينة، وتراوحت التخمينات بين بيلوزيوم (*)، وتانيس، وتل اليهودية (**)، وفى الموقع الأخير كشفت الحفريات عن مقابر للهكسوس (٧٦) ولكن الدراسات المعمارية لم تجد ما يكفى من أدلة على أن ذلك الموقع هو مكان مدينة حواريس كما ظن المنقبون فى ذلك الموضع .. كان الموقع وما وجد به من بقايا يدل على أنه كان مجرد أحد الحصون الصغيرة ولم يكن بالضخامة المتوقعة لحصن وعاصمة حكام الهكسوس الذين كانوا فراعنة مصر من الأسرة الرابعة عشرة حتى الأسرة السابعة عشرة.

لقد تم البحث أيضاً عن موقع مدينة حواريس القديمة فى الجانب الشرقى لدلتا النيل (٧٧) ولكن بلا نتيجة تذكر وطبقاً للترجمة الدقيقة لمانيتو - جوزيفوس فإن المدينة كانت تقع « إلى الشرق من فرع بوباستيس لنهر النيل » وعلى ذلك فمن الممكن تحديد موقع مدينة حواريس بالطريقة الاستدلالية الآتية: غزا شاؤل مدينة عماليق مقر الملك أجوج (سفر صموئيل الأول ١٥) وسقوط المدينة أنهى سيطرة العماليق على الأراضى من « هافيلاه حتى تصل إلى شور مقابل أرض مصر ».

عند مقارنة الجملة الأخيرة بتلك المذكورة فى سفر صموئيل الأول (٢٧: ٨) « والعمالقة لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر » نجد المفتاح الذى يقودنا إلى أن موقع مدينة العماليق كان على حدود مصر وليس على أرض مصر ذاتها.

إن ذلك يتفق أيضاً مع ما ذكره الضابط المصرى أحمس على جدران مقبرته حين قال « تبعت الملك سيراً على قدمى حين ركب عجلته الحربية

(*) موقع قرية بالوظة بسيناء حالياً وهى مصب أحد فروع النيل القديمة التى جفت بعد ذلك (المترجم).

(**) تل يقع بالقرب من مدينة شبين القناطر بمحافظة القليوبية (المترجم).

إلى خارج البلاد وكانوا (هم) يحاصرون مدينة حواريس.

ومعنى اسم حواريس هو «مدينة قطاع الصحراء» (٨٧).

وضع تصميم مدينة حواريس كقلعة حصينة على الحدود الشمالية الشرقية لمصر ملك الهكسوس ساليتيس بنفسه ليؤمن الجبهة الشرقية ضد أى عدوان من الشمال الشرقى، وهيمن الحصن على أراضى مصر وسوريا، وكان موقعه بجوار مجرى نهر، وقد ذكر فى التسجيل المصرى للضابط أحمس كما ذكر فى قصة حصار شاؤل للمدينة فى المصادر العبرية وذكر المصدر المصرى «هم قاتلوا على الماء فى النهر». وذكر المصدر العبرى «ثم جاء شاؤل إلى مدينة عماليق وكمن فى الوادى» (سفر صموئيل الأول ١٥: ٥» والنهر الوحيد فى كل تلك المنطقة ليس إلا تيار ماء العريش الموسمى وبسبب ذكر معركة النهر فى وصف الضابط أحمس بحث كثير عن آثار حواريس وبقاياها على الفرع الشرقى المكون لدلتا النيل، ولكن دون أى نتائج تستحق الذكر وفوق ذلك فإن اسم النهر كما ذكر فى النص العبرى القديم للتوراة «ناخال» حيث بنيت مدينة العماليق، ونجد أنه ذات الاسم الذى أطلق فى كل نصوص التوراة على تيار ماء العريش الموسمى - والعريش مدينة على حدود مصر - حيث ذكر (ناخال مصريم) أو نهر مصر.

ومن التاريخ المتأخر لمصر من الممكن أن نجد أيضاً بعض الأدلة التى تساعدنا على تحديد موقع مدينة حواريس.

فحور محب الملك الذى حكم قبل الأسرة التاسعة عشرة فى مصر اعتاد أن يجدع أنف الخارجين على القانون وينفيهم إلى منطقة «تارو» ... وكانت «تارو» تلك هى أقصى نقطة فى الشمال الشرقى لمصر، وقد ورد ذكرها كثيراً فى أغلب الحملات التى قادها ملوك الأسرة التاسعة عشرة إلى سوريا ومن المفترض أنها كانت تقع بالقرب من حواريس، هذا إن لم تكن مجرد اسم آخر لذات المكان (٨١).

وكان ذوو الأنوف المجدوعة يرسلون إلى مكان المجذومين، حيث يبدو من جدعت أنفه وكأنه مصاب بالجذام ويعد غير طاهر ويمنع من المشاركة فى الطقوس الدينية ويحفظ معزولا عن المجتمع، وكان أولئك الدنسون - فى نظر المجتمع - يرسلون إلى منفى يقع فى أقصى نقطة من البلاد ... كتب

مانيتو عن تمرد أولئك الدنسين فقال: أمر الملك بإرسال مجدوعى الأنوف لسكن وحماية مدينة الرعاة المهجورة المسماة حواريس (٨٢).

والمكان الذى نفى إليه مجدوعو الأنوف سماه المؤلفون الإغريق والرومان: رينو كولور أى مجدوعى الأنوف أو رينو كوريورا وتم التحقق من أن ذلك الموضع هو مكان مدينة العريش كما ترجم «سبتوا جت» (*) كلمة ناخال مصريم الواردة فى التوراة باسم رينو كوريورا (٨٣). ومن ثم فإن حواريس القديمة هى العريش فى العصر الحالى.

وإذا بحث علماء الآثار ونقبوا على شواطئ العريش فسيجدون بقايا حواريس تلك التى كانت من أكبر القلاع الحصينة فى التاريخ القديم (٨٤).

وكدليل إضافى صغير فإنى أنقل هنا العبارة التالية التى ذكرها المسعودى عن عاهل أسرة الفراعنة العماليق:

«وفى جوار منطقة العريش أنشأ قلعة حصينة» (٨٥).

تطابق الهكسوس والعماليق

هل اتضحت شخصية العماليق والهكسوس؟ أم ربما كانوا شعبين مختلفين؟ سأعيد مقارنة الأدلة التى وردت فى الصفحات السابقة وأضعها جنباً إلى جنب لنرى ما يمكن أن نتوصل إليه.

غزا شعب اسمه آمو أو الهكسوس أرض مصر بعد كارثة طبيعية كبرى (٨٦) حيث تحول ماء النهر إلى دم وارتجفت الأرض (٨٧)، واجتاحوا مصر دون أن يلاقوا أدنى مقاومة (٨٨)، كان الغزاة فى غاية القسوة فمثلوا بأبدان الجرحى وبتروا أطراف الأسرى (٨٩)، وأحرقوا المدن وحطموا بهمجية الآثار والأعمال الفنية وهدموا المعابد وساووها بالأرض (٩٠)، وعاملوا الشعائر والمشاعر الدينية للمصريين بكل احتقار وازدراء (٩١)، واستعبدوا المصريين وفرضوا عليهم أتاوات وضرائب أثقلت كاهلهم (٩٢)، وقد أتى أولئك الغزاة من آسيا (٩٣) وأطلق عليهم الأعراب (٩٤)، ولكن كان لهم بعض صفات الحاميّين أيضاً (٩٥)، كانوا رعاة (٩٦) ومهرة فى الرمى بالقوس (٩٧) وحكم ملوكهم كفراعنة لمصر (٩٨) وهيمنوا أيضاً على سوريا

(*) التوراة السبعينية. (المترجم).

وأرض كنعان وجزر البحر المتوسط الكثيرة ولم يظهر لهم ند ولا نظير لفترة طويلة من الزمن (٩٩).

وبنى الآمو مدينة حصينة ضخمة. إلى الشرق من دلتا النيل (١٠٠) وكانوا سبباً فى إفقار كل الشعب المصرى بغزوهم للحقول مع قطعان ماشيتهم والاستيلاء على المحاصيل قبل الحصاد مباشرة (١٠١).

ومن بين ملوكهم كان هناك حاكمان يحملان اسم (يقرأ بشكل مؤقت) أبوب، وكان كلاهما من أبرز ملوكهم، حيث حكم الأول فى بداية تكوين الإمبراطورية والثانى قرب نهايتها (١٠٢). وامتدت هيمنة ذلك الشعب لتغطى بلاداً عديدة فى الشرقين الأدنى والأوسط وحكمت أسر ملوكهم ما يقرب من خمسمائة عام (١٠٣) وانتهى حكمهم حين حاصرت مدينتهم الحصينة على النهر قوى أجنبية (١٠٤)، وسمح لبعض السكان المحاصرين فى الحصن بمغادرته (١٠٥)، وكان مجرى النهر أحد العناصر الرئيسية فى خطة الحصار وكذلك فى الاجتياح النهائى للحصن (١٠٦).

وبعد أن دمرت إمبراطورية الآمو بعد ذلك الحصار أصبحت مصر حرة واتجه الغزاة المهزومون إلى جنوب أرض كنعان حيث اعتصموا بمدينة أخرى حصينة تسمى شاروهين لعدد آخر من السنين (١٠٧)، ثم حوصرت أيضا تلك المدينة وطال حصارها وفى النهاية تم اجتياحها وقتل المدافعون عنها والقلة التى نجت تشتت ولم يعد لها أية أهمية (١٠٨). وتركوا مشاعر عميقة من الأسى والكراهية فى نفوس الشعب المصرى (١٠٩).

والشعب الآخر سمى العماليق وقد ترك شبه الجزيرة العربية بعد سلسلة من النكبات (١١٠)، وزلزال عنيف (١١١)، وكثيرون منهم هلكوا أثناء هجرتهم بسبب فيضان عظيم اجتاح أرض شبه الجزيرة العربية (١١٢)، وتقابلوا فى أحد المواضع مع الإسرائيليين الخارجين من مصر التى تحولت هى الأخرى إلى أنقاض بسبب كارثة مدمرة (١١٣). وفيها تحولت المياه فى النهر إلى لون الدم وزلزلت الأرض وارتفع البحر فى موجه مد عاتية (١١٤).

واحتل الغزاة المهاجرون من شبه الجزيرة جنوب فلسطين وفى التوقيت نفسه تحركوا باتجاه مصر (١١٥)، حيث احتلوها دون أن يلاقوا أية مقاومة (١١٦). كان الغزاة العماليق قادمين من شبه الجزيرة، لكن كان

من الواضح أنهم يحملون دماء الحاميّين فى عروقهم (١١٧) وكانوا أمة من الرعاة حيث كانوا يرحلون بقطعان مواشيهم وإبلهم من مكان إلى آخر (١١٨).

ومثّل العماليق بأجسام الجرحى والمساجين وقطعوا أطرافهم وكانوا على درجة كبيرة من الفظاظة والقسوة فى نواح كثيرة أخرى بما يعجز عنه الوصف (١١٩) وخطفوا الأطفال والنساء (١٢٠) وأحرقوا المدن (١٢١) ودمروا الآثار والأعمال الفنية التى نجت من الزلازل وجردوا مصر من ثرواتها وكنوزها (١٢٢) وكانوا يهينون ويحقرون المشاعر الدينية للمصريين (١٢٣).

وبنى العماليق مدينة حصينة على الحدود الشمالية الشرقية لمصر (١٢٤) ونُصّب زعماؤهم فراعنة على مصر وحكموا البلاد من مدينتهم الحصينة (١٢٥) وفرضوا هيمنتهم وسيطرتهم على غرب آسيا وشمال أفريقيا ولم يكن لهم منافس ولا منازع فى عصرهم (١٢٦) وأخضعوا السكان المصريين تحت نير عبوديتهم واستخدمت قبائلهم المصريين كخدم وعبيد (١٢٧) وبنوا أيضاً نقاطاً حصينة فى كل من سوريا وفلسطين (١٢٨) ودأبوا على شن الهجمات على حقول المزارعين ومعهم قطعان ماشيتهم فى أوقات الحصاد مما كان سبباً مباشراً فى إفقار شعب إسرائيل (١٢٩). ودامت سيطرتهم على بلاد كثيرة من الشرق الأدنى والأوسط طبقاً لتقديرات كثيرة ما يقرب من خمسمائة عام (١٣٠).

ومن بين ملوك العماليق كان هناك إثنان على الأقل يحملان اسم أجوج وكلاهما كان ملكاً مرموقاً. الأول حكم بعد عدة عقود من خروج الإسرائيليين من مصر والثانى حكم فى أواخر عصور العماليق (١٣١). واختلط ذلك الشعب بالفلسطينيين (١٣٢).

وانتهت سيادتهم حين حوصرت مدينتهم الحصينة على حدود مصر من قبل شاؤل ملك إسرائيل (١٣٣)، وكان لمجرى النهر (ناخال) دور أساسى فى الحصار (١٣٤) وسمح لعدد كبير من سكان المدينة وحاميتها المحاصرة بمغادرتها (١٣٥) وبعد ذلك الحصار وسقوط المدينة الحصينة انهارت إمبراطورية العماليق وفقدت سطوتها التى امتدت من هافيلاه فى أرض الفرات حتى بداية حدود مصر (١٣٦) وفر من بقى منهم إلى أراضى جبلية

جنوب فلسطين (١٣٧)، وحاولوا استجماع قوتهم مرة أخرى فى مدينة محصنة ولكن تلك المدينة حوصرت أيضاً. وبعد حصار طويل سقطت المدينة نتيجة لهجوم كاسح (١٣٨)، وبعد ذلك لم يعد لهم أية أهمية (١٣٩) وتركوا فى نفوس شعب إسرائيل إحساساً حاداً بالكراهية (١٤٠).

وعلى ضوء ما سبق فإن النتيجة الوحيدة والمؤكدة هى أن الآمو فى المصادر المصرية والعماليق فى المصادر العبرية والعربية لم يكونا شعبين مختلفين بل اسمين مختلفين لأمة واحدة وشعب واحد.

وحتى الاسمين المختلفين كثيراً ما اقترنا فى كثير من المصادر. فآمو وأومية كان اسماً شائعاً ومرادفاً للعماليق، وقد كتب الجوهرى مؤلف المعاجم فى القرن العاشر الميلادى ما يلى: «وصل إلى علمنا أن هذا الاسم (آمو وأومية) كان يدل أن صاحبه من العماليق» (١٤١).

فالآمو والهكسوس كانوا هم العماليق. وهذا التطابق الذى تأكد فى عدد كبير من المقارنات والمقابلات والمضاهاة، يعد إجابة حاسمة للغز يربو عمره على ألفين ومائتين من السنين. أى إجابة للسؤال المحير وهو من هم الهكسوس؟.

لقد كانت إجابة السؤال وحتى عهد مبكر جداً يعود إلى أيام جوزيفوس فلافيوس فى القرن الأول الميلادى محل جدل كبير.

والحجج الواردة فى هذا الفصل للتدليل على أصل آمو - الهكسوس والعماليق قد أوردتها وأعدتها نقطة بنقطة، وذلك نظراً للأهمية القصوى التى سترتب على هذا الاستنتاج والأجزاء التالية من هذا الكتاب ستظهر مدى أهمية تلك النتائج وما سيترتب عليها.

الخلط بين الهكسوس والإسرائيليين وبداية معاداة السامية

لم يستطيع الإسرائيليون أبداً أن ينسوا معاناتهم فى مصر، ولكنهم لم يحملوا أبداً أية كراهية ضد المصريين (١٤٢) أو الشعوب التى عاشت فى تلك المنطقة القديمة، والعماليق وحدهم هم الذين أصبحوا فى نظرهم رمزاً للشر ومن ثم هدفاً لكراهيتهم.

«سفر التثنية ٢٥: ١٧ - ١٩»: اذكر ما فعله بك عماليق فى الطريق عند خروجك من مصر كيف لا قاك فى الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك وأنت كليل ومتعب ولم يخف الله فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيباً لكى تمتلكها تمحو ذكر عماليق من تحت السماء. لا تنس».

إن الشر المطلق فى ذلك الشعب أعيد ذكره حتى الملل فى كل الأدب والفكر القديم (١٤٣) وكيف كانوا يمتصون دماء الشعب المرهق فى تيه الصحراء، وكيف كانوا ينصبون الكمائن بكل جبن وخسّة ويستولون على الأقوات القليلة، وكيف كانت حقارتهم ووضاعتهم ووحشيتهم تظهر فى مهاجمتهم الضعفاء فى مؤخرة القافلة.

وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم ويهرطقون ويجدفون بكفر صارخ بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء ويسخرون من الرب (١٤٤).

وهناك أسطورة تظهر مشاعر الأمة الإسرائيلية فى الجملة الرمزية التالية:

طالما كانت بذور العماليق موجودة فإن وجه الرب سيظل محجوباً.

وسيتجلى وجهه حين تستأصل شأفة العماليق من الأرض، وكانت هناك أيضاً معتقدات أن «الرب أمر موسى أن يوصى قومه ألا يردوا وثنياً يريد أن يدخل فى دين اليهود إلا العماليقى فلا يقبل أبداً كمهتد» «لأنهم بسبب خطاياهم سيكونون» أول قوم فى الجحيم «وأن» الله بنفسه أخذ على عاتقه أن يحارب العماليق».

لقد خلق الهكسوس الكراهية نفسها فى نفوس المصريين، فقسوتهم المتطرفة ووحشيتهم التى لم تعرف الرحمة، تركت آثاراً من المستحيل محوها من ذاكرة الشعوب لقد أتلفوا كل لفائف البردى التى وصلوا إليها وأحرقوا ودمروا كل الأعمال الفنية، وفى معسكراتهم عذبوا أسراهم بوحشية فشقوا الرؤوس وحطموا الأسنان وسملوا العيون وقطعت الأطراف إرباً، ولم يؤمنوا بشئ بقدر إيمانهم بقوتهم الفائقة، فمارسوها فى معسكراتهم على ضحاياهم العزل. وحتى المفكرون والكتاب العرب أدانوهم وفضحوا شرورهم وطيشهم ونزقهم وتدنيسهم للمقدسات الدينية

فى مكة وفى مصر، وذكروا فى كتبهم أن الرب قد أبعدهم عن مكة نتيجة لظلمهم وشرهم.

لقد كان قدر شاؤل أن يحمل على عاتقه مهمة تحرير إسرائيل ومصر، ولم يذكر المصريون الإسرائيليين بالتقدير اللازم. لما قدموه لمصر وأشار إليهم المصريون بـ «هو» و «هم» وكان ذلك بعض الظلم، وكانت مكافأتهم للإسرائيليين ما قام به المؤرخون المصريون من جمعهم للإسرائيليين مع المضربين الهكسوس فى سلة واحدة، مع أنهم هم - الإسرائيليون - من قاموا بطرد الهكسوس من مصر ومن حواريس.

كتب الضابط أحمس أن الهكسوس بعد سقوط حواريس تراجعوا إلى مدينة شاروهين فى جنوب فلسطين. ولكن جاء مانيتو بعد ذلك بقرون ليذكر أن الهكسوس تراجعوا إلى فلسطين وبنوا مدينة أورشليم. كما ذكر أيضاً عندما تمردت مستعمرة المجذومين فى حواريس أن المتمردين استدعوا السليمانيين (شعب أورشليم) للاستعانة بهم وأنهم معاً تمكنوا من غزو مصر. وذكر أن أولئك السليمانيين كانوا فى غاية القسوة والوحشية على كل سكان مصر. وأن أحد أولئك المجذومين وكان يدعى أوسارسيف قد بدل اسمه باسم موسى. تلك القصة المشوشة تعكس غزو الآشوريين لمصر، عندما جاء سناشريب وإزار حدون وغزوا فلسطين ومصر «بجيش كبير من الآشوريين والعرب» ولكن لم يغز شعب أورشليم مصر فى أى عصر.

لقد امتدت أول موجة من معاداة السامية فى الشرق القديم فى أيام الإمبراطورية الفارسية عن طريق الوزير هامان عدو اليهود (١٤٦)، وكان هامان من سلالة الملك أجوج العماليقى (١٤٧) وتآمر ليدمر الشعب اليهودى فى فارس وميديا.

وبإمكاننا أن نتخيل كيف كان بيت هامان مؤهلاً للتشبع بكراهية اليهود حين توارثوا الاعتقاد بأن أحد أجداد هامان وهو الملك أجوج قد نزع عن عرشه وسلب منه ملكه على أيدى ملك يهودى ثم قتل بعد ذلك بيد نبى يهودى وهو صموئيل.

وفى عالم الإغريق وإمبراطوريتهم لم توجد أية إشارة إلى كراهية عنصرية لليهود حتى بدأت قصص مانيتو فى الإنتشار والذيوع .. لقد كان

ينظر لليهود أحياناً كشعب يحيط به الغموض، ولكن لم يوجد أى تعبير عدائى أو إشارة ازدراء لليهود فى كتابات المفكرين القدماء قبل مانيتو، وكانت هناك مصادر سبقت مانيتو فى الإشارة إلى الشعب اليهودى، ومنها ما كتبه ثيوفراستوس وكليركوس السولى وميجاثينيس وهم جميعهم فلاسفة ازدهرت أفكارهم فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد.

كتب ثيوفراستوس:

إنهم سلالة من الفلاسفة ولا يتوقفون أبداً عن التفكير فى اللاهوت.

وكتب كليركوس السولى:

«انحدر اليهود عن فلاسفة الهند. والفلاسفة يسمون فى الهند كالانيان. ويسمون فى سوريا اليهود .. كما أن اسم عاصمتهم من الصعب جداً النطق به إذ تسمى جيروزاليم».

كما قص كليركوس قصة اليهود الذين تعلم منهم أرسطو الحكمة أثناء رحلته إلى آسيا وسجل كلمات أرسطو عن «الاتزان العظيم البعيد عن التطرف الذى يتسم به ذلك الفيلسوف اليهودى الذى يستحق التقدير وعن ضبط النفس الذى يتميز به».

وذكر أيضاً عن ذلك العصر أن فيثاغورث وبلاتوكانا على اتصال وثيق بحكماء اليهود وفلاسفتهم وكانوا متشوقين للتعلم منهم (١٤٩).

كما كتب ميجاثينيس (١٥٠) الذى عاش فى الهند ما بين عامى ٣٠٢ و ٢٩١ ق. م فى كتابه المسمى أنديكا «كل الآراء والنظريات التى صاغها القدماء عن الطبيعة أوجدها علماء لا ينتمون إلى الإغريق، بل أوجدها أمثال براهمان فى الهند وأولئك الذين يدعون باليهود فى سوريا».

كل تلك الآراء التاريخية عن اليهود فى اللغة اليونانية القديمة وجدت فى الفكر الإغريقى القديم قبل عصر ظهور مانيتو وشيوع أفكاره.

ولم تنطفئ نار الكراهية فى نفوس الأجيال بعد ذلك بعد ذيوع أفكار مانيتو حين عرف اليهود كسلالة منحدرة عن العماليق الغزاة المتوحشين .. لقد كانت إشارة البداية من مانيتو، ثم ظهرت من بعده حملات التهجم على اليهود فى كل أعمال الفكر والأدب وفى كل الحضارات التى تلته وأعيدت روايات مانيتو مرات ومرات ولاقت استحسان وإعجاب الكثير

من الكتاب والمفكرين (١٥١). وكان منهم أبيون الذى كان كتاب جوزيفوس فلافيوس – ضد أبيون – دفاعاً موجهاً ضد ما ذكره عن اليهود، ولكن بدلاً من أن يفند جوزيفوس مزاعم انتماء اليهود للهكسوس، فإنه على العكس من ذلك أكدها بطريقة مطلقة، وكان دافعه الوحيد إلى ذلك هو رغبته فى البرهنة على أصالة الشعب اليهودى وقدمه مستنداً على قصص مانيتو.

لقد لعب جوزيفوس دوراً مأساوياً فى أيام حرب جاليلى ويهوذا وتدمير أورشليم على أيدى تيتيوس فى القرن الأول الميلادى ... وكان جوزيفوس قد بدأ كجندى فى طليعة الجيش الجاليلى وانتهى بانسحابه وخروجه عن شعبه، وكان دفاعه عن القضية اليهودية يعد عملاً فنياً رائعاً وترجم إلى عديد من اللغات المختلفة، وركن إليه المدافعون عن القضية اليهودية والشعب اليهودى ولكن دفاعه بالقلم كان فى حقيقة الأمر مساوياً لدفاعه بسيفه. ووجدت كراهية شعوب الشرق القديم المشتعلة دوماً من جيل إلى جيل متنفساً وهدفاً تتجه إليه وكان ذلك الهدف هو اليهود.

وكانت هناك كراهية موازية لا تقل عنها ومتأججة على الدوام فى نفوس وذاكرة الشعب اليهودى نحو العماليق ولا تزال الأم اليهودية حتى اليوم تخيف أطفالها وتهددهم بالعماليق.

إن الكراهية من الممكن أن تدوم وتمتد عبر الزمن حتى ولو لم يعد المستهدف بالكره موجوداً على ظهر الأرض .. وكم كان يصبح عليه مقدار هذا الكره إن لم يكن المكروهون قد أذابوا شخصيتهم القومية من آلاف السنين فى شعوب شبه الجزيرة العربية. كيف كان سيصبح ذلك الكره إذا ما افترضنا أن أمة العماليق ما زالت موجودة حتى وقتنا هذا؟

لقد رأى المؤرخ المصرى (مانيتو) أن اليهود هم البذرة الخسيسة للطغاة المتوحشين، وترتب على ذلك أن المفكرين الإغريق والرومان ترسخت فى كتاباتهم للأجيال حتمية كراهية اليهود كراهية لا يمكن نسيانها أو غفرانها .. وتسللت تلك الكراهية إلى كل الأجيال وتراكمت عناصرها عنصراً فوق آخر واخترعت القصص المشوهة والبشعة عن رأس حمار يحتفظ به اليهود فى معابدهم لعبادتها كما اخترعت قصص أخرى عن شربهم لدماء البشر.

إن اللعنة التى وجهت إلى العماليق تحولت لتنصب على الإسرائيليين

«ستمحى ذكرى عماليق من تحت السماء» ومحيت ذكرى العماليق لدرجة أنه لم يعد أحد هناك يعرف أن العماليق كانوا هم الهكسوس.

واستمر الإسرائيليون يعانون أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ وحملوا آلام أدراجهم فى سلالة العماليق، وبدأ ذلك العقاب التاريخى حين أطلق مانيتو أحكامه الخاطئة ... مانيتو المصرى الذى تحررت أمته من الهكسوس على أيدى اليهود .. وفى الأعوام المتأخرة تغذى عداء السامية من روافد أخرى كثيرة.

تاريخ العالم فى الميزان

إن البراهين والأدلة عن شخصية وكنه الهكسوس العماليق قد تم تلخيصها وتفنيدها لشرح القضية ودعمها بكل الدلائل المتاحة. والمستهدف هنا ليس مجرد حل لغز أصل أو شخصية الهكسوس فقط، بل إن المستهدف هو التركيب الكلى للتاريخ القديم الذى يتأرجح فى كفة الميزان.

ولو كانت كارثتا بردية ايبوير وسفر الخروج وصفين منفصلين لحدث واحد وفوق ذلك لو كان العماليق والهكسوس هما الأمة نفسها، فإن تاريخ العالم كما حدث فعلا يختلف تماماً عن ذلك التاريخ الذى تعلمناه.

وهكذا نجد أن التحقق من الزمن الذى حدث فيه خروج الإسرائيليين يصبح ذا أهمية قصوى، فالإسرائيليون لم يغادروا مصر خلال فترة المملكة الحديثة كما يعتقد أغلب الباحثين، ولكنه حدث عند نهاية المملكة المتوسطة، وكل فترة سيادة وحكم الهكسوس تقع ما بين نهاية المملكة المتوسطة وبداية المملكة الحديثة، وطرد الهكسوس لم يكن متزامناً مع خروج الإسرائيليين من مصر، ولم يكن كذلك قبل الخروج، فالهكسوس ... طردوا من مصر ودمرت مملكتهم على أيدى شاؤل وانهيارهم النهائى كان على أيدى موآب الجندى فى جيش داود، وقد عاش داود فى القرن العاشر قبل الميلاد وتلى شاؤل على عرش اليهود، أما طرد الهكسوس فقد وضع فى التاريخ التقليدى فى عام ١٥٨٠ ق. م. مما يترك فجوة مقدارها ستة قرون غير مفسرة ومجهولة.

أى تاريخ يجب أن نحركه لنغطى تلك الفجوة التى تبلغ ستة قرون؟

وهل من الممكن أن نضع داود فى القرن السادس عشر قبل الميلاد؟

إن أى دارس للتاريخ القديم لن يجد أدنى إمكانية فى تغيير تواريخ ملوك أورشليم ولو لقرن واحد من الزمن فضلا عن ستة قرون كاملة دون أن يغير معلومات مؤكدة ومفاهيم راسخة مثبتة، فقصص التوراة سجلت تتابع ملوك يهوذا وإسرائيل ملك بعد آخر مع التواريخ التى حكموا خلالها، ولو كان هناك بعض التعارض والتناقض أو المصاعب فى توافق سنوات حكم يهوذا وإسرائيل فإن ذلك الأمر ذو أبعاد مختلفة تماماً، قد تصل فى حدها الأقصى إلى عقد أو عقدين من الزمان ولا تصل بأية حال إلى مئات السنين.

والتاريخ العبرى متصل تماماً بالتاريخ الآشورى، وبمساعدة الحقائق العامة الثابتة فإن الجداول الزمنية قد وضعت بدقة لدرجة أنه إن كان هناك فراغ تاريخى يسمح بتوجيه سؤال مثل إن كان سنحريب فى حملته الثالثة قد غزا فلسطين فى عام ٧٠٢ أو عام ٧٠٠ ق. م. فإنه لا يوجد موضع للتساؤل إن كان ذلك الملك الآشورى قد وصل إلى أورشليم فى عام ١٢٨٠ ق. م. أو ما يقاربه من تاريخ .. وبينما هناك اختلافات فى الآراء حول إطالة أو تقصير فترة حكم واحد أو آخر من الملوك بمقارنة حساب الزمن فى سفرى الملوك وذلك الذى فى سفر أخبار الأيام فإن تواريخ الأحداث التى ساهم فيها كل من البابليين والآشوريين وفى أحوال عديدة قد حددت بدقة كاملة وبالعام الواحد.

انتهت فترة حكم ملوك أورشليم بالنفى إلى بابل فى زمن نبوخذ نصر والذى دمر أورشليم فى ٥٨٧ – ٥٨٦ ق. م، وفى النصف الثانى من القرن نفسه غزا قورش ملك فارس كلا من الإمبراطورية الكلدانية والبابلية، والحكم الفارسى وتاريخ ملوكه ملكاً بعد ملك وعدد سنين حكم كل منهم معروف بدقة من مصادر المؤرخين الإغريق المعاصرين للأحداث واستمر ذلك حتى عصر الاسكندر الأكبر فأين يمكن حشر ستمائة عام بين تلك التواريخ والأحداث؟ هل من الممكن قبول فكرة أن ستمائة عام من تاريخ اليهود قد اختفت أو ضاعت وأنه بسبب هذا الاختفاء قد تقلص التاريخ بهذا الشكل؟ وأين الموضع التاريخى لتلك الفجوة؟

وفى الحقيقة فإنه لا توجد فجوة تاريخية بأى قدر كان ولا بأى قدر

خارق من التخيل، فتتابع القرون لا يمكن شقه لخلق فراغ لقرون أخرى إضافية.

ومن جهة أخرى فكيف يمكن تقصير التاريخ؟ إن التاريخ المصرى مستقر وبإحكام أيضاً، أسرة بعد أسرة من حكام مصر من بداية المملكة الحديثة عام ١٥٨٠ ق. م. تقريباً حتى عصر الحكم الفارسى لمصر عام ٥٢٥ ق .م. حين غزاها قمبيز ثم حتى غزو الإغريق لمصر عام ٣٣٢ ق. م. بقيادة الإسكندر الأكبر، وكل تلك الفترة مليئة بأسر متتابعة وملوك معروفين.

ليس ماضى مصر فقط هو المستقر بل إن حساب زمن التاريخ المصرى هو القاعدة والمقياس لكل تاريخ العالم القديم.

وحتى عصور حضارة مينون والحضارة المسينية فى جزيرة كريت وتاريخ بلاد الإغريق وضعت هى الأخرى فى التاريخ طبقاً للتتابع الزمنى لتاريخ مصر وكذا التاريخ الآشورى والبابلى وحتى الحسينية (الحثية) أيضاً قسمت تواريخها ووزعت على جداول التاريخ طبقاً لارتباطهم بالتاريخ المصرى. وبعض الأحداث فى التاريخ الأشورى والبابلى والمتعلقة بالشعب اليهودى وكذا تاريخ بلاد الرافدين متزامن مع التاريخ اليهودى، ومن جهة أخرى فإن بعض الأحداث الآشورية والبابلية الأخرى التى شملت مصر، وكذا تاريخ الرافدين متزامنة مع التاريخ المصرى حيث يبدو، وكأن هناك فرقاً يصل إلى ستمائة عام قبل تاريخ يهوذا وإسرائيل، إذا ما قورنت بالتاريخ اليهودى .. فبأى استثناء وبأية طريقة غير عادية ومنافية للمنطق من الممكن أن يحدث هذا؟

لو كان الخلل موجوداً فى تتابع التاريخ المصرى، فإن الاحتمال الوحيد لذلك هو أن بعض حلقات ذلك التاريخ قد وصفت مرتين وستمائة عام زائدة قد نتجت عن ذلك التكرار، وسيترتب على ذلك بالطبع أن تكون أحداث كثيرة فى حياة شعوب أخرى عديدة قد وصفت أيضاً فى تزامن غير صحيح.

ولكن يبدو ذلك من المحال، إذ يشكل إهانة لعديد من أجيال الباحثين والدارسين فى جميع أنحاء العالم الذين تعلموا وبحثوا ونقبوا وكتبوا وعلموا التاريخ - يعد إهانة - من حيث قدرتهم على الحكم الصائب وتمحيص الأمور.

كلا البديلين السابقين يبدو خيالياً، وهما إما أن ستمائة عام قد اختفت من تاريخ الشعب اليهودى أو أن ستمائة عام قد ضوعفت أو أضيفت إلى تاريخ مصر وتاريخ شعوب أخرى عديدة.

ولكن أن يكون التاريخ فى أورشليم هو القرن العاشر قبل الميلاد وأن يكون فى الوقت نفسه القرن السادس عشر قبل الميلاد فى طيبة فذلك مستحيل على إطلاقه وسيكون من الأفضل أن نقرر هنا فى هذا الموضع أن الخطأ غير موجود فى التاريخ ذاته بل فى المؤرخين، وأنه بوضع التاريخين جنباً إلى جنب لمقارنتهما قرناً بقرن فإما أن نجد ستمائة عام مفقودة من تاريخ فلسطين أو نكتشف ستمائة عام شبحية ووهمية فى تاريخ مصر.

وسأعرض هنا أحداث الزمن الذى تلى طرد الهكسوس - العماليق حكماً بحكم وعصراً بعصر فى كل من مصر وفلسطين، وسنرى إن كانت الأحداث متزامنة أم لا ... وإلى أى مدى زمنى، وإن كان القرنان العاشر والتاسع قبل الميلاد فى فلسطين يتزامنان مع القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد فى مصر، كما سنجد دليلاً إضافياً على أن توحد شخصية الهكسوس والعماليق ليس افتراضاً فرعياً، وبمضينا خلال العصور سنكون أكثر قدرة على تحديد مكمن الخطأ، وحتى قبل أن نقرر أى تاريخ منهما على خطأ فإننا يمكن أن نستنتج أن تواريخ الشعوب المنسجمة والمتزامنة مع كلا التاريخين فى حالة من الفوضى العارمة.

هوامش الفصل الثانى

1. Manetho (trans. Waddell).
2. Josephus, Against Apion (trans. St. Thackeray), 1, 74-75.
3. Meyer. Geschichte des Alterums, Nol. II, Pt. 1 (2nd ed.), p. 42.
4. A hypothesis put forward by I. Rosellini, I monumenti Storici (Pisa, 1832), p. 176.
5. R. Weill, "Les Hyksos et la Restauration nationale", Journal asiatique, 1910-13, and his La Fih du Moyen Empire égyptien (Paris, 1918), pp. 1-262. The same author more recently published on this theme: "Remise en position chronologique et conditions historiques de la XII Dynastie," Journal asiatique CCXXXIV (1943-45), 131-49; and "Le Synchronisme égypto-babylonien", Chronique d'Egypte, XXI (1946), 34-43.
6. Josephus, Against Apion, I, 82.
7. Ibid. At present the preferred etymology sees in the name Hyk-sos the Egyptian equivalent for "the rulers of foreign countries".
8. Against Apion, I, 76.
9. Midrash Aba Gorion, III (Vilna, 1886), 27. See Ginzberg, Legends, VI, 23.
10. Ibid., III, 62.
11. Ibid., 272.
12. Genesis 36: 12.
13. Abulfeda, Historia anteislamica, ed. H. O. Fleischer (Leipzig, 1831), p.

17.

14. See article, "Amalik", by M. Seligsohn in The Encyclopaedia of Islam (Leiden and London, 1908-38).

15. In the Arab text the word used is ghayth. Fresnel translates it as pâturage, but writes: "Le mot ghayth, que j'ai rendu par celui de pâturage signifie aussi la pluie et le nuage qui l'apporte."

16. Trans. F. Fresnel. Journal asiatique, 3rd Series, Vol. VI (1838), 207.

17. Macoudi (Masudi), Les Prairies d'or (Paris, 1861-77), III, Chap. XXXIX.

18. Ibid., p. 101.

19. Ibid., p. 101-102. In these lines Masudi quotes el-Harit, an ancient poet.

20. I intend to bring together more Arabian recollections of the tidal flood in an essay on the Desert of Wandering.

21. Macoudi, Les Prairies d'or, II, Chap. XXXI.

22. Yaqut, quoted by al-Samhudi, Geschichte der Stadt Medina, ed. F. Wüsten-feld in Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, Historisch-philologische Klasse, Vol. IX (1860), 1861, p. 26.

23. Macoudi, Les Prairies d'or II, Chap. XXXI.

24. Macoudi, L, Abrégé des merveilles (French translation by Carra de Vaux; Paris, 1898), p. 342.

25. Ginzberg, Legends, III, 62.

26. Macoudi, L' Abrégé des merveilles, p. 361.

27. Josephus Against Apion, I, 76.

28. Petrie, History of Egypt, II, 19.

29. Tabari, Chronique (French trans. L. Dubeux; Paris, 1836), I, 261.

30. Historia anteislamica, ed. Fleischer, pp. 17, 179.

31. Ibid., p. 101 (ventus vehementissimus).

32. Ibid., p. 179.

33. Commentary to Sura II, 46.

34. T. Noeldeke, Ueber die Amalekiter (Gottingen, 1864): "Wer nun etwas

auf das Amalekitertum der Pharaonen geben wollte, der wäre nicht viel kritischer, als wer sie ... für Römer oder Perser hielte." His argument was: The arab reports are of no value. Only that is true which was appropriated by the Arab writers from the Old Testament.

35. H. Winckler, Geschichte Israels (Leipzig, 1895), I, 212. "The nation of Amalek probably rests on a mythological idea."
36. B. Gunn and A. H. Gardiner "The Expulsion of the Hyksos", Journal of Egyptian Archaeology, V (1918), 36 note 1: "R. Weill holds the entire story of the Hyksos to be a legendary construction." See Note 5, above.
37. Manetho, in Josephus, Against, Apion, I, 77. On the confustion of Assyrian; with Syrians (Palestinians) by writers in Greek, see Herodotus (trans. A. D. Godley; 1921-24), VII, 63.
38. Josephus, Against Apion, I, 78-79.
39. Ibid., I, 81.
40. W. M. Flinders Petrie. Hyksos and Israelite Cities (London, 1906), pp. 12. F.
41. Cutting off the hands of the fallen or captured enemy soldiers became a practice in a later period of Egyptian history and Assyrian as well. This practice probably goes back to the time of the Hyksos.
42. Gunn and Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, V (1918), 39.
43. Ginzberg, Legends, III, 56.
44. Cf. the vowels in the Massorete Bible, Numbers 24: 7, and I Samuel 15, and Esther 3.
45. Numbers 24: 7. The name of the Hyksos king, Khian, was like that of a planet: "Khiun ... star of your god" (Amos 5: 26). However, the spelling of the king's name has the sound expressed by the letter khet and the name of the star has khaf.
46. I Samuel 15.
47. Cf. Worlds in Collision, p. 151.

48. The King james translation of this verse is cumbersome: "Out of Ephraim was there a root of them against Amalek."
49. Targum Yerushalmi, Numbers 21:1 and 33: 4. Ginzberg, Legends, VI, 114.
50. The region of the Midianites is incorrectly located on the desert strips on both sides of the Aqaba Gulf. The traditions of the Arabs connecting the Amalekites with Mecca relate the Midianites to the region of Medina. Compare also the name of the high priest of the Midianites in the days of Moses-Jethro, called also Reuel, Raguel, and Hobab-with Jathrib, another ancient Arab name for Medina.
51. Trans. Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, I (1914), 103.
52. H. R. Hall, "Egyptian Chronology", Cambridge Ancient History, I, 169.
53. Gunn and Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, V (1918), 40-42.
54. A. H. Gardiner, "The Defeat of the Hyksos by Kamose", Journal of Egyptian Archaeology, III (1916), 95-110.
55. Gardiner reads "three years". See Kurt Sethe, "Die Dauer der Belagerung von Sharuhen", Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde, XLVII (1905), 136.
56. J. H. Breasted, Ahcient Records of Egypt (Chicago, 1906), Vol. II, Secs. 7-13.
57. Gunn and Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, V (1918), 47.
58. The King James translation, "in the valley", is incorrect. Nakhal is "a bed of a river", "a river", and more especially the "river of Egypt" or the wadi of el-Arish, as distinguished from Yeor, or the Nile. Levy, Wörterbuch über die Talmudim und Midrashim, translates nakhal as "Fluss. Bach, Flussbett".
59. "One would not expect that the settlement of such a wandering nation would deserve the name of a city." W. Max Müller in the Jewish Encyclopedia, "Amalek, Amalekites", I, 428.

60. "The territory ascribed to Amalek in I Samuel 15: 7, 'from Havilah until thou comest to Shur', is perplexing." W. Max Müller, "Amalek, Amalekites", The Jewish Encyclopedia, I, 483.

61. J. Wellhausen changed "from Havilah" to "from Telem", a city in Judah. (Text der Bücher Samuels {Göttingen, 1871}, p. 97.)

62. A. S. Yahuda, "The Two Hawilas", The Language of the Pentateuch in Its Relation to Egyptian (London, 1933), I, 190: "The mention of Hawila ... has always presented Biblical scholars with great difficulties. ... Our own very exhaustive investigation and close scrutiny of all the suggested possibilities .. has in every case yielded unsatisfactory results."

63. Josephus, Against Apion, I, 88-90, quoting Manetho.

64. The town is mentioned in Joshua 19: 6.

65. Against Apion, I, 76.

66. Jeremiah 47: 4; Amos 9: 7.

67. Manetho (trans. Waddell), pp. 91, 95-99.

68. Abu-el-Saud, Commentary to Sura II, Abulfeda, Historia anteislamica, ed. Fleischer, p. 17.

69. The natural retreat for an army pressed at once from Egypt and from the shore of palestine would be in the direction of Edom, more particularly toward Petra. In the days of Strabo, trade caravans coming from Arabia "come to Petra, and then to Rhinocolura {el-Arish}, which is in Phoenicia near Egypt, and thence to the other peoples", and according to this author, this route was preferred in earlier times (Strabo, The Geography, 16, 4, 24). Sharuhen was probably situated close to Petra. Petra is "fortified all round by a rock" (Ibid., 16, 4, 21). The early builders of Petra are not known. See Sir H. B. W. Kennedy, Petra, Its History and monuments (London, 1925), p. 81, and G. Dalman, Petra und seine Felsheiligtümer (Leipzig, 1908), p. 33; also M. Rostovtzeff, Caravan Cities (Oxford, 1932), pp. 37-53.

70. Ginzberg, Legends, IV, 98.

71. II Samuel 12: 30.

72. According to the Arabian tradition, Medina was conquered by David; see al-Samhudi, Geschichte der Stadt Medina, ed. Wüstenfeld, pp. 26ff.

73. Hadad left Egypt after the death of David (I Kings 11: 21). Ahmose reigned more than twenty years, according to Manetho twenty-five years.

74. Gauthier, Le Liver des rois d'Egypte (Cairo, 1902), II, 187, note 3. But see Stricker, Acta Orientalia, XV (1937), 11-12.

75. Josephus, Against Apion, I, 77-78.

76. Petrie, Hyksos and Israelite Cities, pp. 10-16.

77. Montet, Le Drame d'Avaris, p. 47: "Le lecteur s'étonnera d'apprendre qu' une ville historique ait été promenée par les égyptologues tout le long du Delta oriental, de Péluse à Heliopolis, en passant par Tell el Her, El Kantarah, San el Hagar (Tanis), Tell el Yahoudieh."

78. K. Sethe, Urkunden (Leipzig, 1906-1909), IV, 390; Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, III (1916), 100.

79. Josephus, Against Apion, 1, 78f.

80. Compare Numbers 34: 5; II Kings 24: 7; II Chronicles 7: 8: "Nakhal" was the border of Egypt.

81. The Symbol of Auaris follows immediately that of Sekhet-za; the latter site is closely associated with the site of Tharu on several steles of the Ramesside period. See Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, III (1916), 101.

82. Josephus, Against Apion, I, 237.

83. Epiphanius said: "Rhinocorura" means "Nakhal" (bed of a river); Saadia translated "Nakhal Mizraim" as "Wadi el-Arish", and similarly Abu-faid. See F. Hitzig, Urgeschichte und Mythologie der Philistäer (Leipzig, 1845), pp. 112ff. Hitzig recognized that el-Arish must have been an old

city (Laris of the Crusaders), but was unable to identify the ancient city that had been situated on the site of el-Arish or Rhinocolura.

84. Il est facile d'identifier les noms géographiques de l'antiquité, quand ils se sont conservés en arabe. Le tell Basta recouvre les ruines de Bubaste. ... Mais le nom d' Avaris était tombé en désuétude bien avant la fin des temps pharaoniques." Montet, Le Drame d' Avaris, pp. 47-48.

85. Macoudi, L' Abrégé des merveilles, p. 388. The Amalekite pharaoh is called by Masudi Talma successor to Latis. The Hyksos king who built Auaris is called Salitis or Salatis (Cambridge Ancient History, I, 233) by Manetho. The two forms, Latis and Salatis, handed down through two such different channels, are nevertheless noticecably similar.

86. Papyrus Ipuwer (Leiden 344 recto) 3: 1; 15: 1.

87. Papyrus Ipuwer 2: 10; 4: 2; 6: 1; Papyrus Ermitage 1116b recto.

88. Manetho-Josephus, Against Apion, I, 73ff.

89. Compare the findings of Petrie in Hyksos graves (Hyksos and Israelite Cities p. 12).

90. Manetho-Josephus; inscription at Speos Artemidos.

91. Sallier Papyrus I; Papyrus Ipuwer 17: 2; Manetho-Josephus.

92. Papyrus Ipuwer; Papyrus Ermitage; Manetho-Josephus.

93. Manetho-Josephus ("from the East"); Papyrus Ipuwer 14: 10; 15: 13.

94. Manetho-Josephus.

95. Papyrus Ipuwer 14: 10; 15: 3.

96. Manetho-Josephus.

97. Papyrus Ipuwer 14: 10; 15: 3; Carnarvon Tablet.

98. Scarabs of Hyksos kings; Sallier Papyrus I; Manetho-Josephus.

99. Inscriptions of Apop; see J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 218; Eduard Meyer, Geschichte des Altertums, Vol. I, Pt. 2, p. 319.

100. Manetho-Josephus; Tomb of Ahmose; Sallier Papyrus I; inscription of Hatshepsut at Speos Artemidos.

101. Papyrus Ermitage.

102. Sallier Papyrus I; compare Petrie, A History of Egypt, I, 243.

103. Manetho-Josephus.

104. Tomb of Ahmose; compare Against Apion, I, 88.

105. Manetho-Josephus.

106. Tomb of Ahmose.

107. Tomb of Ahmose; compare manetho-Josephus.

108. Tomb of Ahmose.

109. Manetho-Josephus.

110. Macoudi, Les Prairies d'or, III, 101; Kitab-Alaghaniy (trans. Fresnel), pp. 206ff.

111. El-Harit, cited by Macoudi, Les Prairies d'or, III, 101; compare Exodus 12: 29.

112. Kitab-Alaghaniy (trans. Fresnel), p. 207.

113. Exodus 15:7-12; 17: 8-16; Numbers 14:43-45.

114. Exodus 7:20; 12: 29; 14: 27.

115. Numbers 13: 29; 14: 43; Tabari, Chronique (trans. Dubeux), p. 261; Abul-feda, Historia anteislamica, ed. Fleischer, p. 179; Mekhilta Beshalla, I, 27.

116. Macoudi, Les Prairies d' or, II, 397.

117. See "Amalik", The Encyclopedia of Islam.

118. Judges 6: 3, 33; 7: 12; I Samuel 15: 9, 14.

119. Deuteronomy 25: 15f.; Numbers 11: 1; Targum Yerushalmi of Exodus 17: 8; Midrash Tannaim, 170; Pirkei Rabbi Elieser 44; and many other sources.

120. Numbers 14: 3; I Samuel 30: 15.

121. I Samuel 30:1.

122. Macoudi, L' Abrégé, pp. 342, 361.

123. Kitab-Alaghaniy (trans. Fresnel), p. 206.

124. I Samuel 15: 5 and 7; cf. Macoudi, L' Abrégé, I, 331.

125. Macoudi, L' Abrégé, I, 33If., 338; Abulfeda, Historia anteislamica, ed Fleischer, pp. 101ff. and 179; Tabari, Chronqiue (trans. Dubeux), p. 209, Ibn Abd-Alhakam, Yaqut, Koran, Commentary to Sura II, 46; Alkurtubi, Koran Commentary to Sura II, 46 (Leiden Ms.).

126. Literature in Ginzberg, Legends, III, 63; Numbers 24: 20; 24: 7; I Samuel 15: 7.

127. The above Arabian sources of the ninth to the thirteenth centuries; I Samuel 30: 13.

128. Judges 5: 14; 12: 15.

129. Judges 6 and 7; I Samuel 14: 48.

130. Compare: Exodus 17: 8ff.; I Samuel 27: 8; I Samuel 30; I Kings 6: 1.

131. Numbers 24: 7; I Samuel 15: 8.

132. II Samuel 1: 13; Abu-el-Saud, Commentary to Sura II, 247; compare Abul-feda, Historia anteislamica, ed. Fleischer, p. 17; compare also "Amalik", The Encyclopedia of Islam.

133. I Samuel 15: 5.

134. I Samuel 15: 5.

135. I Samuel 15: 6.

136. I Samuel 15: 7.

137. I Samuel 27: 8; see also Ginzberg, Legends, IV, 99: Compare al-Samhudi, Geschichte der Stadt Medina, ed. Wüstenfeld, p. 26.

138. II Samuel 11; Ginzberg, Legends, IV, 98f.

139. I Chronicles 4: 42f.

140. Deuteronomy 25: 17-19; I Samuel 15: 2; I Samuel 28: 18; for Talmud and Midrash sources see Ginzberg, Legends, III, 61f., 333; IV, 230; VI, 480.

141. Italics supplied. See D. F. Tuch, "Ein und zwanzig Sinaitische Inschriften", Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft,

III (1849), 151. Tuch took the quotation from Djauhari without any thought of the question debated here as to the identity of the Amalekites and the Hyksos.

142. "... thou shalt not abhor an Egyptian; because thou wast a stranger in his land" (Deuteronomy 23: 7).

143. See the Register to Ginzberg, Legends, Under, "Amalek, Amalekites".

144. Ginzberg, Legends, III, 57.

145. Ibid., p. 62.

146. Esther 3: 10.

147. Ginzberg, Legends, IV, 68, 397, 398, 422.

148. See Theodore Reinach, Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au Judaïsme (Paris, 1895).

149. "Plato derived his idea of God from the Pentateuch. Plato is Moses translated into the language of the Athenians." Numenius in Eusebius, Preparation for the Gospel (trans. Gifford), XIII, 12.

150. Historian and politician in the service of Seleucus Nicator.

151. Quoted by Th. Reinach, Textes.

الفصل الثالث

ملكـــة سبــــأ

دولتان ذاتا سيادة

كانت بداية حكم الأسرة الثامنة عشرة التى كان ملوكها من أصل مصرى - والذين حرروا مصر من الهكسوس - كانت بداية حكم تلك الأسرة متزامنة مع بداية سلسلة ملوك يهوذا بعد أن سدد شاؤل ضربته القاضية إلى سيادة العماليق - الهكسوس - وسيطرتهم على كل المنطقة، وأسس داود مدينة أورشليم كعاصمة له وفى عهد ابنه سليمان وصلت المملكة إلى ذروة عظمتها.

وطبقاً لقصص النصوص الدينية كان لدى سليمان جيش مؤلف من ألف وأربعمائة عجلة حربية واثنى عشر ألفا من الفرسان الراكبين عدا المشاة، وقد شمل حكمه كل الأراضى الممتدة من نهر الفرات إلى أرض فلسطين حتى حدود مصر، وقد أدى إليه ملوك شبه الجزيرة العربية الجزية، وتدفقت عليه الهدايا من أركان الأرض من أوانى الذهب الخالص والفضة والمنسوجات والتوابل والأسلحة والخيول، وزرع أشجار الأرز فى أورشليم لتصبح مثل الجميز الذى فى السهل فى الكثرة «وبنى قصراً، وعرشاً عظيماً من العاج، ومعبداً للرب كل آنيته من الذهب، كما كانت كل آنية وأكواب الشراب فى قصره من الذهب، وكان الذهب الذى يرد إلى خزائنه سنوياً «ستمائة وستا وستين وزنة ذهب» عدا ما يرد إلى الخزائن من مكوس مفروضة على مرور التجار (سفر الملوك الأول ١٠: ١٤ - ١٥).

وكانت مصر بعد استعادتها لاستقلالها على أيدى أحمس المعاصر لشاؤل قد وصلت إلى ذروة العظمة والمجد تحت حكم أمينوحتب الأول وتحتمس الأول وحتشبسوت وتحتمس الثالث، وتحولت مصر التى تهدمت

وأصابها الفقر فى القرون التى كانت فيها تحت سيطرة الهكسوس - تحولت إلى عصور جديدة من القوة والثراء الذى تنامى بسرعة. ودخلت المملكتان اللتان تحررتا من الطغيان نفسه فى علاقات تجارية، وأكثر من ذلك ارتبطتا بعلاقات من النسب والمصاهرة.

اتخذ الملك سليمان من إحدى الأميرات المصريات زوجة له، وربما كانت هى الزوجة المقربة إليه عن بقية زوجاته، ولم تذكر الكتب المقدسة اسمها، والمعروف فقط أن أباها فرعون مصر قد قام بحملة عسكرية ضد جنوب فلسطين وأحرق مدينة جازار، التى كانت موطناً للفلسطينيين والكنعانيين ووهبها بعد ذلك لسليمان حين تزوج ابنته، وأغفل الكتاب المقدس ذكر اسم ذلك الفرعون ولكن ذكرت تفسيرات للتلمود اسمه على أنه الفرعون شيشق، وهو يقابل فى التزامن المذكور هنا الملك تحتمس الأول، وهو الثالث فى ترتيب ملوك المملكة الحديثة، والذى لم تبق من آثاره إلا أسطر قليلة. فعدا حملة عسكرية قام بها ضد بلاد النوبة التى أخضعها لحكمه، قام أيضاً بحملة آسيوية «وأطاح بالآسويين» «وبعد هذه الحملات فإن الفرعون قام برحلة إلى رتينيو ليغسل متاعبه ويستجم فى بلاد أجنبية» (١).

ولا يوجد كثير من الذى يمكن أن نستخلصه من تلك البقية القليلة والأسطر المعدودة التى بقيت عن حياة ذلك الفرعون عدا أنه عبر شبه جزيرة سيناء وقاد حملة حربية وغزا أرض فلستيا ثم عرج فى زيارة ودية إلى فلسطين (رتينيو)، حيث كانت لديه أسبابه التى دفعته إلى نشدان الاستجمام هناك.

وبالرغم من قلة المصادر التى تبقت من آثار حكم تحتمس الأول (٢)، فإنه من كان يذكر على أنه أبو الملكة حتشبسوت، حيث جعلها تشاركه الحكم ثم أخلفها على العرش من بعده، أما حتشبسوت الملكة العظيمة والذائعة الصيت فقد تركت كثيراً من النقوش وصوراً لها بغزارة وكثرة مشهودة.

لو كان خروج الإسرائيليين من مصر قد حدث فى أواخر المملكة المتوسطة، وفوق ذلك لو كان حكم الهكسوس هو حكم العماليق الغزاة نفسه، فإن الملكة حتشبسوت التى تواجهنا تماثيلها الضخمة فى القاعات

الفسيحة للمتاحف يجب أن تكون معاصرة لحكم سليمان. فهل من الممكن أن تخلو كل قصص أورشليم من أى ذكر لها؟ وهل من الممكن أن بلدين متجاورين وتتعاظم قوتهما ونفوذهما وفى مراحل تنمية علاقاتهما الخارجية وتجارتهما مع البلدان المجاورة والبعيدة، ولا يكونان على احتكاك أو اتصال خلال كل فترة حكم سليمان وحتشبسوت اللذين لم يقم أى منهما بتهديد سلام الآخر؟

كلاهما بنى القصور والمعابد الضخمة، وكلاهما أغنى دولته ليس بالحروب، ولكن بالتجارة المسالمة والعمل، وكلاهما امتلك أسطولا بحرياً فى البحر الأحمر، وكلاهما أرسل أسطوله إلى بعثات بحرية بعيدة وإلى أراض جديدة (٣)، وكان حكم الاثنين لبلادهما من أزهى الفترات التى مرت بها كلتا الدولتين.

لو كان الملك سليمان ذائع الصيت ومعروفاً كما وصفته المصادر العبرية فإن غياب أى نوع من الاتصالات بين تلك الملكة والملك سليمان من الصعب تفسيره، وسيكون أمر شاذ جداً بالنسبة للحاكمين أن يكونا مجرد شاغلين لقاعات الحكم، فى حين أنهما كانا فى حقيقة الأمر من أفضل الحكام ذوى النفوذ والهيمنة.

ولن يتفق الأمر أيضاً مع مفهومنا عن شخصية حتشبسوت الملكة المولعة بالمغامرات، وقد ذكر فى كلمات المديح والإطراء المسجلة عنها على جدران المعابد أن «اسمها قد وصل إلى أبعد من دوائر السماء، وأحاطت شهرة ماكيرى (حتشبسوت) كل البحر» (٤) و «جاوزت شهرتها الدائرة العظمى (المحيط)» (٥) ولن يتفق الأمر أيضاً مع ما نعرفه عن الملك سليمان الذى كانت عاصمته ملتقى عديد من سفراء الدول (٦)، والذى كان على اتصال شخصى بالكثير من الحكام «وكان جميع ملوك الأرض يلتمسون وجه سليمان» (سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ٢٣) و «كانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته» (سفر الملوك الأول ١٠: ٢٤).

فهل كانت ملكة مصر استثناء لـ «كل ملوك الأرض» ؟

من أين جاءت ملكة سبأ؟

إن زيارة أشهر من زاروا سليمان مسجلة مرتين فى الكتاب المقدس، فالإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثانى يعيد حرفياً القصة المذكورة فى الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول.

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، وجمال، حاملة أطياباً وذهباً بكثرة، وحجارة كريمة، فأتت إلى سليمان، وكلمته عن كل ما فى قلبها».

هل هذه القصة خيالية وملفقة؟

هل جاءت ملكة تخيلية من بلاد غامضة بمجوهرات وهدايا قيمة وأشياء رائعة عظيمة أخرى؟

ولو كانت قد جاءت لزيارة سليمان حقاً، فهل وجدته ذلك الملك الرائع والعظيم، ملك أورشليم كما سمعت، أم وجدت أميراً عادياً تابعاً، تحت وصاية ملك دولة أخرى، وذكره لا يتجاوز حدود بلاده؟

لقد كان هناك الكثيُر ممن مالوا إلى عدم تصديق تلك القصة مع غياب أى أسس تاريخية تدعم تلك الأسطورة الملفقة، وآخرون ممن لم يروا أى جانب للخيال فيها واقتنعوا بصحة الزيارة، ركزوا جهودهم فى البحث عن بقايا آثار قديمة لحياة وفترة حكم ملكة سبأ بلا نجاح يذكر (٧).

وآمن أغلب الباحثين أن البلاد التى حكمتها ملكة سبأ هى مقاطعة سبأ فى جنوب شبه الجزيرة العربية وهى أرض إناس «من البرية الذين جعلوا إسورة على أيديهم، وتاج جمال على رؤوسهم» (سفر حزقيال ٢٣: ٢٤). وآمن اليمنيون وهم الشعب الذى يسكن الجنوب الغربى من شبه الجزيرة العربية وسكان أرض سبأ أن ملكة سبأ كانت مليكتهم، وبخيال شرقى خصب زينوا قصة حياتها وقصة زيارتها ورحلتها إلى أورشليم وقد أيد القرآن وجهة نظرهم هذه (سورة ٢٧). (*)

ولكن نافست أثيوبيا، شبه الجزيرة العربية، فى الاستحواذ على شهرة ملكة الجنوب وادعى ملوك أثيوبيا انحدارهم من نسل مينيليك، ابن سليمان من ملكة سبأ التى يصرون أنها كانت ملكة أثيوبية، وادعوا أنهم

(*) ترجم النص كما هو ولكن المقصود سورة النمل من القرآن (المترجم).

يمتلكون مخطوطات من القرون الوسطى تحتوى على نصوص منقولة عن نصوص كتبت فى أوائل القرون المسيحية تثبت صحة اعتقادهم (٨).

كذلك لم يحمل أى من التلموديين معلومات تاريخية واضحة تظهر شخصية ملكة المغامرات ذات الشخصية الغامضة (٩). وبالرغم من ذلك فإن الرأى الواضح فى التلمود كله أن سبأ فى تسمية ملكة سبأ، ليست تسمية جغرافية تعود على مكان معين، بل إنه اسم شخص (١٠). حتى المخطوطات العديدة عن جنوب شبه الجزيرة العربية أغفلت أى ذكر لملكة سبأ، هذا عدا الكثيرين من الرحالة والباحثين الذين قلبوا كل حجر فى جنوب شبه الجزيرة بأمل العثور على أى دليل، ولكن بلا أدنى نجاح يذكر فى الكشف عن هذا اللغز (١١). إن تسلسل أنساب أباطرة أثيوبيا الذين أصروا على أنهم من نسل سليمان وملكة الجنوب قد قوبلت بلا إيمان حقيقى بصحتها، كما يحدث عادة تجاه سلسلة أنساب الملوك وأنصاف الآلهة.

إن الأبحاث تمخضت عن عديد من الرسائل والمحاضرات، وبعد أن استهلكت كل المادة العلمية المتاحة وصلت إلى نتيجة عبّر عنها أحد الكتاب قوله «لن نعرف أبداً إن كانت الملكة التى زارت سليمان من دم أثيوبى خالص، أم ملكة عربية من اليمن أو حضرموت أو من أى مكان آخر من شبه الجزيرة العربية، ولكن الاعتقاد أن ملكة من الجنوب قد زارت سليمان هو اعتقاد قديم جداً وذائع الصيت لدرجة أنه لابد أن تكون هناك نواة لحقيقة تاريخية تختفى فى ثنايا هذا الاعتقاد» (١٢) فهل كانت ملكة الجنوب هى ملكة سبأ التى تقع بالجزيرة العربية أم فى أثيوبيا أم كانت شخصية أسطورية من أرض الخيال؟

فى الآثار اليهودية لجوزيفوس نجد قصة ملكة سبأ (١٣) مقدمة بالجمل التالية:

إن المرأة التى كانت تحكم فى ذلك الوقت قد حكمت باسم ملكة مصر وأثيوبيا، وكانت قد تعلمت الكثير من صنوف الحكمة، وكانت رائعة فى كثير من المجالات، وحين سمعت عن مناقب وصفات وفضائل وسعة أفق سليمان، وجدت نفسها مساقة إليه برغبة قوية لرؤيته، كان مبعثها كل تلك الأقوال التى تسمعها يومياً عن دولته. (١٤).

وهناك نجد أدلة واضحة فى معنى «ملكة مصر وأثيوبيا» ولكن التاريخ المصرى بعد أن أزيح ستمائة عام عن نقطة تزامنه مع التاريخ الإسرائيلى فإنه لم يقدم لنا ملكة كانت تحكم مصر وأثيوبيا فى ذلك الوقت (١٥).

إن التاريخ المصرى الذى أزيح ستمائة عام عن موضعه لو أعيد إلى مكانه الصحيح فسيواجهنا أيضاً بصعوبة تفسير غياب أى مرجع عبرى يشير إلى الملكة حتشبسوت.

هل قصة ملكة سبأ هى قصة الملكة حتشبسوت؟

إن أقوى دليل مقنع بالطبع هو أن يوجد تسجيل لرحلة حتشبسوت إلى أورشليم وأن يدعم هذا الدليل وجود إشارة إليه فى قصص ملوك أورشليم.

والدليل موجود ومكتوب ومسجل ومحفوظ حتى الآن ومتطابق تماماً مع قصص ملوك أورشليم.

إلى أين ذهبت الملكة حتشبسوت؟

هناك معبد سمى «روعة الروائع» فى الدير البحرى بالقرب من مدينة طيبة فى أرض مصر. وقد بنى ذلك المعبد أمام حائط صخرى طبيعى شبه دائرى، وذلك الحائط الصخرى المكون من الحجر الجيرى الأبيض والذى صبغته أشعة الشمس ومرور الزمن بلون أصفر وردى – ذلك الحائط – يشكل حاجزاً رأسياً كاملا حول المعبد، والوصول إلى المعبد غير متيسر إلا من الشمال عن طريق منحدر جبلى وعر يؤدى إلى حاجز صخرى يفصل الدير البحرى عن مقابر وادى الملوك الموحشة المنعزلة (١٦).

وقد نقشت على جدران ذلك المعبد صور وكتابات جدارية تصف أهم الأحداث التى تخللت فترة حكم الملكة حتشبسوت، من هذه الصور سلسلة تصف ميلادها الإلهى كابنه للإله رع. وهناك سلسلة أخرى من الصور وتسمى مجموعة بونت وهى مقابلة ومتماثلة هندسياً مع السلسلة الأولى، وتصف رحلة إلى أراضى بونت أو الأرض المقدسة (الأرض الإلهية أو أرض الرب).

«وبلا جدال فإن هذه المجموعة من أهم جداريات مصر على الإطلاق ...فإنها رائعة التصميم، ولا يقل محتواها روعة عن تصميمها» (١٧).

ويبدو أن الصور كانت تصف رحلة إلى أراض مقدسة، حيث تبدو والسفن مجهزة بالأشرعة والمجاديف ومن خلفها تبدو تلك الأراضى وكأنها بلاد أسطورية ذات حقول رائعة، وتلال جميلة، ويقطنها رجال بيض البشرة كأنهم من أصل سامى، أو قوقازى (١٩)، وتبدو عليهم مخايل النبل والزهو، ويكونون غالبية السكان، ثم تظهر الصور أن هناك بعض السكان يختلفون كلية عن الأغلبية، وذوى بشرة سوداء، والحيوانات مغلولة من أعناقها بالحبال، وبسهولة يمكن التكهن بأصلها الأفريقى فهى مجموعة من القرود والنمور (٢٠)، أما النباتات فقد كانت شبيهة بنباتات الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية، نباتات وصفت فى النقش بأنها «منذ بداية العالم لم تر أشجار فى روعة هذه الأشجار» وقد عادت البعثة من بونت بكثير من هذه الأشجار إلى مصر، وعدا تلك الأشجار، كانت هناك هدايا من العاج ومن خشب الأبنوس الأسود والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وهكذا جلبت الملكة حتشبسوت حمولة ثقيلة وثمينة إلى بلادها محمولة على أسطولها البحرى.

فأين كانت أراضى بونت هذه؟

هناك عديد من النظريات التى وضعت لتحديد موقع بلاد بونت، ولكن بقيت جميعها بلا دليل قاطع يؤيدها ويؤكدها، ولو لم توجد تلك الرسوم لسكان سود البشرة وحيوانات أفريقية على أعمدة المعبد وجدرانه، لما كان تحديد موضع بلاد بونت يشكل أى صعوبة محتملة.

إن اسم بلاد بونت أو الأرض المقدسة (أرض الإله) على جدران المعبد غير مصحوب بالعلامة الهيروغليفية التى تميز البلاد الأجنبية بالنسبة للمصريين، كما أظهرت طريقة كتابة الاسم أن المصريين كانوا يعتبرون بلاد بونت مرتبطة بشكل ما مع مصر. وفى عدد من النقوش المصرية القديمة ذكرت بلاد بونت على أنها تقع إلى الشرق من مصر.

ففى كلمات عن الإله آمون يعود تاريخها إلى عصر أمينوحتب الثالث فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة جاء ما يلى: «حينما أولى وجهى إلى مشرق الشمس فإنى أولى وجهى إلى بلاد بونت». (٢٢)

كما وضع أحد المسئولين الرسميين والذى عاش فى عصر الأسرة السادسة تسجيلاً موجزاً قرر فيه أنه زار بيبلوس وبونت إحدى عشرة مرة (٢٣). وكانت بيبلوس هى العاصمة القديمة للفينيقيين وبقاياها مازالت موجودة على بعد ثمانية عشر ميلا شمال بيروت، وزيارة موظف مصرى لبيبلوس وبونت إحدى عشرة مرة، ومع الربط بينهما فى كل الزيارات، فإن بونت لابد أن تكون فى الطريق إلى بيبلوس ومرتبطة بها بشكل ما.

إن اسم بيونت أو بونت من الممكن تتبع مصدره حيث نجده مشتقاً من «بيونتس» أو بوزيدون صيدا. كما سجله سانشو نياتون أحد الكتاب الفينيقيين المبكرين (٢٤). وكانت صيدا حاضرة الفينيقيين وفى ذلك الوقت. هناك أيضاً عديد من النقوش التى تتحدث عن منتجات بلاد بونت وأرض الإله، وأنه يتم الحصول عليها من فلسطين. وسنقرأ بعض تلك النصوص فى الفصل التالى. وفى نقش آخر على جدران مقبرة واحد من قادة جيش تحتمس الرابع ذكرت فلسطين باسم أرض الإله، وعلى جدار آخر هناك نقش يعود إلى عصر أمينوحتب الثالث بعد جيل كامل من عصر تحتمس الرابع يشير أيضاً إلى فلسطين باسم أرض الإله.

ولكن كل تلك النقاط السابقة لم يضعها الباحثون موضع اهتمامهم حين حاولوا تحديد موقع بلاد بونت أو أرض الإله. وطبقا للرسوم المنقوشة على أعمدة وجدران معبد الدير البحرى التى تظهر أشكالا لنباتات وحيوانات غريبة فقد طلب المؤرخون معونة علماء الحيوان والنبات ليحددوا إلى أى البلاد والمناطق الجغرافية تنتمى تلك النباتات والحيوانات (٢٥) ولم تشتمل قائمة الاحتمالات التى وضعها العلماء على اسمى فلسطين وسوريا نهائياً.

إن مظاهر الأبهة والفخامة والحيوانات الغريبة والنباتات المختلفة خلقت انقساما بين الباحثين، فالنقوش تظهر أغلب السكان بملامح وتكوين الجنس السامى الشمالى أو القوقازى أما الحيوانات وبعض السكان ذوى البشرة السوداء فتشى أشكالهم بأصلهم الأفريقى، كما تنتمى النباتات إلى مجموعات جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد ذكرت أرض الإله مراراً فى النقوش المصرية كأرض تنتج اللبان والبخور، ولو كانت

تلك الأشكال للنباتات النادرة هى نباتات اللبان والبخور، فإنها فقيرة فى أوراقها، ولا تورق كتلك المنقوشة على جدران المعبد (٢٦).

أما تفسير وجود الشعب الأبيض فقد كان التفسير السهل لذلك هو أنهم قد هاجروا إلى تلك البلد الأفريقية (٢٧)، كما أن شعب بونت كانوا من الفينيقيين كما يشير أصل الاسم، ووجودهم فى الصومال يمكن إرجاعه كما يعتقد بعض الباحثين إلى ما كتبه هيرودت الذى ذكر أن «الفينيقيين قد أتوا فى عصر مبكر من بحر أريتريا إلى البحر المتوسط واستقروا هناك» (٢٨). وتدعم تلك النظرية الاعتقاد بأن بلاد بونت كانت تقع فى شرق أفريقيا، وأن البونتيين كانوا هم أجداد الفينيقيين الذين هاجروا إلى شواطئ البحر المتوسط (٢٩).

وعلى ضوء هذا التفسير فإن ما ذكره الموظف المصرى عن زيارته إلى بيبلوس وبلاد بونت إحدى عشرة مرة، فقد تم تفسيره بأن ذلك الموظف قد زار بيبلوس فى سوريا إحدى عشرة مرة، وبلاد بونت فى شرق أفريقيا أو جنوب شبه الجزيرة العربية إحدى عشرة مرة (٣٠).

ولذلك فإن الإشارة فى النصوص الفرعونية القديمة إلى وجود بلاد بونت فى شرق مصر يعقد كل الأمر، ويطرح من جديد الحيوانات الأفريقية والنباتات الآسيوية كلغز يحتاج إلى حل.

وبمراجعة كل وجهات النظر التى انقسمت إلى مؤيد أو معارض لوجود بلاد بونت فى الصومال أو جنوب شبه الجزيرة العربية يظهر إلى أى مدى من التعقيد والفوضى وفقدان الأمل وصلت إليه تلك المشكلة فى إيجاد حل حاسم لها (٣١).

فهل اتخذت رحلة الملكة حتشبسوت وجهة لها أرض مملكة سبأ ثم حدث بعدها، بستمائة عام أن زارت ملكة من الخيال الملك سليمان فى أورشليم (٣٢)؟

أم وصلت رحلة حتشبسوت إلى شواطئ الصومال تلك الأرض التى يدعى أبناؤها أنها الأرض التى انجبت بعد ذلك ملكة سبأ التى زارت سليمان؟

وهكذا دخلت بلاد جنوب شبه الجزيرة العربية والصومال وأثيوبيا فى تنافس يختص بانتماء ملكة سبأ إلى كل منهم.

وكما حدث مع دارسى الإنجيل الذين استنزفوا كل جهد فى اكتشاف المكان الذى أتت منه ملكة الجنوب إن كان أرض سبأ باليمن أو أرض الصومال أو الحبشة فإن علماء المصريات أيضاً استنزفوا كل جهودهم فى محاولة التوصل إلى المكان الذى توجهت إليه بعثة الملكة حتشبسوت، إن كان إلى جنوب شبه الجزيرة العربية أو سواحل أفريقيا، والمعلومات القليلة والمؤكدة التى كانت متاحة لهم أنه مكان خارج مصر ولكن على اتصال دائم بها، وأنها كانت أرضاً مباركة، وأرض ثروات تسمى أرض بونت والأرض الإلهية والأرض المقدسة وأرض الرب (٣٣)، وذات سكان على قدر كبير من الوسامة وتحتوى على حيوانات عجيبة ونباتات رائعة.

هكذا انقسمت الآراء حول أرض بونت على أنها إما كانت تقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية فى أرض سبأ أو بين أراضى الصومال الأفريقية.

وفى الفصول السابقة عرضت التزامن الصحيح بين التاريخ المصرى والتاريخ العبرى، ومن خلال ذلك التزامن الصحيح يتضح أن الملكة حتشبسوت كانت معاصرة للملك سليمان.

فلو كانت الملكة حتشبسوت هى نفسها ملكة الجنوب فإنها تكون قد أتت ليس من أرض سبأ فى الجزيرة العربية، ولا من أراضى الساحل الصومالى وأثيوبيا، ولكنها أتت من طيبة فى أرض مصر. وكانت وجهتها ليست إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ولا إلى السواحل الصومالية، ولكن كانت وجهتها مدينة أورشليم.

فهل كانت الأرض الإلهية هى منطقة أورشليم؟

إن فلسطين تقع إلى الشرق من أرض مصر، ويسكنها سكان شماليون بيض البشرة من أصل سامى، ولكن وجود النباتات والحيوانات المنقوشة على الجدران، وكلاهما لا ينتمى إلى أرض فلسطين، سيبدو فى تفسيره مشكلة ذات طبيعة مزدوجة.

سانتقل الآن إلى وصف الرحلة كما نقشت على الجدران، وسنجد أن النباتات النادرة والحيوانات العجيبة وبعض السكان من ذوى البشرة السوداء، لن يعودوا عائقاً فى تحديد وجهة البعثة، بل إنهم سيصبحون مصدر تأكيد جازم وإثبات ما توصلنا إليه على ضوء المراجع والإشارات

التاريخية الأخرى فى المصادر المصرية عن أرض بونت أو أرض الإله.

الطريق من طيبة إلى أورشليم

إن أقصر طريق من طيبة إلى أورشليم ليس ذلك الطريق عبر النيل حتى البحر المتوسط ثم بمحاذاة الساحل حتى أورشليم، فالطريق الأقصر هو عبر البحر الأحمر وهى مسافة تزيد قليلا عن نصف الطريق الأول.

فمن طيبة صعوداً فى النيل حتى قبطى (*) ثم إلى القصير على ساحل البحر الأحمر ثم بالمراكب عبر البحر الأحمر إلى خليج العقبة (خليج إيلانا) ثم من قمة خليج العقبة على الطريق البرى إلى أورشليم.

وعدا كونه الطريق الأقصر، فإن هذا الطريق، كان المفضل من عدة وجوه أخرى، فالطريق عبر شبه جزيرة سيناء لم يكن آمناً، فقد كان يمر ببقايا مستعمرات العماليق والفلسطينيين عبر حواريس وجاذار، وكان تحتمس الأول أبو حتشبسوت، قد قاد حملة عسكرية إلى تلك المنطقة وطهرها من عصابات العماليق المتمردين والفلسطينيين وأحرق مدينة جاذار، ولذا كان طريق البحر الأحمر أكثر أمناً، وأكثر راحة للملكة من رحلة طويلة بالبر، فى عربة ملكية، أو على محفة مع التوقف ليلا للراحة فى وسط الصحراء.

ويظل هناك سبب آخر فى تفضيل حتشبسوت للسفر إلى أورشليم عن طريق البحر، وهو رغبة حتشبسوت فى استعراض عظمة أسطولها الجديد. فى الوقت الذى كان فيه سليمان قد أنشأ ميناءً جديداً على خليج العقبة.

«سفر الملوك الأول ٩: ٢٦: عمل الملك سليمان سفناً فى عصيون جابر التى بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف فى أرض أيدوم.

ومنذ كارثة الأرض الكبرى حين هلكت معظم السفن البحرية بمن عليها فإن الجرأة على ركوب البحر، لم تواتِ الشعوب إلا من آن لآخر، وظل المحيط الأطلسى لفترة طويلة معرضاً لهزات مفاجئة تنتاب قاعه غير المستقر (٣٦).

(*) مدينة قنا حالياً (للمترجم).

وحين تم تدمير قوة العماليق مع من حالفوهم من الفلسطينيين الذين استعبدوا الفينيقيين زمنا طويلا، استعاد الأخيرون نشاطهم البحرى كاملا بعد ذلك، انطلاقاً من صيدا وصور حتى الدائرة العظمى (المحيط)، وبسرعة أدركوا مزايا سلوك الطريق الجنوبى عبر البحر الأحمر إلى بلاد ما وراء البحار وكان حيرام ملك الفينيقيين فى صيدا يسعى لأن يكون حليفاً للملك سليمان، ويتطلع إلى اكتساب صداقته ومودته، وربما كان الهدف من ذلك السماح له باستعمال ميناء عصيون جابر البحرى فى أرض أيدوم والخاضعة لحكم سليمان. وخلافاً لعاداتهم من عدم السماح للشعوب الأخرى، بالاطلاع على أسرار رحلاتهم البحرية، فقد اصطحبوا بعضا من بحارة سليمان معهم فى رحلاتهم.

«سفر الملوك الأول ١٠: ٢٢» لأنه كان للملك فى البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام

«٩: ٢٧» فأرسل حيرام فى السفن عبيده النواتى العارفين مع عبيد سليمان

وعدا الأسباب التى سبق ذكرها فى تفضيل الطريق البحرى من طيبة إلى فلسطين فإنه يمكن أيضا إضافة سبب آخر، وهو تشوق الملكة لزيارة الميناء الجديد الذى ينطلق منه الفينيقيون مع الأساطيل العبرية فى رحلاتهم التى تدوم ثلاثة أعوام إلى أرض أوفير.

بارواح يقابل رسول الملكة

وتفقد الملك سليمان ميناء عصيون جابر قبل وصول الملكة.

«سفر أخبار الأيام الثانى ٨: ١٧» : حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى إيلة على شاطئ فى أرض أيدوم.

وكان الميناء هو المكان المنتظر وصول الملكة إليه، وبعد بضعة أسطر من المقطع السابق من سفر أخبار الأيام الثانى، تبدأ قصة زيارة ملكة سبأ.

لم يذكر النص المقدس أن ملكة سبأ قد قطعت الجزء الأول من رحلتها على ظهر سفينة، ولكن فى الكتابات الدينية القديمة المفسرة للكتاب المقدس مذكور أنها قد وصلت على متن سفينة بعد رحلة طويلة فى البحر،

وتفقدت ملكة سبأ كل أسطولها البحرى، وحملته فى ذهابها بأثمن أنواع الأخشاب وباللآلئ الثمينة، وبالأحجار الكريمة (٣٧).

وقبل أن تبدأ الملكة رحلتها، قامت بخطوة تمهيدية، بإرسال بعثة استكشاف لنفس مسار الرحلة المنتظرة، وأخبار تلك الرحلة الاستكشافية أو التمهيدية، محفوظة فى كتاب الهاجادا (٣٨) وموجودة بالقرآن أيضاً حيث يقول عن هذه الرحلة التمهيدية:

«وإنى مرسلة إليهم بهدية، فناظرة بم يرجع المرسلون» (٤٠)

فى الركن الأسفل من جداريات الدير البحرى هناك نقش لمرسى بحرى وعلى يمين الصورة، يقف مندوب الملك متقدماً مجموعة من الجنود ومن اليسار يتقدم أمير المنطقة، وفى أسفل الصورة يبدو سطح المياه، ومن تحته بعض الأسماك للإشارة إلى وجود المكان على ساحل البحر واسم الرئيس كما هو مسجل فى الصورة هو أمير بونت ب - ر - هو (برهيو أوبارواح) وعلى خيمة منصوبة كتب ما يلى "إقامة خيمة رسول الملك وجنوده على مدارج أشجار المر فى بلاد بونت على ساحل البحر" (٤١).

وبما أن موضع الصورة فى أسفل جزء من الجدار، فإن ذلك يشى بعدم أهميتها بالنسبة لبقية النقوش، مما يدل على كونها مجرد زيارة تمهيدية، أو أنها عن وصول اتباع الملكة الأقل أهمية.

ومن المعتقد أن بارواح كان ممثلا للملك سليمان وحاكم أرض أيدوم بتكليف منه ومن بين إثنى عشر حاكماً محلياً معينين من قبل الملك سليمان فى أواخر حكمه (حيث إن بارواح كان حاكماً لنفس المنطقة قبل أن يتولاها ابنه من بعده (٤٢)).

ويبدو بارواح فى الصورة، كرجل مسن، بلاشارات السلطة والحكم، وكانت تصحبه فى هذه المهمة زوجته التى تبدو ساقها شائهه ومتورمه بداء الفيل هذا عدا بعض الأفراد الآخرين من أسرته، مما يدل على أنه وأسرته كانوا يقطنون بنفس المنطقة، وربما كانوا أصلا من أبنائها قبل أن يعين حاكماً عليها، ويبدو واضحاً فى الصورة أنه يمثل أعلى سلطة فى عصيون - جابر، التى تقع فى أرض أيدوم.

وتبدو أيضا فى الصورة منازل متعددة الطوابق، وبعضها مصمم على شكل مجموعات على روابى، والطوابق الأعلى للمنازل يتم الوصول إليها

عن طريق سلالم خشبية خارجية، وربما تكون هى نفس البيوت المعروفة فى النص المقدس باسم "عاليا".

حتشبسوت تقود البعثة إلى الأرض الإلهية

والصورة التى تلى الصورة السابقة على جدار معبد "روعة الروائع" تظهر مغادرة أسطول مكون من خمس سفن، ثلاث منها نشرت أشرعتها، واثنتان مازالتا مربوطتين بالمرسى والحفر المنقوش معها يقرأ كما يلى: "الإقلاع إلى عرض البحر بادئين الطريق الإلهى إلى الأرض الإلهية، راحلين فى سلام إلى أرض بونت" (٤٣).

إن اللوحة رائعة الجمال تصور أسطول الملكة الفخم، ومقدمة كل مركب منحوتة على شكل زهرة اللوتس، وصواريها عالية، وأشرعتها منشورة. وكل مركب عليها طاقم من خمسين رجلا فى كل نوبة عمل، مقسمين إلى نصفين، على كل جانب خمسة وعشرون رجلا، ومن المحتمل أن عدد السفن كان أكثر من خمس، لأن بعض أجزاء الصورة وأطرافها قد تعرض للتلف، وكان ذلك الأسطول هو ما ذكر فى سفر أخبار الأيام الثانى بـ "الموكب العظيم جداً" (٩: ١).

ولم تظهر الملكة نفسها على السفينة الملكية، ويتفق ذلك مع القواعد المقدسة للفن المصرى القديم، ومن هذه القواعد، ألا يصور الفنان المصرى شخصية ملكية مع صور عامة الناس، فالشخصيات الجليلة يجب ألا تضيع هيبتها بأن تظل فى صحبة نوتية من عامة البحارة ولذلك كان يتم تصوير الملوك والملكات بحجم ضخم جدا كعمالقة بين أقزام، ولذا صورت الملكة حتشبسوت بجوار السفن وبحجم يعلو على ارتفاع صوارى السفن، ومن الواضح أن صورة ملكية بهذا العلو لم يكن من الممكن وضعها بأى شكل من الأشكال على ظهر أى من السفن.

تلك الطريقة فى تصوير الملوك، وهى عادية تماماً من وجهة نظر المصريين، كانت سبباً فى تضارب الظنون والتخمينات بعد ذلك فى العصور الحالية، فالبعثة إلى الأرض المقدسة كما تم وصفها فى التاريخ

الموضوع حديثاً، وصفت بأنها بعثة مرسلة من قبل الملكة، ولكن الواضح من الصور أن الملكة ذاتها ذهبت على رأس البعثة.

إن الأهمية الفائقة التى تعزى إلى هذه البعثة، والتى تجعلها من أهم الأحداث البارزة خلال حكم حتشبسوت (٤٤)، يدل على أنها قد قادت تلك البعثة بنفسها، وأنها كانت تجربتها الشخصية الخاصة بها، ومن بين كل الأحداث التى وقعت خلال فترة حكمها، واختارت أحداث تلك البعثة لتحفرها وتخلدها على جدران معبد روعة الروائع، وكمقابل مواز فى الأهمية لمولدها الإلهى، ولو كان الأمر مجرد رحلة تجارية عادية إلى بلاد بونت، فلماذا تم تسجيلها بهذا الاتقان ولكل تفاصيلها، وما أحاط بها من أبهة وفخامة؟

وفى الأزمان التى سبقت حتشبسوت، كان يتم إيفاد الأشخاص والبعثات إلى بلاد بونت، ولكن لم يبق منها إلا سجلات عادية غير مميزة (٤٥). كانت بونت مجاورة لمصر وقريبة منها، وذلك مذكور على عديد من الآثار المصرية مثل ذلك النص الذى ذكرناه من قبل عن الموظف المصرى، الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة، والذى ذكر أنه "ذهب إحدى عشرة مرة إلى بيبلوس وبونت".

وهناك حقيقة أخرى لا يجب إغفالها، وهى أن اسم بلاد بونت قد كتب دون أن تصاحبه العلامة الدالة على البلاد الأجنبية (هذا عدا تكرار ذكرها فى النقوش المصرية)، والذى "يبدو وكأنه يظهر مصر مرتبطة بشكل ما بتلك البلاد" (٤٦).

فلماذا إذاً تخلق الملكة كل هذا الجو من الإثارة عن تلك الزيارة وتبرزها بذلك الإحتفاء الكبير إن لم تكن هى ذاتها من قام بتلك الزيارة؟

وهل كانت مقابلة بعض رسل الملكة لبارواح تشكل ذلك الحدث الذى يحمل من الأهمية ما يوازى عناء تخليده "كحدث لم يقع له مثيل من قبل" ؟

لقد أخذت حتشبسوت على عاتقها القيام بتلك الرحلة، ناذرة نفسها لرحلة مقدسة، بعد أن استمعت لهاتف داخلى يهيب بها كحاملة للصولجان أن تقوم بأداء تلك الزيارة.

... سمع الأمر من العرش الأعظم ... كان وحياً من الرب ذاته باستكشاف الطريق إلى بلاد بونت .. واختراق المسالك إلى مدارج أشجار

المر.

"سأقود الجيش عبر الماء، وعلى الأرض، لأجلب الروائح من أرض الرب، تقرباً للإله الذى صورها على هذا القدر من الجمال" (٤٧).

لقد كان وحياً أو صوتاً غامضاً ذلك الذى استمعت إليه حتشبسوت آتياً من داخلها، وظنت أنه صوت الإله.

وكما جاء فى نقوش رحلة بونت، ذكر فى الهاجادا أيضاً كما ذكر عن جوزيفوس وصفاً لتلك الرغبة القوية الآسرة التى ألهمت الملكة وأوحت إليها القيام بتلك الرحلة، على اعتبار أنها أمر إلهى (٤٨).

وكما لم تكن هناك سابقة لوجود إمرأة على عرش مصر (٤٩) فإنه أيضا لم يعرف قبلها أن حاكما مصريا قد قام بزيارة إجلال لحاكم أجنبى.

اعتلت سفن حتشبسوت الأمواج بأشرعتها الممتلئة رياحاً، فى حين انكفأ المجدفون على مجاديفهم حتى وصلت بهم السفن إلى المدخل الضيق لخليج إيلات (العقبة). كانت تلك المنطقة طوال أيام حكم العماليق غير مطروقة من الإسرائيليين والمصريين، ولذلك اعتبرت رحلة الملكة عن طريق البحر الأحمر رحلة اكتشاف للطريق فى أحد جوانبها. وكان الخليج محفوفاً بالمخاطر، فحين تهب الرياح الشمالية القوية، تنقلب السفن إن لم يكن ملاحوها متيقظين فتتحطم صواريها فى دوامات الهواء القوية.

كانت القمم المنحدرة لجبل سيناء، وتاج الجليد الذى يتربع على قمته يجعله يبدو كبرج عال يشرف على مدخل الخليج، كما بدت المياه الضحلة فى مدخله والتى تتخللها الصخور والجزر المرجانية، ثم الزرقة القاتمة التى يكتسبها لون الماء فى المنطقة التى يبدأ عندها قاع الخليج فى الانحدار، والقمم الحمراء المتدرجة لأراضى أيدوم على شرق الخليج، بلونها القرمزى عند الفجر والذى يتحول إلى اللون الأحمر مع احمرار الأفق عند الغروب، كل ذلك أضفى على الصدع الساكن طابعاً اتسم بالرهبة.

"لقد قُدْتهم (أعضاء البعثة) على سطح البحر وعبر الأرض لاكتشاف مجارى المياة الصعبة المتعذر الوصول إليها .. ثم وصلت إلى مدارج أشجار المر" (٥٠).

وتدل الجملة التى تقول فيها "لقد قدتهم على سطح البحر وعبر الأرض" أن الرحلة لم تنته عند ساحل البحر (مرفأ عصيون - جابر) فمن هناك

أكملت الملكة الرحلة بكل من صحبها عبر الأراضى، فتحركت القافلة باتجاه أورشليم، بكل ما تحمله من عظمة ملكية ومظاهر الثراء وكانت الجمال محملة بالذهب وكل أنواع التوابل والأحجار الكريمة (جوزيفوس)، وأحاط بالبعثة المقدسة فى طريقها إلى مدينة الحكمة حرسٌ ملكىّ من قبل سليمان.

كان من الواضح أن الملكة وأعضاء بعثتها بمن فيهم واضع التصاميم الفنية الملكية، مبهورون بالمظهر الجيد ووسامة المحاربين الإسرائيليين.

فكيف كان يبدو الإسرائيليون؟

لقد اعتدنا رؤية أشكال الأسرى السوريين التى نقشها الفنانون المصريون القدماء فى أواخر عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة وفى عهود الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين... كانت لحى الأسرى تبدو مستديرة وغير مشذبة (سقراطية) وملامحهم طافحة باليأس لأنهم على الأغلب مصورون فى لحظات إعدامهم، ولكن صور سكان الأرض الإلهية. كما نقشت فى سلسلة صور بونت فى معبد حتشبسوت بدت صوراً جليلة، حيث بدا السكان بملامح تتميز بأنوف معقوفة، وعيون غائرة وخدود بارزة، ذوى لحى تشبه لحية الإله رع (٥١).

وهى ظاهرة غير مسبوقة فى تاريخ الفن المصرى ولم تحدث بعد ذلك، أن يصور الفنانون المصريون القدماء جنوداً أجانب بشكل يبدون معه أكثر نبلا وجمالا عن صور المصريين أنفسهم.

إن مظهر حرس يهوذا والإنطباع الذى تركه على الضيوف، قد ذكر فى قصص دينية أخرى عن رحلة ملكة سبأ، وعن الملك سليمان الذى بقى فى أورشليم، منتظراً وصول ضيفته الجليلة، بعد أن أرسل موكباً من خيرة الشباب لمقابلتها .. لقد كانوا مثل إشراقة الشمس، ونجوم السماء، وزهر اللوتس (٥٢).

وأثار كل ذلك إعجاب الملكة.

عظمة أرض الرب

يمضى الطريق إلى أورشليم صاعداً إلى وادى عربة، مخلفاً إلى اليمين صخور بترا، ثم يستمر بمحاذاة البحر الميت فى منطقة مقفرة، انبثقت منها الحمم البركانية فى عصور سابقة من باطن الأرض، ثم تجمدت على أشكال صخرية رائعة، وفى وادى أريحا المحطمة، انبثقت ينابيع المياه الغزيرة، فأنبتت الحدائق والأشجار وسط الصحراء والتى كانت تزهر وتثمر أغلب فترات العام.

ثم يصعد الطريق باتجاه أورشليم، وهناك كانت منحدرات التلال ممهدة على هيئة مدارج، وهى كذلك حتى اليوم، وكانت أشجار المر (اللبان) والقرفة، والناردين والزعفران، والتوابل الحلوة، وزهور العطور والفواكه، وجذور الأشجار الذكية الرائحة كانت كلها، تستخدم فى طقوس العبادة فى معبد سليمان، ولذلك زرعت أغلب المدارج بتلك النباتات (٥٣) هذا عدا أشجار اللوز المنتج للتجارة (٥٤) وأشجار الصبر التى استخدمتها عذارى يهوذا فى تعطير مخادعهن (٥٥).

وسجلت الملكة التى جاءت من وديان مصر على الحجر بعد ذلك ما يلى: نقوش بونت: لقد وصلت إلى مدارج المر وهى منطقة عظيمة من أرض الرب (٥٦).

لقد اندهشت لمرأى التلال المزدهرة اليانعة ولكن أروع بساتين الأشجار المزروعة على التلال، كان ما زال غير مرئى فى منتصف أورشليم.

«سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ١١» وعمل الملك خشب الصندل درجاً لبيت الرب وبيت الملك وأعواداً ورباباً ولم ير مثيلها قبل فى أرض يهوذا.

"واستقبلها الملك بسعادة عند وصولها، وكان حريصاً على إسعادها بكل الوسائل الممكنة، وخصوصا بسهولة إجاباته الذكية الحكيمة على أسئلتها التى طرحتها عليه" (٥٧).

ومن المستحيل القول إنه كان هناك شبيه لسليمان فى نقوش معبد روعة الروائع. لقد اعتبر المصريون أنه أمر بعيد عن دواعى الشرف أن يصوروا مليكتهم وسط مجتمع وبشر، فى ضيافة حاكم أجنبى وفى بيته.

فهل بعد كل تلك الاعتبارات نتوقع أن تصور الملكة مع مضيفها؟

وفى كل الجداريات لم تبد حتشبسوت مجتمعة مع أحد إلا مع الإله آمون، هذا عدا أن كثيراً من تلك الجداريات التى كانت تصور الرحلة إلى أرض الإله كانت قد محيت تماماً "فثلثى الصور المرسومة على الحائط القصير، والتى صورت عليها أوصاف أرض بونت، تمت إزالتها" (٥٨).

ويبدو أن الصف الأسفل من الصور كان منقوشاً عليه أشكالا ضخمة، واحد منها كان للملكة، مصورة على خرطوش ملكى، ومن الممكن التعرف عليها رغم التدمير الذى تعرضت له النقوش، ولكن إن كان ما محى من الجدار عبارة عن نص من النصوص، فما الذى كان مميزاً فى ذلك النص على وجه الخصوص، حتى يتم تدميره بأمر من تحتمس الثالث الغيور، والذى تلاها على عرش البلاد؟

وسواء كانت تفاصيل زيارة الملكة لقصر سليمان قد نقشت على جدران المعبد، أم لم تنقش، فإنها عبرت عن ذلك الانطباع القوى الذى تركته هذه الزيارة فى نفسها فى أورشليم، كما عبرت عن نفس المشاعر عند عودتها إلى طيبة.

"سفر الملوك الأول ١٠: ٤ – ٥" : فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدامه وملابسهم، وسقاته ومحرقاته، كالتى كان يصعدها فى بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد.

لقد امتدحت الملكة الأشياء العظيمة التى رأتها، وسجلت فى نقوش بونت أنه "لم يحدث مثل هذا من قبل، تحت عبادة أى من الآلهة السابقة منذ بداية الخليقة" (٥٩).

لقد سمعت عن أرض المدارج وهى لا تزال فى طيبة ولكن ما رأته بنفسها فاق كل توقعاتها.

نقوش بونت: لقد وصلت شهرتها إلى مسامعنا من فم إلى فم وما أشاعه الأجداد. لقد ودت الملكة أن ترى بعينيها الأرض التى سمعت عنها أخباراً رائعة وأرادت أن تخطو بقدميها فوق تلك الأرض، وتستطلع بنفسها تلك البلاد (وقدتها على البحر وعبر الأرض) ثم وصلت إلى تلك البلاد (ووصلت إلى مدارج أشجار المر) فوجدتها بلاداً عظيمة.

لقد قارنت الملكة قصص الأرض الإلهية التى سمعت عنها من قبل بما

شاهدته بنفسها، وهنا لا تختلف كلمات الكتاب المقدس عما ذكرته الملكة:

"سفر الملوك الأول ١٠: ٦ - ٧" : فقالت للملك صحيحاً كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى فهو ذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذى سمعته.

وكتب جوزيفوس: ولم تستطع أن تكتم إعجابها بما رأت، فأظهرت بوضوح مدى تعجبها ودهشتها التى أحست بها، ووجهت حديثها إلى الملك قائلة إن ما وصل إلى مسامعى أيها الملك عن طريق الإشاعات قد قابلته بعدم التصديق، ولكن ما سمعته من إشاعات يعد دون الحقيقة بكثير من المراحل (٦٠).

إن التأكيدات فى القطعة السابقة وفى نقوش بونت على حد سواء فى مقارنة المعلومات التى وصلت إلى مسامع الملكة، بتلك التى رأتها رؤية عين، ورغبتها فى أن تطلع بنفسها وليس من خلال الإشاعات، دفعها إلى زيارة أرض الإله. وهكذا قامت بتلك الرحلة المقدسة، إلى بلاد مدارج أشجار المر.

وإن كانت ملكة أرض مصر، أرض الخصب والثروة، قد اندهشت لمرأى عظمة أورشليم، فإن هذا يثبت صحة ما ذكر فى سفر الملوك الأول: "فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة". وبدت البلاد لحتشبسوت كمقام رائع لشعب سعيد.

"سفر الملوك الأول ١٠: ٨ - ٩" : طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك، هؤلاء الواقفين أمامك دائماً، السامعين لحكمتك، ليكن مباركاً الرب إلهك.

كما وصفت الملكة انطباعاتها القوية فى الجمل التالية الموجهة إلى الإله آمون: "إنها منطقة عظيمة من أرض الإله، إنها منبع سعادتى .. لقد استملت قلوبهم، بالحب، الذى يدفعهم إلى مدحك".

وطريقة الحديث المنسوبة إلى ملكة سبأ، لا تختلف عن تلك التى استخدمتها الملكة حتشبسوت تقول ملكة سبأ:

"سفر الملوك الأول ١٠: ٩" : لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد، جعلك ملكاً لتجرى حكماً وبراً.

وتقول حتشبسوت:

"لأنك (آمون أحببت ملكة الوجهين حتشبسوت ... " وتبادلت الملكة الضيفة مع الملك المضيف الهدايا الثمينة.

"سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ٩" : وأهدت للملك مائة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً، وأحجاراً كريمة.

وبعد أن يستكمل سفر أخبار الأيام الثانى، قصة أشجار خشب الصندل التى جلبها أسطول سليمان من بلاد أوفير، يعود ليستطرد:

وأعطى الملك سليمان، ملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت. فما الذى طلبته ملكة سبأ؟

رغبة ملكة سبأ

إن الذى طلبته ملكة سبأ مصور على جدران معبدها، حيث تبدو الهدايا مصفوفة للعرض، فهناك مشهد تحميل الهدايا قبل رحلة العودة، ومشهد عد الهدايا ووزنها بعد العودة، ثم مشهد إهدائها للإله آمون.

لقد تبودلت الهدايا بكرم لا مثيل له، فحين علم الملك سليمان بوزن الذهب الذى أهدى إليه، لم يكن أقل كرماً، فحين انتهت حتشبسوت من وزن المعادن الثمينة التى تلقتها كهدايا فى أرض الإله، أدركت أن ما تلقته فاق ما وهبته للملك بمراحل، وتبين نقوش بونت صورة للملكة وهى تزن الهدايا بنفسها.

نقوش بونت: التحقق من الأعداد التى بلغت ملايين. ومئات الآلاف، وعشرات الآلاف، والآلاف والمئات، عند حصر روائع بونت (٦١).

لقد وهبت ذهباً، فتلقت ذهباً أخضر من بلاد الآمو (مشهد الرسو) وذهباً وفيراً (مشهد الوزن). وكانت الفضة وهى شحيحة فى الآثار المصرية موجودة بكثرة فى أورشليم. وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة (سفر الملوك الأول ١٠) و"الفضة لم تحسب شيئا فى أيام سليمان" (سفر الملوك ١٠: ٢١).

يبدو أنه من قبيل المبالغة أن تستخدم الفضة فى البناء، ولكن الموظفين لدى حتشبسوت حكوا فى نقوشهم بعد عودتهم من بلاد بونت عن «بيت من الفضة» و «منزل مزدوج من الفضة» (نقش سنموت (٦٢)

وتيوتى (٦٣) و"طابق مزخرف بالذهب والفضة (تيوتى) " (٦٤).

وهبت الملكة لسليمان "أحجاراً كريمة" (سفر الملوك الأول ١٠: ١٠) وتلقت أحجاراً من اللازورد الأزرق والملكيت، وكل غالٍ ونفيس من الأحجار (نقوش بونت).

لقد تنافس سليمان وحتشبسوت ليس فقط فى منح الهدايا، ولكن أيضاً فى احترام كل منهما لكرم الآخر وأريحيته كما وهبت الملكة لسليمان توابل وعطوراً بكميات وفيرة ومن أفضل الأنواع:

"سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ٩" : ولم يكن مثل ذلك الطيب الذى أهدته ملكة سبأ للملك سليمان.

"سفر الملوك الأول ١٠: ١٠" : لم يأت بعد مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان.

وطلبت منه الملكة أشجار المر، فتلقت ما أرادت بأعداد كبيرة، ومن خيرة الأنواع.

نقوش بونت: أشجار يانعة من المر، بأعداد كبيرة من عجائب أرض بونت. لم يحدث مثل ذلك من قبل فى أى عهد من عهود الآلهة السابقين، منذ بدء الخليقة.

وكانت "أفضل أنواع أشجار المر" هذه، تعد "بالملايين" "بل" أكثر مما يمكن إحصاؤه ولكن ما كان أعظم من كل تلك العجائب هو اختيار الملكة لبعض الأشجار الثمينة.

نقوش بونت: لقد جلبت إحدى وثلاثين شجرة من خشب الصندل، ولم نعرف لها مثيلا منذ بداية العالم.

سفر الملوك الأول ١٠: ١١ - ١٢: وكذا سفن حيرام التى حملت ذهباً من أوفير، أتت من أوفير بخشب الصندل كثيراً جداً، وبأحجار كريمة، لم يأت ولم ير مثل ذلك (خشب الصندل) إلى هذا اليوم.

وفى كل من القصتين الواردتين فى الكتاب المقدس عن أسطول حيرام، الذى عاد بأشجار الصندل الغريبة من بلاد أوفير، نجد أن ذلك قد ذكر كفقرة اعتراضية بين وصف الهدايا، التى وهبتها ملكة سبأ إلى سليمان، وبين "أعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت"، وسنرى أن هذا الترتيب لم يك بلا سبب ... لقد جلبت الأشجار من جزيرة نائية، أو

قارة بعيدة .. ووهب للملكة الضيفة بعضه، وتبين إحدى صور نقوش بونت كيف تم تسليم الأشجار.

إن الجملتين السابقتين "ولم يعرف لها مثيلا منذ بداية العالم" (نقوش بونت) و "لم ير مثل ذلك إلى هذا اليوم" (سفر الملوك الأول)، متشابهتان فى كل من النص المصرى والنص العبرى. كانت تلك الأشجار تمثل شيئاً رائعاً وعظيماً وأعجب الناس بها، كما حدث بعد ذلك بألفين وخمسمائة عام، حين أعجب الناس بالنباتات الجديدة، والروائح التى جلبها البحارة من القارة الجديدة (*)، عند اكتشافها فى النصف الغربى للكرة الأرضية.

لم تتلق الملكة كهدايا معادن ونباتات فقط، بل كان أيضا بين الهدايا حيوانات حية، حيث جلب إليها خدم الملك الكثير من القردة، والصور الدقيقة التى رسمت لتلك القردة على جدران المعبد، تبين حديثاً أنها إحدى فصائل القردة المعروفة علميا باسم (سينو سيفالى).

وفى نفس الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول، نعرف أن تلك القردة قد جلبها لسليمان أسطول ترشيش البحرى.

سفر الملوك الأول ١٠: ٢٢ لأنه كان للملك فى البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتى مرة كل ثلاث سنوات، أتت سفن ترشيش حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس.

كانت القرود التى وهبت للملكة قد أحضرت من بلاد بعيدة، كما جلبت سفن ترشيش العاج، الذى لم يشذ عن باقى الهدايا السخية التى وهبت للملكة.

وعلى الجداريات المنقوشة صورت السفن محملة بآنية المر وأنياب العاج والأخشاب الذكية والأشجار والقرود وقد وصف ذلك بما يلى:

نقوش بونت: حُمّلت السفن كميات كبيرة من التحف والروائح من بلاد بونت، والأخشاب الذكية من أرض الإله، وتلال صمغ أشجار المر. وأشجار المر الخضراء وخشب الأبنوس والعاج والذهب الأخضر من بلاد الآمو وخشب القرفة وأخشاب الخست والبلسم والراتنج، والأنتيمون والقردة والكلاب السلوقى المخصصة للصيد وجلود النمور من الجنوب مع بعض قاطنى الجنوب وأطفالهم. ولم تجلب مثل هذه الأشياء إلى أى من

(*) قارتى أمريكا الشمالية والجنوبية. (المترجم).

الملوك منذ بداية العالم.

إن الأشجار النادرة، والصمغ ذا الرائحة الذكية، والعاج والقرود والفضة والذهب والأحجار الكريمة، قد تم حصرها وذكرها فى كل من التسجيلات الهيروغليفية والتوراة ولكن الملكة حتشبسوت أضافت ذكر بعض قاطنى الجنوب وأبنائهم. وفى الصورة التى عرضت فيها الهدايا، هناك أربعة صفوف من الرجال الراكعين، وحاشية الشرف من البلاد المضيفة فى الأرض الإلهية تمثل صفين فى أسفل الصورة، ومن خلفهم صف آخر من الرجال يقتربون راكعين حاملين الهدايا، أو أولئك الرجال الراكعين فى الصف الأوسط العلوى يسمون "رؤساء أيريم" وهم لا يختلفون كثيراً فى الشكل عن المصريين، والصف العلوى يمثل رجال نم - يو، أو خنثينو فير، وهم يبدون مختفين تماما وذوى بشرة سوداء ورؤوس مستديرة، وشفاه غليظة، ويبدو أنهم كانوا هدايا أيضاً كالحيوانات والنباتات التى أهديت للملكة (٦٦).

وكون أورشليم هى عاصمة الأرض الإلهية، فمن كانوا أولئك الممثلين لمجموعتين من الوثنيين فى الصورة؟

هناك بلدان وشعبان أشارت إليهما التوراة عند الحديث عن ملكة سبأ، أولهما الشعب المجاور وهو شعب حيرام ملك صور، و .... "جلبت بحرية حيرام الذهب من أرض أوفير"، إذاً فالبلد الآخر المشار إليه هو أرض أوفير، وهو مكان بعيد أشير إليه عند ذكر الهدايا، ومن المنطقى أن يشارك حلفاء سليمان الذين جلبوا الأشياء الثمينة من تلك البلاد البعيدة فى احتفالات تقديم الهدايا إلى الملكة، ولذلك فإن "رؤساء إيريم" لم يكونوا إلا رسل الملك حيرام الفينيقى (٦٧)، ورجال نم - يو أو خنثنيو فير فقد كان من المحتمل أنهم من رجال أوفير (٦٨).

فهل جلب رجال أوفير إلى فلسطين؟

لم تذكر التوراة إن كان بحارة حيرام وسليمان قد جلبوا مواطنين من أوفير، ولكن جوزيفوس فافيوس كتب ما يلى:

كان للملك سليمان سفن عديدة راسية فى بحر طرسوس كما كان يسمى، وأمر الملك هذه السفن أن تحمل سلعاً وبضائع لبيعها فى البلاد البعيدة، ومن حصيلة البيع أحضروا للملك فضة وذهباً، وكثيراً من العاج،

وكوسييم (عبيد سود) وقردة.

وكان من المعتقد أن جوزيفوس قد أخطأ وأورد كلمة عبرية قديمة، تلك التى ذكرها فى النص السابق (٧٠) ولكن الصورة المنقوشة فى معبد حتشبسوت عن البعثة إلى أرض بونت، تبرهن أن جوزيفوس لم يكن على خطأ، فالكوسييم. أو رجال أوفير ذو والملامح المميزة، قد جلبوا إلى أورشليم عن طريق بحارة حيرام وسليمان.

وعلى ذلك فالجداريات فى معبد حتشبسوت تبين لنا عدداً من العبريين القدماء وفينيقيين قدماء وربما بعضاً من رجال أوفير، فى صورة واحدة.

تم تبادل الهدايا، وانقضى زمن الزيارة فى أورشليم، أياماً وأسابيع من أعياد متصلة مرت سريعة ووصلت إلى نهايتها.

جوزيفوس: وعادت ملكة مصر وأثيوبيا إلى بلادها.

لقد نقلت الأشجار فى آنية خاصة، حيث حمل كل إناء أربعة من الرجال، وأثناء نقلها إلى السفن حمل كل منها ستة من الرجال، وتعلقت القردة بحبال الأشرعة، وملأت سطح السفن أنياب العاج، وآنية مليئة بمختلف الهدايا. نقوش بونت: أيها الشعب ... انظروا ... إن الحمل ثقيل جداً.

وصول السفن إلى طيبة

يقرر النقش الذى تلى النقوش السابقة ببساطة ووضوح أن "السفن عادت إلى طيبة" وتقع طيبة على نهر النيل، وللوصول إليها عن طريق النهر، فإن السفن يجب أن تبحر فى مجرى النيل من عند مصبه على البحر المتوسط.

وللعودة بعد رحلة إلى بونت، إن كانت من جنوب الجزيرة العربية أو من الصومال إلى طيبة، عن طريق البحر، فإن البعثة لابد أن تغادر السفن فى ميناء القصير على البحر الأحمر وتسلك طريقاً برياً من هناك حتى طيبة. ولكن حيث إنه مكتوب ومرسوم على جدران المعبد أن السفن وصلت ورست عند طيبة، فإن مشكلة مستعصية الحل واجهت الباحثين، فإما أن

ذلك الجزء من القصة قد ابتدع لأسباب غامضة، وإما أنه كانت توجد فى عصر حتشبسوت قناة ما، تربط بين النيل والبحر الأحمر. (٧١) ولكن لم يرد ذكر أى قناة من أى نوع فى عصر حتشبسوت، ومن المعروف أن القناة الملاحية التى ربطت النيل والبحر المتوسط بالبحر الأحمر قد بدأ حفرها فى عصر الفرعون نخاو الثانى، أى بعد حتشبسوت بعدة مئات من السنين، وتم الانتهاء من شقها بعد ذلك بوقت طويل فى زمن الغزو الفارسى لمصر (٧٢).

حيث إننا قد توصلنا إلى أن أرض الإله هى منطقة أورشليم فإن وصول السفن فى العودة من أورشليم إلى طيبة على نهر النيل، لا يشكل أى عائق، فحتشبسوت كانت تواقة إلى سلوك الطريقين البحريين المؤديين إلى فلسطين، ولا ستعراض أسطوليها فى البحرين الأحمر أو المتوسط، ولذلك رحلت من أورشليم براً إلى واحد من الموانىء الفينيقية القريبة، على البحر المتوسط، ومن سواحل سوريا فإن الطريق البحرى إلى طيبة لا يحتاج إلى قنوات صناعية.

مدارج أشجار الصندل

بعد العودة إلى طيبة، تم الاحتفال بإتمام الرحلة، ومن ثم العودة، فى احتفالين عظيمين، أحدهما كان فى المعبد المقدس، والآخر كان فى القصر الملكى. وقد تم تخليد الاحتفالين فى نقشين عظيمين على جدران معبد حتشبسوت، وتمثل الجدارية الأولى إبلاغ الإله آمون بنجاح البعثة فى مهمتها، وتمثل الثانية الاحتفال فى البلاط الملكى:

ماكيرى (حتشبسوت) .. تغطى أطرافها بأفضل أنواع المر، يتضوع منها أريج الندى الإلهى، وتفوح منها رائحة عطور بونت وبشرتها مطلية بالذهب الخالص، تتالق كالنجوم فى وسط قاعة الاحتفال على رأس كل البلاد (٧٣).

كان النجاح فى إتمام البعثة إلى الأرض المقدسة يمثل انتصاراً شخصياً للملكة، وقد حرصت على تأكيد ذلك، وقررت أن تقدم الشكر إلى أبيها السماوى الإله آمون، لرعايته البعثة، وذلك بإقامة معبد جديد وإنشاء

مدارج أمامه تغرس بها الأشجار الغالية التى جلبتها من بونت.

وقد تم بناء معبد روعة الروائع الذى تحمل بقاياه نقوش بونت المشار إليها، كما تم إنشاء المدارج وزرعت بالأشجار النادرة.

«لقد أصغيت إلى صوت أبى ... وهو يأمرنى بإنشاء بونت فى معبده، وأن أغرس به أشجار أرض الإله بجوار معبده وفى حديقته» (٧٤). إن المدرجات الخضراء فى أرض الإله، قد تركت أثراً عميقاً فى نفس الملكة.

"سفر الملوك الأول ١٠: ٤ - ٥" : ولما رأت ملكة سبأ البيت الذى بناه، ومحرقاته ١١٥٢ .. لم يبق فيها روح بعد.

كان الطريق إلى هيكل سليمان يمر من أسفل مدرج إلى أعلى مدرج وكلها مزروعة بأشجار الصندل الضواع الرائحة (من سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ١١).

وقد كتبت الملكة حتشبسوت على جدران معبدها أن "الطريق العريض فى مدارج أشجار المر" فى أرض الإله قد تم "اختراقه" و "وصلت إلى مدارج المر".

وقد تم إنشاء مدارج مشابهة لها وزرعت بأشجار نادرة فى مواجهة روعة الروائع، وزرعت بتلك الأشجار التى قيل عنها فى سفر الملوك "لم يأت ولم ير مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم".

وكتبت على جدران معبدها "لم ير شبيه لها منذ بداية العالم" وتبدو على جدران معبد الدير البحرى الأشجار وهى مغروسة، ويقول النقش:

"أشجار جلبت من أرض الإله وغرست فى الأرض (مصر) " (٧٥).

وتظهر بقايا معبد حتشبسوت مكان وكيفية إنشاء المدارج والتى شكلت هضبة من الحدائق ذات الارتفاعات المتدرجة.

ولم يتم تقليد الحدائق فحسب، بل إن تصميم المعبد فى أورشليم وخدماته الملحقة به، قد تم نقلها جميعاً فى تصميمات الدير البحرى لحتشبسوت.

نسخ الهيكل وملحقاته

إن تصميم معبد روعة الروائع فى الدير البحرى، لم يكن على النمط

المصرى التقليدى فى إقامة المعابد، وقد لاحظ علماء المصريات الأوائل عناصر التصميم الأجنبى فى تصميم المعبد، ورأوا أن النسخة الأصلية لذلك التقليد كانت فى بلاد بونت (٧٦)، التى زارتها الملكة.

لقد استرعى نظر الملكة أثناء البعثة نماذج الفن المعمارى المختلفة، وبعد عودتها أقامت الدير البحرى، ثم أكدت الملكة فى النقوش على الجدران أنها أقامت "بونت" وزينت الجدران بصور زيارتها للأرض المقدسة، وكان نمط المعبد ذاته تخليداً للتأثير الأجنبى على نمط المعمار المصرى التقليدى "إن ذلك المعبد، استثناء، وحدث فريد فى التصميم المعمارى فى مصر" (٧٧).

لقد أجمع كثير على أن الدير البحرى يعد من أجمل المبانى المصرية القديمة، فهو يتمتع بنبل البساطة، مع خلوه من الزخارف الثقيلة التى تميز معابد الرعامسة (٧٨). وكون الأرض المقدسة الإلهية هى منطقة أورشليم، فإن معبد الدير البحرى من المفترض أن يحمل صفات وملامح مشتركة مع هيكل الملك سليمان، وبالرغم من أن معبد حتشبسوت قد هدم أغلبه، فإن أبعاده التى ما تزال قائمة تعطى فكرة كافية عن تكوينه كما كان عليه، قبل أن يهجر، وتتهدم أجزاء منه.

وعبر أجيال الشعب اليهودى، كانت تبذل محاولات مضنية لإعادة تصميم هيكل سليمان على الأوراق، وإنشاء النماذج الصغيرة المصغرة، ولكن المعلومات المتوافرة فى سفر الملوك الأول لم تزودهم بالتفاصيل الكافية، وكان على المصممين أن يصمموا خطوطهم المعمارية معتمدين إلى حد كبير على خيالهم.

لقد بنى معبد أورشليم على قمة مدارج مزروعة بالأشجار، وكان يقطع تلك المدارج طريق صاعد إلى أعلاها، وكان موكب اللاويين يبدأ من أسفل مدرج، ثم يبدأون فى الإنشاد أثناء صعودهم الطريق إلى المعبد وذلك يفسر تسمية بعض مزاميرهم باسم شيرها - مالوث أى مزمار الصعود (٧٩). كان معبد أورشليم يحتوى على قاعة طولها يساوى ثلاثة أمثال عرضها، وفى مواجهة تلك القاعة كان يوجد دهليز مسقوف، ومن خلفها كان يوجد الحرم المقدس، ومن المحتمل أن "البحر الأعظم" كان يوضع فى ذلك الحرم المقدس.

وفى حين بنى الدير البحرى أسفل جبل صخرى كبير، فإن معبد

أورشليم قد بنى على قمة ربوة تطل على سلاسل أخرى من التلال تتجه إلى الشمال الشرقى والشرق والجنوب من المعبد، وهذه الاختلافات فى التكوين الطبيعى للمواقع لابد وأن تكون قد أثرت على التصميم المعمارى لكلا المعبدين (٨٠) إن التقليد المطلق فى إنشاء المعبد كان يتطلب اختيار موقع مشابه لموقع النسخة الأصلية، ولكن ذلك لم يحدث فيما يعنى أنه قد تم الاكتفاء بتبنى الطابع العام فى التصميم والشكل، هذا ما عنته الملكة بقولها "بنيت بونت". وربما كان من المفيد مقارنة المعلومات الواردة فى سفر الملوك عن هيكل سليمان، ببقايا معبد روعة الروائع فى الدير البحرى، للتوصل إلى فهم كامل لتكوين كلا المعبدين.

إن دير روعة الروائع كان معبداً مقدساً، وقد حاول عديد من الباحثين إعادة رسم تصميمه الهندسى (٨١) لقد بنى ذلك المعبد على قمة مدارج زرعت بالأشجار التى جلبت من الأراضى الألهية المقدسة، وصممت المدارج على شكل متصاعد الارتفاع وفى وسطها طريق يؤدى إلى المعبد صاعداً من مدرج إلى آخر يليه، مع صفوف من الأعمدة، فى المدرج السفلى لتدعيم جدار المدرج الذى يعلوه، ويحيط بساحة المعبد صف من الأعمدة وينقسم المعبد إلى دهليز وقاعة كبيرة ثم الحرم المقدس، ونسبة العرض إلى الطول فى القاعة كان واحداً إلى ثلاثة تقريباً.

وكانت كل الأعمدة التى تدعم المدارج، وتحيط القاعة الداخلية مستطيلة الشكل ليست دائرية، وتتبدل ظلالها مع حركة الشمس مكونة تناسقاً بديعاً ومظهراً خلاباً لا تظهره إلا الأعمدة المستطيلة المرصوصة بانتظام وإحكام.

ومن الخطأ تصديق القول إن معبد سليمان كان مبنى فقيراً فى تكوينه لقبائل آسيوية مجهولة حاولت تقليد نسخة عن بعض المعابد الفرعونية (٨٢).

ولم يقتصر الأمر على نقل الهندسة المعمارية لمعبد سليمان، ولكن ممارسة الطقوس الدينية ذاتها فى مصر أدخل عليها الكثير من التعديلات بمجرد الانتهاء من إنشاء معبد روعة الروائع فى الدير البحرى، بدأ إثنا عشر كاهناً تحت إمرة الكاهن الأكبر فى ممارسة الطقوس أمام المذبح، ويوجد نقش على قطعة حجرية محفوظة بمتحف اللوفر يبين إثنى عشر

كـاهنـاً علـى أربعــة صـفـوف، ثلاثة فى كل صف مـع وصف منقـوش فـوق رؤوسهم يقول: فى معبد آمون، معبد روعة الروائع - بكاهن آمون الأكبر فى روعة الروائع (٨٣).

إن قاعة الكاهن الأكبر قد تم إدخالها على طقوس العبادة المصرية فى عصر حتشبسوت فقط (٨٤). وذلك التغيير فى طقوس العبادة قد أدخل بعد زيارة الملكة حتشبسوت للأرض الإلهية، وذلك قبل فترة قصيرة من الانتهاء من بناء بيت الرب.

ويرتبط مع إعلان الملكة أنها قد أقامت "بونت" فى حدائق آمون، إصدارها لمرسوم ملكى يحوى أمرا سامياً إلى المهندسين جاء فيه "سوف تنفذون طبقاً للنظم التى أقررها دون مخالفة أية كلمة خرجت من فمى" وذلك لكى "أرسى قوانين ونظم بيت الرب (آمون)".

أصل كلمتى بونتفكس وبونت

سنحاول التوصل إلى الأصل الغامض لكلمة بونتفكس والتى تستخدم للدلالة على القس الأكبر أو الكاهن الأعظم، وقد كانت مشكلة أصل هذه الكلمة والبحث عن جذورها موضع نقاش قبل زمن بولتارك الذى سجل بدوره الآراء السائدة دون أن يقتنع بأى منها، وأحد هذه الآراء القديمة يرى أن كلمة بونتفكس مكونة من أصول لاتينية هى بونس أو بونتس بمعنى قنطرة، وطبقا لعلم أصول اللغات تعنى الكلمة بمقطعيها "الرجل الذى يبنى القناطر" ثم تطورت إلى معنى الحاكم الأكبر أو كبير القوم الذى يمثل السلطة الدينية والدنيوية، ومن الواضح أنه تفسير ضيق للغاية، ورأى آخر اعتقد أن البونتفكس الأوائل قد سموا كذلك لأنهم كانوا يقدمون القرابين فوق قنطرة (٨٥) وهو تفسير أضيق من سابقه.

إن كلمة بونتيف ليست لاتينية الأصل، فهى ليست مشتقة من بونس، ولكن الأكثر احتمالا أنها مشتقة من بونت، وحين يقال إن حتشبسوت بعد أن زارت بونت قد أقامت بونت للإله آمون، فإن هذا يعنى أنه مكان مقدس للعبادة الذى أدخلت حتشبسوت عليه منصب كبير الكهنة مقلدة طقوس المعبد فى أورشليم ذلك المعبد الذى بنى بدوره على الطراز

الفينيقى.

وكان تحالف سليمان مع حيرام ملك فينيقيا، يفسر ذلك التأثير الفينيقى القوى فى حياة مملكتى يهوذا وإسرائيل، وقد تم تأكيد ذلك التأثير فى الكتاب المقدس فى قصة إقامة المعبد، بنى المعبد بمساعدة حيرام الذى زود سليمان بمواد البناء والحرفيين المهرة وشيخ الحرفيين، وهو رجل من أصل عبرى فينيقى (سفر الملوك الأول ٧: ١٣ - ١٤) وأيضاً عن طريق الرحلات المشتركة إلى أرض أوفير وكذلك عن طريق الانتقال السلمى لملكية الأراضى الخاضعة من سيطرة ملك لآخر (سفر الملوك الأول ٩: ١١)، حتى أن كل فلسطين تقريباً فى ذلك الوقت كانت تسمى أرض فينيقيا.

وكون بونت هى أصل كلمة بونتفكس وبونتيف، فما هو أصل كلمة بونت؟ فى الكتاب المقدس الفينيقيين "رجال صيدا وصور" أو "رجال حيرام" ولم يرد اسم "فينيقيا"، حيث إنه كان الاسم الذى استخدمه الإغريق ومن يكتبون باللاتينية منذ عصر هوميروس (٨٦). وقد شنت روما ما يسمى بحرب بونيك ضد قرطاج التى بناها أحد المهاجرين من صور. ومن المعتقد أن التفسير الأغريقى لكلمة فينيقيين بـ "الرجال الحمر" (٨٧) ليس إلا تفسيراً شعبياً موفقاً لأصل الكلمة، وكانت رحلات الفينيقين إلى النصف الغربى من الأرض، واتصالهم بحضارات المايا والأنكا موضع دراسة بعض الباحثين الذين اختصوا بدراسة أمريكا ما قبل كولومبس، أما التفسير الإغريقى الآخر لكلمة فينيقيا بـ "أرض النخيل" فلم يكن مقبولا بوجه عام (٨٨).

إن بونتس أبا صيدا هو الجد الأسطورى للفينيقيين (٨٩) وربما يكون إسمهم قد اشتق من اسمه، أو يكون اسم الجد الدينى قد اشتق من اسم البلاد ولو كانت كلمة بونت، كلمة تدل أصلا على معبد فينيقى، فربما تكون قد اشتقت من الكلمة العبرية "بانوت" وفى هذه الحالة يكون الفينيقيون قد اشتقوا اسمهم من اسم بيوت العبادة التى بنوها (٩٠).

وحتى قبل غزوات يشوع كانت أراضى أورشليم تسمى فى النصوص الدينية المصرية أرض الإله والأرض المقدسة. فهل كانت أورشليم مكاناً مقدساً قبل أن يغزوها داود أو حتى قبل وصول الإسرائيليين تحت زعامة

يشوع.

هناك إشارات ضمنية فى الإنجيل عن قدسية أورشليم منذ العصور المبكرة، أو حرماً مقدساً كان بذلك الموضع، فحين عاد إبراهيم من سعيه لدى ملوك الشمال الذين أسروا لوطاً ابن أخيه مع من أسروا من سدوم وعمورة، قدم له ملكى صادق ملك شاليم خبزاً وخمراً.

إن اسم أرض الإله أو الأرض المقدسة والذى أطلق على منطقة أورشليم فى نقوش المملكة المتوسطة، يلقى الضوء على الخصائص الدينية التى تميزت بها أورشليم وفلسطين بوجه عام من قبل داود بل حتى منذ تلك الأيام المبكرة حين كان الإسرائيليون مجرد قبائل، ومنذ ذلك الوقت وحتى الزمن الحالى ظلا يحملان اسمى المدينة المقدسة (القدس) والأرض المقدسة.

ماكدا .... و ... ماك - رع

إن التنافس بين المعتقدات العربية والمعتقدات الأثيوبية حول انتماء ملكة الجنوب، من الممكن حسمه ضد الإدعاء العربى ولصالح الاعتقاد الأثيوبى، ولكن فقط فى إطار أنها كانت تسمى "ملكة مصر وأثيوبيا" والذى كان وصفاً صحيحاً لجوزيفوس، ولا يستدعى ذلك البرهنة على صحة الأنساب التى يدعيها الأثيوبيون والموجودة ضمناً فى تراثهم..

لقد كان محمد (*) الذى تبنى الادعاءات العربية، على خطأ هو الآخر. وقد ورد على لسان سليمان (**) الكلمات التالية فى القرآن:

"فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله" (٩١).

لقد كان التماثل بين اسم سبأ كمكان يقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية، واسم الملكة سبأ كاسم وصفه لإنسان، كان ذلك التماثل سبباً فى إختلاط الأمر على كثير من الكتاب الذين كتبوا عن ملكة سبأ. وحتى قبل

(*) يتفق موقف الكاتب اليهودى مع الفكر الغربى الذى يذكر محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه زعيم محلى للعرب. (المترجم).

(**) لم ترد الآيات المذكورة على لسان سليمان كما ذكر الكاتب، وإنما على لسان الهدهد حين افتقده سليمان من مجلسه (المترجم).

أن يستعير محمد الجمل السابقة من السورة المذكورة، من الهاجادا العبرية والتى ربما سمع عنها من المعلمين اليهود فى المدينة.

أما الأثيوبيون، فلم يكتفوا بادعاء انتساب ملكة الجنوب إليهم، بل يصرون أن هناك طفلا قد ولد نتيجة لعلاقة حميمة بين الملكة وسليمان، وكان ذلك الطفل المسمى مينيليك هو الجد الأول للأسرة الملكية الأثيوبية والتى امتدت سلالتها حتى عصرنا الحالى. وبادعاء انتساب هذه الأسرة إلى داود ويكون جدهم ابنا لسليمان وملكة سبأ - فإن ذلك الجد الأول للأسرة الاثيوبية المالكة ينتمى أيضاً إلى عيسى المسيح الذى ينتمى إلى يوسف النجار من الناصرة بأرض فلسطين والذى يمتد نسبه بدوره إلى داود (٩٢).

وبتبجيل شديد لملكة الجنوب التى عادت من زيارتها حاملة فى أحشائها بذرة ملكية، يفتخر الأثيوبيون بمقطع من الإنجيل أكثر من أى مقطع آخر حيث جاء فيه "ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل وتدينه. لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان. وهو ذا أعظم من سليمان ههنا" (إنجيل متى ١٢: ٤٢) (٩٣).

إن المعتقدات الأثيوبية قد سجلت كتابة فيم يسمى "كيبرانجشت" أو كتاب عظمة الملوك (٩٤)، والنسخة الحالية الموجودة بالأثيوبية هى ترجمة عن نص عربى ترجم بدوره عن اللغة القبطية القديمة فى مصر، وهى تحمل مقاطع من الإنجيل، وبالتالى فهى ثمرة مرور الزمن حين دخلت المسيحية إلى أفريقيا فى قرن مبكر من التاريخ الميلادى. وبخيال واسع يصف الكيبرانجشت الليلة الحميمة التى قضاها سليمان فى مخدع ملكة الجنوب ويضيفون على ذلك أنه أهداها "مركباً للسفر فى البحر، وأخرى تستطيع أن تطير بها فى الهواء" وحين عادت إلى البلاد "قدم كبار رجال الدولة الذين ظلوا فى البلاد الهدايا إلى مليكتهم، وانحنوا مقدمين فروض الطاعة والولاء، وعمت الأفراح جميع أنحاء البلاد ابتهاجا بعودتها، وحكمت بعد ذلك باستقامة وعدل، ولم يعص لها أحد أمرا، لأنها قد أحبت الحكمة فرعى الله مملكتها".

المقاطع السابقة من الكيبرانجشت تماثل قصة الاحتفالات التى أقامها كبار رجال الدولة ابتهاجا بعودة حتشبسوت والاحتفالات التى أقامتها

حتشبسوت فى المعبد والقصر الملكى.. وهناك تماثل آخر بين المقاطع التى تتحدث عن حكمها بالعدل لأنها أحبت الحكمة فى المصادر المصرية والأثيوبية.

ولكن لا يشكل ذلك الأمر حدثاً غير عادى يدفعنا إلى استنتاج أن التراث الأثيوبى عن ملكة الجنوب يحتوى على معلومات أكثر من تلك الموجودة فى قصص الكتاب المقدس .. فحتى تلك العلاقة الحميمة ربما تكون مستمدة أصلا من مصدر يهودى (٩٥). يقول فى أحد سطوره إن الملك قد استجاب لرغبة ضيفته الملكة.

أما المعتقدات اليهودية فلا تحوى شيئاً عن طفل ولد نتيجة لعلاقة حميمة (٩٦)، كان من الطبيعى أن تتدعم أصالة المعتقدات الأثيوبية لو كانت قد كشفت عن حقائق لم ترد بالكتاب المقدس، والتى يمكن مقارنتها بما نعرفه عن الملكة حتشبسوت، حقائق ذات دلالات تبعد عن شبهة التوافق بالمصادفة، وحتى فى هذه الحالة، فإن الأمر لا يعنى بالضرورة - كما جاء بالكيبرانجشت - قد التقت رغبته برغبة الملكة، وأن طفلا بالتالى قد نتج عن هذا اللقاء واعتلى بعد ذلك عرش أكسوم (أورشليم الجديدة فى أثيوبيا) ولكن بالرغم من كل ذلك يبدو أن الأسطورة الأثيوبية عن ملكة الجنوب التى ذهبت إلى أورشليم، ليست نسخة خيالية تماما، أو مستمدة من أحداث الكتاب المقدس مثل أسطورة بلقيس ملكة سبأ كما زعم المؤلفون العرب.

فهناك تفاصيل فى الأسطورة الأثيوبية، تبدو بعيدة تماماً عن الخيال، وتعد فوق احتمال الابتداع، فالأثيوبيون يطلقون على ملكة الجنوب اسم ماكى - دا والاسم الملكى لحتشبسوت كما هو مسجل فى كل نقوش بونت هو ماكى - رع، ورع هو اسم الإله الفرعونى (٩٧)، ومن الواضح أن المقطع الأساسى فى اسم ملكة مصر متماثل مع أول مقطعين من اسم ملكة الجنوب فى التراث الأثيوبى، ولم يأت ذلك عن الكتاب المقدس.

ومن الممكن أن نتخيل أن ذلك الاسم إن لم يكن قد انتقل مع التراث عبر الأجيال - فإنه من الممكن أن يكون بعض أقباط مصر الذين عاشوا فى العصر المسيحى المبكر قد نشروا ذلك الاسم وسجلوه فى التراث المسيحى القديم (الذى انتقل بعد ذلك إلى الحبشة)، وذلك بعد أن شاهدوا نصوص

بونت على جدار الدير البحرى، بحيث كان باستطاعتهم فى ذلك الوقت قراءة الفرعونية بسهولة، وحيث كان بمقدورهم التعرف على حتشبسوت كملكة سبأ قبل أن أصل أنا إلى معرفة ذلك، وبسبب العامل الزمنى الذى يجعل بمقدور ذلك القبطى الافتراض أن يقرأ الهيروغليفية، فقد كان بإمكانه أيضاً أن يتعرف على حتشبسوت باسم ملكة الجنوب، أو ربما كان قد سمع عن أسطورة أن صور الدير البحرى تمثل رحلة إلى أورشليم.

ونفس النظرية يمكن تطبيقها على جوزيفوس الذى ذكر أنها "ملكة مصر وأثيوبيا" على ضوء المشاهد المنقوشة على جدران الدير البحرى، وربما ذكر أيضاً الكوسيم (سود البشرة) لأنهم كانوا فى صور الدير البحرى .. وهو تركيب يخلو من المنطق (لأن جوزيفوس لم يكن بمصر أبداً)، ومن جهة أخرى فالحقائق التاريخية التى عرفها جوزيفوس ولم توجد بالكتاب المقدس ربما تكون قد انتقلت بوسيلة ما عبر الألف سنة التى تفصل جوزيفوس عن عصر سليمان.

لقد غزا تحتمس الأول أبو حتشبسوت الجزء الشمالى من أثيوبيا والمعروف باسم نوبيا. ومن الشيق أن نجد فى كل الوثائق المصرية أن من يحكم أثيوبيا (نوبيا) كان يطلق عليه اسم "ابن الملك" وهو بالطبع اسم مجازى لا يعنى قرابة دم مع ملك مصر (٩٨) ولكن ذلك الاسم لم يؤخذ به فى عصر حتشبسوت، حيث لم يعثر عليه فى أى وثيقة، وفى عصر خليفتها تحتمس الثالث ثم تعيين حاكم لأثيوبيا وكان يسمى نيهى.

هناك حادث آخر فى الأسطورة الأثيوبية - وهو حادث سرقة معبد أورشليم - وسنتعرض له فى الفصل التالى.

وكان خليفة حتشبسوت على عرش مصر نهب وسلب محتويات معبد سليمان وهو فعل - إذا صدقت المعتقدات الأثيوبية - من الممكن نسبه إلى الابن المزعوم لسليمان من ملكة الجنوب.

لقد أوردنا شذرات من أحداث التاريخ لنمحّص على ضوئها الأسطورة الأثيوبية، ولذلك فمن المفروض فى هذا الموضع أن نلقى نظرة على واحدة أو اثنتين من الأساطير العبرية عن ملكة سبأ، وكوننا أصبحنا على دراية بحقيقة الشخصية التاريخية لها فإن ما يهمنى هنا هو معرفة ما الذى يحرك الخيال الشعبى وكيفية عمله.

لقد ذكرنا من قبل ذلك الهاتف الإلهى الذى سمعته حتشبسوت والذى دفعها إلى القيام برحلتها إلى أرض الإله، وعلى النقوش الجدارية ومشاهد أخرى عديدة نجد حتشبسوت مصورة فى صور جانبية أمام الإله حورس ممثلا برأس صقر وغالباً ما كان يصور معها حية (رمز مصر السفلى) ورأس نسر (رمز مصر العليا كرموز ملكية) (٩٩).

وهناك أسطورة شيقة فى الهاجادا (١٠٠) تذكر أن ملكة سبأ بينما كانت فى طريقها ذات صباح لتقديم فروض الولاء لإله الشمس، تلقت رسالة من طائر يستدعيها لزيارة سليمان فى أورشليم.

وفى النقوش الجدارية تسمى حتشبسوت بالملك، والضمير المستخدم للإشارة إليها كان أحيانا "هى" وأحياناً "هو"، وتبدو فى كثير من النقوش والصور وهى ترتدى ملابس رجال وتسمى ابنة آمون، ولكن فى صورة مولدها صورت كولد يشكله الإله خنوم بشكل الرجال.

لم يكن من المعتاد، كما كان متعارضاً مع المفاهيم السياسية والعقائدية للمصريين أن ترتقى عرش البلاد امرأة، وعلى ذلك فقد تنكرت فى زى الرجال واتخذت لنفسها سمت الرجال، وفى عديد من تماثيلها وعلى النقوش صورت بلحية رجل، وهناك أسطورة مشهورة تحكى أن سليمان عند لقائه الأول بملكة سبأ، قال عن الشعر الذى كان نامياً على بشرتها (كانت ساقاها منعكستين على المرايا) – قال إن شعر البدن صفة للذكور وزينة للرجال ولكنه يشوه جمال المرأة (١٠١).

ولقد أكد الحاخام جوناثان فى القرن الثالث الميلادى أن من زار سليمان كان ملك سبأ وليس ملكة سبأ، وحتى علماء المصريات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسموا حتشبسوت ووصفوها على أنها ملك ذكر، بعد أن أضلتهم هيئة تماثيل حتشبسوت وضمير المذكر الذى استخدمته فى الكتابة.

فهل من الممكن أن تكون صور ونقوش الدير البحرى والتى شاهدها زوار مصر بعد عدة قرون من عصر حتشبسوت هى مصدر تلك الأساطير الغريبة؟

هل زارت حتشبسوت بلاد ملكة سبأ؟

إن ملكة سبأ التى زارت سليمان عاشت فى القرن العاشر قبل الميلاد. ومن غير المعروف من أين أتت – من أرض سبأ أو من أثيوبيا – فى القرن السادس عشر قبل الميلاد قامت الملكة حتشبشوت برحلة إلى الأرض المقدسة وبلاد بونت. ومن غير المعروف أين كانت بلاد بونت ولكن من المعتقد أنها كانت إما بأرض سبأ أو على الساحل الصومالى لأثيوبيا، وطبقاً لذلك فإن الملكة حتشبسوت ربما تكون قد زارت بلاد ملكة سبأ قبل ستة قرون من قيام ملكة سبأ برحلتها إلى أورشليم.

وحيث إن التحف والروائع التى جلبتها حتشبسوت من بلاد بونت لا تختلف عن التحف التى جلبها حيرام وسليمان من أوفير، فإن بعض المؤلفين غامروا بتعريف بلاد بونت على أنها أرض أوفير بالرغم من أن مكان أوفير لم يعرف بعد بالتحديد، وطبقاً لتلك النظرية فإن الملك الفينيقى حيرام قد قام برحلة استكشافية إلى بلاد بونت التى زارتها حتشبسوت قبل ذلك بعدة قرون (١٠٢).

إن إعادة بناء التاريخ المقدمة هنا، تختصر من زمن المملكة الحديثة فى مصر ما يقرب من ستمائة عام، تضع الملكة حتشبسوت فى القرن العاشر بدلا من القرن السادس عشر قبل الميلاد، وتجعل حتشبسوت معاصرة لسليمان وترتب على ذلك مناقشة الفرضية التالية: إذا كانت شهرة الملك سليمان قد امتدت إلى بلاد بعيدة، وتمنى كل الملوك لقاءه ومشاهدته، وإذا كان الشئ نفسه ينطبق على حتشبسوت التى ذاع صيتها، فإذا كانا متعاصرين فإن من العجيب ومن غير الطبيعى الا يكونا قد التقيا.

ولإثبات أن ملكة سبأ والملكة حتشبسوت لم يكونا إلا شخصية واحدة فإننى يجب أن أثبت أن ملكة سبأ قد جاءت من مصر وأن الملكة حتشبسوت قد زارت فلسطين. وبالنسبة للأولى فإن هناك تحديداً واضحاً فى تقرير جوزيفوس أن الملكة جاءت من مصر، وهذه الحقيقة قد أهملت بدون سبب واضح.

ومن حسن الحظ أننا لازلنا نمتلك يوميات مصورة للملكة حتشبسوت والتى تعرض من خلالها رحلتها إلى دولة أجنبية، وقد شاركت فى الرحلة

بنفسها وليس من الصعب البرهنة على ذلك بالرجوع إلى تصريحها المحدد والواضح والتى أطلقت على نفسها فيه لقب قائدة البعثة.

ويجب على أيضاً أن أبرهن أن بلاد بونت والأرض الإلهية هى فينيقيا وفلسطين، والإشارات المتكررة فى الآثار المصرية إلى بلاد بونت على أنها بلاد تقع إلى الشرق من مصر لا ينطبق على أراضى الصومال، وعودة السفن بعد انتهاء الرحلة إلى مراسى مدينة طيبة على نهر النيل يخرج من الحسابات أرض جنوب شبه الجزيرة العربية وأرض الصومال، ويضع بونت على سواحل البحر المتوسط لقد قارنت بعد ذلك ما سجله الكتاب المقدس عن زيارة ملكة سبأ والتقارير المصرية عن البعثة إلى الأراضى المقدسة ووجدت تطابقاً كاملا.

إن رحلة "المرأة العظيمة التى تحكم مصر "التى جاءت" فى موكب عظيم "إلى الأراضى الإلهية" ودهشتها لما رأته "والذى فاق" الأشاعات و "مدارج الأشجار التى تعجبت لمرآها" والهدايا التى تبادلتها ومن بينها الروائح التى جلبها حيرام من بلاد أوفير، والقردة والحيوانات الأخرى، والفضة التى كانت نادرة حتى ذلك الوقت، والأبنوس والعاج، والأحجار الكريمة والعطور، "المر" بلا عدد "وأشجار" لم ير مثلها من قبل، كل ذلك وجد متماثلا فى حكاية الكتاب المقدس عن تلك الرحلة مع حكاية جوزيفوس، متطابقاً مع نقوش وصور المعبد المصرى الذى بنته الملكة بعد عودتها إلى طيبة، ذلك المعبد الذى أدهش الباحثين بتصميمه الأجنبى وأكدت الملكة بنفسها أنه كان تقليداً لما رأته فى بلاد بونت ومع المعبد أدخلت أشكالا جديدة من ممارسة طقوس العبادة، باثنى عشرة كاهناً تحت رئاسة كاهن أعظم.

إن التوافق الكامل فى تفاصيل الرحلة وتفاصيل أخرى كثيرة، يبرهن بما لايدع مجالا للشك أن كلمة سبأ أو الملكة حتشبسوت لم تكونا إلا شخصية واحدة (١٠٣)، وكانت بلاد بونت هى فلسطين – فينيقيا، والأرض الإلهية والأرض المقدسة هى أورشليم. وكان الشعب الذى بدأ من أصل "قوقازى" أو من أصل سامى شمالى، هو الشعب اليهودى، وكان بارواح الذى قابل بعثة حتشبسوت على الميناء هو الحاكم المعين من قبل سليمان على ميناء عصيون – جابر. وكانت القردة والحيوانات العربية التى قادت

المؤرخين إلى استنتاج أن بونت كانت تقع فى أفريقيا حيوانات أحضرت إلى أورشليم على سفن سليمان وحيرام، والنباتات الغريبة أيضاً كانت قد جلبتها السفن من بلاد بعيدة.

ويتبقى تفسير مصدر نبات واحد كان يصدر من بونت .. ولوقت طويل قبل رحلة حتشبسوت، ولوقت طويل بعدها، كانت تذكر بونت والأرض الإلهية مراراً فى الوثائق المصرية القديمة كبلاد تنتج المر واللبان والبخور، وبسبب ذكر ذلك فى الوثائق المصرية، اعتقد بعض الباحثين أن بونت توجد فى جنوب شبه الجزيرة العربية.

ولكنى سأترك ذلك للفصل المقبل لأثبت أن المر والبخور كانا يزرعان بأرض فلسطين.

هوامش الفصل الثالث

1. Breasted. Records, Vol. II, Sec. 81.
2. Thutmose I described the domain of his influence- from Ethiopia to the land of "the inverted water-the river that flows upstream". It is generally supposed that he meant the Euphrates, as the Egyptians had the idea that a river like the Nile must flow from the south to the north.

The northernmost area of Thutmose's domain was Edom in southern Palestine. By "the river that flows upstream" is meant the Jordan. This will be explained at length in another place. But if the Egyptians were amazed by a river flowing southward, it would be the Jordan, which is closer to Egypt, rather than the Euphrates.

3. Scholars following the established construction of history could not close their eyes to the similarity of thses enterprises: "... ambitious and inventive was Solomon's policy of ... developing a maritime route on the Red Sea. The old vigor of Egypt as displayed by Queen Hatshepsut in her navigation of those waters had long since disappeared." J. A. Montgomery, Arabia and the Bible (philadelphia, 1934). p. 176.
4. The Punt reliefs in Breasted, Records, Vol. II, Sec. 269. The complete record may be found in Edouard Naville, The Temple of Deir el Bahari (Memoirs of the Egyptian Exploration Fund, London, 1894-1908, Vols. 12-14, 16, 19, 27, 29).
5. The Karnak obelisk. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 325.

6. i Kings 4: 34.

7. Cf. J. Halévy, "La Légende de la reine de Saba", Annuaire, Ecole pratique des Hautes Etudes, 1905 (Paris, 1904); L. Legrain, "In the Land of the Queen of Sheba", American Journal of Archaeology, 38 (1934).

8. Kebra Nagast, translated from the Ethiopian by E. A. W. Budge as The Queen of Sheba and Her Only Son Menyelek, being the Book of the Glory of Kings (Oxford, 1932).

9. Compare Babylonian Talmud, Tractate Baba Batra 15b.

10. See Halévy, Annuaire, Ecole pratique des Hautes Etudes, 1905 (1904).

11. See L. Legrain, American Journal of Archaeology, 38 (1934), 329-37. Systematic excavations have been possible in southern Arabia only in the last few years.

12. Kebra Nagast (trans. Budge), p. vii. See also Halévy, Annuaire Ecole pratique des Hautes Etudes, 1905 (1904), 6.

13. Josephus did not name the queen.

14. Josephus, Jewish Antiquities, VIII, 165.

15. The country on the Nile south of the Second Cataract, or the modern Sudan, was then described as Ethiopia.

16. Naville, Deir el Bahari, Introductory Memoir, p. 1.

17. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 246.

18. Suggested by Chabas.

19. Naville, Deir el Bahari, Pt. III, p. 12.

20. "The animals represented in the sculptures are exclusively African, as is also a part of the population" (ibid.). See E. Glaser, "Put und die südarabischen Reiche", Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft (Berlin, 1899), Vol. IV, p. 62.

21. A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries (2nd ed.; London, 1934), p. 93; W. H. Schoff, The Periplus of the Erythraean Sea (New York, 1912), p. 218.

22. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 892.
23. Ibid.; Montgomery, Arabia and the Bible, p. 176, n. 28.
24. Philo of Byblos as quoted by Eusebius in Preparation for the Gospel, I, 10, 27.
25. Um seine Lage genauer zu bestimmen, sind wir ausschliesslich auf die Abbil-dungen angewiesen, die von den Einwohnern und den Produkten des Landes überliefert werden." Glaser, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft, IV (1899), 53.
26. Lucas, Ancient Egyptian Materials (2nd ed.), p. 93.
27. Glaser, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft, 1899, p. 33f.
28. Herodotus, I, 1 and VII, 89. The designation "Eritrean Sea" covered all of the Indian Ocean as well as the Red Sea.
29. See. R. Lepsius, Nubische Grammatik (Berlin, 1880). Compare Glaser, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft, 1899, pp. 33f.
30. Cf. the paper of Newberry, "Three Old kingdom Travellers to Byblos and Pwenet", Journal of Egyptian Archaeology, XXIV (1938), 182-84.
31. See the various opinions presented by G. Maspero, The Struggle of the Nations (New York, 1897), p. 247.
32. G. Maspero ascribed to Eduard Meyer the belief that the inhabitants of Punt were the ancestors of the Sabeans (Geschichte des Altertums, p. 234); however Meyer thought Punt was in Africa.
33. Neterto {Toneter} is translated by Naville as Divine Land and by Breasted as God's Land.
34. J. Dümichen, "Geographie des alten Aegypten", in E. Meyer, Geschichte des alten Aegypten (Berlin, 1879-87); J. Lieblein, Handel und Schiffahrt auf dem Roten Meere in alten Zeiten (Christiania {Oslo}, 1886); Glaser, Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft, 1899. See also Naville, Deir el Bahari, Introductory Memoir, p. 22: "... Hatshepsu's

fleet undoubtedly sailed for the coasts of Africa and not for those of Arabia, but we are not justified in limiting the land of Punt to the African coast alone. ... The land to which their {the Egyptian} religious texts ascribe an almost legendary character, lay upon both shores of the southern end of the Red Sea."

35. Since olden times the harbor of el-Qoseir on the Red Sea has been mentioned as the starting point of travel to the Divine Land.
36. Plato, Timaeus, 25.
37. Ginzberg, Legends, IV, 144.
38. Ibid.
39. The Koran, Sura XXVII (trans. E. H. Palmer).
40. Also in Kebra Nagast (trans. Budge), the Ethiopian legend about "the Queen of the South", an Ethiopian emissary by the name of Tamrin, possessor of three and seventy ships and leader of a merchant caravan, visited Jerusalem and on returning to his queen "he related unto her how he had arrived in the country of Judah and Jerusalem ... and all that he had heard and seen".
41. According to the reading "on both sides of the sea", the harbor was situated on opposite shores. Ezion-Geber was built by Solomon on the Gulf of Aqaba, where both shores can be seen.
42. It appears that the last word in I Kings 4: 16 belongs to the next verse, and the last word of 4: 17 to the following verse. The reading then would be: "... and in Aloth Jehoshaphat the son of Paruah." In this case the son remained governor where his father had served in the same capacity, Aloth and Eloth being the same. In a context having no relation to the question presented here, Albright (Journal of the Palestine Oriental Society, V {1925}, 35) made the same suggestion that the place Aloth be transferred to the next verse, into the domain of Jehoshaphat, son of Paruah. See also J. W. Jack, Samaria in Ahab's Time (Edinburgh,

1929), p. 95.

43. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 253.

44. "Hatshepsu did not prize her military laurels as highly as her naval expedition to the land of Punt. ... The considerable space which these sculptures cover, the fullness of the details, and the exquisiteness of the work, all prove how highly the queen valued the achievements of her ships, and took prise in their results. "Naville, Deir el Bahari, Pt. III, p. 11.

45. Breasted, in Records, Vol. II, Sec. 247, collected the earlier references to voyages to the land of Punt. "None of these sources contains more than the meagerest reference to the fact of the expedition.

46. Naville, Deir el Bahari, Pt. III, p. 11.

47. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 285.

48. Josephus, Jewish Antiquities, VIII, 165f.

49. With the possible exception of Sebeknofrure at the end of the Twelfth Dynasty.

50. Breasted. Records, Vol. II, Sec. 288.

51. The Egyptians are pictured beardless; only the gods and the pharaohs are shown with beards.

52. M. Grünbaum, Neue Beiträge zur semitischen Sagenkunde (Leiden, 1893), p. 213; Ginzberg, Legends, IV, 145.

53. Cf. the article "Incense" in Encyclopedia Biblica, Vol. II, col. 2167, concerning the aromatic substances used in the Herodian Temple.

54. Genesis 43: 11.

55. Proverbs 7: 17.

56. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 288.

57. Josephus, Jewish Antiquities, VIII, 167, which follows I Kings 10: 2-3.

58. Naville, The Temple of Deir el Bahari, p. 22.

59. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 274.

60. Jewish Antiquities, VIII, 170-171.
61. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 278.
62. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 352.
63. Ibid., Sec. 375.
64. A "house of silver" may signify the treasury, but "a floor wrought with gold and silver" must be understood as made of these metals.
65. Anti trees are termed myrrh by Breasted, and frankincense by Naville, identified as Boswellia Carteri by Schoff. Lucas, Ancient Egyptian Materials, P. 93.
66. In the opinion of some scholars the tribute-paying Negroes signify that beside the expedition to Punt there was another expedition to the African region of Khenthenofer, the bas-reliefs bringing together what geographically was divided.
67. Hiram was the traditional or often recurring name of the kings of Tyre. See Ginzberg, Legends, V, 373.
68. Ophir may signify generally Africa. Different theories place Ophir in Africa on its east coast, in Arabia, in the Persian Gulf, the coast of India, Ceylon, Malaya, China, Spain, the West Indies, and Peru, and also in many other countries. In the West Indies, in Australia, and on Madagascar there are no apes. Peacocks abound in South America and Australia. The presence of silver in Ophir and the three years needed for the voyage and return, starting in the Red Sea, are important indications. Necho II sent a Phoenician expedition around Africa; they sowed and reaped on the way, and it took four years to cir cumnavigate the continent.
69. Jewish Antiquities, VIII, vii, 2.
70. See a note by R. Marcus to his translation of Josephus, Jewish Antiquities, VIII, vii, 2 referring to the opinion of Weill.
71. Meyer, Geschichte des Altertums, II, i (2nd ed., 1928), 117.

72. Herodotus, II, 158. F. H. Weissbach, Die Keilinschriften der Achämeniden (Leipzig, 1911), p. 105.

73. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 274.

74. Ibid., Sec. 295.

75. Ibid., Sec. 294.

76. "Mariette, struck by the strange appearance of the edifice, thought that it betrayed a foreign influence, and supposed that Queen Hatshopsitu {Hatshepsut} had constructed it in the model of some buildings seen by her officers in the land of Puanit." (Deir el Bahari {Leipzig, 1877}, pp. 10-11, cited by G. Maspero in The Struggle of the Nations, p. 241, note 2.)

77. A. Mariette, Deir el Bahari, quoted by Naville in The Temple of Deir el Bahari, Introductory Memoir, p. 1. However, a more ancient temple of similar architecture was discovered in the vicinity; it probably represents, too, a Phoenician influence.

78. "Though she {Hatshepsut} was a sovereign fond of building and erecting edifices like that of Deir el Bahari which are accounted the most beautiful left to us by Egyptian antiquity, she did not make a useless display of gigantic buildings in the desire to dazzle the posterity as did Ramses II." Naville in Davis, The Tomb of Hatshopsitu, p. 73.

79. Psalms 120-34: "Songs of degrees."

80. See H. E. Winlock, Excavations at Deir el Bahri, 1911-1931 (New York, 1942), pp. 134ff.

81. Naville, Deir el Bahari, Introductory Memoir.

82. "Solomon ... wanted palaces and gardens and a temple, which might rival, even if only in a small way, the palaces and temples of Egypt and Chaldea, of which he had heard such glowing accounts." Maspero, The Struggle of the Nations, p. 741. "Compared with the magnificent monuments of Egypt and Chaldea, the work of Solomon was what the

Hebrew kingdom appears to us among the empires of the ancient world- a little temple suited to a little people." Ibid., p. 747.

83. Breasted, Records, Vol. II, note to Sec. 679. "The queen was conscious of the resemblance of the temple-gardens in Deir el Bahari and Punt. The service and equipment of the temple recevie some light from the mention of its High Priest, with twelve subordinate priests in four orders." Ibid., note to Sec. 291.
84. Ibid., Sec. 388. But according to G. Lefebvre, the office of the high priest was already established by Ahmose (Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak {Paris, 1929}, p. 69).
85. Plutarch, Lives, "Numa", 9. Numa is said to have introduced the institution of the high priest or pontifex in Rome. Compare A. Bouché-Leclercq, Les Pontifes de l'ancienne Rome (Paris, 1871).
86. The Odyssey, XIII, 272; XIV, 288ff.
87. V. Berard, "Le Nom des Phéniciens", Revue de l'histoire des religions, 93 (1926), 187ff.; G. Contenau, La Civilisation Phénicienne (Paris, 1926), p. 356; Syria, Revue d'art oriental et d'archeologie, VIII (1927), 183; Bonfante, "The Name of the Phoenicians", Classical Philology, XXXVI (1941), 1-20.
88. K. Sethe in Mitteilungen, Vorderasiatisch-ägyptische Gesellschaft, XXI (1917), 305.
89. Eusebius, Preparation for the Gospel, I, 10, 27.
90. Panot in Hebrew means to face, incline, address, turn to. It is applied innumerable times in connection with worship. Cf. Maimonides, chapter "On homonyms in the Bible", in Guide for the Perplexed. Of the same root is "Presence" (of the Lord)- an idea found with the Phoenicians of Carthage. Cf. W. F. Albright, From the Stone Age to Chrisianity (Baltimore, 1940), p. 228.
91. The Koran, Sura XXVII (trans. Palmer).

92. "They never doubted that Solomon was the father of the son of the Queen of Sheba. It followed as a matter of course that the male descendants of this son were the lawful kings of Abyssinia, and as Solomon was an ancestor of Christ they were kinsmen of our Lord, and they claimed to reign by divine right." Budge, Kebra Nagast, p. x.

93. Matthew 12: 42' Luke 11: 31.

94. "The kebra Nagast is a great storehouse of legends and traditions, some, historical and some of a purely folklore character, derived from the Old Testament and the later Rabbinic writings, and from Egyptian (both pagan and Christian), Arabian and Ethiopian sources. of the early history of the compilation and its maker, and of its subsequent editors we know nothing, but the principal groundwork of its earliest from was the traditions that were current in Syria, Palestine, Arabia, and Egypt during the first four centuries of the Christian era" Kebra Nagast (trans. Budge), pp. XV-XVI.

95. 2 Alphabet of Ben Sira 21b. Ginzberg, Legends, VI, 289.

96. 2 Alphabet of Ben Sira 21b also states that Solomon married the Queen of Sheba.

97. Likewise "Da" could be the divine name Adad or Ada, which is a part of several scriptural names.

98. G. A. Reisner, "The Viceroys of Ethiopia", Journal of Egyptian Archaeology, VI (1920), 31.

99. Naville, Deir el Bahari, Pt. II, Plates 35, 38, 39; ibid., Pt. III, Plate 58, etc.

100. Ginzberg, Legends, IV, 143.

101. Ibid., IV, 145.

102. Maspero, The Struggle of the Nations, p. 742. See also Karl Peters, Das goldene Ophir Salomos (Munich, 1895); Eng. trans., King Solomon's Golden Ophir (New York, 1899).

103. Shwa (the Hebrew for Sheba) might be the last part of the name

Hatshepsut. R. Engelbach, The Problem of the Obelisks (London, 1923), spells her name Ḥatshepsowet. The final t in her name was not pronounced. Naville (Deir el Bahari) spells it Hatshepsu. It was usual to shorten the Egyptian names: so Amenhotep was often shortened tó Hui.



الفصل الرابع

هيكل سليمان

تحتمس الثالث يعود
لتقويض إمبراطورية سليمان

عينت حتشبسوت فى أواخر حكمها تحتمس الثالث ولياً للعهد على عرش مصر، وفى البداية لعب دوراً هامشياً فى إدارة شئون الحكم، وكان اسمه يكتب بعد اسمها وتوضع صوره خلف صورتها فى كل النقوش، وتبين نقوش بعثة بونت فى الدير البحرى الأمير الصغير مصوراً بحجم صغير فى خلفية الصورة، وهو يحمل تقدمات من العطور، ويقدمها إلى كاهن الإله آمون رع، وبعد ذلك وحين حكم بمفرده، أصبح تحتمس الثالث أعظم الغزاة الذين جلسوا على عرش مصر قاطبة خلال كل عصر المملكة الحديثة وكان قد وجه غزواته العسكرية أساساً باتجاه فلسطين وسوريا وأخضعهما لحكمه، بعض المدن أخضعها واستولى عليها بالقوة وبحد السيف، ومدن أخرى انحنت فى خضوع بلا حرب فاتحة أبوابها دون مقاومة لتصبح بعد ذلك من دافعى الجزية.

إن سجلات غزوات تحتمس الثالث الناجحة منقوشة بالهيروغليفية على جدران معبد الإله آمون الأعظم بالكرنك، حيث يسرد فيه ويعدد حملاته العسكرية على فلسطين وسوريا ونتائج تلك الغزوات، وهناك قائمة تحتوى على مائة وتسع عشرة مدينة أخضعها لحكمه فى فلسطين وحدها، القائمة مدونة ثلاث مرات على جدران مختلفة من المعبد، وكل مدينة من تلك المدن ممثلة برجل قيدت يداه من خلفه مع درع يغطى جسده ومدون عليه اسم مدينته التى يرمز إليها وهناك قائمة أخرى لم توجد مكتملة ومن نسخة واحدة عليها أسماء ثلاثمائة مدينة سورية تم إخضاعها

ومرموز إليها أيضاً برجال مقيدين، ودروع تغطى صدورهم، وتظهر نقوش الحائط فى الكرنك أيضاً كنوزاً من الذهب والفضة والبرونز والأحجار الكريمة جلبها تحتمس الثالث كغنائم من إحدى غزواته، وهناك مجموعة أخرى من الجداريات تعرض النباتات والحيوانات التى نقلت من فلسطين إلى مصر.

ولقد كان هناك إجماع على أن تلك الغزوات كانت موجهة ضد أرض كنعان التى لم تكن عرفت شيئاً بعد ولا سمعت عن قبائل بنى إسرائيل الذين لم يكونوا قد ظهروا للوجود فى ذلك التوقيت، واعتبرت أسماء المدن والأماكن التى ذكرت فى قائمة تحتمس الثالث، أسماء مستعمرات الكنعانيين، وبالتالى فإن الغنائم التى غنمها من تلك الغزوات تمثل مدى ما وصل إليه الفن الكنعانى الذى ازدهر هناك قبل فترة طويلة من ظهور الإسرائيليين الذين قادهم يشوع إلى تلك البلاد.

وقيل إن خروج الإسرائيليين من مصر ودخولهم إلى أرض كنعان كان مازال حدثاً فى أحشاء الغيب حين قام تحتمس الثالث يغزو كنعان وسوريا، كما قيل إنه حتى لو كان الإسرائيليون على عهد تحتمس قد بدأوا فى الانتظام على شكل قبائل، فإنها كانت ما تزال فى ذلك الوقت قبائل مجهولة فى الأراضى الواقعة بين الفرات والنيل.

كان تحتمس الثالث - غازى فلسطين - وريثاً لحتشبسوت على عرش مصر، وطبقاً للتقويم الزمنى الذى نقدمه فى هذا الكتاب يكون تحتمس قد بدأ حكم مصر فى الأعوام الأخيرة من حكم سليمان، وامتد حكمه طوال فترة حكم ابن سليمان رحبعام الذى ورث العرش بعده .. ولو كانت إعادة بناء التاريخ المقدمة فى هذا الكتاب صحيحة، فإن غزوات تحتمس المنتصرة فى فلسطين، من المفروض أن تكون قد وقعت فى مدى أعوام قليلة من بعد موت سليمان، وأن تكون أخبار تلك الغزوات قد حفظت فى الكتاب المقدس، لقد كانت غزوات تحتمس الثالث اجتياحات مكللة بالنصر عبر أرض فلسطين، وأحداث سفر أخبار الأيام لملكتى يهوذا وإسرائيل لا يمكن أن تكون قد أغفلت ذكر هذه الغزوات .. ومن المقرر أن تحتوى على سجل حافل عن كل تلك الأحداث.

ومرة أخرى تتصدى إعادة بناء التاريخ المعنية هنا إلى اختبار جديد،

فغياب أى تسجيل لتلك الأحداث فى الكتاب المقدس، عن غزو فلسطين بجيش مصرى بقيادة فرعون مصر نفسه فى الأعوام التى تلت موت سليمان، سيعد دليلاً لا يمكن دحضه ضد إعادة بناء التاريخ كما أسلفت.

ولكن هناك بالفعل تسجيلات محفوظة عن كل تلك الأحداث بالكتاب المقدس، بل أكثر من ذلك تتوافق تماماً مع نقوش معبد الكرنك.

لقد قامت مملكتان على أنقاض مملكة العماليق التى انهارت، هما مملكة إسرائيل ومملكة مصر .. وحصلت إسرائيل هازمة العماليق على نصيب الأسد من هذه التركة حيث آلت إليها كل الأراضى الواقعة من نهر الفرات حتى حدود مصر، بما فيها ممالك سوريا وكنعان وإيدوم وعمق شبه الجزيرة العربية، وتدفقت الجزية إلى إسرائيل من الشمال والشرق والجنوب وتحكمت مملكة إسرائيل فى التجارة بين آسيا وأفريقيا، كما تحكمت فى نهايات بحرين كبيرين هما البحر المتوسط والبحر الأحمر أما مصر - بيت عبودية اليهود الأول - فقد تم تحريرها من طغيان الهكسوس على أيدى الإسرائيليين بقيادة شاؤل ولكن مصر قابلت الخير بالشر، إن قصص عظمة أورشليم التى أثرت عن طريق الغزو والتجارة ألهمت حتشبسوت الرغبة فى أن ترى بنفسها هذه الثروات، وربما شارك تحتمس الثالث الذى كان مازال أميراً صغيراً فى ذلك الوقت بهذه الرحلة إلى أرض الآلهة، أو يكون قد سمع من حتشبسوت عن عظمة تلك البلاد السعيدة، ثم رأى الهدايا التى كانت تعد عجائب، وعملت نقوش بونت على إبقاء هذه الذكرى حية فى رأسه، وتطلعت عيناه فى حسد إلى تلك البلاد وإلى الثروات التى تراكمت هناك.

كان سليمان الذى يعد اسمه مرادفا للحكمة بل الذى اعتبر أحكم البشر، متهماً بالوقوع فى أكبر الأخطاء السياسية وأشدها خطراً، ففى الفترة الأخيرة لحكمه أصبح بانى معبد أورشليم عابداً لآلهة غريبة ومشيداً لمعابد آلهة أجنبية وقيل إنه بنى على امتداد التلال المحيطة بأورشليم معابد مقدسة لآلهة شعوب أخرى إرضاء لرغبات النساء من الأغراب اللائى أحبهن ".. وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى" (سفر الملوك الأول ١١: ٤) لقد خطط سليمان بزواجه من ابنة لفرعون مصر ونساء أخريات من موآب وعمون وأيدوم وصيدا

وحيثيات أن يبني مركزاً دولياً في أورشليم، وبإقامة معابد لآلهة أجنبية ظن أن ذلك سيظهره بمظر المتسامح وأن أورشليم ستصبح مكاناً تجتمع فيه مختلف الديانات والعبادات.

لقد ذُكرت الأميرة المصرية بصفتها أقرب وأحب زوجاته إليه، ولذا فقد كان المنطقي أن نجد تمثال آمون رع إله المصريين على رأس آلهة الزوجات الأجنبيات والتي أقيمت لها النصب في أورشليم (سفر الملوك الأول ١١: ٥ – ٨) ومن بين صور رحلة بلاد بونت الجدارية كانت هناك واحدة أزيلت بأزميل وكانت تحتوي على نقش لم يبق منه إلا كلمات معدودة يفهم منها أن تمثالا (من الواضح أنه لآمون رع) قد أقيم في الأرض الإلهية (١) أورشليم.

لقد تم تحطيم كل الآلهة الأجنبية (٢) على أيدي أواخر ملوك بيت داود. ولم يعد قائما منها شئ في أورشليم، ويلقي الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول بعد قصة ملكة سبأ مباشرة – الضوء على مضمون ذلك النص الذي أزيل بالأزميل من بين جداريات رحلة بونت.

لم تصبح أورشليم بدياناتها الأجنبية العديدة وبعباداتها لآلهة غريبة مركزاً سياسياً للشعوب كما تمنى سليمان لها أن تكون، بل تحولت بسرعة لتصبح هدفاً لطموحهم السياسي والعسكري، وقد ذكرنا عند مشهد القداس في معبد الدير البحري من نقوش بونت، ما جاء معه من نقش باسم الإله آمون رع يقول فيه "إن الأرض المقدسة منطقة عظيمة من أرض الالهة، أنه مكان مسرتي ولقد صنعتها لنفسي، أنا إلهكم الحكيم، أنا باعث الحياة آمون رع".

لقد كتب ذلك في عصر حتشبسوت المسالمة.

كان تحويل أورشليم إلى مدينة مقدسة لكل الشعوب سبباً في ضياع إستقلالها القومي، كما ضاع إحساس الإنتماء إلى الدولة بسبب سياسته تلك، ففي أيام شاؤل وداود كانت الدولة مستقلة وكان زمن ذروة المجد والقوة والسيطرة قصيراً للغاية وكان الصعود السياسي الذي وصل إلى قمته أثناء حكم سليمان آخذاً في الانحسار والتدهور السريع، وقد بدأ ذلك الانحسار والتدهور في أواخر حكمه.

وكان هناك ثلاثة مناوئون لحكم سليمان، وقد بدأوا بعد ذلك في شق

مملكتـه شـقـاً. كـان أولهم (٢) حَدَد الأيـدومـى (٣) فـفى عـصـر داود كـان حـدد مـازال أمـيـراً صـغـيـراً من الأسـرة المالكة فى إيدوم وقـد هـرب مـن إدوم إلى مـصـر حـين غـزا الإسـرائيليـون بلاده، وفى مـصـر تزوج مـن الأسـرة المالكة المصرية، وعندما مـات داود عاد حدد إلى بلاده، وعندما أنشأ سليمان مـيناء عصيـون - جابر كانت أرض إدوم مـازالت هـادئة بلا مـشاكل تذكر. ثم نجح حدد بعد ذلك فى تحريك القبائل فى منطقته، مـحولا إياها إلى منطقة عدم استقرار، وبعلاقة النسب التى تربطه بالأسرة الحاكمة فى مصر لقى دعماً وتأييداً من حامل التاج المزدوج، فرعون مصر.

كـان المناوئ الثـانى لحكم سليـمـان هـو ريـزون الذى هـرب مـن مملكة (٢) حداد عزار، ملك صوبة، وأصبح زعـيـمـاً لمجمـوعـة من القبائل ثم غـزا دمـشق وحكمها.

وهكذا أصبح أحفاد إمـبـراطـورية العـمـاليق أى الجـزيرة العـربيـة (إيدوم) وسـوريا (آرام) مستقلين عن مملكة بيت داود. وحتى أرض الأسـبـاط الإثنى عـشـر أى مملكة يهـوذا ذاتهـا مـا لبـثت أن انقـسـمـت علـى نفـسـهـا بمجـرد أن أغمض سليمان عينيه الإغماضة الأخيرة.

وكـان المناوئ الثـالث هـو يـربعـام بن نـابـاط الأفـرايمـى وهـو مـن خـدم سليـمـان، وكان سليـمـان قد جعله قـائما على نفقات بيت يـوسف، وأضـمـر يربعـام فى نفسـه أن يجعل أرض إبراهيم مـسـتـقلة، وحـين أحس سليـمـان ببذور المؤامرة فى الوقت المناسب فكر فى قتل يربعام.

سفر الملوك الأول "١١: ٤٠" وطلب سليمان قتل يربعام وهرب إلى مصر إلى شيشق ملك مصر، وكان فى مصر إلى وفاة سليمان.

وحـين مـات سليـمـان مـخلفاً ابنـه رحـبـعـام على عـرش بيت داود، كـان المتآمرون المدعومون من ملك مصر مستعدين للانقضاض.

"سفر الملوك الأول ١٢: ٣ - ٤" : "وأرسلوا (مؤيدوه) فدعوه. فأتى يربعام من مـصـر وكل جـمـاعـة إسـرائيل، وكلمـوا رحـبـعـام قـائلين: إن أباك قـسى نيـرنا"... وانتـهت المفاوضات بين الشـعب اليـهـودى والملك رحـبـعـام حـين طلبوا منه أن يخفف قبضته عليهم، حيث كانت قبضة أبيه الملك سليمان شديدة الوطأة عليهم - انتهت المفاوضات برفض رحبعام لهذا الطلب، بل وتهديده للشعب أنه سيزيد من شدته أكثر مما فعل أبوه سليمان فأصدر

الشعب اعلاناً "أى قسم لنا فى داود؟ إلى خيامك يا إسرائيل، وذهب إسرائيل إلى خيامهم".

ولم يبق على إخلاصه لرحبعام إلا سبطان من أسباط اليهود هما سبط يهوذا وسبط بنيامين، وانفصل عشرة أسباط تحت قيادة يربعام مكونين دولة إسرائيل فى الشمال. ثم أرسل الملك رحبعام تابعه إدورام المكلف بجمع الضرائب "فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة، فمات" (سفر الملوك الأول ١٢: ١٨) "فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم" (الملوك الأول ١٢: ١٩) فجمع رحبعام مقاتلى يهوذا وبنيامين ليقاتلوا إسرائيل التى انفصلت واستقلت بنفسها، ليوحد الدولة من جديد، ولكن شمعيا النبى، طلب من كل رجل أن يرجع إلى بيته، وألا يقاتلوا إخوتهم بنى إسرائيل (سفر أخبار الأيام الثانى ١١: ٢ – ٤). بنى يربعام مدينة شكيم فى جبل إبراهيم وسكن بها، ثم بنى مدينة فنوئيل ليمنع الناس من الذهاب إلى أورشليم للعبادة، وأقام صور لآلهة أجنبية فى بيت –أيل، وفى دان (سفر الملوك الأول ١٢: ٢٨ – ٢٩) وكان الموضعان السابقان مقدسين للإسرائيليين قبل ذلك بفترة طويلة، حتى قبل غزو داود لأورشليم.

وهكذا أدخل يربعام إلى المملكة الشمالية (إسرائيل) عبادة جديدة هى عبادة العجول، والتى ربما كانت ذات علاقة بعبادة المصريين لعجل أبيس، وتلقى يربعام دعماً سياسياً من فرعون مصر القوى حتى يحافظ على انفصال إسرائيل عن يهوذا. وعلى أية حال من الأحوال فقد كان يربعام ملك إسرائيل عميلاً سياسياً وتابعاً فكرياً لفرعون مصر، ويقول النبى شمعيا إنه كان قادراً على سماع وقع خطوات سيد يربعام (ملك مصر) آتية من خلفه، وكان انفصال يهوذا وإسرائيل والصراع الذى نشب بينهما، متفقاً تماماً مع خطط تحتمس الثالث. إن قصص تحتمس الثالث بعد أن سجلت تاريخ أول غزوة عسكرية منتصرة لتوسيع حدود مصر تقول: قصص جدار الكرنك: والآن فإن الآسيويين قد وقعوا فى خلاف جعل كل رجل يقاتل جاره (٥).

إن الانتصار على عدو أنهكته الحروب الداخلية لا يعد نصراً كبيراً، فماذا إذاً تحكى تلك القصص عن الحروب الداخلية فى بلاد الأعداء؟ لأن تلك الحروب الداخلية كانت من إعداد وتخطيط الملك تحتمس الثالث نفسه الذى

أخذ يمهد لضربته ببث الفرقة أولا بين أعدائه، وتأليب فريق على آخر وبالرغم من ذلك فهذه الحروب الداخلية لم تقلل من انتصاره، ولا من حقه فى وضع أكاليل الغار على رأسه (٦).

شعر رحبعام بالخطر فاندفع إلى تسوير المدن، فبالإضافة إلى المدن التى حصنت فى عهد أبيه سليمان، وجده داود، قام بتسوير بيت لحم، وأتيام، وتيكوا وبيت زور، وسوكو وعدد لام، وجات، ومريشة، عدا نقاط حصينة أخرى (٧).

ومرت أربعة أعوام بعد موت سليمان، وأصبح فرعون مصر بالفعل فى طريقه إلى الشمال.

تحتمس الثالث يغزو فلسطين

تقدم تحتمس الثالث باتجاه مصب الفرع الشرقى للنيل، وفى تسعة أيام عبر شبه جزيرة سيناء حتى وصل إلى غزة سالكا الطريق الحربى القديم (٨) وعلى الأرض الواطئة لساحل البحر، عقد اجتماعاً حربياً مع قادة جيشه، قرروا بعده الاتجاه إلى الممر الضيق مجدو (ميكتى). وكانت مجدو واحدة من مدن الأقاليم الرئيسية، التابعة لسليمان (سفر الملوك الأول ٤: ١٢). وقد ذكرت مجدو مع تعنك كمقر لحاكم المنطقة، وكانت مجدو مدينة حصينة تسد الممر من جنوب الكرمل حتى وادى جزريل .. وفى الاجتماع العسكرى الذى عقده تحتمس مع جيشه قال لهم:

إن عدوكم الدنئ رئيس قادش قد أتى بنفسه ودخل مجدو وهو هناك فى هذه اللحظة (٩).

فمن هو رئيس أو ملك قادش الذى أتى للدفاع عن بلاده وقلاعه؟ لم يسمَ بالاسم فى النص المصرى .. وأين كانت قادش هذه؟

إن أحداث الأيام التى تلت ذلك، ستمر بكل ما حملت من أحداث جسام، وسيظل التساؤل عن ملك قادش وموقع قادش كما هو.

كان الجناح الجنوبى للجيش المصرى يمتد حتى مدينة تعنك واجتازت الجيوش مدينة عريونا ووصلت إلى ضفة غدير فانا، وأمر الملك جيشه بالاستعداد:

«جهزوا أسلحتكم سنتقدم لقتال ذلك العدو الدنئ فى الصباح»

واستراح الملك فى خيمته الملكية وجال المراقبون بين وحدات الجيش قائلين:

«ثبتوا قلوبكم .. ثبتوا قلوبكم، وانتبهوا وخذوا حذركم».

وفى الصباح الباكر صدر الأمر للجيش كله بالهجوم (١٠).

تقدم الملك على عجلة حربية مصنوعة من سبائك الذهب والفضة، فى مركز القلب من جيشه، الذى انتشر بأحد أجنحته على ضفة غدير قانا والجناح الآخر فى شمال مجدو.

وانتصر الجيش المصرى: «حين رأوا سموه متفوقاً عليهم هربوا لاجئين إلى مجدو، يسيطر عليهم الرعب، الفزع، تاركين خيولهم وعجلاتهم المصنوعة أيضاً من الذهب والفضة».

«والآن ... إن لم يكن جيش سموه لم يوجه كل اهتمامه إلى جمع الغنائم التى خلفها العدو كانوا (قد استولوا على) مجدو (ميكتى) فى ذات اللحظة، حين انسحب العدو الدنئ ملك قادش (كدش) ومن معه من مدينة مجدو فى سرعة .. إن الخوف من جلالته قد سكن قلوبهم» (١١).

إن التفسير السابق قد سجل لإيجاد عذر لهرب ملك قادش دون أن يؤسر "إن الجيش المنتصر لصاحب السمو الملكى أحصى الغنائم .. ثم احتفل الجيش كله بالانتصار" (١٢).

ثم بدأ حصار مجدو. وبالرغم من تحصين المدينة داخل أسوار خارجية قوية، إلا أنها لم تصمد طويلا ضد الحصار المضروب عليها، من جيش الفرعون، فاستسلمت. "انظروا إن زعماء هذا البلد أتوا مستسلمين ومتخليين عن ممتلكاتهم".

واستولى الجيش المصرى على ثلاث مدن أخرى، وفى القصص المذكورة فى التاريخ المصرى فإن نهاية الحملة لم يأت لها ذكر. ولكن من الممكن إعادة ترتيبها ... إن نتائج تلك الحملة الأولى تمخضت عن غزو كل المدن الحصينة التى ذكرت فى جميع القصص الدينية المسجلة، كما نتج عن تلك الحملة. اخضاع كل الأراضى التابعة لمائة وتسع عشرة مدينة، على رأسها مدينة قادش والأولى فى القائمة، ويبدو ذلك فى رسوم معبد الكرنك. وكانت الغنائم الوفيرة من الآنية النفيسة مسجلة أيضاً على جداريات معبد

الكرنك.

وبقيت التساؤلات الحائرة كما هى .. فأين كانت مدينة قادش؟ ومن كان ملك قادش هذا؟ وكيف يمكن الوصول إلى هذه المدينة المجهولة الموقع؟

واللغز الآخر الذى حير الباحثين هو كيف غاب اسم مدينة أورشليم أو ساليم أو جيبوسى كما كان يطلق عليها قبل ذلك، من أكمل قائمة تحتوى أسماء مدن فلسطين المسجلة على جدران معبد الكرنك؟ تلك القائمة التى احتوت على أسماء كل المدن المهمة فى فلسطين ما قبل الإسرائيليين.

واللغز الثالث هو شكل الغنائم والآنية التى غنمها الجيش المصرى فى تلك الحملة والتى تبدو فى شكل متقن الصناعة وعلى درجة فائقة من الجمال والفن الرفيع. وكان من المدهش أن يوجد بين شعوب غير متحضرة فى عصر الكنعانيين فنانون على هذه الدرجة الفائقة من المهارة.

وعلى ضوء النقوش المسجلة على جدران معبد الكرنك، اعتقد الباحثون أن الكنعانيين كانوا متفوقين فى تشكيل المعادن، وأن أورشليم نجت من مصير بقية المدن التى استولى عليها جيش مصر ولكن يبقى تحديد موقع قادش موضوعاً للبحث العلمى.

لقد جاء ملك قادش إلى مجدو للدفاع عنها ضد جيش مصر، ولكن سقطت المدينة الحصينة، ونجح ملك قادش فى الهرب ولم يقع فى الأسر. ولكن فى نفس الحملة سقطت مدينته الرئيسية قادش هى الأخرى.

قادش فى يهوذا

إن المؤرخين يدعون معرفة مدينة واحدة مشهورة تحمل اسم قادس وحددوا موقعها على نهر العاصى بشمال سوريا. ولكن فى القائمة التى سجلها تحتمس الثالث كانت قادش تحتل رأس القائمة التى تحتوى على أسماء مائة وتسع عشرة مدينة فلسطينية (لا سورية). وتلت قادش مباشرة مدينة مجدو مع مشهد المعركة، ثم أسماء مائة وسبع عشرة مدينة أخرى. ولا يمكن أن تكون قادش المذكورة فى تلك القائمة مدينة فى سوريا بأى حال، لأن تحتمس فى حملة فلسطين هذه لم يصل إلى نهر العاصى بسوريا، كانت هناك مدن أخرى تحمل اسم قادش، مثل قادش جاليلى،

وقادش نفتالى وقد ذكرت عدة مرات فى الكتاب المقدس، وقد كانت مدناً صغيرة أقرب إلى القرى ولكن ما الهدف من وضع مدن لا أهمية لها على رأس القائمة وقبل مجدو؟

طبقاً لأحد الافتراضات فإن المدينة المعنية هى قادش نفتالى (١٣) وطبقاً لافتراض آخر كانت المدينة المعنية هى قادس نهر العاصى بسوريا. وكل افتراض منهم يعوزه تفسير سبب ذكر مدينة فى سوريا لم يصل إليها تحتمس، أو سبب ذكر مدينة لا قيمة لها فى فلسطين على رأس قائمة المدن الفلسطينية، فى حين يتوقع أى امرئ أن يجد عاصمة البلاد على رأس القائمة (١٤).

ثم برز بعد ذلك افتراض جديد، وهو أن أول اسم فى قائمة مدن فلسطينية لا ينتمى إلى القائمة الأصلية وأنه تمت إضافته بعد ذلك (١٥). وهو افتراض غير محتمل، فمن الصعب تزوير النسخ الثلاث للقائمة، وقيل أيضاً ربما كانت قادش الجليل هى المعنية ولكن من قام بنقش القائمة ظنها قادش التى تقع على نهر العاصى وذكر أنها قادش الجليل، ونتيجة لذلك الخطأ وضعت على رأس القائمة (١٦).

لقيت كل تلك النظريات السابقة معارضة قوية، لأن القائمة قد وضعت مباشرة بعد العودة من الحملة على فلسطين وقبل الحملة على سوريا. وفى ذلك الوقت لم يكن هناك أى سبب يدعو للخلط بين المدن (١٧). ولا يوجد شك فى أن القائمة قد وضعت بمعرفة تحتمس الثالث شخصياً وتمت مراجعتها عن طريق كبار رجال الدولة.

إن تاريخ مملكة يهوذا المتزامن مع تلك الأحداث قد سجل باختصار ووضوح ما يلى:

سفر أخبار الأيام الثانى ١٢: ٢ - ٤ "وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر على أورشليم لأنهم خانوا الرب بألف ومائتى مركبة وستين ألف فارس، ولم يكن هناك عدد للشعوب الذين جاءوا معه من مصر، لوبيين (ليبيين) وسكيين وكوشيين (أحباش) وأخذ المدن الحصينة التى ليهوذا وأتى إلى أورشليم".

إن غزو المدن الحصينة قد وصف فى قصص حرب تحتمس الثالث ومسجل على جدران المعابد وبعد الاستيلاء على المدن كانت المرحلة التالية

هى التحرك باتجاه العاصمة.

وبما أن أورشليم كانت هى عاصمة البلاد، فإن ما تحرك فرعون مصر باتجاهه هى أورشليم وهى ما سجلت فى القائمة المصرية باسم قادش، وفى ذلك رد على التساؤلين السابقين، وهما لماذا لم توضع أورشليم ضمن قائمة تحتمس الثالث، والثانى وهو عن مكان مدينة قادش عاصمة البلاد؟

هل سميت أورشليم فى أية مصادر أخرى باسم قادش؟

فى مواضع عديدة من التوراة أطلق على أورشليم اسم قادش ..

"وأما بنت فرعون فأصعدها سليمان من مدينة داود إلى البيت الذى بناه لها، لأنه قال لا تسكن امرأة فى بيت داود ملك إسرائيل لأن الأماكن التى دخل إليها تابوت الرب إنما هى مقدسة (قادش) " (١٨).

وفى المزامير يقول الرب "أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى" (١٩). ونادى يوئيل على الناس "أضربوا بالبوق فى صهيون صوتوا فى جبل قدسى" (٢٠). وقال أيضاً "فتعرفون أنى أنا الرب إلهكم ساكناً فى صهيون جبل قدسى، وتكون أورشليم مقدسة "ولا يجتاز فيها الأعاجم فيما بعد" (٢١). وقال أشعياء لشعب أورشليم يقول الرب "وأنا أجازى أعمالهم وأفكارهم، حدث لجمع كل الأمم والألسنه فيأتون ويرون مجدى، ويحضرون إخوتكم من كل الأمم ... إلى جبل قدسى أورشليم" (٢٢).

ودعا دانيال الرب قائلا "يا سيد حسب كل رحمتك أصرف سخطك وغضبك عن مدينتك أورشليم جبل قدسك" (٢٣) و"مدينتك المقدسة" (٢٤) وكتب نحميا "وألقى سائر الشعب قرعاً ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى فى أورشليم مدينة القدس" (٢٥) إن أسماء مثل الأرض المقدسة و "المدينة المقدسة" هى أسماء خصت بها فلسطين ومدينة أورشليم من عصور مبكرة ولم تقتصر هذه الأسماء على الكتاب المقدس فقط .. لقد تعرضت أسماء أصغر القرى العربية فى فلسطين للبحث الدقيق من باحثى ودارسى التوراة فى محاولات مكثفة لتحديد مواقع المدن القديمة، أما الإسم العربى لمدينة أورشليم فقد سهى عنه الكثيرون .. إنه القدس (*)

إن قادش التى جاءت على رأس قائمة مدن فلسطين هى أورشليم،

(*) كل النصوص المذكورة هنا عن كلمة قادس وردت فى الترجمة العربية للتوراة باسم قدس (المترجم).

وكان العدو الدنئ الذى سبق ذكره على لسان فرعون مصر هو ملك قادش رحبعام ابن سليمان، وكان من بين المائة وتسع وعشرة مدينة العديد من المدن لم يجرؤ الباحثون على تعريفها أو إلقاء الضوء عليها فقد كانت مدناً بناها الاسرائيليون بعد أن استقروا فى أرض كنعان، ونسبت التحف التى غنمها فرعون مصر إلى غير أهلها وإلى شعب لا تمت إليه ولا يمت إليها بصلة.

إن المدن الحصينة التى أعاد رحبعام تقويتها (سفر أخبار الأيام الثانى ١١: ٥) ربما تكون مذكورة فى القائمة المصرية. (٢٦) ويبدو أن إيتام هى أتم فى القائمة المصرية، وبيت زور هى بت – سير، وسوكوه هى سك (٢٧) ويعد ذلك مجالا جديداً للباحثين يجب أن يدلوا فيه بدلوهم أى مقارنة أسماء المدن الفلسطينية التى وردت فى قائمة تحتمس الثالث بأسماء مدن مملكة يهوذا التى ذكرت فى الكتاب المقدس. وأنا متأكد أن هذا العمل ستكون له نتائج ذات دلالة واضحة.

فى نهاية الجزء السابق تركنا تحتمس الثالث تحت أسوار مدينة قادش – أورشليم، بعد أن سقطت المدن الحصينة الواقعة غرب أورشليم. وكانت أقواها جميعاً وحاول ملك أورشليم الدفاع عنها إلا أنها سقطت أيضاً وفتحت أبوابها للمصريين بعد أن فر ملك أورشليم وأتباعه إليها.

(سفر أخبار الأيام الثانى ١٢: ٥) "ورحبعام ورؤساء يهوذا الذين اجتمعوا فى أورشليم من وجه شيشق".

كانت الدولة قد انقسمت قبل أعوام قليلة إلى دولتين. وكانت يهوذا التى ضعفت من النبى شمعيا الذى حذر الناس قبل ذلك بأربعة أعوام من خطر اشتباكهم فى حرب أهلية قد جاء إلى الملك وأمراء يهوذا بنذير من الرب الذى نسيه أهل أورشليم. وخجل الملك والأمراء من أفعالهم وقال الملك كلام الرب هو الحق. ثم جاء شمعيا برسالة أخرى:

"سفر أخبار الأيام الثانى ١٢: ٧" قد تذللوا فلا أهلكهم، بل أعطيهم قليلا من النجاة ولا ينصب غضبى على أورشليم بيد شيشق. ولكنهم يكونون له عبيداً.

ولأنهم لم يرغبوا أن يكونوا خدماً مخلصين للرب، فإنهم سيصبحون خدماً فى مملكة دنيوية. هذا ما قاله الرب للنبى شمعيا. وكان الملك المصرى

وجيشه قد أدوا صلاة الشكر فى مجدو للإله آمون الذى وهب ابنه الفرعون هذا النصر. ومن المؤكد أنهم أعادوا هذه الصلوات مرة أخرى عند أسوار أورشليم.

بعد سقوط المدن الحصينة ذات الأسوار فى مملكة يهوذا، فتحت أورشليم أبوابها دون أية مقاومة "حيث أذل ملك إسرائيل وأمراؤها أنفسهم" و "لم يهلكوا" و لم يسقط نذير الرب على أورشليم بيد شيشق فالمدينة لم يتم اجتياحها .. ولكنها استسلمت.

ولا يوجد أى سجل أو أثر يتحدث عن استيلاء جيش تحتمس الثالث على أورشليم بالقوة، ولكن قادش فلسطين سقطت فى أيدى تحتمس الثالث بلا مقاومة كثمرة ناضجة. وتصدر اسمها قائمة المدن الفلسطينية التى قهرها الفرعون، وسجل تحتمس الثالث على آثاره تذلل أمراء يهوذا بعد سقوط مجدو، قائلا:

"انظروا إلى أمراء هذا البلد الذين جاءوا مستسلمين ومقدمين ما يملكون، ومظهرين الطاعة والخنوع بسبب شهرتى. إنهم يلتمسون أنفاس الحياة لأنوفهم من عظمة قوتى وشهرتى القادرة" (٢٨).

إن "عظمة قوته" مذكورة أيضاً فى النسخة العبرية عن المعركة حيث ذكرت التوراة أن جيش الفرعون جاء بـ "إثنتى عشرة ألف مركبة وستين ألف فارس وشعوب بلا عدد تبعته من مصر، منهم ليبيون وسكيون وأثيوبيون".

لقد أذل الرب أورشليم التى أقامت نصباً لآلهة المصريين والصيداويين وآلهة أخرى على التلال المحيطة بأورشليم. وكان ذلك الإله برأس الصقر مستعداً للاستيلاء على روائع وكنوز معبد سليمان، وكل ما به ويمكن نقله من نفائس.

"سفر أخبار الأيام الثانى ١٢: ٩ :فصعد شيشق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ تروس الذهب التى عملها سليمان".

العجيب أنهم أيضاً استولوا على تابوت العهد على قدمه وعدم احتوائه على معادن ذات قيمة، وهو من بقايا عهد التيه فى البرية، مع لوحات الوصايا .. فهل كانت مصر تنقصها الآثار ؟

آنية وأثاث هيكل سليمان

إن الكنوز التى جلبها تحتمس الثالث منقوشة على أحد حوائط معبد الكرنك. وتعرض النقوش فى عشرة صفوف الثروة الخيالية التى كانت لسليمان. وهناك صور لأشياء نفيسة مختلفة من أثاثات وآنية وأدوات مائدة من هيكل سليمان ومن القصر، ربما أيضاً من معابد الآلهة الأجنبية فى أورشليم. وتحت كل قطعة هناك رمز عددى للدلالة على كمية القطع التى غنمت من ذلك الصنف والتى أحضرها ملك مصر من فلسطين، كل خط يعنى قطعة واحدة وكل قوس يعنى عشرة قطع وكل خط حلزونى يعنى مائة قطعة. ولو كان تحتمس الثالث قد عرض كل غنائمه من هيكل سليمان ومن قصر أورشليم، بعرض كل قطعة منفردة بدلا من استخدام الأرقام، لاستلزم الأمر جداراً يزيد طوله عن ميل، ولم يكن حتى ليكفى .. إن الخمسة الصفوف العليا تعرض القطع المصنوعة من الذهب، والصفوف التى تليها تعرض القطع الفضية المطعمة بالذهب والأحجار الكريمة، أما الأشياء المصنوعة من البرونز والأحجار شبه الكريمة فقد احتلت الصفوف السفلى.

إن الثروة التى جمعتها أمة تراكمت على مدى مئات السنين من العمل الشاق والحياة الآمنة على أرض فلسطين، ثم الغنائم التى جمعها شاؤل وداود فى الحروب التى خاضوها وغزواتهما العسكرية، وغنائم حواريس عاصمة العماليق، وأرباح التجارة بين آسيا وأفريقيا، والذهب المجلوب من بلاد أوفير، وهدايا ملكة سبأ حتشبسوت كلها تحولت إلى غنائم لتحتمس الثالث. حتى أعمال وأشغال حيرام الفنية الذى ينتمى إلى نفتالى معروضة هى الأخرى على جدار معبد الكرنك. كان حيرام ورجاله فنانين مهرة، وزودهم الملك سليمان بسخاء بكل ما طلبوه من معادن ثمينة وأحجار كريمة ومن المحتم أن العينات المرسومة على جدار معبد الكرنك تظهر براعة حيرام، الفنان الملكى، حيث ذكر فى سفر الملوك الأول ما يلى:

سفر الملوك الأول ٧: ٥١ "وأدخل سليمان أقداس داود أبيه. الفضة والذهب والآنية وجعلها فى خزائن بيت الرب". ومن المحتمل أيضاً أن تكون بعض تلك الأقداس، مثل مذبح النحاس الذى صنعه بصلئيل بن أورى (٣٠)،

من بين المعروضات على جدار الكرنك. إن التعرف المتأنى والدقيق لنقوش الغنائم على جدار معبد الكرنك، وتلك التى ذكرت فى سفرى الملوك وأخبار الأيام الثانى، تعتبر موضوعاً جيداً لدراسة مطولة، ومن الأفضل أن تتم الاستعانة بقوالب مأخوذة عن الأشكال المنقوشة على جدار الكرنك.

إن الأمثال التى أسوقها هنا ليست قوائم مكتملة ونهائية، ولكنها مجرد ذكر تقريبى لبيان نوعية غنائم تحتمس الثالث التى حملها من أورشليم فى عهد رحبعام بن سليمان كان الجل الأغلب من الغنائم يتكون من أقداس دينية سلبت من الهيكل، فقد كان هناك مذابح للقرابين والتقدمات، وأوان للعطور، وطاولات للأضاحى، وآنية للتقدمات من السوائل، وأوعية للزيت المقدس، وطاولات لخبز التناول، وما شابه ذلك بأعداد كبيرة، ولا شك أنه كان هيكلاً غنياً ذلك الذى نهبه تحتمس الثالث.

إن الغنائم التى استولى عليها شيشق من أورشليم، كانت كنوز هيكل سليمان وقصر الملك (سفر أخبار الأيام الثانى ١٢: ٩).

وفى نقوش معبد الكرنك، يرى تحتمس الثالث وهو يقدم بعض الهدايا إلى الآله آمون، كانت الهدايا جزءاً من الغنائم، التى أهدى بعضها أيضاً إلى معبد الإله آمون، والبعض الآخر إلى كهنة المعابد. والصورة لا تبين بالطبع كل الغنائم فقد اختار تحتمس الثالث للمعبد المصرى ما استولى عليه من المعبد الأجنبى. وتلك المجموعة من الأعمال المتقنة، يجب أن تقارن بتلك الأعمال الفنية المذكورة فى سفرى الملوك وأخبار الأيام، وفى وصف الهيكل ومحتوياته.

ونجد نقوشاً أخرى على حوائط مقبرة وزير تحتمس، تبين تلك الكنوز أثناء نقلها من فلسطين إلى مصر، وعدا الأعمال الفنية البارعة والمشهورة فى مشهد تحتمس وهو يقدمها للإله آمون، فهناك أشياء أخرى من الواضح أنها من قصر أورشليم، قد تم تسليمها إلى قصر الفرعون، كما تم توزيع بعضها على منازل المقربين إليه.

لقد احتفظت أسفار الكتاب المقدس بسجل كامل للأثاث والآنية التى كانت موجودة بالهيكل فقط، ومن حسن الحظ أن فصل الغنائم المقدسة عن بقية الغنائم، والواضحة فى مشهد تقديم تحتمس الثالث لتلك المقدسات إلى الإله آمون، قد يساعد كثيراً فى التعرف عليها بسهولة حين تقارن بما

ذكر فى أسفار التوراة.

وسنقارن بإيجاز بين المعادن المستخدمة، والشكل الفنى، فى كل من المصدرين العبرى والفرعونى. إن المواد التى صنعت منها تلك الغنائم فى نقوش معبد الكرنك كانت فى الأغلب مصنوعة من ثلاثة معادن مختلفة، ترجمت عن الفرعونية بأنها من الذهب، والفضة، والبرونز. وكانت الغنائم من هيكل سليمان من الذهب والفضة والبرونز (النحاس) وكذلك الأعمال الفنية الدقيقة فقد كانت أيضاً من كل هذه المعادن.

وفى الغالب كانت كل قطعة من الذهب على جدار الكرنك، توجد لها قطعة مماثلة فى الشكل من النحاس. ونجد أن تشكيل كل قطعة من نسختين، ذهبية، ونحاسية مذكور مراراً فى سفرى الملوك، وأخبار الأيام.

وحين كان يستخدم الذهب فى صناعة آنية وأثاث هيكل سليمان، فإنه إما كان يستخدم على شكل كتل من الذهب، أو على شكل ذهب مطروق ومفرود على خشب (٣٢) وصور الأشياء الموجودة على جدار الكرنك موصوفة بأنها من الذهب أو مغطاة بالذهب وفى الفترة التى لم تكن فيها إسرائيل تملك مكاناً ثابتاً للعبادة، كان هيكل الرب والمقدسات الأخرى تنقل معهم من مكان إلى آخر، وأحياناً ما كانوا يأخذونها أثناء خوض المعارك ولتسهيل نقلها فإن أثاث الهيكل المؤقت صنع بحلقات معدنية (٣٣)، مع قضبان للحمل .. وقد وضعت كل تلك المقدسات القديمة فى هيكل سليمان بعد بنائه (٣٤). وقد سلب ملك مصر وجيشه كل ذلك فى عهد ابن سليمان، ولكن هيكل الرب لم يؤخذ، ظل فى مكانه فى معبد سليمان حتى زمن النفى إلى بابل (٣٥). وقد كان نموذجاً للمقدسات المتنقلة الأخرى والتى استخدمت فى معابد بيت - أيل وصالح، وبعد ذلك فى أورشليم. وفى الصف الثانى والسابع من نقوش الكرنك تبدو الصناديق ذات السطح المقوس بحلقات فى أركانها، ومعها قضبان حملها.

وتاج من الذهب من عهد مملكة يهوذا القديم، كان يستعمل كزينة على طاولة مقدسة بجوار المذبح (٣٦)، مرسوم أيضاً على جدار الكرنك فى الصف الثانى مع مذبح ذهب، ونسخة أخرى من النحاس فى الصف التاسع.

وكانت وحدة النقوش المفضلة كزينة على الآنية، هى زهرة اللوتس.

وهى وحدة متكررة على الآنية المعروضة على جدار الكرنك، وزهرة اللوتس منقوشة مرة بالذهب ومرة بالفضة، ومرة مرصعة بأحجار ملونة .. والحافة المزينة بزهرة اللوتس بادية على كثير من الآنية ضمن الغنائم وحواف تلك الآنية غير عادية، ولم تذكر إلا فى وصف التوراة وفى نقوش تحتمس الثالث عن الغنائم (٣٧).

وهناك أيضاً براعم نباتية بين زهور (البراعم والزهور) (٣٨)، استعملت أيضا كحلية على أدوات الهيكل المؤقت، وهذه التوليفة تبدو على زهرية فى الصف السفلى من جدارية الكرنك، وكذلك فى الصف الخامس منها.

ومن بين أشكال الحيوانات، ذكرت التوراة أشكال الأسود والثيران كوحدات زخرفية استخدمت فى هيكل سليمان (سفر الملوك الأول ٧: ٢٩، ٣٦)، وتظهر جداريات الكرنك رؤوس أسود، كما أن هناك رأس ثور من الممكن التعرف عليه على أحد آنية الشراب.

وغالبا ما كانت تصور الآلهة المصرية فى المعابد المصرية فى أوضاع مخجلة، أما الأقداس اليهودية من الغنائم المرسومة على جدار الكرنك فلا يوجد بينها تلك الأشكال الخاصة بعبادة قضيب الذكر وتقديسه، ولا يوجد حتى صور لآلهة على الإطلاق.

هناك أيضاً رؤوس حيوانات (أسود) ورأس صقر منقوشة على أغطية بعض أوانى الشرب، وهذه الأكواب من غنائم قصر سليمان الذى صنعها لزوجته المصرية.

إن تصوير الآلهة والأشكال المصورة كانت ولا تزال تستخدم فى كل العبادات الوثنية ولكن مئات الأقداس التى تظهر على جدار معبد الكرنك، لا يتبين منها أنها من نوعية طقوس عبادة الشكل، ولكنها توحى بعبادة أضاحيها من الحيوانات وتقدماتها من العطور وخبز التقدمة، وكان معبد قادش - أورشليم الذى نهبه تحتمس الثالث غنياً بأدوات مائدة خاصة بالصلاة ولكنها خلت جميعا من أى شكل أو صورة لإله.

ومن الممكن التعرف على القطع قطعة بقطعة من مذبح وآنية هيكل سليمان على حائط الكرنك. وكان هيكل سليمان يحتوى على مذبح من الذهب للتقدمات المحروقة (سفر الملوك ٧: ٨) وسفر أخبار الأيام الثانى ٤:

١٩) وقد كان الوحيد من نوعه، ونجد فى الصف الثانى على جدار معبد الكرنك مذبحاً بنقش تاج يزين حافته، والصورة محطمة جزئياً، ولكن شكل المذبح واضح ومميز ومسجل معه نص يقول «المذبح العظيم» وكان من الذهب أيضاً. وكان هناك مذبح آخر بهيكل سليمان ومصنوع من النحاس مربع الشكل وحجمه كبير جدا (٣٩)، وفى الصف التاسع من نقوش الكرنك هناك مذبح من النحاس وشكله مشابه للمذبح الذهبى ومعه نص يقول «مذبح كبير من النحاس»، وارتفاعه مساو لعرضه، وهى قياسات لا تتناسب مع تلك المذكورة فى سفر أخبار الأيام الثانى والتى ذكرت أن ارتفاعه كان مساوياً لنصف عرضه ولكن فى الإصحاح الأول من سفر أخبار الأيام الثانى، نعرف أنه كان هناك مذبح آخر من النحاس صنعه بصلئيل، وكان من بين أقداس الهيكل فى أورشليم.

ويلى المذبح مائدة خبز التقدمة (سفر الملوك الأول ٧: ٤٨ وسفر أخبار الأيام الثانى ٤: ١٩)، وكان من الواضح أن خبز التقدمة لم يكن من دقيق، بل كان من ذهب أوفضة. وفى سفر الخروج (٤٠) مذكور أن خبز التقدمة صنعه بصلئيل الذى كان صائغاً للذهب. وخبز التقدمة مصور على جدار الكرنك على شكل قمع موجود فى الصف السابع ومعه شرح مكتوب يقول: «خبز أبيض»، وكان ذلك الخبز من الفضة، وهناك أيضاً ثلاثون قمعاً أخرى من الذهب وأربعة وعشرون قمعاً من الحجارة الثمينة الملونة وكلها متشابهة فى الشكل مع قمع الفضة وكلها تمثل خبز التقدمة.

كانت الشمعدانات هى وسيلة الإضاءة (أخبار الأيام الثانى ٤: ٢٠) بمسارج مصنوعة على شكل زهور، وصور الشمعدانات تلك موجودة على حائط الكرنك وأحدها يحمل ثلاثة أفرع من اليمين وثلاثة أفرع من اليسار ومسارجها على شكل زهرة اللوتس، وهناك آخر ذو ثمانية أفرع على اليمين وثمانية على اليسار، عدا ذلك الشمعدان الذى صنعه بصلئيل لخيمة الهيكل وهو ذو ثلاثة أفرع على كل جانب (٤١)، ومنقوش عليه وحدات زخرفية من أشجار اللوز وزهورها على أفرعه، والشكل المفضل بعد ذلك كان الشمعدان ذو السبعة أفرع على كل جانب، وهناك أنواع أخرى من الشمعدانات مذكورة بالكتاب المقدس غير التى تحتوى على مسارج. وفى سفر الملوك وصفت الشمعدانات بأنها مزينة بالزهور (سفر الملوك

الأول ٧: ٤٩) وهذا الشكل موجود في الصف الثالث من نقوش الكرنك، وهي لشمعدان على شكل ساق تتفرع منه براعم زهور اللوتس.

ويلي المذبح كما ذكرنا مائدة خبز التقدمة، ثم الشمعدانات على موائد التقدمات.

سفر الخروج ٣٥: ١٣ والمائدة .. وعصويها .. وكل آنيتها.

سفر الخروج ٣٧: ١٦ وصنع الأواني التي على المائدة وصحافها وصحونها وجاماتها وكاساتها التي يسكب بها، من ذهب نقي.

كانت المائدة وأوانيها من ذهب (سفر الملوك الأول ٧: ٤٨)، وعلى جدار الكرنك فإن موائد الأضاحي في الصف الثالث مذكور معها أنها من الذهب، وفي الصف السابع مذكور أنها من فضة، كما أن الأواني مكونة من ثلاثة صحاف مسطحة، وثلاثة فناجين كبيرة، وثلاثة أوان ومغرفة طعام واحدة، كما أن هناك موائد عديدة أخرى من الذهب والفضة والبرونز كلها مصورة على جدار الكرنك.

وكان من بين ممتلكات المعبد «خطاطيف وأدوات» (أخبار الأيام الثاني ٤: ١٦)، وفي الصف الثالث من جدارية الكرنك وبالقرب من مائدة التقدمات في نفس الصف، وفي النهاية اليسرى للصف، هناك خطاطيف ومعاليق وأدوات أخرى، وتبدو الآنية في أغلب الصفوف، ولكنها مركزة أكثر، في الصفين الثاني والسادس وكلها من الذهب الخالص.

وكان موجوداً بهيكل أورشليم مذبح البخور وأدواته وآنية زيت المسح المقدس (سفر الخروج ٣٥: ١٥)، وربما أنه لم يرد ذكر لأوصافها مفصلة في نصوص التوراة لأن العديد من أشكال المذابح المناسبة للبخور من الممكن أن يشملها النص، وهناك آنية تحوي زيتاً مقدساً، ومرسومة على قاعدة مذبح، وعلى الرسم نص يقول «آنية من المرمر مليئة بزيت المسح المقدس للشعائر». ومناضح ذهبية، كانت تستعمل في هيكل سليمان لبث الروائح والعطور أثناء الصلاة (سفر أخبار الأيام الثاني ٤: ٢٢ والملوك الأول ٧: ٥٠) وكلمة مزريقاه بالعبرية تعني نافورة أو إناء يضخ السوائل، وقد ذكر أن نوافير العطر هذه كانت موجودة بمعبد سليمان ومن بين الآنية المرسومة على جدار الكرنك هناك واحدة أو اثنتان منها بشكلها المميز وهي مرسومة في الصف الخامس ولها فوهتان مزينتان برسوم على شكل

حيوانات ومتصلة بالحوض بارتكازها على تماثيل لأسود، ويمتد باتجاه الحيوانات زوجان من العصى، زوج منها على مستوى أعلى من الزوج الثانى، وعلى حافة الإناء تجلس تماثيل لضفادع وقد شاع فى العصر الحديث تصميم هذا الشكل من النوافير وأشكال الضفادع ملائمة لهذا الغرض والأنابيب وأفواه الحيوانات ملائمة لضخ العطر أو الماء، والشكل المجاور لها على معبد الكرنك يبدو أنه لنافورة هو الاخر.

كان سليمان قد صنع مائة حوض من الذهب للهيكل (أخبار الأيام الثانى ٤: ٨)، هناك منها خمسة وتسعون حوضاً من الذهب مرسومة فى الصف السادس، وستة أحواض كبيرة مرسومة متباعدة عن بعضها.

وكانت جدران وأرض هيكل سليمان مغطاة بذهب مطروق نقى محلى بالأحجار الكريمة (أخبار الأيام الثانى ٣: ٥ - ٦، والملوك الأول ٦: ٢٨)، والفرعون الذى لم يترك شيئاً لم يترك أيضاً ذلك الذهب ولا أحجار الحوائط فانتزعها جميعها، وحولوا بعض ذلك الذهب إلى حلىّ، والوصف على الجدار يقول «ذهب وأحجار كريمة مختلفة، صنعها جلالته»، وهناك كميات أخرى من الذهب استولى عليها كانت على شكل قوالب وسلاسل ذهبية وقد ذكر فى التوراة أنها جميعاً كانت من محتويات معبد سليمان (أخبار الأيام الثانى ٣: ١٦). وهناك أيضاً ثلاثة وثلاثون باباً مرسومة فى الصف الأسفل والنقش المصاحب لها يقول إنها من النحاس المطروق.

«سفر أخبار الأيام الثانى ٤: ٩» : وعمل دار الكهنة والدار العظيمة ومصاريع الدار ونقش مصاريعها بنحاس (٤٢).

ومن بين غنائم الفرعون تروس ودروع من الذهب، وهى ثلاثمائة ترس. ومائتا درع من الذهب المطروق لم تكن من أثاث الهيكل، بل كانوا ضمن زينة بيت غابة لبنان (أخبار الأيام الثانى ٩ : ١٥- ١٦) وفى الصف السابع من جدار الكرنك هناك قرص ومعه رقم ثلاثمائة أى ثلاثمائة قطعة من نفس النوع، والمعدن الذى صنعت منه هذه الأقراص غير مذكور، وبعض الغنائم فى ذلك الصف من الفضة، ولكن الشكل التالى له موضح بجواره أنه من الذهب وكان «البحر الأعظم» مصنوعاً من النحاس (الملوك الأول ٧: ٢٣ وأخبار الأيام الثانى ٤: ٢) ولكن لم يستول عليه الفرعون (أخبار الملوك الثانى ٢٥: ١٦) ولكنه كان من بين الغنائم التى استولى عليها نبوزرادان

رئيس قوات نبوخذ نصر الذى استولى على العمودين والبحر الأعظم والقواعد التى صنعها سليمان لبيت الرب (٤٣).

وثوب الحبر الأعظم لم يذكر بين النقوش ولم يكن من غنائم الفرعون وربما لم يأت مع الغنائم بالفعل، ولكنه استولى على ملابس الكهنة الثمينة كغنائم حرب، والصف الرابع يظهر ملابس غالية بصداريها، وقد كانت من نصيب كهنة الإله آمون كهدية من الفرعون.

وفى نقوش جدار معبد الكرنك لدينا معلومات مفصلة وممتازة لأوان وأثاث هيكل سليمان، وهى أكثر تفصيلاً من ذلك النقش الوحيد الموجود على قوس تيتوس فى روما، والذى يظهر بضعة شمعدانات وبعض الآنية المسلوبة من الهيكل الثانى وجلبت إلى عاصمة الرومان بعد ألف عام فقط من نهب المعبد الأول على أيدى المصريين.

المجموعات الحيوانية والنباتية المأخوذة من فلسطين

نجح تحتمس الثالث فى تحقيق مخططاته، فقد قسمت مملكة داود وسليمان، وانحنت مملكة يهوذا أمام الهيمنة المصرية، والقاعدة البحرية فى عصيون - جابر لم تعد تحت سيطرة مملكة يهوذا ورحلات الكشف البحرية للإسرائيليين بصحبة بحارة صور وصيدا لم تتكرر بعد ذلك أبداً.

وأصبحت مجدو التى تتحكم فى الطريق بين أورشليم وصيدا قلعة المصريين الحصينة فى أرض سوريا وفلسطين، وحاول الصيداويون الذين عاونوا حامية مجدو قبل سقوطها فى أيدى المصريين، كمرتزقة، حاولوا بعد سقوطها أن ينقذوا ويحموا استقلال بلادهم، ثم سقطت يافا فى أيدى أحد قادة الجيش المصرى (٤٤) أما أسطول الفينيقيين أو الجزء الأغلب منه، فقد وقع فى أسر تحتمس الثالث بعد ذلك بعدة سنوات.

كانت المملكة الشمالية (إسرائيل) يحكمها ملك كدمية، كان موالياً لملك مصر، ولذلك لم يحتج الأمر معه إلى أية معارك عسكرية، فقد كان يربعام موجوداً بمصر قبل أن يصبح ملكاً على إسرائيل، وكان قد تم تدريبه بمصر

ليلعب هذا الدور، وقد كان من المنطقى أن نتوقع أن تؤدى مملكة إسرائيل فى الشمال الجزية عن طيب خاطر إلى فرعون مصر تحتمس الثالث.

وفى أقل من خمسة أشهر - مائة وثمانية وأربعين يوماً على وجه الدقة - انتهت حملة فلسطين، وفى العام التالى عاد تحتمس الثالث إلى فلسطين فى جوله تفقدية، ولجمع الجزية، كما اتخذ من إحدى فتيات الأسرة الملكية لفلسطين زوجة له (٤٥) وعاد بها إلى مصر مع مجوهرات من الذهب واللازورد وحاشية لها من ثلاثين عبداً، كما جاءت إلى مصر خيول وعربات مبطنة بالذهب الخالص وخلائط الذهب والفضة، وثيران وماشية، وصحون من الذهب لم يمكن وزنها من كثرتها وصحون من الفضة وأبواق من الذهب الموشى باللازورد، وأوانى العطور وأوان النبيذ والعاج والأخشاب الثمينة .. جمع كل الأشياء المترفة والثمينة التى وجدها فى ذلك البلد.

وفى العام التالى رجع الفرعون مرة ثالثة إلى فلسطين لتفقدها، ولكنه هذه المرة زار شمال فلسطين، وفى طريقه أعجبته حدائق يهوذا وبنيامين وإبراهيم وكانت هذه الحدائق غنية بالنباتات ذات الألون والأشكال الجميلة والروائح الفواحة، فنقل النباتات والأشجار وزرعها بمصر، ويذكر أحد النصوص:

«كل النباتات النامية، وكل الزهور الموجودة بأرض الإله والتى وجدها جلالته حين زار الأرض العليا» (٤٦).

وكما ذكر فى نقوش بونت فى معبد حتشبسوت فإن هذه الأراضى كانت تسمى أرض الإله (أو الأرض المقدسة). وبعد الرحلة السلمية لحتشبسوت حين لم تأخذ إلا إحدى وثلاثين شجرة فقط من الأبنوس زرعتها فى أرض مصر، قام جامعو الضرائب الملكية لتحتمس الثالث بنقل كل المجموعات النباتية التى وجدوها بفلسطين، وهذه المجموعات مرسومة على جدار معبد الكرنك، وهى تظهر الأشكال المختلفة والمميزة لنباتات فلسطين من ثمانية وعشرين قرناً ونصف من الزمان. وقد استولوا أيضاً على مجموعات من الحيوانات، ولم تذكر على أى نقش، ولكن أشكال الحيوانات مرسومة بين النباتات على جدار المعبد.

قال جلالته: أقسم بحب رع لى وأقسم بتفضيل أبى آمون لى أن كل

هذه الأشياء قد حدثت فى الواقع.

وبالنظر إلى هذه الصور، نتذكر ما قيل عن سليمان الذى كانت متعته الملكية فى جمع ودراسة النباتات والحيوانات.

سفر الملوك الأول ٤: ٣٣: وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان، إلى الزوفا النابت فى الحائط وتكلم عن البهائم وعن الزواحف وعن السمك.

لقد تعرف علماء النبات (٤٧) على زهرة اللوتس الزرقاء بين النباتات التى جلبها تحتمس الثالث، كما تعرفوا على أشجار الكروم والرمان، ونبات التنين، وأشجار اللوف، والسوسن والأقحوان، ونباتات من فصيلة الباذنجان، ومجموعات مختلفة من أشجار الصنوبر وبعض أنواع البطيخ، وهناك عديد من النباتات لم يمكن التعرف عليها على الإطلاق (٤٨) ومن المؤكد أن عينات كثيرة من النباتات المنقوشة على جدار الكرنك لم تكن من النباتات المحلية التى تنمو فى فلسطين، فكيف نفسر وجودها ضمن النباتات التى جلبها تحتمس الثالث من فلسطين؟

أحد الآراء رأى "أن ثنائية الجانب الجغرافى لأرض فلسطين وأرض الإله من الممكن تفسيرها بأن بعض النباتات كانت قد جلبت من أرض الإله إلى أرض فلسطين ولكن هذا لا يفسر اللغز تماماً. ورأى آخر رأى أن بعض أمراء البلاد القاصية كانوا قد أرسلوا مع رسلهم تلك النباتات كهدايا بينما كانوا فى حملات عسكرية" (٤٩).

والتخمين الثانى يبدو غريباً، فليس من المعتاد أن ترسل بلاد بعيدة نباتات وطيور لمقاتلين فى مسيرتهم للحرب والغزو. أما التخمين الأول فإنه يبين نوع الحدس والمقصود به تجنب الربط بين اسمى فلسطين وأرض الإله.

لقد قيل إن بعض الزهور والنباتات الأخرى لا تنتمى إلى مجموعات الزهور والنباتات التى تنمو بفلسطين، وهناك بعض منها لم يمكن التعرف عليه إطلاقا، وحيث إن أشكال النباتات والزهور قد رسمت بيد خبيرة لفنان ماهر، فقد تم التوصل إلى نتيجة مؤداها أن هذه النباتات كانت نادرة أيام تحتمس الثالث، ولكنها غير موجودة نهائياً فى العصر الحالى فقد انقرضت.

لقد كان لدى سليمان أشجار جلبت على سفنه من بلاد تبعد عن فلسطين إبحار عام كامل ولذلك ليس من العجيب أن يكون من بين غنائم تحتمس الثالث نباتات غريبة على ذلك الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر المتوسط، حتى فى أيام تحتمس الثالث. وهذه النتيجة من الممكن التوصل إليها من نقل تحتمس الثالث لهذه النباتات من فلسطين بعد حملة عسكرية إلى مصر ثم نقشها على حائط معبد الكرنك بعد ذلك، مثلها مثل كنوز الذهب، والفضة، وبالرغم من زراعتها فى أرض فلسطين إلا أنها كانت دخيلة على نباتات البلاد، هذا عدا أنها كانت نباتات نادرة.

وبين النباتات هناك نقوش لحيوانات، ومن أفضل ما بقى منها نقوش الطيور وقد تعرف أحد علماء الحيوان على أنواع عديدة منها من نقوش جدار الكرنك، ولكن بدا له بعضها وكأنه من خيال النحات المصرى (٥٠). لأنها لم تكن معروفة فى الشرق. ونحن نعلم أن سفن ترشيش قد جلبت معها ببغاوات (الملوك الأول ١٠: ٢٢ وأخبار الأيام الثانى ٩: ٢١) وبالتأكيد فإن سليمان لم يقتصر على مجرد نوع واحد من الطيور، وقد نقل فرعون مصر حديقة حيوانات بأكملها مع ما نقله من كنوز هيكله وقصره. واليوم ونحن نتأمل نقوش الدير البحرى والكرنك فإننا نتأمل شعب يهوذا فى أيام سليمان والنباتات التى زرعوها، والحيوانات التى ربوها والأدوات التى استخدموها.

جنوبث .. ملك إيدوم

كانت إيدوم مثل مملكة إسرائيل الشمالية، يحكمها حاكم معين من قبل ملك طيبة. وكان لحدد الأيدومى ابن من شقيقة تحفنيس زوجة أحمس، وكان اسم ذلك الابن، جنوبث.

سفر ملوك الأول ١١: ٢٠ "فولدت له أخت تحفنيس، جنوبث ابنه وفطمته تحفنيس فى وسط بيت فرعون، وكان جنوبث فى بيت فرعون بين أبناء فرعون".

ولقد عاد حدد إلى إيدوم فى عصر سليمان بعد موت يوآب (٥١) ومرت بعد ذلك أربعون سنة أصبح بعدها ابنه جنوبث، ملكاً على إيدوم تحت

هيمنة فرعون مصر.

وكان جنوبث يتنقل بين إيدوم ومصر، ومن المفترض أن جزية تلك البلاد كانت تؤدى إلى فرعون مصر، وحين عاد تحتمس الثالث من إحدى زياراته التفقدية إلى فلسطين وجد فى انتظاره فى مصر رسلا من أرض "جنوباثيا" آتين بالجزية، ولم يكن الأمر يحتاج إلى غزو تلك البلاد لدفعها إلى إرسال الجزية.

"حين وصل جلالته إلى مصر، وجد رسل جنوباثيا، قد حضروا حاملين جزيتهم" (٥٢) وكانت الجزية تتكون من المر، وعبيد سود للخدمة وثيران وعجول مع آنية مليئة بالعاج وخشب الأبنوس وجلود النمور.

فمن كان شعب جنوباثيا هذا؟ كان من الصعب تخمين من هو الشعب الذى كان يحمل ذلك الاسم. ولكن على ضوء اسم ملك إيدوم يتضح أن شعب جنوباثيا هم شعب الملك جنوبث، الملك المعاصر لرحبعام ابن سليمان.

وفى العام السابع من حملة تحتمس الثالث على مجدو وأورشليم، استخدم الفرعون قاعدته الحصينة فى مجدو كقاعدة للإنطلاق إلى غزواته الجديدة، وبمساعدة الأسطول الذى أسره من الصيداويين اتجه شمالا إلى أرفاد.

"وعند عودته إلى مصر، أخذ معه أطفال الأمراء المحليين ليتعلموا فى أحضان مصر ويدينوا لها بالصداقة والولاء حين يعودون ليحلوا محل من يموت من أمراء الجيل المعادى من أمراء سوريا" (٥٣).

«.. انظروا، أطفال الحكام وإخوتهم قدموا ليتربوا فى قلاع مصر الحصينة، والآن حين يموت أى من أولئك الحكام، فإن جلالته سيجعل أحد أولاده فى مكانه» (٥٤).

لقد كانت السياسة نفسها التى اتبعها فرعون مصر فى مسألة حدد الايدومى، سليل العماليق، وابنه جنوبث الايدومى.

الأميره آنو

فى النسخة الإغريقية من التوراة – السبتواجنت – والتى كتبت فى الإسكندرية بمصر فى القرن الثالث قبل الميلاد، جاء فيها أن يربعام المقيم

بمصر، حين سمع عن موت سليمان همس إلى ملك مصر قائلا "دعنى أرحل وأعود إلى بلادى"، وأن سيوزاكيم (شيشق)، زوج يربعام من الأميرة آنو، الأخت الكبرى لزوجته الملكة تيليكمينا، وكانت الأفضل من بنات الملك، وقد ولدت ليربعام ابنه إبيجا (٥٥) وهذه المعلومات ذات أهمية كبيرة، لأنها حددت اسم أخت الملكة.

إن التوراة العبرية الأكثر انتشاراً الآن تخبرنا أن يربعام قد فر خارج البلاد وأنه لجأ إلى شيشق ملك مصر وأنه ظل بمصر حتى مات سليمان. وطبقا للسبتواجنت – النسخة الإغريقية – فإن يربعام قد تزوج من أميرة مصرية مثلما فعل حدد الايدومى قبله بجيل كامل (سفر الملوك الأول ١١: ١٩)

وفى متحف الميتروبوليتان للفنون بنيويورك هناك وعاء من الأوعية الكانوبية يحمل اسم الأميرة آنو (٥٦) وحين وجد الوعاء أرجعه الباحثون من طريقة إعداده إلى عصر تحتمس الثالث. ولا توجد أية مصادر مصرية أو وثائق تحمل أية معلومات عن أميرة مصرية بهذا الاسم. ووجود أميرة مصرية تحمل اسم آنو فى عصر تحتمس الثالث – والفضل يعود إلى المعلومات الموجودة بالسبتواجنت – دعم إضافى للربط بين أسماء شيشق أو سيوزاكيم – طبقا للسبتواجنت – أو تحتمس الثالث وهو الاسم المعروف والأشهر لذلك الفرعون.

الحضارة المذهلة

بالإضافة إلى النقوش التى على جدار الكرنك، هناك عدد آخر من الآثار يبين الثروة التى عاد بها تحتمس الثالث من فلسطين. من بين هذه الآثار مقابر "رخمير" وزير تحتمس الثالث، ومينخ بيرسينيب الكاهن الأعظم من أول طبقة. وعلى جدران مقابرهم هناك صور للآنية والأثاث المنقول من فلسطين فى طريقه إلى مصر، وأيضا عربات من الذهب والفضة كانت من بين غنائم تحتمس وقد وهبت كهدايا للمقربين إليه.

إن الأعمال الفنية المختلفة التى جاءت من فلسطين لاقت تقديراً وترحاباً كثيراً فى العاصمة المصرية، كما جلب الفنانون أنفسهم كأسرى

إلى مصر وعملوا بمهنهم فيها، وعلى جدران مقبرة الوزير نشاهد طارقى النحاس ومسجل مع صورتهم ما يلى:

جُلِب الآسيويون المشتغلون بالنحاس، والذين أسرهم جلالته فى غزوته المنتصرة وفوق صورة لصانعى الصناديق من فلسطين سُجل ما يلى "صنع الأثاث من العاج والأبنوس" وهناك أيضاً صانعو الطوب الذين يعملون فى بناء معبد آمون (٥٨) ومعهم نقش يقول "أسرى جلبهم جلالته لأعمال معبد آمون" ويقف على رأسهم مشرف يصيح فى البنائين "العصا فى يدى فلا تتكاسلوا".

كل ما سبق كان يعد دليلا على أن الكنعانيين سكان فلسطين المحليين كانوا مهرة فى جميع أنواع الفنون، وقد كان الأمر يبدو عجيباً للدارسين الذين قالوا «لقد عرفنا من الغنائم التى جلبت إلى مصر من عربات مغطاة بالفضة المطروقة والذهب المطروق ... إلخ أن أرض سوريا كانت على درجة عظيمة من الرقى فى ذلك الوقت» (٥٩)

ونحن نعلم الآن أن هذه الحضارة العظيمة، والتى نرى نتاجها فى الآثار المصرية، لم تكن حضارة كنعانية بل كانت حضارة إسرائيلية. مع ذلك فإنه من الشائق أن نقرأ عن ذلك الدور الذى أرجعه المؤرخون إلى الكنعانيين فى عملية تطوير الفن المصرى وفى تقدم وصقل نوعية المواطن المصرى ذاته، وهو رأى غير منحاز مثله مثل نقد أعمال فنان يخفى اسمه ويقدم أعماله تحت اسم مستعار.

«فى ذلك العصر (تحتمس الثالث ١٥٠٣ - ١٤٤٩) كانت سورية على درجة عظيمة من التحضر حتى أنها كانت أكثر رقياً من السلالة المصرية الموهوبة». إن الغنائم التى حملت إلى مصر من دروع وعربات مصفحة بالذهب وعربات مصفحة بالفضة هى خير شاهد على تقدم فنى وحضارى كان قادراً أن يعلم مصر، بكل الكنوز الثمينة التى غنمت، مع الفنانين الحرفيين المهرة الذين صنعوها والذين انكبوا مرة أخرى على فنونهم وحرفهم فى وادى النيل، تلك الصناعات والفنون والحرف الى أتقنوها واعتادوا عليها فى بلادهم، قد عملوا كثيراً فى مصر، وأثناء عملهم علموا المصريين. ولقد عمل أولئك الفنانون السوريون باجتهاد وإتقان فى مصر لدرجة أن صناعتهم بدلت ذوق المصريين وارتقت به، وبدأت اللغة المصرية

فى التحول نحو السامية وحتى طريقة الكتابة تطورت تدريجياً إلى طرق أكثر إنسيابية ورقة، وتحت تأثير تدفق الدم الأجنبى فى شرايين الحياة المصرية، تحولت ملامح الشعب الغازى المنتصر إلى ملامح أكثر رقة وأبعد عن الجهامة، ولم تعرف مصر مثل هذه التغييرات النوعية منذ بدأ عهد الملكية وتكوين أول دولة (٦٠).

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أيضاً أن العربات المغطاة بالذهب والفضة المطروقة والتى غنمها تحتمس الثالث من فلسطين تفوق كثيراً الخيال المسجل فى الأغانى ففى "نشيد الإنشاد" والذى يفترض أنه وضع فى فترة متأخرة من حكم سليمان وكان من المعتقد أن الرفاهية والتقدم الباديين فى كلمات النشيد كانا نتيجة لإغراق الشاعر فى الخيال .. يقول النشيد "صنع الملك سليمان لنفسه عربة من أخشاب لبنان وصنع دعاماتها من الفضة وقاعها من الذهب وأجنابها من الأرجون".

وتبين الآثار المصرية أنه فى العام الخامس بعد موت سليمان لم تكن هناك مجرد عربة واحدة من الذهب والفضة، بل كان هناك العديد منها فى أورشليم ومجدو.

وبذلك يجب أن ندع جانباً معلوماتنا المفترضة عن الفن الكنعانى فى القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد ونبدأ فى التوصل إلى بعض المعارف عن الفنون اليهودية فى القرن العاشر قبل الميلاد والتى كان يجهلها تاريخ الفنون جهلاً تاماً.

أرض الإله ... وزبنو (٦١)

يتناول الفصل الحالى غزو فلسطين الذى تم على أيدى تحتمس الثالث، والذى لم يقع فى عصر الكنعانيين كما يذكر التاريخ التقليدى، بل وقع فى عهد ملوك اليهود، وبتحديد أدق، فى العام الخامس من حكم رحبعام ابن سليمان. وقد بينا فى الفصل السابق أن بعثة الملكة حتشبسوت إلى أرض بونت قد حدثت فى زمن الملك سليمان، وأن البلاد التى زارتها كانت هى بلاد يهوذا، ومن المحتمل أنها زارت أيضاً بلاد فينيقيا، وبتعبير آخر، فإننا نفترض أن الملكة حتشبسوت فى رحلتها السلمية، وتحتمس الثالث فى

غزواته العسكرية، قد زارا الدولة نفسها.

لقد وصلنا إلى موضع إما أن نجد أنفسنا محاصرين فيه، أو نجد أنفسنا وقد توصلنا إلى دليل إضافى يثبت أن الملكة حتشبسوت كانت قد ذهبت إلى أرض فلسطين فى رحلتها الشهيرة، وليس إلى شرق أفريقيا.

أليست هذه النقطة مهمة للغاية لكى نوحد ما بين الملكة حتشبسوت وملكة سبأ؟ إن ما افترضناه بأن شعب أرض الإله فى صور معبد حتشبسوت كانوا هم شعب أرض فلسطين، من الممكن إثباته أو نفيه بمقارنة صور معبد حتشبسوت، بأشكال الرجال ذوى الدروع والتروس على جدار معبد الكرنك والذين يرمزون إلى مدن فلسطين التى تم غزوها، فى كلا العملين فإن الفنانين المصريين هم ذاتهم الذين قاموا بعمل النقوش أو على الأقل ينتمون لذات الجيل من الفنانين المصريين. ولقد كانوا متمكنين ومتميزين فى نقش الملامح المميزة لمختلف الأجناس والسلالات، ولا زالت توجد رسومات ونقوش تنتمى لعصور مختلفة ومحفوظة حتى الآن، استطاع الفنان المصرى أن يجمع فيها الملامح المختلفة لأجناس مختلفة، وبنظرة متفتحة إلى شعب أرض الإله و "شعب الجنوب" والجنس المصرى فى نقوش معبد حتشبسوت عن رحلتها إلى بلاد بونت، سنجد أن أولئك الفنانين كانوا يمتلكون درجة عالية من الحس المرهف فى التعبير عن الملامح غير المصرية من الأجناس الأخرى الأجنبية.

والنظرة الفاحصة للنقوش ستكشف أن الأجانب كان لهم نفس الأشكال الجانبية المميزة، ونفس تسريحة الشعر مع نفس الشريط الذى يعقصون به شعورهم من الخلف، ونفس اللحى الطويلة التى تبدو امتداداً لبروز الذقن، كل ذلك يؤكد أنهم كانوا نفس الشعب ونفس الجنس الواحد الذى ينتمى إليه هؤلاء المصورون فى نقوش بونت فى معبد حتشبسوت وأولئك المصورون على جدار الكرنك فى عهد تحتمس الثالث.

ولكن قد نتساءل... لو كان تحتمس الثالث قد ذهب غازياً إلى نفس البلاد التى ذهبت إليها حتشبسوت قبله بعقدين أو بثلاثة عقود من الزمن، فلماذا لم يسم تلك البلاد التى غزاها بنفس الأسماء التى ذكرتها حتشبسوت، أى أرض الإله وبونت بدلا من تسميتها "رزينيو" ؟

كان تحتمس الثالث يعود إلى فلسطين عاماً بعد عام ليتفقد البلاد

ويجمع الجزية (سفر أخبار الأيام الثانى ١١: ٨ ... سيكونون له عبيداً) وبعد ثلاثة أعوام من غزو مجدو وقادش والمدن الأخرى، نقش على جدار الكرنك صورا لأشجار ونباتات أحضرها من فلسطين، ومع النقش كتب "نباتات وجدها جلالته فى أرض رتينيو، مع كل النباتات التى تنمو وكل الزهور الموجودة فى أرض الإله والتى وجدها جلالته حين تقدم إلى رتينيو العليا" (٦٢) والجملة السابقة جعلت الذى ترجم النص عن الهيروغليفية يخمن أن "أرض الإله كانت تطلق أحياناً على آسيا" (٦٣).

وكانت الحملة السادسة لتحتمس الثالث مثل حملته الأولى عسكرية محضة، فغزا شمال سوريا وبعدها بثلاثة أعوام ذهب إلى فلسطين لجباية الضرائب، وبعدها وصف الجباية التى جمعها من شينار، وخيتى، وأرض ناهاريين، يقول السجل المكتوب "روائع جلبت إلى جلالته فى بلاد بونت هذا العام: مر جاف..." لقد فوجئ المترجم واعترته الدهشة لهذه الجملة (٦٤) ... نجد هنا أن تحتمس الثالث قد استمد نفس المصطلحات والمسميات التى استعملتها حتشبسوت من قبله - بونت وأرض الإله لتلك الأراضى التى زاراها، سلماً وحرباً، فينيقيا وفلسطين. والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن فى هذا الموضع هو: هل كانت فلسطين تنتج المر المشار إليه فى جباية الضرائب لتحتمس الثالث، وتنتج البخور الذى كان من بين الهدايا التى تلقتها حتشبسوت فى زيارتها لأرض الإله؟

لقد جاء ذكر المر والبخور مراراً عديدة فى النقوش المصرية كمنتجات معروفة لأرض بونت. والمر واللبان يتساقط من سيقان أشجاره على شكل قطرات سائلة صافية وشفافة تجمع وتشكل على هيئة كور وسيقان تتحول إلى اللون الأبيض وبسبب ذلك اللون المميز فإن هذا النوع الثمين من لبان البخور يسمى "بالأبيض" فى مختلف اللغات (اليونانية والعربية)، وبالمثل فى العبرية (لاڤانا : أبيض)، وهناك نوع آخر أقل جودة ولونه أصفر أو بنى (٦٥)، ويسمى لادانوم، وأشجار لبان البخور لا تنمو إلا فى أماكن معدودة منها أرض الصومال وجنوب شبه الجزيرة العربية، ولازال يعد أحد منتجات تلك البلاد حتى اليوم. وقد كان علماء النباتات كما أسلفنا مرشدين لعلماء الآثار فى التعرف على مكان أرض بونت، وذلك بالتعرف على أشكال النباتات المرسومة والأماكن الطبيعية لنموها.

وبعد زيارة تحتمس الثالث التفقدية الخامسة إلى أرض سوريا وفلسطين، سجل تحتمس الثالث أنه جمع من ضمن الجباية المفروضة على هذه البلاد، البخور والزيوت والعسل والنبيذ وبعد زيارته التاسعة سجل أنه قد تلقى كجزء من جباية بلاد رتينيو؟ فى ذلك العام خيولا وعربات وآنية مختلفة من الفضة من صنع تلك البلاد، كما تلقى أيضاً "المر الجاف والبخور فى ٦٩٣ إناء، والزيت الحلو والزيت الأخضر فى ٢٠٨٠ إناء، والنبيذ فى ٦٠٨ آنية. وعن المحتويات السابقة كتب "جباية من أمراء رتينيو الذين أتوا لتقديم فروض الطاعة والولاء ... فإن كل مرفأ يصل إليه جلالته كان يقدم إليه الخبز الملوكى والزيوت والعطور والنبيذ والعسل والفواكه بكميات وفيرة لا يمكن حسابها – وكان حصاد بلاد رتينيو يعد من أنقى وأجود أنواع الحبوب – حبوب بقشورها (غير مطحونة) والشعير واللبان والزيت الأخضر وكل المنتجات المفيدة من تلك البلاد.

لقد كان المر واللبان من منتجات فلسطين كما يبدو من النص السابق، ولنرى الآن إن كانت التوراة قد ذكرت ما يشير إلى تلك المنتجات، وإن كانت من إنتاج الأرض المقدسة فى عصر سليمان أم لا. فى "نشيد الإنشاد" الذى لسليمان يقول الأمير المتيم إلى راعية أغنام شابة (٤: ٦):

«ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن. إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال، أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان». وحتى ولو كان نشيد الإنشاد قد كتب فى عصر لاحق فإنه يتحدث عن عصر سليمان ومن المحتمل أن بلدة ليبانا (القريبة من بيت – إيل (سفر القضاة ٢١: ١٦) كانت هى الموضع الذى تنبت فيه أشجار اللبان. وفى عصر تحتمس الثالث نقلت النباتات النادرة من حدائق فلسطين إلى أرض مصر وقد ذكر تحتمس الثالث ذلك بنفسه كما صوره على جدران معبده. وبعد ذلك فى أيام أشعيا (٦٠: ٦) وأرميا (٦: ٢٠) كان اللبان والعطور يستوردان من خارج فلسطين من جنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن المناسب هنا أن نفسر اسم "رتينيو" أو "رزينيو" الذى استخدمه المصريون فى نقوشهم فى عصر المملكة الحديثة للدلالة على أرض فلسطين. إن أرض الجليل الأعلى سميت "رزينيو العليا" ويبدو أن اسم رزينيو هو

صورة محرفة للاسم الذى استخدمه سكان فلسطين عند ذكرهم بلادهم. ويجب أن تمدنا اللغة العبرية بسبب تلك التسمية.

غالبا ما تسمى فلسطين فى التوراة بـ - "أريز" أى أرض، حيث تعنى "أريزيسرائيل" أرض إسرائيل. وأرزينو هى اشتقاق الملكية أى أرضنا (أرض إسرائيل) (٦٧). وما ترجمه علماء المصريات عن الهيروغليفية "برتينيو" أو "ريزينو"، من المحتمل أن تكون "أرزينيو" أى أرضنا كما ذكرت فى التوراة.

لم يذكر اسم "رزينيو" فى أى نقش مصرى قبل المملكة الحديثة إلا مرة واحدة فى نقش يعود إلى المملكة المتوسطة (الأسرة الثانية عشرة) أثناء حكم سيزوستريس الثالث وقد كان نصاً مختصراً عن غارة حربية على البلد الذى يحمل ذلك الاسم ضد م - ن - تيو. وسنجد أن اسم م - ن - تيو هذا قد ذكر فى وثائق مصرية أخرى فى فترة متأخرة كثيراً عن ذلك العصر والتى توضح أنه كانت هناك حرباً ضد الملك منياس (ميناسيه) ويتضح أن اسم م - ن - تيو فى المملكة المتوسطة كان يعود على قبيلة ميناس. ولو كان النص يعود فعلا إلى عصر سيزوستريس الثالث، فإن ذكر قبائل ميناس فى ذلك العصر يعنى أن قبائل الإسرائيليين قبل رحيلهم إلى مصر والاستقرار بها، كانوا يعيشون فى فلسطين. ليس كأسرة واحدة، ولكن كقبائل كانت من القوة بحيث كانت تعد عدواً لفرعون مصر، ويتفق ذلك مع الاعتقاد بصحة الهزيمة التى ألحقها إبراهيم وغلمانه بملوك شينار وعيلام وحلفائهم (سفر التكوين ١٤) كما يتفق أيضاً مع العدد الكبير الذى كان عليه الإسرائيليون (ما يقرب من مليونين بما فيهم النساء والأطفال) أثناء الخروج بعد ما يزيد عن مائتى عام من سكناهم بمصر.

سوسينك (شوشنق)

طبقاً لما يذكره التاريخ التقليدى، فإن تحتمس الثالث وكل حكام الأسرة الثامنة عشرة، قد هيمنوا على كنعانيى فلسطين، فى حين نجد أن شيشق، الفرعون الذى سلب هيكل أورشليم، موضوع فى الفترة التى تلت ذلك

بعدة مئات من السنين، وبعد قمة حكم الرعامسة الذين كانوا آخر الفراعنة العظماء لعصر المد الإمبريالى المصرى.

ومن بين أسماء الفراعنة فى تلك الفترة الغامضة، والتى تناولها المؤرخون وتقرب من ستمائة عام (وتنتهى بغزو قمبيز لمصر فى ٥٢٥ ق. م) ورد اسم "سوسونيك" وهو ملك ينتمى إلى أسر الحكام الليبيين الذين حكموا مصر. وكان ذلك الملك يختصر اسماء المدن التى يهيمن عليها، والتى ذكر أسماءها على الوجه الخارجى للجدار الجنوبى لمعبد الكرنك.. وتلك المدن ممثلة بأرقام مثل أرقام المدن فى نقوش تحتمس الثالث، ومن الواضح أن سوسينك قد نسخ عن نقوش تحتمس. ولكن بينما نجد أن قائمة تحتمس تحتوى على أسماء معروفة ومشهورة فى التوراة، نجد أن قائمة سوسينك تحتوى فى أغلبها على أسماء مدن مجهولة والنصوص المصاحبة لها من النوع المنقول الغامض، مع أقوال عامة غر محددة، لا تساعد على استخراج معلومات مؤكدة أو ذات جدوى عن حملته العسكرية، ولو لم تكن لدينا معلومات موجزة عن نهبه لأورشليم، لكان يصبح من الصعب جداً التكهن بأن ذلك النقش كان تخليداً لأى حملات عسكرية (٦٨).

وبالرغم من ذلك فإن سوسينك يعرف على أنه شيشق التوراة، وكذا فى كل المراجع والأبحاث، ولكن من المعترف به على وجه اليقين أن "تاريخ ارتقاء شيشق لعرش مصر يعتمد كلية على التاريخ الإسرائيلى (٦٩)..

ويحتوى نقش سوسينك على أسماء مائة وخمس مدينة (٧٠)، "من الممكن التعرف على سبعة عشر اسم فقط بيقين، واسمين آخرين كاحتمال، وأربعة عشر من أسماء تلك المدن تنتمى إلى إسرائيل، وهى فى الغالب مدن غير مهمة، أما الخمسة الباقية فتعد مدنا مهمة وتنتمى إلى مملكة يهوذا، وذلك باستثناء أسماء القرى الغامضة" (٧١).. ومن بين أسماء المدن الفلسطينية تم التعرف على المدن التالية بسبب التماثل الصوتى فى الأسماء: بيت شان، هافارايم، جببون، مجدو، وأكثر الأسماء لفتاً للانتباه بعد تلك الأسماء هو (بى – هو – كا – رو – بر – م) أو هيكل إبرام، والتى لا يمكن أن تكون إلا حقل إبرام.

وفى الواقع فإن هناك عددا من الـ(بى – هو – كا – رو – بر – م) هذه، وكل منها يعرف بأنه هيكل، والتى تعنى حقل فى اللغة الآرامية. ولكن لم

يوجد مكان معروف يحمل اسم هيكل إبرام فى مملكتى يهوذا وإسرائيل، ولا أى هيكل آخر (٧٢).. وتقريباً لم يكن ممكناً تحديد أى اسم فى مملكة يهوذا من أسماء القرى الغامضة التى وردت بقائمة سوسينك، ولم يبق إلا التخمين.

إن ذلك يعطى انطباعاً أن إسرائيل وحدها هى التى كانت عرضة لغزوة سوسينك (شوشنق) وليس يهوذا ولا أورشليم أو هيبرون أو بيت لحم ولا أى مكان آخر معروف أو مدن مشهورة مثل يافا أو جاث أو عسقلون (٧٤)..

والنقش يشير بعبارات عامة إلى الجزية التى دفعت إلى سوسينك، ولكن أين الغنائم التى غنمها من غزواته أو الأثاث الثمين أو آنية هيكل سليمان وقصره؟

هل كان شيشق متواضعا إلى درجة ألا يذكر اسم عاصمة الدولة التى غزاها والغنائم الثمينة التى سلبها من الهيكل، فى الوقت الذى يظهر فيه عظمة زائفة بتكديس قوائم بأسماء مدن لم توجد؟

وقيل أيضاً إن تحتمس الثالث قد غزا كنعان ما قبل الإسرائيليين بستمائة عام أو نحو ذلك قبل الزمن المنسوب إلى شيشق، وأنه غزا مدناً وقلاعاً حصينة بنيت فى وقت متأخر كثيراً أى فى عصر القضاة والملوك اليهود وأنه سلب من أرض كنعان غنائم كثيرة من الأوانى المقدسة، وأثاثاً من الذهب والفضة والبرونز والتى - طبقاً للتاريخ التقليدى - نسخ سليمان مثيلا لها بعد ذلك بستمائة عام، نسخاً متطابقة فى الشكل بل حتى فى العدد ووصفت فى سفر الملوك، ألا يعد ما سبق تركيباً مليئا باللبس ومشكوكاً فيه؟

ألا يعد نسب الإنجازات الفنية المشار إليها، إلى الكنعانيين نسباً مبنياً على خطأ؟

ولو كان الأمر كذلك، فمن كان سوسينك الليبى هذا والجالس على عرش مصر، والذى تلقى الجزية من المملكة الشمالية (إسرائيل) بعد مئات السنين من عصر رحبعام ويربعام؟.

فى الصفحات المتعلقة بالأسرة الليبية سنتعرف عليه باسم الفرعون "سوسينك" والذى كان هوشع آخر ملوك المملكة الشمالية (إسرائيل)، يرسل إليه الجزية السنوية. (سفر الملوك الثانى ١٧: ٤).

ملخص...

إن الجيل الذى تلى حتشبسوت فى مصر كان متزامناً فى هذا الفصل من الكتاب مع الجيل الذى تلى سليمان فى فلسطين. ففى مصر، كان ذلك الوقت هو عصر فرعون عرفناه من خلال كتب التاريخ الحديثة باسم تحتمس الثالث. وفى فلسطين، كان عصر رحبعام ابن الملك سليمان وملك يهوذا. ويربعام ملك المملكة الشمالية (إسرائيل) وكلتا الدولتين – مصر وفلسطين – كانتا فى ذلك الوقت على اتصال وثيق. وغزا فرعون مصر مملكة يهوذا، وطبقاً للمصادر المصرية، والقصص الدينى اليهودى على السواء فإنه استولى على كل المدن واقترب من العاصمة التى تسمى قادش فى قصة الفرعون، وتسمى أورشليم وقادش فى التوراة.

وغزوة فلسطين تلك موصوفة وصفاً مماثلا فى كل من سفرى الملوك وأخبار الأيام فى التوراة، كما هى فى القصة المصرية على جدار معبد الكرنك.

ووقع الانفصال بين يهوذا وإسرائيل نتيجة للخلاف الذى حدث بين أسباط اليهود، وبعد محاولة فاشلة للدفاع عن البلاد ضد فرعون مصر استسلمت القلعة الحصينة ومدن أخرى، واجتمع الأمراء المهزومون وأتباعهم فى العاصمة، وبقرار منهم فتحت العاصمة أبوابها بلا حرب "وأذل الأمراء أنفسهم"، وتم نهب القصر وهيكل العبادة، ونقلت محتوياته من الأوانى الثمينة والأثاث إلى مصر، والوصف المفصل لذلك الأثاث والأدوات الأخرى كما ذكر فى سفرى الملوك وأخبار الأيام يتفق تماماً مع الصور المحفورة على جدار معبد الكرنك والأدوات فى المصدرين متطابقة فى الشكل وتنتمى لنفس الصناع وبنفس الأعداد، من مذبح ومغاسل الهيكل، والمناضد، والشمعدانات، والنوافير، والزهريات ذات الحواف المزينة بصور البراعم النباتية والزهور، وأكواب مزينة بزهرة اللوتس، وزهريات من أحجار شبه كريمة، ثياب الأحبار، ودروع ذهبية، وأبواق مكفتة بالنحاس.

وصور الأسرى فى نقش معبد الكرنك الذين يمثلون المدن المهزومة من نفس جنس وشكل شعب بونت والأرض المقدسة التى زارتها حتشبسوت

قبل ذلك يثبت مرة أخرى أن حتشبسوت توجهت فى بعثتها السلمية إلى فلسطين.

ومن بين أسماء المدن التى استولى عليها تحتمس الثالث، كانت هناك أسماء مدن بناها الملك سليمان وابنه رحبعام، والتى لم تكن موجودة فى القائمة الكاملة لأسماء المدن الكنعانية فى غزوات يشوع لأرض كنعان، وبالرغم من كل ذلك فإن التاريخ التقليدى يضع تحتمس الثالث فى زمن يسبق يشوع.

إن الاشارات التوراتية إلى العربات الذهبية فى عصر سليمان ثبت أنها صحيحة، فمثل تلك العربات جلبها الفرعون من فلسطين كغنائم حرب، كما جلبوا أيضاً الفنانين والحرفيين المهرة إلى مصر وعملوا بها.

وأصبحت يهوذا محتلة وأهلوها تابعين لفرعون مصر، الذى كان يصطحب فى زياراته المتتابعة لجمع الجزية كميات كبيرة من لبان البخور، والذى جلبت حتشبسوت مثيله من الأرض الإلهية والذى كان من نتاج أرض فلسطين، كما نقل الفرعون أيضاً كل المجموعات الحيوانية والنباتية التى كونها سليمان.

وتزوج يربعام - بينما كان بمصر كلاجئ هارب من سليمان - من شقيقة زوجة فرعون مصر وتسمى آنو، والوعاء الكانوبى باسمها المسجل عليه، يعود تاريخه إلى عصر تحتمس الثالث، وهو مازال موجوداً بمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك.

ويشار إلى "جنوبث" فى سفر الملوك كابن للملك الايدومى حدد الذى كان بالمنفى فى مصر ولقد ولد جنوبث فى قصر الفرعون، وتربى هناك فى عصر داود وسليمان وهو مذكور بالاسم فى قصص تحتمس الثالث كأمير تابع، على بلاد خاضعة لنفوذ مصر، وتدفع الجزية إلى الفرعون.

كان عصر حتشبسوت هو عصر سليمان، وكان عصر تحتمس الثالث هو عصر رحبعام ابن سليمان، ويربعام منافسه فى المملكة الشمالية (إسرائيل).

هوامش الفصل الرابع

1. K. Sethe, who directed attention to this text and to the very surprising fact that a statue for worship was erected in Punt, expressed his hope that the possible future discovery of an Egyptian statue would help to determine the location of Punt. ("Eine bisher unbeachtet gebliebene Episode der Punt Expedition der Königin Hatschepsowet", Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde, XLII {1905}, 91-99.)
2. II chronicles 14: 3.
3. I Kings 11: 14-25.
4. The Greek version of I Kings 12: 24ff. makes Jeroboam a son-in-law of the pharaoh.
5. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 416.
6. The text of this inscription is mutilated. The translation of Breasted was questioned. See the controversy between kurt Sethe, Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde, XLVII (1910), 80-82, and Eduard Meyer, Geschichte des Altertums (2 nd ed.; 1928), II Pt. I, p. 121, note 4. Cf. also the translation of J. A. Wilson in Ancient Near Eastern Texts, ed. Pritchard (Princeton, 1950).
7. II Chronicles 11: 6-10.
8. Herodotus (II, 159) described the conquest of Palestine by Thutmose and named him Sesostris.
9. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 420.

10. Ibid., Secs. 429-30.

11. Ibid., Sec. 430.

12. Ibid., Sec. 431.

13. A. Mariette, Les Listes géographiques des pylônes de Karnak (Leipzig, 1875), pp. 12-13.

14. G. Maspero, Transactions of the Victorian Institute, XX (London, 1887), 297.

15. W. Max Müller, Asien und Europa nach altägyptischen Denkmälern (Leipzig, 1893), p. 145, n. 3.

16. W. Max Müller, "Die Palästinaliste Thutmosis III", Mitteilungen, Vorder-asiatisch-ägyptische Gesellschaft, Vol. XII, No. 1 (1907), p. 8.

17. J. Simons, Handbook for the Study of Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia (Leiden, 1937).

18. II Chronicles 8: 11.

19. Psalms 2: 6.

20. Joel 2: 1.

21. Joel 3: 17.

22. Isaiah 66: 18ff.

23. Daniel 9: 16.

24. Daniel 9: 24.

25. Nehemiah 11: 1. Like expressions may also be found in Psalms 3: 4, 15: 1, 43: 3 and 99: 9; in Isaiah 65: 11 and 25; in Ezekiel 20: 40; in Zephaniah 3: 11; in Zechariah 2: 12; and in many other passages of the Bible.

26. A. Jirku, Die ägyptischen Listen der Palästinensischen und Syrischen Orts-namen, Klio Beihefte, XXXVIII (Leipzig, 1937); Simons, Handbook.

27. Etam is number 36 on the list, Beth-Zur 110 (it is Beth-Zur, and not Beth Shan as A. Jirku assumed), Socoh 67.

28. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 434.
29. I Kings 7: 13-45; II Chronicles 4: 11-22.
30. II Chronicles 1: 5.
31. I Kings 7: 48-50; II Chronicles 4: 7, 8, 21, 22.
32. I Kings 6: 20, 21, 28, 30, 32, 35; II Chronicles 3: 7, 9.
33. Exodus 37: 3, 13-14.
34. I Kings 8: 4.
35. Seder Olam 25. Other sources in Ginzberg, Legends, VI, 380.
36. Exodus 37: 11, 12, 25.
37. See Plate VIII, "Vessels and Furnishings of the Temple at Jerusalem".
38. Exodus 37: 17ff. Rim ornamentation of the vessels is discussed by H. Schaefer, Die altaegyptischen Prunkgefaesse mit aufgesetzten Randverzierungen (Leipzig, 1903). No reference to the biblical description of the vessels is suggested in his work.
39. Twenty cubits square, ten cubits in height (II Chronicles 4: 1).
40. Cf. Exodus 25: 30; 35: 13; 39: 36, and Numbers 4: 7.
41. Exodus 25: 35; 37: 21.
42. Nechoshet is translated both "brass" and copper. However, it was either copper or bronze (alloy of copper with tin); brass (alloy of copper with zinc) was introduced much later.
43. II Kings 25: 16. A few gold vessels might have been saved by the priests under Rehoboam, as it is said that Nebuchadnezzar took vessels of gold which sdomon had made for the temple (II Kings 24: 13) But in seder olam it is said that Pharaoh Zerah returned to Asa what Shishak had taken from Rehoboam.
44. See the fantastic story of the capture of Jaffa by a general of Thutmose III in the Harris papyrus, 500 reverse translation of Goodwin. Transactions of the Society of Biblical Archaeology, III, 340-348, and G. Maspero, ibid., I, 53-66; a new translation by T. E. Peet, Journal of Egyptian

Archaeology, XI (1925), 226f.

45. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 447.
46. Ibid., Sec. 451.
47. G. Schweinfurth, "Pflanzenbilder im Tempel von Karnak", Engler's Botanische Jahrbücher, LV (1919), 464-80. Wreszinski, Atlas zur altaegyptischen Kulturgeschichte, Pt. II, text to Plate 26.
48. Wreszinski, Atlas, Pt. II, text to Plate 33: "... entzieht sich die weit überwiegende Zahl der dargestellten Pflanzen der botanischen Bestimmung und damit auch der Bestimmung ihere Heimat."
49. Ibid., Pt. II, text to Plate 33.
50. M. Hilzheimer, quoted by Wreszinski, Atlas, Pt. II, text to Plate 33.
51. I Kings 11: 21-22.
52. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 474.
53. Ibid., Sec. 463.
54. Ibid., Sec. 467.
55. Septuagint, Reges III, 12: 24e.
56. Metropolitan Museum of Art, No. 10.130.1003.
57. Breasted, Records, Vol II, Sec. 760, on the tomb of Rekhmire: "This is one of the most important scenes preserved in ancient Egypt. Similar scenes will be found in other Theban tombs, but none contains so elaborate, detailed, and extensive representation of the wealth of the Asiatic peoples, which was now flowing as tribute into the treasury of the Pharaohs."
58. Ibid., Sec. 756: "... of particular interest are the Semitic foreigners, who appear among the brickmakers, of the captivity which his majesty brought for the works of the temple of Amon. This is, of course, precisely what was afterwards exacted of the Hebrews.
59. Mercer, Extra-Biblical Sources, p. 10. See also p. Montet, Les Reliques de l'art syrien dans l'Egypte du Nouvel Empire (Paris, 1937).

60. R. W. Rogers, Cuneiform Parallels to the Old Testament (2nd ed., New York and Cincinnati, 1926), p. 255.

61. Eduard Meyer reads "Rezenu". Breasted transliterates "Retenu".

62. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 451.

63. Ibid., note to Sec. 451.

64. Ibid., Sec. 486.

65. See Lucas, Ancient Egyptian Materials (2nd ed.), p. 92.

66. Breasted, Records, Vol. II, Secs. 471-73.

67. Joshua 9: 11; Judges 16: 24; Psalms 85: 10, 13; Micah 5: 4; The Song of Sol-omon 2: 12; compare also Leviticus 26. 5; Numbers 10:9; and Jeremiah 5: 19.

68. Breasted, Records, Vol. IV, Sec. 709. Wilson, "Egyptian Historical Texts" in Ancient Near Eastern Texts, ed. Pritchard: "There is no narrative account of the campaign by the pharaoh. The references in his inscriptions to tribute of the land of Syria or to his victories ... are vague and generalized."

69. W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel (Baltimore, 1942), p. 211.

70. Jirku, Die ägyptischen Listen, Klio Beihefte, XXXVIII (1937).

71. Breasted, Records, Vol. IV, Sec. 711.

72. Ibid., Sec. 715.

73. Jirku (Die ägyptischen Listen, Klio Beihefte, XXXVIII {1937}) expressed doubt whether an Aramaic word hekel would have been used in the tenth century in Palestine.

74. It must be noted that a portion of the bas-relief is destroyed.

الفصل الخامس

راس شمـــــــرا

الترتيب الزمنى
للحضارة المنوانية والحضارة المسينية

ذات يوم ربيعى من عام ١٩٢٨ كان أحد المزارعين يعمل بحقله بالقرب من ساحل راس شمرا فى شمال سوريا حين عثر على كتلة صخرية تشكل قبو مقبرة. وفى عام ١٩٢٩ والأعوام التى تلته، وعلى مدى إثنى عشر عاماً من التنقيب والحفر (١)، انكشفت مدينة قديمة بمينائها وآنيتها الفخارية وأدوات مختلفة ومجوهرات وألواح كتابية. ويقع ذلك المكان الغامض وغير المحدد على أى خريطة، شمال مدينة اللاذقية على بقعة من الساحل مقابلة للأرض الممتدة على شكل أصبع من جزيرة قبرص باتجاه الساحل السورى، وفى الليالى التى تصفو فيها السماء، فإن جزيرة قبرص ترى بوضوح من فوق التلال المحيطة براس شمرا.

وعرف ذلك الموقع بعد ذلك على أنه بقايا مدينة أوجاريت المذكورة فى رسائل تل العمارنة المصرية (٢) وقد وجدت بها وثائق مكتوبة تؤيد هذا التخمين، كما اتضح من الآثار المكتشفة أن المدينة كانت قد تعرضت للدمار عدة مرات، وقد رُقِّمت الأعماق التى تم الحفر فيها ورفع عنها الركام، بحروف أبجدية بداية من السطح، وكانت الطبقة الأولى العليا، هى التى رفع ركامها بأكمله، واستلزم الأمر تسعة مواسم من الحفر ورفع الأتربة للوصول إلى ثُمْن العمق المطلوب.

أما الحفر العميق فقد اقتصر على أماكن معينة. وكشفت الطبقة الثانية عن أدوات مصرية تعود إلى المملكة المتوسطة، حيث كانت سوريا تقع داخل النطاق الحيوى للهيمنة المصرية. وعلى عمق عشرة أمتار كانت

آثار الحضارات القديمة ما زالت تبرز إلى الضوء، حتى أنه وجدت بقايا للعصر الحجرى المتأخر على الصخور القاعدية فى آخر طبقة.

لقد كانت الآثار الموجودة فى الطبقة الأولى والتى لم يتعد سمكها من أربعين سنتيمترا إلى مترين تحت السطح - كانت تلك الآثار - تعود إلى عصر سبق عمر التوراة طبقاً للتاريخ التقليدى المقارن. وكانت المواد المصنوعة منها تلك الأدوات، وتصميمها، وطريقة صناعتها، كروزنامه وتقويم مؤكد فى أيدى علماء الآثار. كما وجد أن خزف مقابر منية البايدا (ميناء راس شمرا) وكذلك خزف مرتفعات راس شمرا ينتمى إلى صناعات قبرص وإلى صناعات ميسينا (جنوب اليونان) وكلها تعود إلى القرن الخامس عشر والرابع عشر، وجزئياً للقرن الثالث عشر قبل الميلاد (٣).

وحين عثر على بعض الأدوات المصرية فى نفس الطبقة، فإن توصيف الخبراء لها بأنها تعود إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة (٤) اعتبر دليلاً كافياً يعود على كل الآنية الفخارية والآثار الأخرى المكتشفة فى ذلك المكان، وقدر أنه العصر الذى تمتعت فيه أوجاريت بالرفاهية والرخاء، أو هو القرن الخامس عشر، كما اعتبر القرن الرابع عشر قبل الميلاد أنه القرن الذى شهد الاضمحلال المفاجئ للمدينة.

وحيث إن وسيلتين مختلفتين قد استخدمتا لمعرفة عمر المدينة وقد أدّيتا إلى نفس التقدير فإنه لم يعد هناك أى مبرر لأسئلة أخرى قد تطرح فى هذا الشأن واعتمدت كل المطبوعات التى تناولت راس شمرا - أوجاريت (٥)، على المقدمة المنطقية السابقة، ونسبت كل الآثار الثقافية والحضارية التى وجدت فى الطبقة التى تم الكشف عنها إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر.

وقبل أن نتعمق فى بحث هذا الأمر، فإننى يجب أن أنوه بالقيمة الحقيقية للخزف، والقطع الفنية الثمينة الأخرى والتى تنسب إلى ميسينا وكريت فيما يخص التعريف بالعصر الذى عاشت فيه تلك المدينة. وبصدد هذا الأمر فإننى لابد وأن أقدم باختصار عرضاً سريعاً لعصرى الحضارتين المنوانية والميسينية.

ففى مدينة نوسوس على الساحل الشمالى لجزيرة كريت، وفى

نيستوس على الساحل الجنوبى للجزيرة، وفى أماكن متعددة منها، وجدت بقايا حضارة قديمة أطلق عليها اسم الحضارة المينوانية. والاسم مشتق من اسم الملك شبه الأسطورى، الملك مينوس، ووجد أن الآثار التى عثر عليها تنتمى إلى فترات زمنية مختلفة. وكان القصر الملكى فى نوسوس ومبان أخرى كثيرة قد دمرت، ثم أعيد بناء المدينة، ثم دمرت مرة ثانية، وأعيد بناؤها بعد ذلك. وكان هناك من الأسباب الكثير، الذى دفع المنقبين إلى الاعتقاد بأن الكوارث الطبيعية كانت هى السبب وراء الدمار الذى حل بالمدينة، أكثر من مرة، واعتبر أن كل تدمير للمدينة كان نهاية حقبة ومرحلة زمنية حضارية، وبداية أخرى جديدة (٦).

وقسمت العصور القديمة إلى العصر المبكر، والعصر الوسيط، والعصر الحديث، كما جُزِّئ كل عصر إلى ثلاثة أجزاء الأول والثانى والثالث.

وهناك حضارة أخرى عرفت بأشغالها الفخارية المميزة، كان مركزها مدينة مسيناً فى بلاد اليونان. وقد قسم التاريخ الحضارى للمدينة هو الآخر بنفس الطريق السابقة إلى عصر مبكر ومتوسط وحديث، لما عرف باسم الحضارة الميسينية، أو الهيلادية، والتى تتزامن تقريباً مع عصور المنوانية فى جزيرة كريت.

إن العصور الميناوانية والهيلادية بدأت مع نهاية العصر الحجرى، وهى بالتالى تنتمى إلى العصر البرونزى. ولم يوجد دليل واحد من الآثار المكتشفة يعاون على تحديد تواريخ عصور كل من الحضارتين. حتى النصوص التى وجدت مكتوبة بجزيرة كريت لم يتم حل رموزها بعد... وعلى هذا فإن هناك بعض الجهود الدؤوبة والواعدة ما زالت منكبة على تلك القطع.. لكل ذلك اعتبرت اتصالات تلك الحضارات بالحضارة المصرية هى المصدر الوحيد الممكن الركون إليه لوضع جدول زمنى لتاريخ كل من الحضارتين المنوانية، والمسينية (٧).

ومع التجاوز عن بعض الاختلافات الزمنية الطفيفة فقد اعتبرت الممالك المصرية الثلاثة المبكرة، والمتوسطة، والحديثة. هى الممالك المواكبة للعصور الثلاثة، المبكر، والمتوسط والحديث لكل من الحضارتين المنوانية والهيلادية.

وفى نوسوس، فى العصر المنوانى المبكر، وجدت أصص زهور مماثلة لتلك التى اكتشفت فى حفريات أبيدوس فى مصر، والتى تنتمى للأسرة الأولى. كما وجدت سدادات آنية من نمط الأسرة المصرية السادسة فى جزيرة كريت.

وأثناء العصر المنوانى المتوسط، كانت هناك علاقات نشطة بين مصر وكريت، ففى مصر، وبالتحديد فى أبيدوس، وداخل مقبرة تعود إلى الأسرة المصرية الثانية عشرة، وجدت زهرية متعددة الألوان تعود إلى الجزء الثانى من العصر الأوسط لحضارة كريت. وفى نوسوس اكتشف تمثال مصرى صغير يعود إلى الأسرة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وبالطبع فإن تحديد العصر المنوانى المتوسط كان يعتمد على ذلك الزمن الذى وضعه المؤرخون للأسرة المصرية الثانية عشرة (٨).

لقد دمرت كريت بكارثة طبيعية تتزامن فى توقيتها مع تلك التى وقعت أثناء الخروج الإسرائيلى من مصر (نهاية المملكة المتوسطة فى مصر، ونهاية الجزء الثانى من العصر المنوانى المتوسط).

وبعد الجزء الثالث من العصر المنوانى المتوسط، والذى يتزامن مع فترة حكم الهكسوس لمصر (وجد اسم الفرعون الهكسوسى خيان على غطاء آنية فى نوسوس)، حررت كريت نفسها من النفوذ والهيمنة المصرية، وكان لها عصر نهضة حضارية جديدة فى الجزء الأول من العصر المنوانى الحديث، وهو نفس العصر الذى يتزامن مع تخلص المصريين من حكم الهكسوس وبداية عصر النهضة الجديدة فى مصر.

أما فى مسين فى اليونان، فقد كشفت الحفريات أيضا عن بعض الأدوات المصرية تحمل خراطيش أمينوحتب الثانى وأمينوحتب الثالث وزوجته تايى وهما من الأسرة المصرية الثامنة عشرة (المملكة الحديثة)، كما وجدت زهريات على الطراز المسينى المتأخر وبأعداد كبيرة فى مصر فى مدينة طيبة، وعلى الأخص تحت أنقاض قصر اخناتون فى تل العمارنة «ويشير ذلك إلى تاريخ معين – حوالى ١٣٨٠ ق.م – لهذا النمط من الزهريات الملونة» (٩).

إن البحث المقدم فى هذا الكتاب يسعى إلى كشف النقاب عن خطأ يقدر بحوالى خمسمائة عام فى التاريخ التقليدى لزمن المملكة الحديثة. وإن كان

اخناتون قد حكم عام ٨٤٠ ق. م لا فى ١٣٨٠ ق. م، فإن خزف مسينى الذى وجد فى قصر اخناتون، يعد أقل عمراً فى حقيقة الأمر بخمسمائة أو ستمائة عام من العمر المفترض حالياً له، كما يتحرك العصر الحديث للحضارة المسينية إلى زمن أقرب إلى عصرنا بخمسمائة عام.

إن قضيتى الجدلية التى أناضل من أجلها، هى إثبات أن العصر العظيم للأسرة الثامنة فى مصر، ومملكتى داود وسليمان، والعصر المنوانى الحديث، والعصر المسينى الحديث، كلها عصور بدأت متزامنة فى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد.

ونعود مرة أخرى إلى حفائر راس شمرا حيث نجد أنه لا يوجد تاريخ منفصل للحضارتين المينوانية والمسينية يعتمد على دلائل مستقلة من أعمال الخزف والبرونز التى وجدت فى جزيرة كريت ومدينة مسينا اليونانية. لا يوجد إلا مفتاح واحد لتحديد أزمان كل من الحضارتين.. ألا وهو المفتاح المصرى للتاريخ.

وسيتضح ذلك مرة أخرى وبتفاصيل أكثر، فى الفصل الذى يتناول مشاكل الطبقات الأثرية المكتشفة.

غرف المدافن

إن التساؤل الذى يفرض نفسه فى هذا الموضع هو: ألم يكن هناك أية مكتشفات أخرى - عدا الخزف فى الطبقة العليا - فى راس شمرا تؤيد أو تنفى وجهة النظر التى افترضت أن محتويات الطبقة العليا تنتمى إلى الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؟

وهل ستدعم شهادة الآثار القديمة والوثائق المكتوبة التاريخ التقليدى أم تدعم وجهة النظر المقدمة فى هذا الكتاب؟ وهى أن تلك الطبقة، والتاريخ المدفون تحتها ينتمى إلى فترة زمنية تمتد من القرن العاشر حتى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد.

إن غرف الدفن براس شمرا - وبعكس منازل المدينة - وجدت سليمة وكاملة. ومن نموذج لمقبرة نجد أن هناك درجا من الحجر المصفوف بإتقان

ينزل إلى أسفل حتى غرفة الدفن وهى ذات سقف مقبى (وجدت نفس نوعية الأسقف فى جزيرة قبرص). وسجل علماء الآثار العاملون بذلك الموقع ما يلى: «إن المقابر المماثلة الموجودة بجزيرة قبرص تنتمى إلى تاريخ متأخر، حتى أنه يصل إلى القرن الثامن أو حتى السابع قبل الميلاد - طبقا لرأى المنقبين السويديين (١٠) - وعلى ذلك فإننا نعتبر أن المقابر القبرصية، نسخ متأخرة لغرف الدفن الموجودة فى راس شمرا. وهناك مثل واضح يظهر التماثل فى تصميم تلك المقابر وهو قبر الدفن الموجود فى تراكوناس على الساحل الشرقى من شبه جزيرة كارباس والمقابلة لراس شمرا على ساحل قبرص. ومع أن ذلك النوع من غرف الدفن قد اكتشف أولا فى جزيرة قبرص، إلا أننا لا نستطيع أن ندعى أنها تنتسب مباشرة إلى تلك الموجودة براس شمرا، حيث إن هناك ما يربو على خمسمائة عام تفصل بين تلك الموجودة فى تراكوناس وبين مثيلاتها فى راس شمرا» (١١) ولكن لا نخفى أن المقابر الموجودة على جانبى المضيق الذى يفصل راس شمرا عن تراكوناس، متماثلة تماماً فى التصميم المعمارى، ولذلك، فالمنطقى أنها بنيت فى عصر واحد. هناك إلتواء زمنى واقع فى التأريخ التقليدى بغرض المحافظة على الفارق الزمنى والذى يقدر بخمسمائة عام، كما يفترض أن تلك الأعوام قد انصرمت قبل أن يبدأ القبارصة فى تقليد أقبية دفن راس شمرا، تلك الاقبية التى بعد زمن طويل كهذا، يفترض أيضاً أن تكون قد غطتها الأتربة وأخفتها عن الأعين.

هل يجب أن نصدق أنه بالرغم من التماثل الواضح فى الأقبية على جانبى المضيق، لا توجد بينها صلة على الإطلاق بسبب الخمسمائة عام التى تفصل بينها؟

وعدا المدفن وقبوه، كان هناك تصميم مميز لذلك النوع من المقابر وهو تصميم خاص لإمداد المدفون بالغذاء، وهو عبارة عن فتحة بأعلاه تتصل بأنبوبة، ومن خلال تلك الفتحة تسكب الأغذية السائلة إلى الميت للمحافظة على بقاء الروح فى رحلتها إلى العالم الآخر.

من الواضح أنه تفسير ملتو تماما ولا يستند على أى أسس، إن قلنا إن سكان قبرص قد انتظروا خمسمائة عام قبل أن يبدأوا فى تقليد مقابر وأقبية مدينة الموتى فى راس شمرا (مينة البيدا)..

إنه تفسير لا يمكن الدفاع عنه حقاً، ليس فقط بسبب التصميم المعماري المتماثل والذي شهد أن التأثير قد انتقل من جزيرة قبرص إلى أرض الساحل، أو من أرض الساحل إلى الجزيرة، ولكن بسبب الخزف الذي وجد في تلك المقابر.. لقد نشر تقرير بعد العام الأول من بداية التنقيب في راس شمرا، وجاء فيه:

«إن التأثر الذي يبدو واضحاً، إن لم يكن في راس شمرا نفسها، فإنه يبدو بصورة جلية في المقابر القريبة منها في منية البيدا وهو تأثر بالأصل الموجود بقبرص، والمقابر الموجودة في منية البيدا قد أخذت الشكل القبرصي وتصميمه المعماري، بل حتى الزهريات الملونة، والتي تكون جزءاً كبيراً من أثاث المقابر، وهي تبدو بمنتهى الوضوح قبرصية في مجملها» (١٢).

العناصر اليونانية في كتابات راس شمرا

لم تكن راس شمرا مجرد مدينة بحرية تتاجر في الأسلحة القبرصية المصنوعة من النحاس، والنبيذ والزيوت والعطور والأواني الصغيرة والكبيرة، والتي وجد منها المئات، ولكنها كانت أيضا مركزاً للتعليم. كان براس شمرا مدرسة للكتبة والناسخين، كما كان بها مكتبة. وفي تلك المدرسة كان كتبة المستقبل يتعلمون قراءة وكتابة أربع لغات على الأقل.

وقد وجدت ألواح من الطين بين الأتربة وتحت الحوائط المنهارة لمبنى المدرسة الذي حطمته الأيدي البشرية أو قوى الطبيعة حين كانت تفلت من عقالها .. وكانت كل مجموعة الألواح مكتوبة بالمسمارية بأربع لغات مختلفة، وقد قُرئت لغتان منها بسهولة وهما: السومارية وهي «اللغة الميتة» بالنسبة للدارسين والأكادية، وهي لغة الأعمال والسياسة في عالم بابل.

إن مراسلات الأعمال والفواتير التجارية وطلبات التوريد كلها كانت باللغة الأكادية وقد تمت قراءتها. ووجد أيضاً لوحان يتشابهان تماماً مع مجموعة تل العمارنة بمصر، وبسبب هذين اللوحين تم الربط بشدة بين راس شمرا وبين مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة، كما وجدت بعض

الألواح الضخمة، وكانت عبارة عن معاجم لغوية بلغتين، وأحيانا بثلاث لغات وكانت توجد على بعض تلك الألواح علامة عن «حقوق النسخ» وهى إقرار أن هذه الألواح قد صنعت بأمر نيكميد ملك أوجاريت.

إن اسم نيكوميدس اسم يونانى قديم (١٤) والتشابه بين اسم نيكوميدس الذى يعد اسماً أيونياً واسم ملك أوجاريت «نيكميد» هو تشابه واضح لدرجة أنه بعد اكتشاف اسم الملك فى أوجاريت فإن اثنين من الباحثين (١٥)، واللذين يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر نسبوا ذلك الاسم إلى الملك اليونانى. إلا أن آخرين غيرهم لم يقبلوا الربط بين اسم الملك نيكميد، (الذى سجل اسمه أيضا فى نفس المدينة نكميس ونكميديس) وبين نيكوميدس الملك اليونانى. وتساءلوا كيف يتأتى لاسم ايونى أن يكون مستخدماً فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أما أولئك الذى أيدوا الربط بين الاسمين لم يستطيعوا أن يدافعوا عن وجهة نظرهم ضد حسابات التاريخ التقليدى (١٦). كانت أوجاريت مدينة بحرية، وكان سكانها يعتنقون مختلف الديانات الوثنية.

وتصف إحدى الوثائق التى اكتشفت بالمدينة طرد الملك نيكميد، وكل المجموعات الأجنبية من المدنية (*) ومن بين تلك المجوعات الأجنبية شعوب من الأزيا (قبرص)، وخار (فسرت على أنها خوريت)، وجم - آن، والاسم الأخير عرّفه المحللون بأنه جامانيو المشهورة فى النقوش الآشورية وتعنى الأيونيون (١٧) ولم يقبل تفسير اسم جم - آن بسبب أن وجود هذا الاسم الأيونى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد مستحيل تماماً من وجهة النظر التاريخية وفى موضع من النقش حيث ذكرت أسماء الشعوب التى طردت، يظهر مرة أخرى اسم دايديم، ومرة أخرى يفسر المحللون ذلك الاسم على أنه اسم مدينة دايديما فى أيونيا (١٨) وقد اشتهرت تلك المدينة بعبادة الإله أبوللو ديديميوس. ومرة ثانية نجد أن اسم الإله ديديميوس (ددمس) مذكور فى لوح آخر من ألواح راس شمرا، ولم يتحرك المحللون (١٩) يميناً ولا يساراً وترجموها كـ« أبولون ديديميوس». إن الآثار التى اكتشفت فى موقع مدينة دايديميا ذاتها، تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد (٢٠) أما فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد فقد كان

(*) سيرد ذلك بالتفصيل فى الفصول القادمة (المترجم).

من المستحيل ذكر أسماء كايونيا أو عبادة أبوللو ديديميوس. إن التتابع للتاريخ التقليدى لا يستقيم مع ذكر أسماء أيونية مثل الملك نيكميد أو الاسم الأيونى لمدينة دايديميا أو العبادة اليونانية لإله تلك المدينة، أو الأسماء الأيونية الأخرى الشديدة الوضوح والدلالة التى ذكرت فى وثائق راس شمرا .....

كل تلك الأسماء وجدت هناك ولم يتقدم أحد بأى تفسير بدلا من تلك النظريات المرفوضة من جانبهم عن مستعمرة أيونية من مدينة دايديميا بالقرب من ميلطا فى أيونيا والتى وصلت إلى أوجاريت كجالية أجنبية ثم طردت مع ملكها ذى الأصل والاسم الأيونى، الملك نيكميد (٢١)، وما يمكن قوله، إنه لا يوجد ذرة احتمال مع قراءة تلك الوثائق أنها تنتمى بأية حال إلى القرنين السادس عشر والخامس عشر، قبل الميلاد.

ومن بين الألواح التى وجدت فى راس شمرا، كان هناك «دليل بحرى» وهو عبارة عن وصف لأنواع السفن ومعجم بحرى عن مختلف أشكال واستعمالات السفن من حربية، وتجارية، وسفن نقل ركاب، وقوارب سباق، وزوارق صيد، إلى سفن نقل القوات، وكلها مسجلة فى قوائم .. وتجد فى الجزء الثانى من الإلياذة دليلاً مشابهاً عن السفن. وقد فسر ذلك الجزء من الإلياذة بأنه دخيل ومقحم عليها وكان ذلك قبل اكتشاف راس شمرا. ولكن حين أشار أحد الدارسين (٢٢) بعد ذلك إلى التماثيل بين دليل راس شمرا ودليل الإلياذة، فقد روجع الموضوع مرة أخرى ووضعت نظرية أخرى تحمل معنى جديدا يقول: «إن الإلياذة كما يتفق باحثون معاصرون، لا يوجد أى إدخال أو تزويد فى نصوصها، ولكن هناك تاريخاً طويلاً لذلك الدليل، حيث أظهرت مراجع راس شمرا أنهم كانوا يرسمون تلك الأدلة فى ميناء أوجاريت قبل دليل هوميروس بعدة قرون».

إن الاتجاه العام والمقبول لتقدير عمر الإلياذة منذ كتابتها هو أنها كتبت فى القرن السابع قبل الميلاد، أما ما يخص زمن تأليفها فإن وجهات النظر اختلطت وتضاربت، وامتدت المساحة الزمنية لهذا التضارب من القرن الثامن عشر حتى القرن السابع ق. م، وبوضع الملك نيكميد فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فإن النتيجة الوحيدة والمحتملة ... بمقارنة الدليلين البحريين هى أنه كان

هناك دليل بحرى قبل أى تاريخ مبكر للإلياذة بعدة مئات من السنين، ومن ذلك الدليل اقتبس الشاعر ذلك الجزء من القصيدة.

العناصر العبرية
مقارنة مدينتين وعصرين

كانت اللغة الثالثة فى ألواح راس شمرا مكتوبة بالمسمارية أيضاً (كانت اللغة الأولى والثانية هى السومرية والأكادية)، ولم تلبث اللغة الثالثة أن باحت بسرها هى الأخرى ... وكان من الواضح أن الألواح الكبيرة مكتوبة بحروف هجائية، فلم تكن الكتابة المسمارية التى عليها مسجلة بطريقة الرموز المصورة كما لم تكن أصواتاً مقطعية، حيث كانت الكتابة بالأصوات المقطعية مثل الأكادية تستخدم مئات من العلامات المختلفة، وبعكس ذلك نجد أن الكتابة بالحروف الهجائية تستخدم عدداً أقل كثيراً جداً من الحروف الصوتية. وفى اللغة الثالثة هذه لم يكن هناك إلا ثلاثون شكلاً مختلفاً. وكان هناك نموذج آخر معروف سلفاً لدى الباحثين لتبسيط الكتابة المسمارية، وهو نموذج اللغة الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد، حيث كانت تستخدم هى الأخرى حروفاً مسمارية هجائية مكونة من ستة وثلاثين شكلا (٢٤).

وواتت فكرة ذكية أكثر من باحث فى واقت واحد، وهى أن تلك اللغة الثالثة ربما كانت اللغة العبرية القديمة مكتوبة بأشكال مسمارية. وجاءت محاولة إحلال حروف عبرية محل الأشكال والعلامات المسمارية بنتائج ناجحة تماماً. وقد طبعت بعض النصوص بعد ترجمتها، وأعيدت طباعتها بالعبرية (٢٦).

وكان أحد أسباب سهولة قراءة تلك النصوص هو وجود خطوط فاصلة بعد كل كلمة من تلك النقوش والتى وجدت على ألواح راس شمرا - أوجاريت. وبالمثل احتوت النصوص القبرصية التى تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد على نفس الخطوط بعد كل كلمة لفصلها عما بعدها، وكان ذلك موضع بحث بعض الباحثين، ولكن قوبلت تلك المحاولات بإصرار على أن هناك أكثر من ستمائة عام قد مرت قبل أن ينتقل ذلك الشكل من

الكتابة إلى جزيرة قبرص (٢٧) ... مرة أخرى نواجه تلك الستمائة عام، .. وكما وجدنا فى حالة تماثل غرف الدفن، اقتضى الأمر مرة أخرى ستمائة عام من التأخير قبل أن يبدأ القبارصة فى تقليد جيرانهم الذين كانوا لا يبعدون عنهم أكثر من ستين ميلا.

وبشغف لا يدانيه إلا شغف مكتشفى الكنوز الدفينة، شمر الباحثون عن سواعدهم وراحوا يقرأون الرسائل العبرية القديمة، وأحسوا قبل أن ينتهوا منها أن تلك الألواح أقدم بما يقرب من ستمائة عام من أقدم كتابة عبرية عرفت قبل تلك الألواح. كان الكشف مذهلا، لأن ذلك يعنى أن تلك الكتابة تسبق زمن دخول الإسرائيليين إلى كنعان بعدة مئات من السنين، وهو إثبات لا يقبل الجدل بأن الكنعانيين لم يستخدموا تلك اللغة العبرية كلغة تخاطب فقط (٢٨)، بل إنها كانت لغة مكتوبة وبحروف أبجدية كما هو ثابت من ألواح راس شمرا (٢٩).

إن الكتابة بحروف أبجدية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد كما هو مفترض من تلك الألواح كان كشفاً مذهلا لعلماء اللغات القديمة والباحثين فى تاريخ الحضارة الإنسانية «وبما أن هذه الوثائق تعود إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد، فإن أبجدية راس شمرا تعتبر من بين الأبجديات الأولى التى تكونت فى تاريخ العالم. بل تعد فعلا الأولى من بين الأبجديات التى عرفت حتى الآن» (٣٠).

إن أبجديات راس شمرا العبرية - المسمارية، ليست عملاً بدائياً رائداً، لأنها تحتوى على ملامح لغوية تدل على أنها كانت فى مرحلة متقدمة من التطور ...

«إن أبجدية راس شمرا تعد أبجدية متطورة بالفعل، مما يثبت أنه ما زالت هناك أشكال أكثر بدائية سبقتها، ويجب أن نكثف الجهود فى البحث عنها» (٣١).

وأما المادة المسجلة والتى سجلها الكنعانيون الأوائل فقد فاقت هى الأخرى كل توقع .. فطبقاً للصورة التى رسمتها التوراة عن الكنعانيين، فإن الظن الغالب أن صورة الكنعانيين هى صورة أجيال شريرة بائسة، على درجة متدنية من التحضر. ولكن ما اتضح من النصوص المسجلة أظهر صورة شعب جليل. ففى سفر اللاويين كما فى أسفار التوراة

الأخرى، ألصقت بالكنعانيين صفات الظلم والجور والرذائل والشرور وأن البلاد «كانت ملوثة ونجسة بوجودهم ويبدو ذلك موقفاً منحازاً من المؤرخين الإسرائيليين، فألواح راس شمرا على ما هى عليه، تبرز ثقافة ذات نبض قوى، عالية المعنويات، يسودها حب النظام والعدل».

وبمثل تلك المستندات فإننا نجد أن «الإسرائيليين الأوائل لم يختلفوا كثيراً عن الكنعانيين» (٣٢).

إن نصوص راس شمرا العبرية فى أغلبها عبارة عن قصائد شعرية تتغنى بمآثر البطولة والشجاعة، ومعارك الآلهة، والمغامرات وحروب الأبطال. إن هيكل كل آلهة راس شمرا (٣٣) كان يتكون من عدد من الآلهة، وكان «بعل» واحداً منهم. ولكن الإله الأكبر كان إيل (٣٤)، ولذلك كان يطلق على أرض الكنعانيين اسم «كل أرض إيل» ووصلت سيادته وتفوقه على بقية الآلهة إلى أن قيل عنه «لا يبدل أحد ما أراده إيل» وهو نفس ما ذكر بالتوراة ولكن باسم الرب إله الإسرائيليين، ويعد ذلك «دلالة واضحة على ميل الكنعانيين إلى عبادة إله واحد فى الديانات الكنعانية» (٣٥). وعدا أن إيل لم يكن الإله الوحيد للكنعانيين، إلا أنه موصوف فى نصوص راس شمرا بأوصاف هومرية (نسبة إلى هوميروس) تعد غريبة على التوراة، مثل «ضحك إيل من كل قلبه وطرقع بأصابعه».

وعدا اسم إيل المذكور كإله أكبر فى القصائد الشعرية، وخصوصاً قصيدة البطل كريت عن البطولات فى أرض النقب، فإن اسم «يهوه» موجود هو الآخر فى ألواح راس شمرا (٣٦). وهناك تعبيرات نادرة وبعض الأسماء المذكورة فى نصوص راس شمرا، وجد مثيل لها ونفس الأسماء على آثار أخرى تنتمى إلى القرن السابع قبل الميلاد.

ومن التعبيرات غير العادية بأية حال هناك تعبير على ألواح راس شمرا يقول «عشتارت، اسم بعل»، وقد وجد نفس التعبير على مقبرة أشميد نصّر ملك صيدا الفينيقى فى القرن الخامس قبل الميلاد (٣٨).

إن الصورة الدينية لقصائد راس شمرا استخدمت فى صياغتها ما يطلق عليه الخيالات العقائدية فى التوراة، فمن التوراة نجد تعبيراً مثل: ليبياثان: الحية المتحوية (سفر أشعيا ٢٧: ١) ذات الرؤوس المتعددة (المزامير ٧٤: ١٤)، ومن القصائد الدينية فى راس شمرا نجد اسم لوثان

وهو «ثعبان سريع الحركة ومعقوف» وذو سبعة رؤوس. وهناك فى إحدى القصائد تعبير مذكور على لسان إيل، ويبدو كأنه إشارة إلى عمل بطولى مثل شق بحر «يام – سوف»، وأيضاً فعل «يمزق أرباً» استخدم فى نصوص راس شمرا كما استخدم فى المزامير (١٣٦: ١٣)، وكانت النتيجة المستخلصة من ذلك التشابه هى أنه قبل زمن طويل من الخروج والمرور عبر البحر الأحمر، عرف الكنعانيون فى فلسطين مثل تلك الأسطورة الدينية (٣٩).

إن اللغة المستخدمة فى قصائد راس شمرا من جهة الكلمات وأصولها، وتركيبها فى جمل «مماثلة بطريقة مذهلة» (٤٠) للغة وأصل كلمات وتركيبات جمل التوراة، مع الأشكال المميزة للمثنى والجمع، بشكليه، المذكر والمؤنث.

إن طول بحر القصيدة وتقسيم الشطرات إلى ثلاث كلمات، وتوازن الموسيقى الداخلية موجود أيضاً فى التوراة (٤١)، «وتلك المواصفات هى ما ميزت الشعر العبرى. وحتى اللغة كما لاحظناها من بعض نصوص راس شمرا نجدها توراتية بالكامل» (٤٢) ولذلك تم التوصل إلى نتيجة ترى أن العبرية والفينيقية معا قد اشتقا من الكنعانية، التى يمكن اعتبارها على هذا الأساس لغة عبرية مبكرة (٤٣).

«هناك تماثل مذهل فى مفردات اللغة والأسلوب الواحد» (٤٤) فى نصوص راس شمرا وفى التوراة. فهنا وهناك نجد تعبيرات وأحاديث تميزت بها المزامير، منها على سبيل المثال تعبير «رويت مركبتى بدموعى».

«إن الشكل مماثل لأغلب الأسفار الشعرية فى أسفار العهد القديم (التوراة)، وبالذات سفر أشعيا. ونحن نرى أن الفينيقيين فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد استخدموا القافية والأشكال الشعرية التى وصلت إلى قمة تطورها فى نشيد الإنشاد ... حتى أنه توجد تعبيرات مركبة تعتبر متماثلة فى اللغتين مثل تعبير (رابطة جماعة بيت – حاقر) والتى ذكرت فى أحد الألواح فى راس شمرا، كما ذكرت أيضاً فى سفر الأمثال (٤٦) «وباختصار «فهناك تماثل يفوق الحصر بين ما جاء بألواح راس شمرا، وبين العهد القديم (التوراة) من الكلمات والشكل الشعرى»

كما أن هناك علاقة وطيدة بين ما جاء بألواح راس شمرا، وأدب ومعارف العهد القديم» (٤٨).

إن العقيدة الدينية كما تبدو من قصائد ونصوص راس شمرا تحمل أيضاً تماثلا ما مع عقيدة الإسرائيليين ... لقد كان لديهم أيضاً ما يسمى راف كوهانيم (الحاخام الأكبر) ... كما عثر على مطارق منقوش عليها إهداء إلى راف كوهانيم. وأيضاً التقدمة التى تسمى «مكان تام» والمعروفة من طقوس الصلاة فى هيكل سليمان، مذكورة هى الأخرى فى نصوص راس شمرا. وكان ختان الذكور من ضمن العادات السائدة فى راس شمرا وقد ذكر ذلك على نقوش صخرة فالى، التى وجدت فى إحدى المدن الفينيقية القديمة (٤٩).

وجاء التحريم اليهودى الذى يمنع طهى لحم العجل فى لبن أمه موجهاً ضد عادة كانت منتشرة قبل اليهودية، حين كان لحم العجل المطهى بلبن أمه أحد الأطباق المفضلة فى راس شمرا كما تشير نصوصها.

من كل ما سبق فقد وصل الباحثون إلى النتيجة التالية: «إن العادات والتقاليد والثقافة والعقائد الدينية لدى الإسرائيليين، مرتبطة بشكل وثيق بالكنعانيين الأوائل. ولما كان جامعو ومؤلفو العهد القديم (التوراة) على يقين كامل من ذلك الأمر، فمن ثم، كانت مخاوفهم التى دفعتهم إلى محاولة قطع الصلات بذلك الماضى، وإخفاء فضله عليه» (٥٠).

وحتى ما يتصل بالتفاصيل الدقيقة للحياة اليومية فى راس شمرا فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد (طبقاً للتاريخ التقليدى)*، والحياة اليومية فى أورشليم بعد ذلك بستمائة أو سبعمائة عام، فقد كان التماثل بينها مذهلا. فحين زار أشعيا الملك حزقيا، الذى كان يعانى من جرح خطير، وصف له أشعيا التداوى بـ «ديبالة»، وهى علاج مكون من التين الذى يوضع على الجرح الملتهب. وقد وجدت الديبالة مسجلة أيضاً فى الوصفات الطبية لأطباء راس شمرا، كما وجدت أيضاً مذكورة فى الأبحاث البيطرية. والمستخلص من ذلك أن «النبى أشعيا استغل وصفة علاجية قديمة جداً، معروفة من قبل زمنه للبيطريين فى أوجاريت فى القرنين الخامس عشر، والرابع عشر قبل الميلاد» (٥١).

(*) المترجم.

إن حالة التطابق هذه بين الوصفات الطبية فى راس شمرا وبين التوراة ليست حالة فريدة «ففى نفس البحث البيطرى نجد أيضاً بعض المصطلحات الفنية تتماثل تماماً مع ما يقابلها فى التوراة، والتى تؤكد أكثر على طبيعة العلاقة بين نصوص راس شمرا والتوراة» (٥٢) والخلاصة العامة فيما يتعلق بالطب هى «أن المصطلحات الفنية تظهر تماثلا مذهلا فى مجال التطبيب والمداواة بين الكنعانيين أو الفينيقيين الأوائل، وبين تلك التى كانت موجودة فى عصر ملوك يهوذا» (٥٣).

أما الأوزان والمقاييس فى راس شمرا، فقد كانت هى ذاتها التى ذكرت فى التوراة. ففى النظام النقدى السومرى - البابلى، كانت وحدة النقد تقسم إلى ٣٦٠٠ شاقل فى حين أنه مذكور فى التوراة (الخروج ٣٨: ٢٥ - ٢٧) أن وحدة النقد تساوى ٣٠٠٠ شاقل فهل كان كان ذلك تحديدا جانبه الصواب؟ ولكن نجد أن نصوص راس شمرا هى الأخرى تذكر أن وحدة النقد تقسم إلى ٣٠٠٠ شاقل (٥٤).

حتى الحلى الذهبية التى استخدمتها عذراوات راس شمرا، وهى مذكورة فى نصوصها: وتم الكشف عن كثير منها بين أنقاض راس شمرا. (٥٥) حيث نجد أن «ثلاثة من أنواع القلائد الذهبية قد ذكرت بأسمائها فى نصوص راس شمرا وهى (عشتروت) و (الشموس) و (الأقمار) والكلمة التى استخدمت فى النص بمعنى شمس هى (شبش) وكلمة شبش هى ما يقابل كلمة (شبيش) للدلالة على الشمس فى سفر أشعيا ٣: ١٨ (٥٦). وقد ألمح نفس النبىّ إلى الأهلة والقلائد التى على شكل قمر. لقد وجدنا فى راس شمرا ليس فقط أسماء الحلى الذهبية فى النصوص الكنعانية، ولكن وجدنا الحلى ذاتها التى سيحرم الرب منها بنات صهيون المتغطرسات كما جاء فى سفر أشعيا» (٥٧).

إن الحلى التى ذكرت أسماؤها فى لعنة النبى أشعيا، تم العثور عليها فى راس شمرا. وتقول لعنة أشعيا «وقال الرب، من أجل أن بنات صهيون يتشامخن، ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن، وخاطرات فى مشيهن، ويخشخشن بأرجلهن، يصلع السيد هامة بنات صهيون، ويعرى الرب عورتهن، ينزع السيد فى ذلك اليوم زينة الخلاخيل، والضفائر والأهلة، واللحق والأساور، والبراقع والعصائب، والسلاسل والمناطق،

وحناجر الشمّامات والأحراز والخواتم، وخزائم الأنف والثياب المزخرفة، والعطف والأردية والأكياس، والمرائى والقمصان والعمائم والأزر. فيكون عوض الطيب عفونة، وعوض المنطقة حبل، وعوض الجدائل قرعة، وعوض الديباج زنار مسح، وعوض الجمال كىّ، رجالك يسقطون بالسيف، وأبطالك فى الحرب، فتئن وتنوح أبوابها وهى فارغة تجلس على الأرض، (أشعيا ٣: ١٦:٢٦).

أما فى ساعات الحزن والأسى والنواح، فقد كان التراب يهال فوق الرأس من شدة الحزن .. كان ذلك يحدث فى أوجاريت القديمة كما كان يحدث فى أورشليم، وقد وجد ذلك فى نصوص راس شمرا كما وجد فى التوراة.

إن التماثل التام فى الشكل والمضمون الأدبى والشعرى، وفى المقاييس، والمعتقدات الدينية، والعبادات، والأزياء، وفى الموازين والمكاييل والعلوم الطبية، والملابس والمجوهرات والتى أكدها وأعاد تأكيدها الباحثون المعاصرون بعد حفريات راس شمرا، كل ذلك التماثل والتطابق إنما يشير بشكل قاطع إلى وجود أوجاريت وأورشليم فى زمن واحد هو القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ... تلك هى حقيقة النصوص المكتشفة فى أوجاريت والتى كانت تعد معاصرة للحضارتين، المصرية والمسينية فى القرنين الخامس عشر، والرابع عشر قبل الميلاد.

نقد التوراة: ووثائق راس شمرا

حتى سبعين عاماً مضت، كانت مذاهب جديدة فى نقد التوراة تنتشر من معظم الكاتدرائيات ذات الميول العصرية فى تفسير التوراة، حتى أصبح موضوع الوعظ المفضل على كثير من المنابر، ومن المفاهيم الأساسية لذلك الاتجاه النقدى الحديث، المفهومان التاليان:

١- قبل عصر ملوك اليهود (أو قبل عام ١٠٠٠ ق .م) لم تكن هناك وثائق مكتوبة بين الإسرائيليين.

٢- أغلب مقاطع النصوص التوراتية تنتمى إلى تاريخ أحدث كثيراً عما توحى به النصوص ذاتها ... ومتأخرة كثيراً عن الزمن الذى تنسبه

المفاهيم الدينية إليها.

وبعد عام ١٩٣٠، أي بعد اكتشاف ألواح رأش شمرا، اعتبروها دليلا على:

١- أن العبرية كانت لغة مكتوبة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد في نصوص مسجلة بحروف هجائية مكتملة التطور والتي تدل على أن هناك زمناً طويلاً قد سبقها للوصوص بها إلى هذه الدرجة من التطور.

٢- أن عديداً من المعتقدات التوراتية والقصص التي جاءت بها كانت موجودة وحية، وأن النمط والأسلوب في التوراة، والشكل الشعري وطرق التعبير كلها، كانت مستعملة لما يزيد عن ستمائة عام قبل كتابة أسفار التوراة.

لقد كانت الفوضى كبيرة (٥٨)، فعلى مدى ثلاثة أجيال كان الباحثون والدارسون الذين تجتذب محاضراتهم الطلاب من مسافات بعيدة، وكذا كتاب الموسوعات العلمية ومؤلفو كتب التفسير - كانوا جميعاً - يتجهون إلى التقليل من عمر التوراة، حتى أنهم افترضوا أن تأليف معظم أسفار التوراة قد تم بعد الإنجيل وليس قبله، وكان الدعم الأساسي لهذه الفرضية مبنياً على اعتبارات لغوية، مع نظرة عامة عن التطور الطبيعي للفكر الديني.

وكان من الممكن تجريبياً إثبات أن تعبيراً أو آخر من تعبيرات المزامير أو سفر الأمثال، من المستحيل استخدامه لغوياً في عصر داود أو سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكن بعد اكتشاف ألواح راس شمرا التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق. م. وجد أن نفس المفردات اللغوية كانت مستخدمة .. كما كان هناك ميل ذو أصل متأخر نسبياً يرى أن بعض الأنبياء وكثيراً من رسالاتهم، كانت موضوعة أو محرفة أو دُسّ عليها كثير من الرؤى الدخيلة أثناء العصر الهيليني اليوناني الذي تلا غزو الاسكندر لفلسطين عام ٣٣٢ ق. م، كما افترض أن عديداً من الجمل قد حملت بإشارات ضمنية لأحداث الحرب المكابية (*) ضد السيلوستينيين (**) بعد النبي أشعيا بستمائة عام تقريبا.

* المكابيون: أسرة معروفة في تاريخ العبرانيين. (المترجم).
** السيلوستينيين: الأسر التي حكمت سوريا إبان الغزو الإغريقي (المترجم).

أما بعد اكتشاف ألواح راس شمرا فقد وجدت نفس التعبيرات وذات الأفكار مسجلة عليها، والتى يعود تاريخها إلى ستمائة أو سبعمائة عام قبل عصر الأنبياء المبكرين. «وبالوثائق الحالية فإن تاريخ اللغة العبرية والحضارة السورية يبعد زمنهما أكثر فى التاريخ ويصل إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد» (٥٩) (عام ١٥٠٠ ق.م).

لقد اعتبرت كل النظريات التى تنتمى إلى أصل حديث نسبيا، وكل الاستنتاجات التى ترتبت عليها عقيمة وغير ذات قيمة أمام البرهان الثابت للألواح الطينية (٦٠).

وذهب نقد التوراة إلى مذاهب بعيدة مؤلمة، حتى أنه أنكر على يهودية ما قبل النفى الكثير من منجزاتها، وذلك بإرجاع الكثير مما ورد فى التوراة من إصلاحات اجتماعية وأخلاقية، والأوامر الدينية إلى عصر ما بعد النفى إلى بابل، ونسب ناقدو التوراة أغلب الإصلاحات المذكورة فيها إلى فترة النفى فى بابل، كما نسبوا بعضها الأخر إلى الفترة السيلوستينية وإلى التأثر بالفكر الإغريقى.

إن وجهة النظر الحديثة التى برزت بعد اكتشاف ألواح راس شمرا، تعتبر أن العناصر الاجتماعية والدينية والحضارية فى التوراة، منقولة كلها عن أصول كنعانية (٦١)، على اعتبار أن تلك الأصول الكنعانية كانت موجودة قبل أن تجمع فى التوراة بستمائة عام على الأقل، ولذلك لا يمكن أن تكون تلك العناصر ذات أصل يهودى. ليس ذلك فحسب، بل إن الكنعانيين هم من مهدوا الطريق للمفاهيم الدينية اليهودية، حيث كانت قصائدهم الشعرية تحمل كثيراً من القيم الاخلاقية، كما أن لغتهم ونمط الحروف الهجائية وإيقاعاتها قد ورثها اليهود عنهم، وأن روح الشعب التواقة إلى العدل وتكوين المؤسسة الاجتماعية، وشجن الأنبياء، كانت كلها كنعانية قبل أن تصبح إسرائيلية بمئات من السنين (٦٢).

كل ذلك وكثير غيره من الاستنتاجات، فرض نفسه بسبب الزمن الذى نسبت إليه ألواح راس شمرا الطينية.

وفى مواجهة التماثل المذهل بين اللغة والأسلوب والشكل الشعرى، والتعبيرات العلمية، والأفكار الأخلاقية، والفكر الدينى وطقوس المعبد، والهيئات الاجتماعية وثراء الخيال فى بناء الأساطير والمعتقدات،

والمعارف الطبية، وطرز الملابس والمجوهرات والحلى كما تبدو من خلال مقارنة ألواح راس شمرا والتوراة، فإن النتيجة المنطقية كانت تملى نسب الألواح ونصوص التوراة اللذين يحملان ذلك التماثل إلى عصر واحد، ولكن هذا الاستنتاج لم يخطر بذهن أحد ربما بسبب العقبة التى وضعها التاريخ التقليدى والمشار إليها سابقاً.

إن مراجعة التعاقب الزمنى تتطلب إعادة تقدير الزمن الذى ترجع إليه محتويات راس شمرا (المستوى الأول من سطح الأرض) ومقارنته بعصر ملوك يهوذا حتى يهوشافات، إن وجود تماثل فى الحياة اليومية بفلسطين وفى حياة مدينة سورية فى ذات العصر، وحيث كانت لغات الشعوب المجاورة تدرس بشكل عادى، فإن ذلك يبدو بدوره أمراً طبيعياً للغاية. ولو كانت إعادة بناء تاريخ العالم عن طريق تصحيح وضع خمسمائة أو ستمائة عام تضع عينا على العرف والتقاليد الموضوعة للتاريخ، فكيف إذاً يجتاز الضمير العلمى للإنسان فراغاً ذا بعد مزدوج؟ وكيف يوفق بين مجهودات مجدة ودؤوبة فى نقد التوراة وبين مكتشفات راس شمرا ؟. إن المدى إثنا عشر قرناً.

لغة سكان الكهوف أم لغة كارية؟

كانت اللغة الرابعة والمكتوبة بالمسمارية فى مكتبة ألواح راس شمرا تسمى خار واحتوت الألواح على كلمات سومرية يقابلها تفسيرها بلغة الخار كما كانت تسمى.

ويبدو أنها كانت اللغة السائدة فى المدينة ولغة الدوائر الرسمية ومعظم سكانها. وبالرغم من الاستعانة بالقواميس المقطعية ثنائية اللغة الموجودة فى ألواح راس شمرا، فإن التمكن من قراءة لغة الخار ليس نهائياً بعد.

كانت مهمة علماء أصول اللغات ستصبح أكثر يسراً لو كانت الألواح تحتوى على لغة الخار ويقابلها تفسيرها باللغة السومرية ولكن لسوء الحظ كان العكس هو ما وجد على الألواح.

قبل حفريات راس شمرا كان هناك ذكر متكرر عن لغة تسمى «خر»

وجدت فى عديد من الوثائق الأثرية والتاريخية، وهناك مراجع أكادية تحدثت عن ما يسمى «خورى» وفى الوثائق المصرية كان جزء من سوريا غالباً ما يسمى «خارو».

وقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن الإشارة عند الآشوريين والمصريين إلى تلك اللغة كان المقصود بها لغة الحوريين، أو لغة سكان الكهوف كما جاء فى الفصول الأولى من التوراة (٦٣).

وبعد اكتشاف سجلات تل العمارنة بمصر، وجد أن واحدة من رسائل ذلك السجل قد كتبت - باستثناء المقدمة - بلغة مجهولة، والرسالة كانت من تو شراطا ملك الميتانيين ومكونة من ستمائة سطر عن بعض الأمور التى فسرت بمقارنتها برسائل أخرى، وبذلك تم إماطة اللثام عن وجود تلك اللغة المجهولة، وأطلق عليها فى البداية اللغة الميتانية، ولكن سميت بعد ذلك اللغة السوبارية.

وحدث بعد ذلك أن وجد فى سجلات أثرية عند بوغاز كينوى شرق الأناضول على بعض الألواح المكتوبة بنفس تلك اللغة الغريبة وسميت هناك باسم «كرى» وسمى الشعب الذى تحدث بتلك اللغة بشعب «خر». وقرأ الباحثون والدارسون الاسم بطريقة مختلفة فأطلقوا عليها اسم «خار» وأحياناً «خورش وفى النهاية استقروا على اسم خور كإسم أكثر قبولا لتلك اللغة، كما سموا الشعب الذى كان يتحدث بتلك اللغة باسم الحوريين. وبالرغم من أن لغة الشعب كانت مكتوبة، فقد ظل كثير من الباحثين يربطون ما بين لغة الحوريين تلك، وبين لغة سكان الكهوف (٦٤).

ثم ظهر دليل قاطع على ارتباط الحوريين بفلسطين، فعلى ألواح مكتشفة فى تل تعنك فى وادى جزريل بفلسطين، وجدت أسماء خورية مذكورة عليها.

ومع كل اكتشاف جديد كان يبدو أن لغة الحوريين كانت ذات تأثير كبير ونفوذ وحضور قوى على حضارة الشرق الأدنى القديم، حتى أنه قيل إن وصول الحوريين إلى ذلك الجزء من العالم كان إيذاناً بانبلاج فجر حضارى جديد (٦٥)، وبمعنى أو بآخر فقد كانوا قوة قائدة، وقصة «انتشارهم الواسع والسريع من أرمينيا حتى جنوب فلسطين ومن

سواحل البحر المتوسط حتى بلاد فارس، تشكل اكثر الفصول إثارة فى تاريخ الشرق الأدنى القديم» (٦٦) لقد بذلت محاولات مضنية فى دراسة تلك اللغة وفى محاولات فك طلاسمها (٦٧)، ولكن لم يتوصل أحد إلى معرفة أى شىء عن تاريخها أو تاريخ شعبها على وجه التحديد والدقة.

لقد كانت اللغة الحورية تبدو كلغة بلا شعب، كما لم يكن المتحدثون بها من الساميين، ولم يكونوا أيضاً من الشعوب الهند إيرانية (٦٨).

ثم ظهرت إلى الوجود لغة الخار فى راس شمرا والمكتوبة بحروف هجائية، وحيث إن الترجمة التى كانت على الألواح من اللغات الأخرى إلى لغة الخار، فقد كان ذلك يعنى أن سكان المنطقة على الأقل كانوا يستعملون لغة الخار كلغة الحياة اليومية والمعاملات السائدة بينهم.

من كان إذاً شعب الخار أولئك الذين تركوا اسمهم فى سوريا، ولغتهم فى آسيا الصغرى وأرض الميتانيين، كما كانوا يحتلون قلعة فى فلسطين، والذين كان تأثيرهم فى كل مكان ولم يعرف لهم مكان على وجه التحديد، والذين لم يكونوا ساميين ولا هند - إيرانيين؟.

لقد اتضح بعد ذلك أن لغة الخار لم تكن لغة مكتوبة فقط بل إنها وجدت مترجمة إلى عديد من اللغات الأخرى القديمة، وقد أعطى كل ذلك تلك اللغة سمت اللغة الأساسية المعجمية (كثير من القاعات فى مكتبة نكميد لم يحتو إلا على قواميس ومعاجم لوحية) (٦٩)، وبالتالى فإن الاعتقاد بأن لغة الخار كانت لغة سكان الكهوف المذكورين فى التوراة تبدو كفكرة من الصعب تصديقها. كما يبدو أن اسم شعب الحوريين ذلك الذى ركن إليه كثير لم يكن إلا ابتداع خيال علماء اللغات المحدثين.

ولو حركنا أزمان التاريخ التقليدى خمسمائة أو ستمائة عام للأمام باتجاه عصرنا، فإننا سنبدأ فى التساؤل إن كانت لغة الخار المعنية هى نفس اللغة الكارية التى تذكر فى الأدب القديم، وفى اللغة المصرية القديمة التى كانت تسمى البحر المتوسط بحر كار أو خار نسبة إليهم ... فهل كان اسمه بحر سكان الكهوف، أو بحر الكاريين؟

لقد عاش الكاريون على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وكان لهم مستعمرات فى مناطق عديدة من العالم، كما كانوا يتركون أسماءهم على مقاطع من تسميات الأماكن الجغرافية مثل كار أو كارت أو كريت (٧٠).

وفى عصور مبكرة - مثل عصر الملك شبه الأسطورى مينوس فى جزيرة كريت - بنوا الأسطول البحرى لجزيرة كريت. ويقول هيرودوت إنهم فى ذلك الوقت كانوا من سكان الجزر، وخدموا كبحارة فى سفن الملك مينوس ملك كريت، وإن «الملك مينوس أخضع كثيراً من البلاد لحكمه، وكان منتصراً فى كل حروبه» و «جعل ذلك الكاريين يصبحون قبلة أنظار الأمم فى ذلك العصر» (٧١).

«ثم حدث بعد ذلك بوقت طويل أن طرد الكاريون من الجزر على أيدى الدوريين والأيونيين، وبذلك نزلوا إلى أراضى الساحل» (٧٢) وأرض الساحل المقصودة هنا هى الركن الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى حيث تقع مدينة هاليكارناسوس، مسقط راس المؤرخ هيرودوت.

ويرجع ثيوسيديدس سبب طرد الكاريين إلى الملك مينوس ملك كريت و «الملك مينوس يعتبر واحداً من أوائل من عرفهم التاريخ من أصحاب الأساطيل البحرية، ولذلك أصبح هو سيد الجزر وأول مستعمر لها، طارد أمام أساطيله الكاريين وواضع أولاده بدلا منهم حكاماً للجزر» (٧٣) وذكر ثيوسيديدس أنهم تشتتوا على الجزر ثم اشتركوا مع الفينيقيين فى أعمال القرصنة البحرية «ثم أصبحت القرصنة عملهم الأساسى من الانقضاض على السفن والجزر بمشاركة الفينيقيين وسكن الكاريون عديداً من تلك الجزر» وتتضح العلاقة الوثيقة التى ربطت الفينيقيين بالكاريين بإطلاق الكاريين أسماء مثل فينوكس وفينيكس على المدن فى جزرهم.

وقد فقدت كل المعلومات عن ذلك التاريخ المبكر والأماكن التى كانت توجد بها مستعمراتهم خارج جنوب غرب آسيا الصغرى وانقطعت آثار تجوالهم.

وفى القرن الأول الميلادى كتب سترابو (٧٥) «إن هجرة الكاريين ليست من المعلومات التى فى متناول اليد أو من التى يمكن لأى إنسان التوصل إليها» (٧٦).

ويبدو أن قبرص كانت من ضمن الجزر التى عاش فيها الكاريون حتى وقت متأخر. وكتب هيرودوت (الجزء الثامن) عن شخصية الكارى حامل الترس فى قبرص فى أوائل العصور الفارسية. ولا يحتاج الأمر إلى براعة للتوصل إلى أن لغة الخار فى راس شمرا كانت هى اللغة الكارية.

لم يستقر الكاريون فى قبرص فقط، ولكنهم عاشوا أيضا على الساحل المقابل لقبرص فى سوريا، وقد وجدت نفس نوعية المقابر على الجانبين. وكان التميز فى مقابر الكاريين دالا عليهم، وقد أكد ذلك أيضاً المؤرخ القديم ثيوسيديدس الذى كتب: «سكن الكاريون أغلب الجزر، فعندما قام الأثينيون بتطهير جزيرة ديلوس من جثث الموتى فى تلك الحرب (- ٤٢٦) وأزالوا كل المقابر التى كانت عليها، فإن أكثر من نصف المقابر كان للكاريين، وتم التعرف عليها من نمط الأسلحة التى وجدت بها والمدفونة معهم وكذا من طريقة الدفن، التى ما زالت متبعة عندهم» (٧٧).

إن علماء الآثار المعاصرين يشيرون من جديد إلى الخصائص المميزة لمقابر راس شمرا ومقابر شرق جزيرة قبرص.

وبقدر ما كان الكاريون سكانا لشمال سوريا فى بدايات الألف الأول قبل الميلاد، فإنه من المنطقى أن نبحث عن أى ذكر لهم فى التوراة. فى القرن الثامن قبل الميلاد كانت عثاليا ابنة أخاب ملك إسرائيل وزوجة ابن يهوشافاط ملك أورشليم - كانت تعد الملكة الأم واغتصبت العرش بعد أن قتل ابنها أحازيا على أيدى يهوه فى الطريق إلى مجدّو، وكان لها حرس خاص من «الكارى». وقد ساهم ذلك الحرس الخاص بعد ذلك فى القيام بانتفاضة ضد عثاليا وحين أبرم الكاهن يهويا داع معاهدة مع «قادة الجلادين من الكارى والسعاة» (سفر الملوك الثانى ١١: ٤ - ١٩) (٧٨)، فقد أحضر أمامهم الأمير الصغير يهوشبع الذى تم إنقاذه وإخفاؤه حين قامت عثاليا بقتل جميع أفراد أسرته المالكة.

وإنه ليرقى عن كونه مجرد احتمال أن الكريتيين الذين ذكروا باسم «كريتى وفليتى» (الكريتيون والفليتيون) وهم الحرس الخاص لداود (سفر صموئيل الثانى ٨: ١٨) والذين كان يقودهم بناياهو، كانوا هم الكاريون وفى موضع آخر من التوراة (سفر صموئيل الثانى ٢٠: ٢٣) ذكر أن بناياهو كان قائد الجلادين والسعاة. وكان الفلسطينيون من قديم الزمن يعتبرونهم الكريتى - فليتى المذكورين فى التوراة، حيث نجد أن كلمة فليتى بوجه عام تعد اختصاراً لاسم الفلسطينيين، وبدون دليل كاف افترض أنهم نفس شعب كريتى، وبذلك ظهرت نظرية أن الفلسطينيين جاءوا أصلا من جزيرة كريت (٧٩) وفى الحقيقة، لا يمكن اعتبار اسم فليتى

جزءاً من اسم كريت أو كارى فى كل المناسبات التى ذكر فيها ذلك الاسم، كان يذكر مضافاً إلى كريتى وبينهما واو الإضافة (٨٠).

وكان تأكيد انتماء شعب كريت إلى جزيرة كريت - والواضح حتى من النسب إلى اسم الجزيرة - هو ما ذكر فى ترجمة السبعين للتوراة، حين ترجمت كلمة كريت إلى الكريتين. وعلى ذلك فالكاريون قد جاءوا من جزيرة كريت، والكريت المذكورون فى التوراة جاءوا أيضاً من جزيرة كريت، وهما اسمان لشعب واحد هو ما سمى أحياناً باسم شعب الكارى أو الكار أو كريتى.

وكما عمل الكاريون حراساً فى أورشليم للملكة عثاليا، فقد قام كاريون آخرون بنفس العمل فى مصر فى القرن السابع قبل الميلاد بعد ما وصلوا إليها مع الأيونيين هاربين من قسوة الأعاصير التى هبت على بلادهم (٨١). وظل الكاريون يحترفون مهنة العمل كحراس لفراعنة مصر حتى وصول قمبيز خان وغزوه لمصر (٨٢). وقد امتهن الكاريون ذات الحرفة فى حراسة ملوك ليديا فى القرن السادس قبل الميلاد. وفى هذا الصدد فإنه من الشائق أن نذكر ما سجله هيرودوت من أن الكاريين قد اشتهروا باختراع أنواع الأسلحة القديمة وتصميماتها، وأن الاغريق قد قاموا بتقليد تلك الأسلحة، ومن الممكن مقارنة ذلك «بتلك الكميات الضخمة من الأسلحة التى لم يوجد نظير لها فى سوريا ولا فى فلسطين، والتى وجدت بمقابر راس شمرا» (٨٣) ونقارنه أيضاً بترجمة «تارجم» لكلمة كريت بكلمة «رامى» وفى نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد تنبأ زيفانيا، كما تنبأ حزقيال بنهاية عصر السيطرة البحرية لخليج كريت.

وحين أخضع نبوخذ نصر بعد ذلك بفترة وجيزة مدينة صور تحت سيطرته، فر الفينيقيون والكاريون إلى قرطاج التى نمت بعد ذلك وتحولت من مجرد مستعمرة صغيرة إلى حاضرة دولة.

اللغة الكارية

وبظهور ألواح راس شمرا للوجود أمام علماء اللغات، بدا أن عالم البحث والمعرفة أصبح قريبا من التوصل إلى إجابة السؤال عن ما هية

اللغة الكارية، وأصبح العالم أكثر قربا عما كان عليه سترابو والذى تناول الموضوع نفسه منذ تسعة عشر قرنا مضت. (٨٤)

لقد شمل هومر فى حديثه عن حلفاء تروى «الكاريين الذين يتحدثون لغة همجية» ولقد فهم أبوللو دوراس تلك الكلمات على أنها إشارة ضمنية إلى أن الكاريين كانوا لا يتحدثون باليونانية القديمة، وإنما يتحدثون بلغة خاصة بهم وغير مفهومة (٨٥). فى حين استنتج سترابو من جملة هومر السابقة أن الكاريين كانوا يتحدثون اليونانية القديمة ولكنهم كانوا ينطقونها بلهجة همجية غير مفهومة بوضوح، وربما كان يدور بخلد سترابو أن حديث هومر كان عن الكاريين الذين كانوا يسكنون جنوب آسيا الصغرى والذين كتب عنهم هيرودوت أنه باستقرار الكاريين هناك تحولت لغة القونيين الذين قطنوا قبلهم بتلك المنطقة «إلى لغة تشبه الكارية، أو أن الكارية تطورت لتصبح مثل لغة القونيين» (٨٦).

وكون الكاريين كانوا يتحدثون لغة غير مفهومة للإغريق فذلك يتضح أيضاً مما ذكره هيرودوت (٨٧) عن «رجل كارى جاء إلى المعبد فى طيبة ليستمع إلى موعظة الكاهن، ووقف أهل طيبة مذهولين وهم يستمعون إلى الكاهن الذى راح يتحدث إلى الكارى بلغة غير اليونانية القديمة وغير مفهومة لهم، وذكر الرجل الغريب لأهل طيبة أن كلمات الكاهن إليه كانت باللغة الكارية، وكتب أمامهم بعض كلماتها».

ولقد استعمل الكاريون اللغة اليونانية القديمة أيضاً، ويحكى هيرودوت أن المصريين تعلموا اليونانية من الكاريين والأيونيين الذين وصلوا إلى مصر فى عهد باسماتيك فى القرن السابع قبل الميلاد.

وهناك مجموعة من الكلمات الكارية المتفرقة موجودة فى أعمال الكتاب القدماء، كما أن هناك العديد من الأسماء الكريانية لا زالت مسجلة (٨٨)، ففى مصر وعلى عديد من آثارها وجدت أسماء لجنود باليونانية القديمة، ومعها أسماء أخرى مكتوبة بحروف يونانية قديمة ومصحوبة فى أواخرها بأرقام مختلفة حتى تتوافق مع مخارج الصوت لكل حرف، والاستنتاج الذى تم التوصل إليه أن تلك الاسماء مكتوبة باللغة الكارية لبعض المرتزقة الكاريين بجوار أسماء رفاقهم فى السلاح من الأيونيين (٨٩). وكان وقت كتابتها يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد.

كما وجد عدد من الجمل بعضها بلغتين - بالكارية والهيروغليفية - ولكن كان من الواضح أن النص المكتوب باللغة الكارية ليس ترجمة موازية للنص الأصلي باللغة المصرية. وبذلك ظلت كل المحاولات السابقة لفك طلاسم اللغة الكارية دون حسم. وحتى الافتراض أن تلك اللغة تنتمي إلى الهند - جيرمانية لم يلق صدى ولم يقبل (٩٠) وعدا ذلك فلم تكن سامية.

والنتيجة نفسها انطبقت على لغة الحوريين (خار) في دراسة لغات منطقة الشرق القديم، فهي أيضاً لم تكن هند - جرمانية ولم تكن سامية. وفي كلتا اللغتين فإن شكل الكتابة فيما ذكر قبل ذلك أنه لغة الخار، وفي اللغة الكارية بدا غريبا مقارنة باللغات القديمة. فمن جهة نجد أن شكل الحروف مستمد من أشكال الحروف المسمارية ومستمد أيضاً من أشكال الحروف اليونانية القديمة، ومن الغريب أن العنصر الميتاني مميز أيضاً في اللغة الكارية (٩١) ... ولم تقرأ اللغة الكارية حتى الآن.

وفي صيف ١٩٣٥ اكتشفت نصوص أخرى مكتوبة بالكارية بالقرب من ميلاسا في كاريا (اكتشفها بنفنسنت) ولكنها لم تنشر بعد. ولسبب تم شرحه من قبل فإنه من المجدي أن نعيد فحص لغة الخار المكتشفة في راس شمرا آخذين في الاعتبار سلفا أنها لغة كارية ولكن في شكل آخر وأن نحاول فض اسرار وألغاز اللغة الكارية بمعاونة الألواح المعجمية المكتشفة في راس شمرا.

أما النظرية التي كانت تفترض أن ألواح راس شمرا تحتوي على معلومات عن الأيونيين فلم يكن ينبغي رفضها، لأن الالواح لم تكن تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، بل إلى القرن التاسع قبل الميلاد. ويبدو لي أيضاً أنه لا يعد شططا إن خمنت إن اسم مدينة أوجاريت (٩٢) ليس إلا الاسم الكاري - الأيوني لـ ... ايوجوراس، وكان الملوك الذين حملوا ذلك الاسم يحكمون قبرص في القرن الخامس قبل الميلاد، كما حمل حاكم آخر الاسم نفسه في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد عرف ذلك من كتابات مؤلفين إغريق ولاتينيين قدماء، والحرب التي نشبت بين ايوجوراس الثاني وبين الفرس مذكورة في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

إن تأثير قبرص على راس شمرا قد تأكد لكل من قاموا بحفريات راس

شمرا، ومن المعتقد أنه فى فترة مبكرة، كان ذلك الموقع من الساحل السورى مستعمرة للحكام القبارصة - أحفاد الكاريين - الذين فروا إلى الشرق هربا من الأيونيين، وبنوا مدينة على الساحل السورى مقابلة لجزيرة قبرص على حطام مدينة سابقة، ثم سموها باسم ملكهم ايوجوراس.

إن اسم الملك نيكميدس (ويكتب أيضاً نيميس ونيكميد) هو الاسم الذى يذكر باللغة الكارية - الايونية نيكوميديس، وهو الاسم المقابل لما ينطق به فى اللغة السامية (٩٣) نيكوداموس.

كانت مدينة ديديما التى جاء منها الأيونيون إلى أوجاريت تقع فى أيونيا فى حين أن اسمها ينتمى إلى اللغة الكارية (٩٤) والألواح التى تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد من الممكن أن تحتوى على ذلك الاسم، فى حين أنه من المستحيل أن تحتوى نصوص القرن الخامس عشر قبل الميلاد على مثل ذلك الاسم.

ومن اللافت للنظر أن نجد أن الدارسين الذين يصرون على أن الايونيين مذكورون فى ألواح راس شمرا، نجدهم فى ذات الوقت يتحفظون ويصرون على أن لغة الخار فى راس شمرا والمرتبطة بالايونية، ليست إلا اللغة الحورية (لغة أهل الكهوف) المذكورين فى التوراة (٩٥).

لقد كانت الكارية والأيونية مذكورتين ومرتبطتين ببعضهما البعض ليس فقط فى ألواح راس شمرا، ولكن فى العديد من المؤلفات الإغريقية، وبالرغم من أنه فى وقت مبكر كان الكاريون قد طردوا من جزيرة كريت وجزر الارخبيل على أيدى الاغريق (الايونيون)، فإن الشعبين تمازجاً واختلطا، وقصة أول ظهور لهما معا على شواطئ مصر تبين أنهما أصبحا شركاء فى مغامرات الغزو. وفى الأدب التقليدى نجد أن الكاريين إما يظهرون وهم مرتبطون بالأيونيين أو بالفينيقيين.

ولو أتيح للمنقبين فى راس شمرا ذات يوم أن يجدوا بعضاً من ترانيم ودعاء أورفيوس، فإنه سيكون مغنما كبيراً. ولكن زمن المعجزات قد ولى.

وطبقاً لهومر فإن الكاريين قد ساهموا فى الدفاع عن مدينة تروى، وربما كانت لهم ذكرياتهم وأغانيهم الخاصة التى غنوها أثناء معركة إليون، ومن المعروف أنه قد وضعت أشعار فى جزيرة قبرص تتعلق بالهدف نفسه

مثلها مثل الالياذة (٩٦)، وباستثناء خمسة وعشرين مقطعاً قصيراً، لم يبق شيء من تلك الأشعار. فهل كانت تلك الأشعار مكتوبة أصلا بالكارية؟

إن العلاقات المبكرة بين الكاريين وجزيرة كريت، وبين جزيرة كريت وجزيرة قبرص، يجب أن تذكرنا أن لغة الخار التى وجدت فى راس شمرا أصبحت مقروءة ومن المفروض أن تبذل على ضوء ذلك محاولات جديدة لفهم وفض أسرار الأشكال غير المقروءة فى النقوش القبرصية، والنقوش الخطية فى كريت، والنصوص المصورة فى تلك الجزيرة، وبذلك يمكننا رفع الحجاب الذى يخفى ماضى جزيرة كريت والحضارة المنوانية، والمغامرات البحرية للكاريين فى الألف الثانى قبل الميلاد، وربما تتكشف لنا أيضاً قصة أطلانطس المفقودة.

أمينوحتب الثانى

كانت سوريا وفلسطين فى الفترة التى نتحدث عنها، تحت حكم وسيطرة فراعنة مصر، وكانتا تتحرقان شوقا لنيل استقلالهما. وحين انتهى حكم تحتمس الثالث الذى دام لفترة طويلة ناجحة، تولى العرش من بعده أمينوحتب الثانى و (ويقرأ اسمه الملكى عادة أوخيب - رور). وكانت وفاة تحتمس الثالث بالنسبة للآسيويين بمثابة إشارة البدء فى إعلان العصيان المسلح للتخلص من نير العبودية المصرى. وسار امينوحتب الثانى على راس جيش كبير من العجلات الحربية والفرسان والمشاة للقضاء على العصيان والتمرد فى سوريا وفلسطين. «ذهب جلالته على راس حملة حربية «ضد رتينيو (فلسطين) فى أول حملة منتصرة له، من أجل أن يوسع من حدود دولته .. وصل جلالته إلى شمش - ايدوم وهدمها على من فيها .. وصل جلالته إلى أوجاريت وأخضع كل مناوئيه..» (٩٧).

وفى طريقه إلى سوريا استعرض امينوحتب الثانى قدرته على الرمى بالقوس، مظهراً مهاراته أمام الأمراء المحليين ليبهرهم ويبث الرعب فى نفوسهم.

وعاء إلى ممفيس ومعه عدة مئات من نبلاء البلاد المتمردة كأسرى حرب، وغنائم تقدر ببضعة مئات من الخيول والعجلات الحربية، وأثناء

عودته إلى مصر أمر بتعليق بعض الأسرى من أرجلهم على صوارى السفن أثناء إبحاره فى النيل ورؤوسهم مدلاة لأسفل.

وفى العام التاسع من حكمه أعاد حملته على فلسطين، وكان هدفه مدينة أفيق فى الجليل الأدنى، وفى طريقه نهب قريتين بغرب سوكو، وبعد أن نهب عدداً آخر من القرى الصغيرة غير المهمة، عاد إلى ممفيس بمزيد من الأسرى، وكانت زياراته وحملاته المزعجة سبباً فى أن يصبح عدواً مشتركا لكل ممالك فلسطين وسوريا. وحين عاد مرة أخرى إلى فلسطين، كانت المعركة الرئيسية، ويبدو أنها كانت الوحيدة فى تلك الحملة، وقد وقعت فى مكان يسمى ا. ر. س. ت طبقاً للنقوش الفرعونية. وقد بذلت محاولات مضنية فى التعرف على ذلك الموقع (٩٨) ... وطبقا لحقيقة هامة وردت فى قصص أمينوحتب فإنه وصل إلى ذلك الموقع بعد مسيرة يوم واحد من عبور جيشه لحدود مصر (٩٩) ... وهكذا فإن مكان المعركة لم يتجاوز جنوب فلسطين بأى حال. وأطلق امينوحتب على نفسه لقب المنتصر فى تلك المعركة، وقد قبل الكثيرون تلك المعركة على أنها كانت نصرا لامينوحتب. ولكن هل كانت فعلا انتصاراً له؟

وما الغنائم التى غنمها فى معركة ا. ر. س. ت هذه؟

هناك قائمة بالغنائم التى استولى عليها جلالته فى ذلك اليوم:

٢ من الخيل، عجلة حربية، درع من الزرد، قوسان، جعبة مليئة بالأسهم درع للصدر، ومائة ...

بعض الغنائم أصبح من الصعب قراءتها الآن، ولكن مهما كان ذلك الشيء الأخير الذى لم يمكن قراءته، فإن مجمل الغنائم يثير الشفقة فعلا إذا كان كل ما يستطيع ملك مصر أن يعدده من غنائم بعد معركة منتصرة هو عجلة حربية واثنين من الخيل وقوسين وجعبة «مليئة بالأسهم» لقد كانت هزيمة لا نصرا (١٠١).

وبعد أى انتصار لأحد الجيوش، يتوغل ذلك الجيش عميقا داخل أرض العدو، ولكن السطور التى تلت ذكر الغنائم تقول الاتجاه جنوباً باتجاه مصر، وكان جلالته متقدماً على حصان» (١٠٢).

فبعد المعركة مباشرةاستدار جلالته عائداً إلى مصر.

وحينما يعود أى ملك من غزوة منتصرة أعاد فيها إخضاع ولايات

متمردة على حكمه، فإن المدن الواقعة على طريق عودته لا تغامر باختيار ذلك الوقت للانتفاض والعصيان، ولكن ما حدث هو أن المدن التابعة تمردت حين رأت الطاغية موليا الأدبار، وتحكى قصص تلك المعركة أن الآسيويين فى إحدى المدن على الطريق إلى مصر «تآمروا ووضعوا خطة لطرد مشاة جلالته من مدينتهم» (١٠٣).

وأثناء ما تبقى من فترة حكمه، ولعدة عقود من الزمن، لم يعد أمينوحتب الثانى مرة أخرى إلى فلسطين، ولم يعد هناك أى ذكر لجزية سنوية تصل من أرض فلسطين إلى جلالته (١٠٤).

وللتأكد إن كان مآل تلك الحملة هزيمة أم نصراً، فإن التقييم الموضوعى لتلك الحملة يتضح بمقارنة ما سجل عنها فى مصدر آخر هو التوراة.

فى الأعوام السابقة على الحملة كان أبيا بن رحبعام ملك دولة يهوذا قد نجح فى كسب معركة مصيرية ضد يربعام ملك إسرائيل (سفر أخبار الأيام الثانى ١٣) ويعنى ذلك أن هيمنة مصر كانت قد بدأت تضعف، إذ كانت مملكة إسرائيل تلقى دعما من فرعون مصر (*) وبعد فترة حكم قصيرة لأبيا، تولى الحكم من بعده ابنه آسا الذى ذكرت عنه التوراة «فى أيامه استراحت الأرض عشر سنين» وفى تلك الفترة بنى مدناً حصينة فى يهوذا وأقام الحوائط والأسوار والأبراج والأبواب القوية المدعمة بقضبان الحديد، وقال آسا لشعب يهوذا «لنبن هذه المدن ونحوطها بأسوار وأبراج وأبواب وعوارض ما دامت الأرض أمامنا لأننا قد طلبنا الرب الهنا (سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ٧) وعلى ذلك فقد شيدوا وبنوا ونجحوا فى كل ذلك.

وكان تحطيم تماثيل ورموز الآلهة الوثنية بعد الانتصار على مملكة إسرائيل فى حد ذاته يعد تمردا على الهيمنة المصرية (سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ٥) وقد كان من بين رموز الآلهة الوثنية، بل كان على راسها رموز الآلهة المصرية، حيث كانت البلاد منذ عصر الملك شيشق (تحتمس الثالث) خاضعة لهيمنة التاج المصرى.

وبتحصين المدن فى يهوذا وإعداد المحاربين، كان آسا يعلن بغضه

(*) ذكر المؤلف أن يربعام ملك إسرائيل قد نشأ فى البلاط الفرعونى قبل انفصاله بمملكة إسرائيل (المترجم).

وبوضوح للخضوع للهيمنة المصرية.

سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ٨ «وكان لآسا جيش يحمل أتراساً ورماحاً، من يهوذا ثلاثمائة ألف، ومن بنيامين من الذين يحملون الأتراس ويشدون القسى مئتان وثمانون ألفا، كل هؤلاء جبابرة بأس ... حصنت المدن ووقف الجيش على أهبة الاستعداد».

سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ٩ - ١٠ «فخرج إليهم زارح الكوشى بجيش ألف ألف وبمركبات ثلاثمائة وأتى إلى مرشة وخرج آسا للقائه ... واصطفوا للقتال فى وادى صفاته عند مريشة».

«وصلى آسا للرب طلباً لمعاونته».

سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ١٢ - ١٣ «فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا فهرب الكوشيون. وطردهم آسا والشعب الذى معه إلى جرار وسقط من الكوشيين حتى لم يكن لهم حى لأنهم أمام الرب وأمام جيشه فحملوا غنيمة كثيرة جدا».

وزارح الاثيوبى الذى قاد جيشاً من الأثيوبيين والليبيين (سفر أخبار الأيام الثانى ١٦: ٨) من حدود مصر الجنوبية والغربية (مثل جيش فرعون شيشق) لم يكن إلا أحد الفراعنة، فالطريق من أثيوبيا إلى فلسطين يمر عبر وادى النيل، ولكى يصل جيش أثيوبى إلى فلسطين فإن عليه أن يغزو مصر أولا، وأكثر من ذلك فإن وجود جنود ليبيين فى الجيش لا يدع مجالا للشك فى أن الملك كان فرعون مصر.

وفى رأى مفسرى التوراة (جراف واربت) فإن قصة سفر أخبار الأيام عن تلك المعركة، تمثل أساساً تاريخياً لغزوة مصرية أو غزوة عربية.

إن وصف معركة مريشة أو موريشت (١٠٥) يكشف لماذا ولى الملك الفرعون وجهه بسرعة باتجاه مصر وأدار ظهره إلى فلسطين، ولماذا لم يغنم جيشه من هذه المعركة إلا «قوساً واحداً وفرسين»، كما يوضح لماذا ثار السكان فى المدن الواقعة على طريقه، - ويفترض أنهم سكان إيدوم جنوب فلسطين - ضد الحاميات المصرية المرابطة بها.

وحين يتحدث ملك مصرى ويعدد بطولاته وشدته وجلده، كان ذلك دلالة على هزيمته التى لاقاها فى تلك المعركة. وذكر أنه قاتل بنفسه جنود الأعداء وكان يعنى بذلك أنه حين فر كل الجنود، قاتل جلالته وحده. وفى

عبارات تفوح بالغرور والتى لم تتحدث عن شيء محدد، أشادت الجمل المنقوشة ومجدت الحاكم الذى حارب الأعداء وحده «انظروا ... لقد كان الملك كأسد بعينين متوحشتين» لقد طورد الملك حتى مدينة جرار. ولم يجد فرصة لإرضاء كبريائه الجريح إلا أن يأخذ فى طريق عودته بعض رؤساء القرى، الذين حرقهم أحياء بعد عودته إلى مصر، ونصبه التذكارى فى مدينة ممفيس يشهد بذلك، إذ إن تلك المذبحة مسجلة عليه.

لم يكن أمينوحتب الثانى رجلا عظيماً بقدر ما كان ضخم الجثة، فخوراً بقوته البدنية الهائلة، وكان يتباهى بأنه لم يوجد بعد من يستطيع شد أوتار قوسه، ومن عدة عقود مضت وجد قوس ضخم محفور عليه اسمه وموجود معه فى مقبرته.

وهناك نصب تذكارى آخر فى جزيرة فيلة بجنوب مصر منقوش عليه ما يلى:

«لا يوجد من بين جميع أفراد الجيش ولا بين رؤساء الأقاليم ولا بين أمراء رتينيو (فلسطين)، من يستطيع شد أوتار قوس الملك، فهو وحده ذو القوة العظيمة، التى تفوق قوة أى ملك ظهر فى الوجود» (١٠٦).

وكانت تلك القصة هى الأساس الذى بنى عليه هيرودوت أسطورته التى ذكرها ويقول فيها إن الملك قمبيز لم يكن بمقدرته أن يشد أوتار قوس ملك أثيوبيا (١٠٧). وقد وجد أحد الباحثين أصلا مشتركا بين قصة هيرودوت التى اتخذت شكلا أسطوريا (المجلد الثالث ٢١ ف. ف)، وبين التباهى والافتخار التاريخى المسجل على نصب تذكارى فى جزيرة فيلة الذى أقامه أمينوحتب الثانى والذى سبق هيرودوت بعدة قرون. إن قصة هيرودوت تتحدث عن ملك أثيوبى كان يفتخر بقدرته على جذب أوتار القوس الذى نسب إلى أمينوحتب الثانى، فهل كان أمينوحتب الثانى ملكا أثيوبيا يجلس على عرش مصر؟

لقد كانت الدماء الأثيوبية تجرى فى عروق أسرة طيبة الملكية (١٠٨)، فهل كانت زوجة تحتمس الثالث زوجة أثيوبية خالصة، حملت ووضعت ابنا ذا بشرة سوداء؟ أم لم يكن أمينوحتب الثانى ابنا لتحتمس الثالث على الإطلاق؟ لقد كان يسمى نفسه ابن تحتمس، ولكن ليس من المفترض أن يكون صادقاً تماماً فى ذلك الادعاء وكان يدعى أنه ابن حتشبسوت (١٠٩)

فهل كان نائباً على أثيوبيا قبل ارتقائه عرش مصر (١١٠). إن التاريخ التقليدى يقدم زارح المذكور فى التوراة على أنه أوزوركون الذى ينتمى إلى أسرة فراعنة مصر ذوى الأصل الليبى، والتعارض واضح بين ما يذكره التاريخ التقليدى وما تذكره التوراة.

لقد كان الإنجاز العظيم هو الخروج من تلك المعركة بذلك النصر الحاسم، حين لم يكن العدو أميراً عربياً متواضع القوة (كما ظن بعض مفسرى التوراة) (١١١)، كما لم يكن العدو مجرد فرعون من فراعنة الأسرة الثانية والعشرين الضعفاء (كما ظن مفسرون آخرون للتوراة)، ولكن ذلك النصر العظيم كان على أمينوحتب الثانى، الفرعون العظيم، خليفة تحتمس الثالث الأعظم من بين كل الفراعنة. لقد كان نصرا كاسحا كذلك النصر الذى حققه شاؤل ضد الهكسوس - العماليق، ولكن كما سنرى فإن تأثير ذلك النصر على ما تلاه من عصور لم يكن بالقدر نفسه من الأهمية. فمن الجهة السياسية لم يستثمر النصر بطريقة كافية، ولكن تلك الحقيقة لا تقلل من قيمته العسكرية بأى حال، فمصر التى كانت فى ذروة القوة والقدرة العسكرية والمد الامبريالى، هزمت على أيدى آسا ملك يهوذا. كما لم يكن نصرا ضد حامية عسكرية، أو قوة موفدة لجمع الجزية، ولكنه كان نصراً على القوة الضاربة المصرية - الأثيوبية المدعومة بجنود ليبيا وكان يقود القوات بأجمعها فرعون مصر بنفسه.

وبهزيمة الجيش المصرى فى جنوب فلسطين كان من الطبيعى أن تتحرر كل من سوريا وفلسطين من عبودية مصر. كان الفرعون قد خرب فى حملته السابقة مدينة أوجاريت وتركها دماراً وانقاضاً، وهدد كل الممالك المجاورة بمصير أوجاريت. ومن المنطقى أن ملك يهوذا قد تلقى بعض الدعم من الشمال كما كان محور تعاطف شعوب سواحل سوريا البحرية التى كانت كلها مع آسا. إن نقوش أمينوحتب الثانى تكشف عن طموحاته وتطلعه للهيمنة على أراضى الأردن ونهر العاصى والفرات وكانت كلها قد أعلنت عصيانها وتمردها بعد موت تحتمس الثالث. وكان النصر العظيم عند مريشة بمثابة إعلان لتلك الشعوب بنيل حريتها. ومن المفترض أن أصداء ذلك النصر قد ترددت فى عديد من تلك البلاد ولأجيال عديدة متتابعة.

ولكن مرة أخرى نجد أنفسنا نتساءل إن كان سفر أخبار الأيام قد أعطى ذلك النصر ما يستحقه من الاهتمام؟

فى سفر أخبار الأيام الثانى نجد أن العراف حنانى يقول لآسا «ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشاً كثيراً بمركبات وفرسان كثيرة جداً؟ فمن أجل أنك استندت على الرب دفعهم ليدك». (سفر أخبار الأيام الثانى ١٦: ٨).

وقيل أيضاً إن شعوب القبائل الشمالية اتجهت كلها إلى يهوذا للتقدير الكبير الذى حظيت به بعد أن نجحت فى هزيمة الفرعون المصرى وجيشه (سفر أخبار الأيام الثانى ١٥: ٩).

هل توجد مادة تاريخية أخرى عن نصر آسا على أمينوحتب الثانى ومحفوظة حتى اليوم؟ إن نصراً عظيماً كذلك الانتصار لابد أنه كانت له أصداء تتناسب مع حجمه.

لقد كان لذلك الانتصار بالفعل صدى مدوياً .. لقد وجد صدى ذلك الانتصار مسجلاً فى قصيدة غنائية فينيقية.

قصيدة كيريت

من ضمن الألواح التى اكتشفت فى راس شمرا، هناك واحد منها احتوى على مادة تاريخية هى قصيدة كيريت - وقد أطلق عليها الأثريون ذلك الاسم نسبة إلى بطلها - وقد ترجمها وفسرها أول مرة تشارلز فيرولود (١١٢) ثم ظهرت بعد ذلك تفسيرات أخرى باتجاهات بعدت بها كثيراً عن التفسير الأول.

لقد قرأ فيرولود فى ذلك النص عن الخطر الذى يهدد بلد المقاتل كيريت، ملك صيدا، وكذا عن غزو نيجيب (صحراء النقب - جنوب فلسطين) بجيش تارح الذى أثار مخاوف السكان فى مدينته مما جعله يبكى فى وحدته بغرفته، وفى شدة خوفه ومعاناته، جاءه هاتف فى منامه جعله يستجمع شجاعته ويتحرك لمواجهة الأخطار ويلتحق بجيش المدافعين جنوب فلسطين.

وقد ورد فى القصيدة إسما آشر وزبولون وهما إسما قبيلتين كما جاء فى تفسير فيرولود. ولا يتضح من سياق القصيدة فى تفسير فيرولود إن

كانت قبيلة زوبولون فى تلك الحرب تمثل دور العدو أو دور الصديق.

أما آشر فقد ذكرت مراراً فى تلك القصيدة، إذ جاء اسمها فى لازمة القصيدة، وتعطى القصيدة إحساسا حيا، بل مفعما بالحيوية عن رجال القبائل المسلحين الذين يهرعون للالتحاق بالجيش الكبير الذى يستعد لملاقاة تارح.

تقول مقاطع من القصيدة:

من آشر، اثنان بعد اثنين ذهبوا

من آشر، ثلاثة بعد ثلاثة ذهبوا

أغلقوا منازلهم وراحوا معا

ثم التحق المتطوعون بالآلاف فى منطقة حسيس:

بالآلاف ذهب الرجال من حسيس.

بعشرات الآلاف راحوا

بأعداد لا تحصى راحوا

كفيضان راحوا

وساروا لملاقاة جيش تارح الذى جاء إلى النقب بقوة ضخمة:

قوة ضخمة كانت

تساوى ثلاثمائة مرة عشرة آلاف

وذلك يعنى - لو صحت ترجمة القصيدة - ثلاثة ملايين رجل. ثم تحكى القصيدة أن الجيش الغازى الضخم قد ولى الأدبار هارباً بعد هزيمته.

ويتساءل فيرولود عن تارح ... فمن كان تارح؟

ذكر سفر التكوين أن أبا ابراهيم كان يدعى تارح، وظهرت نظرية (١١٣) وجدت لها مؤيدين فى فرنسا ترى أن قصيدة كيريت الفينيقية تدور حول ارتحال النبى الشيخ وحروبه التى خاضها. وبمقارنة ذلك بما ذكر عن إقامة ورحيل ابراهيم فى النقب (جنوب فلسطين) كما جاء فى سفر التكوين فإن هناك المزيد من الأضواء التى سلطت على تلك النظرية.

لقد جاء النبى إبراهيم إلى النقب ونفس الشىء فعله تارح فى القصيدة، وفى التوراة نجد أن تارح أبا ابراهيم قد هاجر من أور الكدانية التى تقع على ادنى نهر الفرات إلى حران فى الشمال الغربى وانتهت حياته هناك (سفر التكوين ١١: ٣٢) وأدخلت على ذلك تعديلات على ضوء

القصيدة واتفق على أن تارح لم يمت في حران ولكنه أعد لغزو كنعان من الجنوب وأنه قد أنجز فعلا جزءا من تلك المهمة وأن ابراهيم قد كف معه عن تلك المحاولات بعد أن لقى مقاومة فترك كنعان وذهب إلى مصر كلاجئ (١١٤) ... ونجد أن القصيدة لم تذكر شيئا عن إبراهيم وشقيقيه أبناء تارح، وقد خمن البعض أن ذلك التجاهل قد حدث نظرا للدور الرئيسى الذى لعبه تارح فى تلك الأحداث مقابل الدور الهامشى الذى قام به ابراهيم حيث كان مجهولا من بين أبناء تارح .. وبالرغم من أن هذه القصة تختلف كثيراً عن قصة التوراة، إلا أن العناصر الأساسية وهى النقب - المشهد - وتارح - الغازى - تبدو مقترنة النقب - المشهد - وابراهيم بن تارح - كغاز - ... وعلى ذلك توصل فيرولود إلى نتيجة مفادها أن التارحيين قد غزوا جنوب كنعان وحين واجهتهم مقاومة شديدة من جانب السكان كفوا عن ذلك ... بالرغم من أن النص التوراتى لم يذكر شيئا عن أى حروب خاضها إبراهيم ضد الكنعانيين بل أكد بشدة على اقامته السلمية فى أرض كنعان.

ولكن ما يظل بلا تفسير هو عدم الانطباق الذى يتجلى فى ضخامة عدد القوات بجيش تارح كما جاء فى قصيدة كيريت ... كان عدد الجيش ثلاثمائة مرة عشرة آلاف (ثلاثة ملايين). وهذا العدد يفوق بشكل لا يمكن تخيله كل اتباع إبراهيم بما فيهم الخدم. كما يمثل وجود اسمى آشر وزبولون فى القصيدة مشكلة أخرى، فقد كان آشر وزبولون بين أبناء اسرائيل كما جاء فى التوراة وهم أحفاد إبراهيم بن تارح فكيف يتأتى أن يحارب تارح مع أبناء آشر وزبولون وهم نسل أحفاد أحفاده لعديد من الأجيال؟

وللتغلب على تلك المصاعب قيل إن اسماء آشر وزبولون هى اسماء مستعمرات سكنها الكنعانيون. وفى وقت متأخر غزت قبائل إسرائيل تلك المستعمرات التى لم تسم بأسماء بنى إسرائيل بل إنهم هم الذين استمدوا اسماءهم منها (١١٥). وبرزت ترجمة أخرى وتفسير آخر لقصيدة كيريت، وفى ذلك التفسير رفض قبول أسماء تارح وآشر وزبولون كأسماء لأشخاص واستبدلت تلك الاسماء بمعان مقابلة لها مثل: العريش (بدلا من تارح)، بعد أو خلف (بدلا من آشر)، والرجل المريض (بدلا من

زبولون) (١١٦)، وكذلك رفض قبول الانطباع العسكرى الظاهر من القصيدة وايقاعها، وقيل إن الإيقاع عاطفى لقصة حب. لقد اعتمدوا فى التفسير الأخير على أن تلك الاسماء ما كانت لتوجد فى عصر مدينة أوجاريت التى وجدت بها الألواح ومن ثم قصيدة كيريت، وعلى ذلك استبعدت الاسماء واستبدلت بمعان، هذا عدا تغييرات كثيرة وتفسيرات أكثر تعرض من آن لآخر.

ويبدو لنا أن ترجمة وتفسير فيرولود لم يكونا بعيدين كثيرا عن الحقيقة، فالحقيقة أن تارح المذكور فى القصيدة لم يكن أباً إبراهيم، كما أن أسماء القبائل المذكورة والصبغة العسكرية للقصيدة تبدو متمشية ومتناغمة تماما مع أحداث التاريخ.

لقد كانت أوجاريت وكل سواحل فينيقيا مهددة باجتياح امينوحتب الثانى فى الفترة التى نتحدث عنها وهو أمر يشكل حقيقة ثابتة. ولو تحررنا قليلا من قيود التقديرات الزمنية الخاطئة لعمر ألواح راس شمرا، فإننا نعرض هذا السؤال: هل كانت هناك غزوة فاشلة قام بها جيش كبير لجنوب فلسطين وجاء ذكرها فى التوراة؟.

وقد حدث مثل ذلك الغزو خلال حكم آسا ملك يهوذا، وكان على راس الجيش الغازى زارح الأثيوبى طبقا للتوراة، وفى سفر أخبار الأيام الثانى كان تقدير عدد الجيش الذى قاده زارح يقدر بـ « ألف ألف » أى مليون جندى. سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ٩ « فخرج إليهم زارح الكوشى بجيش ألف ألف وبمركبات ثلاثمائة ».

وقد بينا قبل ذلك كيف أن زارح الأثيوبى هو الملك أمينوحتب الثانى، كما قارنا المادة التاريخية الموجودة بالتوارة عن تلك المعركة بالمادة التاريخية المصرية المستمدة من الآثار.

أما فى هذا الموضع فسوف نقارن بعض معلومات القصيدة الفينيقية بنقوش أمينوحتب الثانى وأيضاً بنصوص التوراة ... ومرة أخرى لو توصلنا إلى إيجاد المقابلات فإن ذلك سيدعم ما ذكرناه من قبل عن توحد شخصية زارح وأمينوحتب الثانى.

فى القصيدة وصف جيش تارح بهذه الكلمات:

قوة كبيرة ثلاثمائة مرة عشرة آلاف، بسيوف (هيبس) من النحاس،

وخناجر (سن) من البرونز.

ومن الملاحظ أن القصيدة استعملت للدلالة على السيوف النحاسية الكلمة الفرعونية المصرية (هيبس) (١١٧)، وللدلالة على الخناجر البرونزية، الكلمة الفرعونية (سن) وفى مقبرة أمينكين (١١٨) نجد الملك أمينوحتب الثانى مصوراً وهو يتفحص الهبات التى سيوزعها على ضباطه وهى عبارة عن سيوف وصفت فى النقش بما يلى «ثلاثمائة وستون هيبس من البرونز ويلى تلك السيوف فى الصورة مائة وأربعون خنجراً. وبقدر ما استخدمت الأسماء المصرية للدلالة على الأسلحة فى القصيدة الفينيقية فإن مصدر الأسلحة لن يكون استنتاجا جزافيا.

إن أسماء الأسلحة فى القصيدة الفينيقية هى أسماء الأسلحة المذكورة نفسها على أثر مصرى يصور امينوحتب الثانى مع أسلحة جيشه، وطبقا لما سبق فإن قوات تارح كانت مسلحة بأسلحة مماثلة لتلك التى سلح بها أمينوحتب الثانى جيشه، وقد وجدت نماذج من تلك السيوف فى جيزير بجنوب فلسطين (١١٩).

إن الأجزاء المتبقية من القصيدة تصف الجيوش وهى مندفعة إلى ميدان المعركة. ونرى من خلال الأبيات البطل كيريت وهو يسير عبر الحقول والأسلحة ملقاة فى كل مكان بعد أن تركها الجنود الفارون من الجيش المهزوم حتى وصل إلى عين ماء تخضبت مياهها بالدماء (١٢٠) ثم سار باتجاه مدن ايدوم بنية المشاركة فى الغنائم الوفيرة هناك. وطبقا للتوراة نجد أنه بعد معركة مريشة (مورشيت - جاث) فإن منتصرى يهوذا غنموا كل مدن الجنوب.

سفر أخبار الأيام الثانى ١٤: ١٣ - ١٤ «وطردهم أسا والشعب الذى معه إلى جرار فحملوا غنيمة كثيرة جداً .. وضربوا جميع المدن التى حول جرار ... ونهبوا كل المدن لأنه كان فيها نهب كثير».

وفى القصيدة نجد أن مؤلفها يحث كيريت على السير باتجاه الجنوب للمشاركة فى الغنائم كما يلى:

اذهب يوما ويومين
يوم ثالث ويوم رابع
يوم خامس ويوم سادس

وفى اليوم السابع تلتقى بالساباستيين
سوف تصل إلى أسوار ايدوم رابيم
وايدوم سيريروت.

والقصيدة تبدو فى ايقاع الخطوات العسكرية لبطل يصحبه رجاله:

ثم التقى بالساباستيين
ووصل إلى إيدوم ربوت
وإيدوم سيريروت

وتوسل ملك إيدوم إلى كيريت:

لا تقاتل إيدوم ربوت
ولا إيدوم سيريروت
ارحل يا ملك صيدا
ارحل يا كريت من معابدنا (١٢١)

وطلب منه كيريت ابنته بدلا من الغنائم لأنها «جميلة كعشتروت».

ومن الشائق أن نتابع إن كان كيريت قد اصطحب معه ابنة ملك الإدوميين كزوجة له أم لا، وفى الأجزاء التالية من القصيدة نجد أنه قد فعل ذلك ولكننا نجد أنفسنا أكثر تشوقاً لنعرف من كان أولئك الساباستيون أمام أسوار مدن إيدوم، كما نتساءل عما يعنيه اسم سيريروت ذلك، وأيضاً إن كنا ما زلنا على الطريق الذى حددناه لهذا الفصل من الكتاب.

فما الذى يعنيه اسم شعب ساباس؟ هناك إجابة جزئية فى متناول اليد، وهى «ساباس هى الشمس، والسباستيين حصلوا على اسمهم اشتقاقا من ذلك الاسم، كانت ساباس فى كنعان هى المرادف لشاماش (شمس عند الآشوريين والبابليين) (١٢٢).

وعلى ذلك فالشعب الذى تكرر اسمه كثيرا كمناوئ للبطل كيريت أمام أسوار المدن الايدومية، كانوا هم رجال ساباس أو رجال شاماش.

وحكم على مدن إيدوم بعد الهزيمة أن تصبح غنائم للمنتصرين وذلك طبقا لما جاء بالقصيدة وما جاء بسفر أخبار الأيام الثانى، مما يعنى أن ذلك المصير قد فرض عليها لأنها ساندت ودعمت زارح وجنوده الأثيوبيين والليبيين.

ولذلك يبدو من المهم أن نعرف أين كانت القاعدة التى انطلق منها أمينوحتب الثانى بجيشه إلى جنوب فلسطين.

إن سجلات أمينوحتب الثانى عن حملته ضد فلسطين - سوريا تبدأ حرفياً كما يلى:

«كان جلالته فى شاماش أيدوم، وعرض جلالته أمثلة من قدراته وقوته البالغة هناك». إن مدينة شاماش أيدوم لم تذكر فى أى من الوثائق المصرية التى بقيت حتى اليوم إلا فى تسجيلات تحتمس الثالث وذلك النصب التذكارى الذى نقشت عليه تسجيلات أمينوحتب الثانى.

هل كان نوعاً من المصادفة ما ذكرته القصيدة الفينيقية عن غزوة تارح وجيشه الكبير، واسم مدينة أيدوم وشعب يسمى ساباس أو شاماش؟ لقد بينا ان تارح المذكور فى القصيدة هو نفسه زارح المذكور فى التوراة، وبينا أن زارح المذكور فى التوراة هو أمينوحتب الثانى فرعون مصر ... والآن نجد أن المدينة نفسها والشعب نفسه يمثلان القاعدة العسكرية التى انطلق منها تارح فى القصيدة، وامينوحتب فى القصص الهيروغليفية.

أما كلمتا ساريرا أو سيريروت (جمع) فى قصيدة كيريت فإننا نجد تفسيراً لهما فى ترجمة سبتواجنت (*) للتوراة إلى اليونانية القديمة، فبالإضافة إلى ما جاء بسفر الملوك الأول ١٢: ٢٤ عن يربعام، هناك تفاصيل أخرى تلقى الضوء على التسميات السابقة. فاسم أم يربعام كان سروعه ويشار إليها أيضاً باسم ساريرا. وحين عينه سليمان على الجزء الشمالى من المملكة، بنى مدينة على جبل إبراهيم. سماها ساريرا على اسم أمه، وبعد موت سليمان عاد يربعام من منفاه فى مصر و «عاد إلى أرض ساريرا» وكانت قبيلة إبراهيم تقطن هناك، وطبقا لما ذكرته السبتواجنت فقد حصن يربعام مدينة ساريرا.

كان اسم ساريرا هو اسم القلعة التى بناها يربعام فى عام ٩٢٠ ق.م، وشاع إطلاق الاسم على أغلب الحصون التى بنيت بعد ذلك. وفى أيام كيريت بعد ذلك بجيل نجد أن اسم ايدوم سيريروت (جمع ساريرا) كان ما زال مستعملا، أما من ذكروا أن اسم سيريروت كان موجودا قبل يربعام بخمسمائة عام، فإن ذلك يعد من قبيل المغالطات التاريخية المستحيلة

(*) (وفى النسخة العربية الجلادين والسعاة) (المترجم).

الحدوث.

ماذا كان دور كيريت فى جيوش الحلفاء؟

فى سفر صموئيل الثانى نجد أن اسم كريتى وبليتى (*) كانوا حراسا لداود، وكانوا عبارة عن جنود من المرتزقة يعملون فى خدمة داود ملك أورشليم. وبعد ذلك بستين عاما وحين احتاج إليهم آسا استدعاهم من صيدا لمعاونته فى الحرب، وكانوا هم أنفسهم متخوفين من الغزو الذى يقترب من جنوب فلسطين كما جاء فى المشاهد الأولى من قصيدة كيريت، التى تضفى على ذلك المشهد حيوية فائقة.

وكان الوصف كما جاء بالقصيدة عن هزيمة الجيش الغازى بقيادة تارح، وعن الأسلحة المبعثرة فى الحقول، والأسوار المصبوغة بالدماء، ومدن أيدوم المرتعدة أمام المحاربين المنتصرين، كان الوصف كما جاء بالقصيدة مجموعة من الصور التى تموج وتفيض بالحياة، كما كانت متطابقة مع قصة التوراة عن الانتصار على زارح وعلى مدن أيدوم التى دعمته وساندته.

وبتحليل الخلفية التاريخية لقصيدة كيريت يتضح أن ترجمة فيرولود قد رفضت دون أسباب موضوعية لرفضها. والقصيدة عبارة عن وصف لحرب وهزيمة كما أن ذكر أسماء مثل أشر وزبولون فى ذلك العصر التاريخى شىء طبيعى، ولا يستدعى الاستعانة بعلم أصول اللغات ونظرياته التى تعطى معان أخرى لتلك الأسماء .. فقد كانت تلك القبائل من ضمن أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وكانوا جيرانا لمدينة صيدا، وبصحبة الصيداويين غادروا ديارهم متجهين إلى مريشة ليساهموا فى المعركة أو ليستثمروا انتصار آسا.

وهناك تلميحات عن تلك المساعدات التى جاءت من قبائل الشمال فى سفر أخبار الأيام الثانى (١٥: ٩) بعد وصف انتصار آسا:

«لأنهم سقطوا إليه من إسرائيل بكثرة حين رأوا أن الرب الهه معه».

وبمقارنة ما جاء فى سفر أخبار الأيام الثانى بقصص امينوحتب الثانى الذى تلا تحتمس الثالث، نجد أنه طبقا للمصدرين كان هناك جيش كبير جاء من حدود مصر وغزا فلسطين حتى وصل إلى مكان يدعى

(*) الترجمة السبعينية للتوراة.

موريشت – جات أو ميو – أرى ست بالمصرية القديمة، وهو على مسيرة يوم أو يومين من الحدود (ناخال مصرايم) وأن الجيش قد ارتد على أعقابه بسبب المدافعين عن الأرض. وأن هيمنة مصر على فلسطين قد تجمدت، ثم استعيدت مرة أخرى فى عهود الملوك اللاحقين لأمينوحتب الثانى.

وبمقارنة قصص امينوحتب الثانى بقصيدة كيريت، نجد فى كلا المصدرين أن الساحل الفينيقى كان مهدداً (وخاصة أوجاريت التى ذكرها أمينوحتب الثانى) وأن الجيش الغازى كان مسلحاً بـ(هيبس) أى سيوف نحاسية، وأن شاماش أيدوم قد لعبت دوراً رئيسياً فى تلك الحملة بعد أن انطلق منها أمينوحتب الثانى فى البداية، ثم احتلها بعد ذلك كيريت وحلفاؤه، الذين تمكنوا من هزيمة الجيش الغازى.

وبمقارنة سفر أخبار الأيام بقصيدة كيريت نجد أنه طبقاً للنص التوراتى كان الجيش الذى غزا النقب مكونا من ثلاثمائة عجلة حربية و « ألف ألف » من الجنود، وأن الجيش المدافع كان يتكون من ثلاثمائة ألف من جنود يهوذا، وطبقا لقصيدة كيريت كان الجيش الغازى يتكون من « ثلاثمائة مرة عشرة آلاف جندى » وعلى راس الجيش كان يوجد زارح أو (فى ترجمة فيرولود) تارح، وكانت مدن النقب (جنوب فلسطين) غنائم المعركة، كما ذكرت مدينة ايدوم سيريروت وقد جاء ذكرها أيضا فى الترجمة السبعينية للتوراة (سبتواجنت)، وشاركت قبائل جيش الشمال جيش الجنوب فى غنائم مدن النقب.

ولن نحاول فى هذا الموضع أن نبدأ حوارا أو محاولات اثبات صحة إعادة بناء أحداث التاريخ المقدمة هنا، أو نبنى استنتاجات على تفسير فيرولود لقصيدة كيريت حيث إن تلك الترجمة ما زالت موضع جدل حتى الآن. ومن جهة أخرى، وبعكس ما سبق، نجد أن ما نقدمه من أدلة يعد دعما جزئيا لفيرولود مستمداً من تقويم أحداث التاريخ المقدم فى هذا الكتاب.

وبعد ما يزيد على عشرين عاما من الهزيمة فى مريشة، استعاد تحتمس الرابع خليفة أمينوحتب الثانى سيطرة مصر على كل من سوريا وفلسطين، ولا توجد تسجيلات كافية عن تلك الحملة، ولكنه يحمل اسم « غازى سوريا » (١٢٣)، ولم يلق تحتمس الرابع إلا مقاومة واهنة، هذا إن كانت هناك مقاومة على الاطلاق، فقد كان ضغط الأشوريين من الشمال

سببا فى رغبة السوريين فى الخضوع لمصر (١٢٤).

نهاية أوجاريت

وجد المنقبون فى أعلى طبقات راس شمرا أن المدينة قد دمرت بعنف ولم تجر محاولة بعد ذلك لإعادة بنائها. كانت المبانى منهارة، والمكتبة أحرقت وسقطت حوائطها على الألواح وسحق الكثير منها، وكان آخر ملك ذكر اسمه فى تلك الوثائق التى قاومت النيران هو الملك نيكميد. وكان هناك بيان ذكر فيه أن المدينة قد احتلت، وأن نيكميد وكل من ينتمون إلى أصول أجنبية قد طردوا من المدينة.

وفى المستوى الذى دمرته النيران وجدت سدادة إناء تحمل اسم أمينوحتب الثالث بالإضافة إلى رسالتين من نوع مجموعة رسائل تل العمارنة.

وعلى ضوء تلك الموجودات تكون أوجاريت قد وصلت إلى نهايتها المأساوية فى أواخر عصر أمينوحتب الثالث، أو بداية عصر اخناتون، وهى حقبة تعرف باسم حقبة العمارنة.

فى رسالة كتبها أبيميلكى ملك صور ووجدت فى مخازن محفوظات الدولة فى مدينة آخيت - آتون (تل العمارنة)، كتب ملك صور الذى كان خاضعا فى ذلك الوقت لهيمنة مصر، يخبر الفرعون عما حدث لأوجاريت:

التهمت النيران مدينة أوجاريت، مدينة الملك الفرعون احترق نصفها، ونصفها الآخر لم يحترق، وقد غادرها جنود الحيثيين. (١٢٥) احترق نصف المدينة، أما نصفها الذى لم يحترق فقد نهب بعد ذلك، وانسحب الغزاة من جنود الحيثيين بعد أن دمروا المدينة. كان ذكر التدمير الذى وقع على أوجاريت، والدليل الفعلى الذى عثر عليه فى حفريات المدينة التى دمرت بيد جيش عنيف - كان ذلك - مقنعا بما فيه الكفاية للباحثين فى أنقاض راس شمرا أن المدينة انتهى وجودها فى نفس الأيام التى كتبت فيها رسالة ابيميلكى إلى فرعون مصر.

كما نجد فى مجموعة رسائل تل العمارنة أن مدينة أوجاريت يشار إليها بالاسم نفسه كما أن تدميرها مسجل بتلك الرسائل، ولكن اسم ملك

أوجاريت غير مذكور، ومن الممكن التوصل إليه فقط عن طريق الاستنتاج، فمن المعروف ان نيكميد عاش وحكم أثناء حقبة العمارنة بمصر (١٢٦) واسمه مذكور على آخر لوح من ألواح مكتبة راس شمرا، كما أن الرسالتين اللتين تنتميان إلى مجموعة تل العمارنة تحملان الدليل على أن كارثة النيران والتدمير كما وصفها ملك صور وكما وجدها المنقبون، حدثت كلها في عهد نيكميد وفي حقبة العمارنة (١٢٧).

كما أن الإعلان الذي وجد براس شمرا، يتعلق بطريقة مباشرة بالكارثة التي حلت على المدينة، وأن أحد الملوك الغزاة أصدر أمراً بأن «كل الجاحان (الأيونيون)، وشعب دايديم، والخار (الكاريون) والقبارصة، وكل الأجانب وعلى راسهم الملك نيكميد ملك المدينة» يجب أن يطردوا فورا من أوجاريت، كل من نهبوكم، وكل من طغوا عليكم، وكل من دمروكم» (١٢٨). ويبدو أن ذلك الإعلان كان موجها إلى النصف الفينيقي من سكان المدينة، وكان مكتوبا بالعبرية القديمة بأشكال مسمارية.

إن افتتاحية الإعلان السابق مفقودة وذلك مدعاة للأسف الشديد (١٢٩) فمن المحتمل جدا أن المقدمة كانت تحتوى على اسم الملك الذي أمر بطرد نيكميد. فمن هو الملك الذي غزا أوجاريت، وحرقها، وطرد سكانها، ودفع الملك نيكميد إلى الفرار؟.

سنعرف تفاصيل كل ذلك في الفصل الثامن والأخير من هذا الكتاب.

هل كان نيكميد بعد أن احترقت مدينته وتشتت أسطوله البحري هو الهارب الأول إلى سواحل أفريقيا المطلة على البحر المتوسط حيث أسس الفينيقيون في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد مدينة قرطاج، أو كريت الجديدة (١٣٠) أو تونس هذه الأيام؟ أم أنه وجه أشرعته بعد هربه، إلى مدينة هيلاس التي كانت على علاقات تجارية بمدينة أوجاريت في أيام الحروب الميسينية؟ لقد كانت أوجاريت سوقا مفتوحة للأيونيين الذين كانت لهم مستعمراتهم السكنية الخاصة بهم في المدينة وذلك قبل أن يطردوا أو يهربوا مع نيكميد.

وأنا أؤمن أن الملك نيكميد لم يفقد بين ثنايا تاريخ ذلك القرن الحافل بالأحداث وأنوي أن اقتفي أثر ذلك الملك في منفاه في الوقت والموضع المناسب في سياق الأحداث.

رجع الصدى

كانت أهم ثلاث نتائج لهذا الفصل، ما يلى:

١- أن التتابع الزمنى لتاريخ جزيرة كريت (العصر المنوانى) ولليونان القديمة (العصور الميسنية)، قد أزيحا من أزمنتهما الصحيحة بالنسبة نفسها التى أزيح بها التاريخ المصرى عن موضعه الصحيح.

٢- نقد التوراة الذى أرجع أصل الكثير من النصوص إلى قرون متأخرة ومؤثرات أجنبية نقد فى غير موضعه وغير صحيح، كما أن عكسه الذى يفترض أن الكثير من النصوص مستمد من أصول كنعانية تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد هو الآخر غير صحيح.

٣- لغة الحوريين ليست إلا اللغة الكارية ولم توجد أمة تحمل اسم الحوريين. وتوصلنا أيضاً إلى أن أمينوحتب الثانى هو زارح المذكور فى التوراة، وأنه فقد هيمنة مصر على فلسطين وسوريا فى معركة مريشة، وأن قصيدة كيريت إنما تشير إلى انزعاج أوجاريت من حملة أمينوحتب الثانى، وأن أوجاريت تحولت إلى خراب ودمار وانتهت فى القرن التاسع قبل الميلاد.

ووجد المنقبون والباحثون أنفسهم مجبرين على اللجوء إلى الكثير من التخمين حال ظهور أى من منجزات الحضارات القديمة، وكانت تخميناتهم لتفسير الأمور كما يلى:

لقد أثرت أنماط غرف الدفن فى أوجاريت على الطرز المعمارية لغرف الدفن فى جزيرة قبرص، ولكن استغرق انتقال ذلك التأثير خمسمائة عام كاملة.

كما أن الدليل البحرى الذى وجد بمدينة أوجاريت ظهر مرة أخرى فى الملحمة التى وضعها هوميروس، ولكن بعد فترة فاصلة تقدر أيضاً بعدة قرون. والمجوهرات والحلى المماثلة لمجوهرات وحلى أوجاريت تحلت بها عذارى أورشليم بعد تدمير أوجاريت بستمائة أو سبعمائة عام.

كما أن الشكل الشعرى والأوزان والمراسيم القانونية والممارسة الكهنوتية وحتى الموازين، كلها ظهرت من جديد فى أورشليم بعد فترة من اختفائها فى أوجاريت تقدر أيضاً بعدة قرون. كما ظهرت الخطوط الفاصلة

بين مفردات الكتابة وأدخلت على كتابة النصوص القبرصية بما يربو على سبعمائة عام بعد ألواح راس شمرا التى استخدمت فيها نفس الفواصل بين الكلمات وأسلوب الكتابة نفسه.

فى غرب آسيا الصغرى حيث عاش هوميروس، وفى أورشليم مدينة الأنبياء، وفى قبرص، - وكلها تقع حول أوجاريت - ظهرت فى الأماكن السابقة - كل منها على حدة - أصداء حضارة أوجاريت، ولغتها، وفنونها، عادت كل تلك المظاهر بعد فترة طويلة من الانقطاع تقدر بعدة قرون.

ولم يسمع رجع الصدى أبدا فى مصر. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟

لأن تزامن أوجاريت - راس شمرا - قد بنى (على أيدى المؤرخين) ليتزامن فقط مع التتابع الزمنى لمصر.

هوامش الفصل الخامس

1. Directed by Claude F. A. Schaeffer and reported in Syria, Revue d'art oriental etd'- archeologie 1929ff. Reprints of the first seven reports were published together under the title Les Fouilles de Minet-el-Beida et de Ras Shamra, 1929-36.
2. E. Forrer, Syria, Revue d'art oriental et d'archéologie, XIII (1932), 26.
3. Schaeffer, Les Fouilles de Minet-el-Beida et de Ras Shamra, Campagne 1929 (Paris, 1929), p. 296 (extrait de Syria, Revue d'art oriental et d'archéologie); La Deuxième Campagne de fouilles à Ras Shamra, 1930 (Paris, 1931), p. 4, latroisieme Campagne de fouilles a Ras shamra, 1931 (paris, 1933),
4. Schaeffer, La Deuxième Campagne, pp. 10-11.
5. The early Ras Shamra bibliography is diven in Schaeffer's Ugaritica I (Paris, 1939). In the ten years following 1929, the number of publications exceeded five hundred.
6. Sir Arthur J. Evans, The Palace of Minos (London, 1921-35), II, 43, 101, 214, 286-89, 347; III, 12, 14, 348, 401-3.
7. "The chronology of prehistoric Greece is naturally far from certain although through connections with Egypt certain general dates can be given." A. J. B. Wace, "Prehistoric Greece" in Cambridge Ancient History, I (Cambridge, 1923), 173-80. "The difficuly comes when we attempt to fit these archaeological dates into any scheme of world

chronology. ... The one neighboring land where there is a fairly stable chronological system based on written documents and inscriptions is Egypt." Ibid., p. 174.

8. Ibid., p. 175.

9. Ibid., p. 177.

10. E. Gjerstad and others, The Swedish Cyprus expedition, 1927-1931)Stockholm, 1934-37), I, 405.

11. Schaeffer. The cuneiform Texts of Ras shamra-Ugarit (London, 1939), p. 29.

12. Charles Virolleaud, "Les inscriptions cunéiformes de Ras Shamra", Syria, Revue d'art oriental et d'archéologie, X (1929), 308.

13. In the ruins of the library of Ras-Shamra-Ugarit.

14. The semilegendary Aristomenes, who led the people of Messene in their battles against the Spartans in the years-684 and- 683, was a son of Nikomedes-according to other sources, of a Pyrrhos (F. Hrozny, "Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientàlni, IV {1932}, 177). Aristotle mentions an Athenian archon of that name who flourished in -483. The name is also found later among the Spartans. In the third century Nikomedes I, king of Bithynia on the eastern shore of the Bosphorus, built a new capital for himself, Nikomedeia.

15. Hrozny and E. Dhorme. See Hrozny, "Une Inscription de Ras-Shamra en langue Churrite", Archiv orientàlni, IV, (1932), 129, 176.

16. Schaeffer, Cuneiform Texts, P. 33.

17. E. Dhorme, "Première traduction des textes phéniciens de Ras Shamra", Revue biblique, XL (1931), 38. also Hrozny, :Les Ioniens à Ras-shamra", Archiv Orientàlni, IV (1932), 176.

18. Dhorme, Revue biblique, XL (1931); Hrozny, "Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv orientálni, IV (1932).

19. Le ddmy est le gentilice d'un nom qui, sous la forme ddm, représente une

divinité dans (text) 17, 6. Nous y verrions volontiers le Didyméen. La ville serait celle de Didyma et le dieu celui de Didyme, Apollon." Dhorme, Revue biblique, XL (1931); see also Hrozny, "Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932), 176.

20. In the British Museum, brought from Didyma (Didymaion) by C. T. New-ton.
21. La colonie égéenne d'Ugarit semble donc avoir été composée spécialement par les Ioniens originaires de Didyme près de Milet. ... Nkmd ... pourrait être considéré comme le roi des Ioniens qui s'emparèrent d'Ugarit au 13-ème siècle." Hrozny, "Les Ioniens à Ras Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932).
22. T. H. Gaster, "A Phoenician naval gazette; new light on Homer's Catalogue of ships", Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund, April, 1938.
23. Schaeffer, cuneiform Texts, p. 40.
24. Virolleaud, "Les Inscriptions cunéiformes", Syria, X (1929), 305.
25. H. Bauer and E. Dhorme, independently, in 1930.
26. H. L. Ginsberg, Kitvei Ugarit, Jerusalem, 1936.
27. Cest un fait bien connu que les Chypriotes ont, à partir d'une époque assez basse il est vrai, le VIe siècle, écrit leur langue au moyen d'une sorte de sylla baire Comprenant soixante signes dans lequels les mots separes Commea Ras Shamra, par un trait vertical, et dont on a précisement cherché jodis l'origine dans l'écriture accadienne. L'alphabet de Ras Shamra doit-il donc être considéré comme le prototype du syllabaire chypriote? Il peut sans doute parairre érrabge qu'une ecrirure tres simpli Fié air pu, alalongue se compliquer à nouveau.... "Virolleaud, "Les Inscriptions cunéifonnes", syria, X (1929), 309.
28. This was already inferred from Semitic words met in the el-Amarna

letters.

29. Some of the cuneiform texts in old Hebrew, Found in Raṣ Shamra, bear reference to the south of Palestine-Canaan (Negeb), and for this reason Proto-phoenician and Canaanite are applied ad libitum to the tongue.

30. Schaeffer, Cuneiform Texes, p. 35.

31. Ibid., p. 36.

32. Ibid., p. 59.

33. Attempts were made to find parallelism between the gods of the Ras Shamra texts and temples and the gods of the theological work of Sanchoniation, an early Phoenician writer, quoted by Eusebius.

34. R. Dussaud, Les Découvertes de Ras Shamra (Ugarit) et l'Ancien Testament (Paris, 1937), p. 59.

35. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 60.

36. For instance in the name yw-il.

37. J. W. Jack, The Ras Shamra Tablets (Edinburgh, 1935). "A Word of uncertain meaning, mphrt (community or family), which is found on two of the Ras Shamra tablets, occurs on the stele of Yehawmilk, king of Byblos (c.-650). Strange to say, the name Yehawmilk also appears on one of the Ras Shamra tablets." Cf. M. Dunand, "Nouvelle inscription phénicienne archaique," Revue biblique, XXXIX (1930), 321ff. The same stele contains the phrase: "Baal Shamim and Baal Geval" (Byblos); the words "Baal Shamim" are also used in the treaty between Esarhaddon and the king of Tyre (seventh century). Ibid., p. 331.

38. Jack, The Ras Shamra Tablets, p. 9.

39. Dussaud, Les Découvertes, p. 61: "Bien avant le récit du passage de la Mer Rouge par les Israélites, le folklore ou les mythes du sud de la palestine connaissaient une légende ou le dieu El était représenté comme ayant fait surgir, d'entre les flots, le grand isthme désertique, que sépare la Mer Rouge de la Mediterranée. II parait, des lors, vraisemblable que

cette légende est le prototype du récit concernant le passage de la Mer Rouge par les Israélites...

40. Jack, The Ras Shamra Tablets, p. 10.
41. Ibid.
42. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 58, quoting Dussaud, Syria, revue d'art oriental et d'archéologie, XVI (1935), 198.
43. Dussaud, Les Découvertes, p. 50; J. A. Montgomery and Z. S. Harris, The Ras Shamra Mythologicatical Texts (Philadelphia, 1935), p. 16.
44. Jack, The Ras Shamra Tablets, p. 10.
45. Ibid., p. 7.
46. Dussaud, Les Découvertes, pp. 105-106.
47. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 38.
48. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 77.
49. Ibid., p. 47.
50. Ibid., p. 59.
51. Ibid., p. 41. M. B. Gordon (Annals of Medical History, IV {1942}, 406-8) makes a point of the fact that debelah in Ugarit was used internally, not externally.
52. Schaeffer, Cuneiform Tests, p. 41.
53. Ibid.
54. "It is at Ras Shamra that one first meets with the system of weights later used by the Israelites and described in a certain passage of Exodus." Ibid., p. 27.
55. Ibid., Plate XXXII, Fig. 1.
56. Charles Virolleaud, "Un poème phénicien de Ras-Shamra", La Deuxième Campagne de fouilles à Ras-Shamra, pp. 209-210.
57. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 62.
58. "C'est une révolution compléte de l'exégèse des temps prémosaïques." Dussaud.

59. Montgomery and Harris, Mythological Texts, p. 1.

60. "Reuss, Graf et Wellhausen ... on ne peut manquer de reviser leurs conclusions, en ce qui touche la basse époque et le peu de valeur des anciennes traditions israélites." Dussaud, Les Découvertes, p. 115.

61. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 59.

62. "On reconnaîtra que si les Prophètes ont magnifiquement développé cette tendance pieuse, ils ne l'ont pas créé." Dussaud, Les Découvertes, p. 118.

63. Olmstead, History of Palestine and Syria, p. 140: "Kharu is doubtless to be connected in name with the Horites, who in Biblical times were remembered only as having been exterminated by the Edomites; it is also possible that there is some connection with the Hurrians.

64. See. E. A. Speiser, Mesopotamian Origins (Philadelphia, 1930), p. 133; also his Introduction to Hurrian (New Haven, 1941), p. 3.

65. Speiser, Mesopotamian Origins, p. 152.

66. Ibid., p. 120.

67. See Speiser, Introduction to Hurrian.

68. Speiser, Mesopotamian Origins, p. 131.

69. Schaeffer, Cuneiform Texts, p. 37.

70. The south of Canaan, called in the Book of Joshua Negeb-Kereti, was, according to the opinion of various scholars, at an early age occupied by immigrants from Crete.

71. Herodotus (trans. A. D. Godley, 1921-24), I, 171.

72. Ibid.

73. Thucydides (trans. C. Foster Smith; London and New York, 1919), I, iv.

74. Georg Meyer, Die Karier (Göttingen, 1885), p. 3.

75. Strabo, The Geography, I, 3, 21.

76. Extensive studies were made, in which the name Car was tracked down all over the world in order to find traces of Carian and Phoenician

navigation. See Baron d'Eckstein, Revue archéologique, XIV (1857); XV (1858), and Brasseur de Bourbourg, S;il existe des sources de l'histoire primitive du Mexique dans les monuments égyptiens (paris, 1864). Names such as Karkar or Carchemish (written also Gargemish) and the word "Kar" in names of cities, like Car Shalmaneser, may be mentioned in this connection.

77. Thucydides, I, viii.
78. The King James version has "the Captains and the Guard".
79. The Philistines came from the island of Caphtor (Deuteronomy 2: 23; Amos 9: 7; Jeremiah 47: 4). jeremiah speaks of the "Philistines, the remnants of the country of Caphtor". By identifying the Philistines with Kreti and pleti, Caphtor was identified as Crete. It will be more in accord with historical evidence if we understand Caphtor to be Cyprus. If Caphtor was not Cyprus, then no name for Cyprus and no mention of the island would be found in the Scriptures, and that would be unlikely because cyprus is very close to Syria. The islands of Khitiim (Jeremiah 2: 10' Ezekiel 27: 6), usually identified as Cyprus, signified all the islands and coastlands of the west, Macedonia, and even Italy. Cf. article "Cyprus" in the Jewish Encyclopdia.
80. The word "Pleti" was given still another explanation. The Targum translated "Kreti" as "bowmen", and "Pleti" as "slingers" from the word palet, "to cast" or "cast out". The same verb could be regarded as meaning "those who were cast" out by the sea, or "remnants of people escaped from some place on the sea": iam polat is "the sea threw out".
81. Herodotus, II, 152.
82. Ibid., II, 154.
83. Dussaud, Les Découvertes, p. 20.
84. Strabo, The Geography, XIV, ii, 27ff.
85. Ibid., with reference to Apollodorus, Athenian grammarian.

86. Herodotus, I, 172.

87. Ibid., VIII, 135.

88. See A. H. Sayce. "The Karian Language and Inscriptions", Transactions of the Society of Biblical Archaeology, IX (1886), 123-54. W. Brandenstein, "Karische Sprache", Pauly-Wissowa, Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, Supplement VI (1935), 140-46; F. Bork, "Die Sprache der Karer", Archiv für Orientforschung, VII (1931-32).

89. Lepsius noticed these signatures and drew this conclusion.

90. The hypothesis of the Iranian origin of Carian was put forth by P. de Lagarde. See P. Kretschmer, Einleitung in die Geschichte der Griechischen Sprache (Göttingen, 1896), pp. 376ff.

91. "Neben dem elamoiden Kerne ist im Karischen ein starker Einschlag aus dem Mitanni deutlich zu erkennen." F. Bork, "Die Sprache der Karer", Archiv für Orientforschung, VII (1931), 23.

92. "Ergt." See Hrozny, "Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932), 175. Compare Virolleaud, Syria, Revue d'art oriental et d'archéologie, XII, 351 and 557.

93. Nikodamos of Salamis on Cyprus minted coins ca -460 to -450 (Sir George F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Cyprus (London, 1904,) p. 52.

94. See the article "Didyma" by Bürchner in Pauly-Wissowa, Real-Encyclopädie.

95. "Les inscriptions churrites de Ras Shamra démontrent une fois de plus la grande influence du peuple churrite ou horite sur la Syrie et la Palestine. Ce fait ne saurait nous surprendre, dès que nous connaissons le rôle joué par les Churrites en Syrie et en Palestine à la fin du troisième et dans la première moitié du second millénaire." Hrozny, Archiv Orientálni, IV (1932), 127. See also Speiser, Mesopotamian Origins, p. 133.

96. Herodotus, II, 117.

97. A. M. Badawi, "Die neue historische Stele Amenophis' II", Annales du service des antiquités de l'Egypte, XLII (Cairo, 1943), 1-23.

98. Brugsch read the name "Arinath" and identified it with Orontes. Breasted and others accepted this view; F. W. von Bissing objected (Die Statistische Tafel von Karnak [Leipzig, 1897], p. 34); Petrie read "Arseth" and surmised it to be Haroshet on the Kishon (History of Egypt, II, 155). J. A. Wilson, however, verified the reading y-r-s-t on the Karnak fragment.

99. Amenhotep II started his campaign, according to the Memphis Stele, on the "First month of the third season, day 25". He reached y-r-s-t on the "first month of the third season, day 26" (Karnak variant), or only one day later. See "Egyptian Historical Texts" by. J. A. Wilson in Ancient Near Eastern Texts, p. 245 and note 8 on the same page.

100. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 785.

101. In a recent publication Sidney Smith arrived independently at the same conclusion that the expedition of Amenhotep II was a disastrous defeat. Occasional Publications of the British School of Archaeology in Ankara (London, 1949), Vol. I.

102. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 786.

103. Ibid., Sec. 787.

104. That he lost Syria-Palestine may also be deduced from the fact that his successor, Thutmose IV, called himself "conqueror of Syria".

105. In Micah 1: 14 the place is called Moresheth-Gath. The first syllable of Meresha or Me-reshet may possibly mean "the water of", as in Me-riba or Me-rom. The Egyptians, transcribing Moreshet, could write mu-areset, or the water of areset. Amenhotep II crossed "the arm of water [ford] of arseth" (Petrie, History of Egypt, II, 15).

106. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 792.

107. Breasted, A History of Egypt (New York, 1912), p. 326.

108. Cf. Foucart in the Bulletin de l'Institut Egyptien, 5 série, II (1917), 268-269. Amenhotep I, an earlier king of the Eighteenth Dynasty, is pictured with a black face. I. Rosellini, I Monumenti dell' Egitto e della Nubia (Pisa, 1832-44).

109. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 803. See Gauthier, Le Livre des rois d'Egypte, II, 287.

110. It is a curious circumstance that in the Abyssinian sacred tradition (Kebra Nagast) Menelik, king of Ethiopia and son of the Queen of the South, guest of Solomon, returned to Palestine to rob its Temple; after succeeding in stealing the holy Ark by a ruse, he fled to Ethiopia, pursued by Solomon, his father, to the borders of Egypt. Two historical elements are mingled in this legend. The sack of the Temple was the work of Shishak-Thutmose III, the successor of Queen Sheba-Hatshepsut. The one who fled from Palestine, pursued by the king of Jerusalem, was Zerah-Amenhotep II, the successor of Shishak-Thutmose III.

111. Who assumed a Kush in Arabia besides the Kush (Ethiopia) in Africa.

112. Charles Virolleaud, La Légende de Keret, roi des Sidoniens (Paris, 1936).

113. "Comme nous l'avons indiqué déjà (Syria, Revue d'art oriental et d'archéol-ogie, XIV, 149), ce nom de Trh est évidemment la même que celui du père d'Abraham." Ibid., p. 25.

114. "Pour les Hébreux, Terah n'avait fait que préparer la conquête ou l'occupation de Canaan, et son fils Abram n'avait fait lui-même qu'ébaucher l'entre-prise, puisque, devant les diffcultés, il avait du abandonner la partie et s'était refugié en Egypte." Ibid., p. 32.

115. "Il ne s'agit pas ici de deux des douze tribes (Asher et Zebulun), mais de deux de ces cantons canaanéens, dont les douze tribes prendront, un jour,

le nom." Ibid., p. 18.

116. H. L. Ginsberg, in Ancient Near Eastern Texts. ed. Pritchard, pp. 142ff. Instead of "Asher, two and two are gone", he translated: "After two, two march."

117. Jack, The Ras Shamra Tablets, p. 38: "Three millions with copper scimitars or harpes (for which the Egyptian word hepes is used) and bronze daggers." Jack's is also the translation of these two lines from the poem.

118. Breasted, Records, Vol. II, Sec. 802.

119. See A. Lods, Israel (London, 1932), p. 64.

120. "Mqr mmlat dm". Ginsberg refers "dm" to the following sentence and gives in the meaning"Lo!"

121. Translated from Virolleaud, La Légende de Keret.

122. Ibid., p. 14.

123. Thutmose IV is twice called "conqueror of Syria" on the Stele Louvre C. 202. p. Pierret, Recueil d'inscriptions inédites du Musée Egyptien du Louvre, II Partie (Paris, 1878), p. 35. Cf. Journal of Egyptian Archaeology, XXVII (1941), 18.

124. As was demonstrated in a previous chapter, Shishak is the scriptural name of Thutmose. Since the tablets of Ras Shamra belong to the period of the Amenhoteps and Thutmoses, we should expect to find in them, besides the biblical name of Zerah, that of Shishak. It was, in fact, among the first of the deciphered words and it caused considerable surprise. "Le mot Swsk semble, un nom propre, à rapprocher peut-être de l'égyptien Sosenq, hebreu Sosaq, et Sisaq." Dhorme, Revue biblique, XL (1931), 55. The translator did not dare to draw the correct conclusion, for what was this pharaoh of the ninth or tenth century doing in the middle of the second millennium?

125. El-Amarna Tablets, Letter 151.

126. Virolleaud, "Suppiluliuma et Niqmad d'Ugarit", Revue hittite et asianique, V (1940), 173f.; see Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 38.

127. See Schaeffer, Les Fouilles de Minet-el-Beida et de Ras Shamra, La Neuvième Campagne (Syria, XIX [1938], 196), concerning the time when Ugarit was destroyed.

128. Hrozny, :Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932), 171; Dhorme, Revue biblique, XL (1931), 37-39.

129. "Il est regrettable que le commencement de l'inscription n'ait pas été conservé; on peut supposer que les premières lignes de l'inscription contenaient des détails sur l'acteur principal des événements dépeints." Hrozny, "Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932), 176.

130. Keret, the city, and Keret, the personal name, have different spellings.

الفصل السادس

رسائل تل العمارنة

رسائل تل العمارنة وزمن كتابتها

هناك بعض القرى الصغيرة المتفرقة على ضفتى وادى النيل، وفى موقع واحدة منها كانت توجد فى يوم ما مدينة تسمى أخيت - آتون التى تعنى «المكان الذى يشرق منه آتون».

وذلك الموضع يحمل اسماً حديثاً أطلقه عليه علماء الآثار المعاصرون وهو اسم «تل العمارنة». وقد أزيحت رمال الصحراء عن ذلك الموضع لتكشف عن بقايا معابد، وقصور، ومقابر، ومساكن، وقاعات للحرفيين كانت كلها مدفونة تحت الرمال لآلاف من السنين.

وفى عام ١٨٨٧ أزيحت الرمال فى تل العمارنة عن قاعة سجلات الدولة، وكان قد لفت الأنظار قبل ذلك أن امرأة من الفلاحين الذين يعيشون بتلك المنطقة، كانت تحفر بحقلها حين عثرت على ألواح من الطين وعليها علامات مسمارية، وقد شاع بعد ذلك أنها باعت ما وجدته بما يوازى شلنين. ثم أرسلت عينات من تلك الألواح إلى متحف اللوفر الذى أعلن أنها مزيفة، ولكن سرعان ما تحققت الدوائر العلمية من أصالة تلك الألواح.

وفى الأعوام التى تلت ذلك الحدث، عجت المنطقة بصائدى ألواح الطين من علماء الآثار وغيرهم. منهم من كانت تموله جهات رسمية ومنهم من كانت تموله جهات خاصة اهتمت بتلك الألواح وتجميعها .. ونتج عن ذلك أن تفرقت الألواح بين منقبين غير مخولين بالتنقيب، وبين متاجرين بالآثار، وتلف الكثير منها، كما تحطم بعضها إلى أجزاء صغيرة بأيد غير خبيرة بالتنقيب، كما تحطم البعض الآخر أثناء نقله، كما قيل أن بعضها

قد تحطم عن عمد بغية تقسيمه بين المنقيبن المشبوهين فى الظلام.

وحتى اليوم فإن ما يزيد عن ثلاثمائة وستين لوحاً قد عثر عليها، وباستثناء بعض الألواح المفردة التى وجدت فى فلسطين وسوريا والتى تنتمى بشكل أو آخر إلى المجموعة نفسها، فإن المجموعة كلها وجدت فى مكان عرف على أنه قاعة سجلات مدينة آخيت - آتون.

ولا يوجد بين تلك الألواح إلا القليل الذى يحتوى على أجزاء من ملاحم شعر، أما بقية الألواح فهى رسائل متبادلة بين ملكين متتابعين من ملوك مصر، وبين مراسليهم من الملوك والنواب التابعين لفراعنة مصر فى الشرق الأوسط وقبرص ومختلف الملوك والأمراء الخاضعين للنفوذ المصرى، والأمراء وقواد الجيش فى سوريا وفلسطين.

وكان ملوك أقصى شمال سوريا غير خاضعين لهيمنة مصر، ولذلك كانوا يستهلون رسائلهم بـ «إلى أخى»، ويختمونها بـ «أخوكم»، أما ملوك كنعان وسوريا فقد كانوا خاضعين لهيمنة أسر وادى النيل الحاكمة، ولذلك فقد كانوا يستهلون رسائلهم بعبارات أخرى مثل «إلى ملكى وإلهى» كما كانوا يذيلونها بتوقيع «خادمكم ...». كما أن هناك رسائل أخرى موجهة إلى أصحاب المقام الرفيع فى بلاط الملك المصرى.

أما الألواح التى وجدت عليها رسائل من الفراعنة، فقد كان من الواضح أنها مجرد نسخ قد حفظت فى السجلات للرجوع إليها عند الضرورة. أما اللغة التى كتبت بها تلك الألواح فهى غالباً - وباستثناءات قليلة -، الآشورية - البابلية (الأكادية)، مع بعض الكلمات باللهجة السورية المشابهة للعبرية (١).

وقد قام ببناء مدينة أخيت - آتون الملك المنشق عن العقائد الدينية المصرية التقليدية، الملك أمينوحتب الرابع الذى أبطل عبادة الاله آمون إله طيبة ودعاً إلى عبادة الاله آتون المرموز إليه بقرص الشمس، ثم غير اسمه بعد ذلك إلى اخناتون. ولكن بمجرد انتهاء حكمه فإن العاصمة الجديدة آخيت - آتون قد هجرت تماماً كما دُمِغَت العقيدة الجديدة التى دعا إليها بالهرطقة، ومثل كهنة طيبة بكل رموزها فى العبادة. وحكم من بعده زوج ابنته الملك الصغير توت عنخ آمون لفترة لم تدم طويلاً من العاصمة القديمة طيبة. وبعد ذلك انقرضت الأسرة.

ولذلك فمدينة آخيت – آتون لم تملك إلا تاريخاً قصيراً لم يتجاوز خمسة وعشرين عاماً، وذلك قبل أن يهجرها سكانها.

أما تاريخ الرسائل فيمكن تحديده بدقة لا بأس بها. لقد كان جل الرسائل موجه إلى نيميودا (نى – أب – ميو – وا – رى – يا، ى – أم – ميو – رى – يا، أم – ميو – رى – يا) وهى كلها أسماء لأمينوحتب الرابع (اخناتون).

أما الرسائل التى وجدت بتل العمارنة وموجهة إلى اسم أمينوحتب الثالث فالمعتقد أنها نقلت من عاصمة حكمه فى طيبة إلى سجلات مدينة آخيت – آتون الجديدة. كانت هناك فى قاعات السجلات أرفف طويلة فى صفوف متتالية مليئة بالمكاتبات والمراسلات والتى تمثل أقدم مكاتبات دولية محفوظة حتى هذه اللحظة، إن أحد أهداف علم التاريخ كعلم، هو التوصل إلى شهادة تاريخية مسجلة عن فترة سابقة لدخول الإسرائيليين إلى كنعان. كما أن أحد الأهداف الرئيسية من البحث هو التعرف على أسماء الأماكن والأشخاص التى ذكرت بتلك الرسائل، على ألواح كتبها ملك أورشليم (يوروساليم) الخاضع لهيمنة مصر، وهى رسالة موجهة إلى الفرعون نجد أن هناك ذكراً متكرراً للـ «حابيرو» الذين يهددون بلاده من شرق الأردن. وفى رسائل أخرى قادمة من أماكن مختلفة نجدها لا تذكر «الحابيرو»، ولكنها تشير إلى غزو مرتقب من سا – جاز – ميش (سا – جاز) تقرأ أيضاً بطريقة الأشكال الفرعونية – حاباتو – وتعنى قاطعى الرقاب أو الناهبين) وهى عبارة ذكرت هى الأخرى مراراً وتكراراً.

وبالرجوع إلى مختلف الرسائل تبين أن الحابيرو والـ «سا – جاز» (حاباتو) كانوا نفس المشار إليه. وفى خطابات أخرى من سوريا نجد أن اقتراب ملك الحيثيين من منحدرات جبال لبنان كان سبباً فى إرسال تقارير يسودها الذعر.

والانطباع الذى نخرج به أن تلك الغزوات – للحابيرو من الشرق وللملك الحيثيين من الشمال – كانت تهديداً لهيمنة مصر على سوريا، تلك الهيمنة التى علمنا بعد ذلك أنها قد انتهت بعد فترة قصيرة من حكم اخناتون.

وفى رسائلهم تلك كان المراسلون يطلبون النجدة بإلحاح للتصدى

للغزاة وغالباً ما كانت رسائلهم أيضاً ضد بعضهم البعض، ولم يهتم الملك اخناتون «أول من دعا لديانة التوحيد فى تاريخ العالم» (٢). بإمبراطوريته الواسعة، فقد كان مسيطرا على فكره حلم «دين الحب» على كل ما عداه. فأرسل مساعدات قليلة أو لم يرسل على الإطلاق، وهكذا انتهت سيادة مصر الفرعونية على سوريا وكنعان، كما تلاشت سيطرة مصر على مقاطعاتها الأسيوية.

إن اسم ملك حثّين يفهم بوجه عام على أنه ملك الحيثيين. وفى العصور التالية – عصور الملك سيتى الأول ورمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة – كانت هناك معارك كبرى بين ملوك الحيثيين والفراعنة وفى فصل يتعلق بتلك الفترة من تاريخ «الإمبراطورية الحيثية المنسية» نجد أن أحد ملوكها هو من واكب فترة تل العمارنة بمصر .. واحد من ملوك تلك «المملكة المنسية».

إن اسم حابيرو المذكورفى رسائل ملك أورشليم دفع بالتخمينات فى مختلف اتجاهاتها وكان منها: أن أولئك الغزاة الذين تحدثت عنهم الرسائل ربما كانوا هم اليهود الذين قادهم يشوع وهم يقتربون من أرض كنعان، فالحابيرو أيضاً جاءوا من الصحراء واقتربوا من أرض كنعان من جهة الأردن، وباقترابهم من الأرض الموعودة فى عصر أمينوحتب واخناتون كان من المفترض أنهم قد خرجوا من مصر فى أيام تحتمس الثالث أو أمينوحتب الثانى.

والتركيب بهذا الشكل لا يبدو منطقياً لأن تلك الأسر كانت كلها أسراً غازية وقوية ومتماسكة، كانوا من القوة بحيث لا يمكن أن يسمحوا للإسرائيليين بالتخلص من نير العبودية فى عصورهم. وهناك باحثون آخرون لم يؤمنوا بأن الإسرائيليين هم الحابيرو المشار إليهم فى الرسائل لأنهم يؤمنون بأن الإسرائيليين كانوا لا يزالون بمصر فى عصر اخناتون وأن الفرصة الوحيدة التى كانت متاحة أمامهم للخروج هى فرصة الفوضى وضياع سطوة الدولة وهيبة الحكومة، وهى فترة اضمحلال تلك الأسرة الحاكمة (الأسرة الثامنة عشرة) فتلك، برأيهم، كانت هى الأوقات الوحيدة الملائمة لتمرد العبيد ومن ثم رحيلهم، كما تضمنت نفس وجهة النظر هذه أن الحابيرو قد جاءوا كواحدة من موجات القبائل المرتحلة، المتشوقة إلى

الاستقرار فى أرض كنعان، ولابد أنها قد تلتها موجات أخرى، وكان الإسرائيليون واحدة من تلك الموجات القادمة تحت قيادة يشوع بن نون.

فى مقدمة هذا الكتاب تناولت مختلف النظريات المتعلقة بزمن الخروج، وذكرت فيها أن مجموعة كبيرة من الباحثين لم تقبل بأى شكل نظرية الخروج فى أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة، مع تأكيدهم على أن عصر رمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة كان هو عصر خروج الإسرائيليين من مصر، مع إيمانهم أن الخروج لم يكن حدثاً ملحوظاً فى تاريخ مصر. ورأى آخرون أن رمسيس كان هو فرعون الطغيان وأن عصر ابنه ميرنبتاح كان هو عصر الخروج.

وفى رأى أولئك الباحثين أن ألواح تل العمارنة بما أنها سبقت عصر الخروج الإسرائيلى من مصر فإنه من المستحيل أن يكون الحابيرو هم الإسرائيليون. ودأب آخرون على البحث عن رابطة أخرى تربط بين قصص التوراة بالتفاصيل التى لم يعرف مغزاها فى رسائل تل العمارنة. فوجدوا مقابلا ليوسف فى البلاط المصرى ويحمل أيضاً اسماً سامياً وبالتالى ينتمى إلى أصل سامى، إنه دودو (٣) الذى خلدت ذكراه، ليس فقط لكونه متلق رسائله باسمه نيابة عن الملك الفرعون، وقد كانت بعض رسائل تل العمارنة تحمل اسمه، ولكن خلدت ذكراه أيضاً مقبرة عظيمة تحمل اسمه فى آخيت - آتون. كان الملك اخناتون حين يرغب فى تكريم أحد رعاياه المقربين، يهدى إليه مقبرة تبنى باسمه أثناء حياته وتزين بمناظر من حياة ومعيشة الملك والأسرة الملكية، ويصور صاحب المقبرة - بدون أسرته - بحجم صغير وهو يتلقى ايات التشريف من الملك. وفى مقبرة دودو نجد أيضاً صوراً لأفراد يحملون ملامح سامية ويحتفلون بتكريم دودو. وهناك رسالة موجهة إلى دودو سنتعرضها فيما بعد.

وهناك نمط آخر ذكر فى الرسائل ورؤى أنه مقابل ليوسف ويدعى إيانهما (٤) وقد كان طبقاً لرسائل تل العمارنة المسئول المصرى الأول عن مخازن الحبوب فى الدولة، فى وقت كانت فيه المجاعة تسود أغلب البلاد المجاورة لمصر، وكانت الحبوب تباع من مصر إلى أمراء الكنعانيين كما كانت الرسائل الواردة إلى مصر من ملك جوبلا وسومور تضج بالصراخ والتوسلات من أجل إرسال الحبوب.

وهناك استنتاج آخر لابد من تسجيله وهو أن زيارة اسحق ورفقه أو زيارة إبراهيم وسارة إلى مصر (٥) ربطت بشكل ما بعبادة ربة مدينة جوبلا وزوجها اللذين كانا بمصر. وقد دعم ملك جوبلا وسومور رغبتهما التى أبدياها فى العودة إلى كنعان هذا إن لم يكن قد طلب شخصياً إخراجهما من مصر.

ولكن النظرية التى توحد ما بين الحابيرو (فى رسائل تل العمارنة) واليهود المتجهين إلى كنعان لم تسقط تماماً، ومن جهة أخرى كان الأمر يبدو مريباً فى أن تاريخ الشعبين القديمين - المصرى واليهودى - واللذين عاشا فى بلدين متجاورين، لم يظهرا أى نوع من الارتباط أو الاتصال على مدى عدة مئات من السنين فى تاريخهما المبكر، حتى الارتباط الوحيد المحتمل - وهو نصب ميرنبتاح والذى سنتعرض له فيما بعد - تم تفسيره على كلا الوجهين، مرة بتدعيم واثبات أن الحابيرو هم اليهود، ومرة بإثبات عكس ذلك.

إن معادلة الحابيرو - اليهود لا زالت مقبولة لدى عدد كبير من الباحثين والدارسين ففى الوقت الذى كانت تكتب فيه رسائل تل العمارنة - كما يعتقدون - كانت قبائل الصحراء من الإسرائيليين تدق أبواب الأرض التى جاءوا ليغزوها. فهل يتعارض هذا الرأى مع الترتيب الزمنى الذى يذكر أن الإسرائيليين كانوا لا يزالون تحت نير عبودية رمسيس الثانى؟ وإن كان يتعارض فإن ذلك المفهوم يجب أن يصاغ من جديد، كأن تكون هجرة اليهود قد تتابعت على مراحل مختلفة ومتتالية. ولذلك وضعت نظريات تصالحية للتوفيق بين التناقضات وذلك بافتراض أن الخروج قد تم على عدة مراحل متتالية، وأن قبائل راشيل وليحا قد خرجت فى أوقات مختلفة، فحين وصلت قبائل راشيل إلى أرض كنعان كانت قبائل ليحا ما زالت تحت نير الطغيان والعبودية بأرض مصر، ثم لحقت بهم بعد ذلك، كما افترضت نظرية أخرى أن اليوسفيين (نسبة إلى يوسف) كانوا خارجين من مصر فى حين كان اليعاقبة خارجين من بلاد الرافدين وسوريا، وتصوير آخر لتلك الفرضية يرى أن اليعاقبة خارجون من مصر فى حين كان الإبراهيميون قادمين من الشمال.

وبرزت صعوبة أخرى متمثلة فى معادلة الحابيرو - اليهود فى أنه لم

يمكن العثور على أى اسم من الأسماء التى جاءت فى سفر يشوع فى رسائل تل العمارنة. فحين دخل الإسرائيليون أرض كنعان كان أدونى صادق ملكا على أورشليم، وحوحام ملكاً على حبرون، وبيرام ملكاً على يرموث وحافيا ملكاً على شيش ودبير ملكاً على عجلون (سفر يشوع ١٠: ٣). وهناك من بين الرسائل عدد منها كتبه بعض ملوك تلك المدن ولكن ليس بأسماء الملوك السابق ذكرهم. ويفوق ذلك فى الأهمية أن التماثل ضعيف بين الأحداث المذكورة فى الرسائل وتلك التى فى سفر يشوع، فحدث كبير مثل الحصار الذى ضرب على مدينة أريحا - وهو من أبرز الأحداث فى بدايات غزو أرض كنعان - لا يوجد صدى له فى الرسائل، وحتى اسم أريحا غير مذكور على الإطلاق. هذا الصمت يعد غريباً ومريباً بكل المقاييس، إذا كان الحابيرو هم اليهود تحت قيادة يشوع. ولا يوجد حدث معاصر ومشترك بالرسائل يمكن متابعته للخروج بنتائج.

إن بعض فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، مثل سيتى ورمسيس الثانى، قد تركوا آثاراً تخلد ذكراهما فى مصر وفلسطين على اعتبار أن مرورهما بفلسطين كغزاة كان لاسترداد هيمنة مصر وهيبتها على البلاد التى فقدت السيطرة عليها فى عصر ملوك العمارنة ومن خلفوهم. وفى سفرى يشوع والقضاة اللذين يغطيان أحداث أكثر من أربعمائة عام، لا يوجد بهما ما يدل على سيادة مصرية من أى نوع، أو حتى مجرد تدخل فى شئون أرض كنعان.

لكل تلك الأسباب سيبدو الأمر مقحماً إن وضعنا قصة غزو اليهود لأرض كنعان فى مثل ذلك الوقت المبكر من التاريخ .. ولا زلنا فى سياق المناقشة، .. إن بعض الباحثين ممن لم يقبلوا نظرية أن اليهود كانوا قد دخلوا فعلا أرض كنعان فى عصر أمينوحتب الثالث واخناتون، رأوا أن الحابيرو المذكورين فى الرسائل هم ما أطلقوا عليه قوم عبريو وهم العاملون بالمحاجر المصرية فى جزيرة سيناء فى رحلتهم الموسمية من شبه جزيرة سيناء إلى قرارهم فى لبنان، وآخرون رأوا أنهم كانوا مهاجرين من مقاطعة بابل فى أفيريو.

كيف يمكن لليهود أن يصلوا إلى كنعان قبل أن يغادروا مصر؟ وكيف كان يمكن لهم أن يتخلصوا من عبوديتهم بمصر قبل أن تضعف قبضة

الاستعباد؟ وطبقاً لإعادة الترتيب الزمنى الصحيح للعصور المقدم هنا، فإن رسائل تل العمارنة التى تم إرسالها وتلقيها فى عصر كل من أمينوحتب الثالث واخناتون لا تعود إلى الفترة الممتدة من عام ١٤١٠ إلى عام ١٣٧٠ ق . م كما يعتقد الجميع، بل تعود إلى الفترة الممتدة ما بين عام ٨٧٠ إلى عام ٨٤٠ ق. م فى عهد الملك يهوشافاط فى أورشليم (٦).

لو كانت هذه النظرية صحيحة، فلابد أن نتوقع أن نجد بين مجموعة رسائل تل العمارنة بعض الرسائل التى كتبها كتبة ملكيون ماهرون فى المسمارية باسم ملوك إسرائيل فى أورشليم والسامرا. كان من أكثرهم كتابة للرسائل من بين كل الأمراء ورؤساء المدن، ملك سومور (السامرا). فمن بين الرسائل هناك ستون رسالة مرسلة منه: منها أربع وخمسون رسالة موجهة إلى ملك مصر، حتى أن الملك الفرعون كتب إليه ذات مرة مؤنباً «أنت تكتب إلى أكثر من كل الحكام».

إن الثلاثمائة والستين رسالة التى تربط الماضى السياسى للأمم الكبرى والصغرى فى الشرق الأدنى فى حقبة مهمة من التاريخ تعود إلى الماضى البعيد، كانت هدفا لدراسات مطولة اختصت بتواريخ مصر، وبابل، وبلاد الحيثيين، وسوريا، وكنعان وما قررته عن تواريخ كتابة تلك الرسائل لا يجب أن يقبل لمجرد كونه يتلاءم مع جداول الزمن التى بنيت على شواهد أخرى فى أزمنة سبقت أو تلت ذلك، فما قررته عن تاريخ كتابة الرسائل يجب أن نبرهن على صحته من الرسائل ذاتها. وعدا نص التوراة ورسائل تل العمارنة، فهناك مصدران اخران يتصلان بتاريخ حكم الملك يهوشافاط فى أورشليم هما نصب الملك ميشع التذكارى فى أرض موآب، ونقوش الملك الأشورى شالمانصر الثالث. إن تلك الآثار أيضاً - لا التوراة وحدها - يجب أن تقارن برسائل تل العمارنة، هذا إن صح ما ذكرناه من أن تاريخ مصر يجب مراجعته وقراءته من جديد، وتحريكه للأمام أقرب إلى عصرنا بما يربو على خمسمائة عام.

أورشليم، والسامرا، وجيزريل

إن رسائل تل العمارنة تمدنا بأسماء أمراء وحكام فى سوريا وفلسطين

وأسماء مدن وقلاع حصينة. وحتى الآن لم يتم التعرف على اسم واحد منها أما بعض أسماء الأماكن الجغرافية فقد أمكن تتبعها إلى حد ما. ومن المفيد أن نتعرف على بعض الأماكن الجغرافية المهمة التى ذكرت فى الرسائل، وكذلك بعض أسماء الأشخاص.

فيورو ساليم فى رسائل تل العمارنة ليس من الصعب التعرف عليها كأورشليم ولكن الصعوبة تبدأ فيما يخص نصوص التوراة (٧) وطبقاً لها كانت المدينة تسمى فيما قبل الإسرائيليين، بساليم أو يبوتس وليست أورشليم وقرر البعض أن رسائل تل العمارنة قد أظهرت خطأ الافتراضات السابقة وأن الإسرائيليين لم يكونوا بالمدينة بعد أثناء فترة العمارنة. ولكن إذا ثبت بعد ذلك أن رسائل تل العمارنة قد كتبت فى الحقبة الإسرائيلية فإن التناقض السابق يصبح لا محل له.

كانت سومور (وتسمى أيضاً سومورا) وجوبلا من أكثر أسماء المدن التى جاء ذكرها فى رسائل تل العمارنة، وقد ذكرت كل منها أكثر من مائة مرة، أما المدن الأخرى فلم يرد ذكرها إلا حوالى عشر مرات أو خمس عشرة مرة. ولم يذكر بالرسائل أسماء ملوك أو أمراء لمدينة سومور، التى كانت تالية لمدينة جوبلا، أكثر الأسماء ذكراً فى الرسائل، وبالرغم من الأهمية البالغة لذلك الاسم كما بدا من الرسائل إلا أنه لا توجد رسالة واحدة من بين المجموعة آتية من سومر (٨).

ويتضح من محتويات المراسلات أن سومور كانت «أهم مدينة» فى سوريا - فلسطين، ومن الواضح أيضاً أنها كانت مركز إقامة نائب الفرعون فى إدارة شئون تلك المنطقة. كانت سومور مركزاً عسكرياً ومدينة حصينة (٩) وكان بها قصر للملك، وكان تكرار ذكر ذلك القصر فى الرسائل القادمة إلى فرعون مصر يترك انطباعاً بأنه كان قصراً مشهوراً.

كانت سومور أو سومورا هى السامرا (وهى سيمر وسومرون بالعبرية) ولا يمكن افتراض أن سومور هى السامرا لمجرد أنها كانت منطقة أو مدينة تحت حكم عمرى أبو آخاب وهو الذى بنى مدينة السامرا التى لم تكن موجودة قبل غزو يشوع لأرض كنعان.

سفر الملوك الأول ١٦: ٢٤ واشترى (عمرى) جبل السامرا من شيمر بوزنتين من الفضة وبنى على الجبل ودعا اسم المدينة التى بناها باسم

شيمر صاحب الجبل السامرا.

وحيث إن الأصوات والحروف اللينة دخلت على كتابة التوراة فى وقت متأخر بعد أن أدخلها الماسوريون (حملة العقيدة) بما يزيد عن ألف عام بعد اكتمال التوراة فإن اسم شيمر من الممكن قراءته أيضاً سومور.

كانت السامرا محاطة بحائط قوى وقد أزيحت عنه الأتربة والأنقاض وكشفت بقاياه وكان بالمدينة قصر ملكى عظيم، ما زالت بقاياه موجودة حتى اليوم، إن هوية سومور (سومورا) والسامرا ستتضح بالتفصيل فى الصفحات التالية التى تتناول تاريخ المنطقة.

ومع اسم سومور ذكر أيضاً اسم مدينة جوبلا فى عدد كبير من المراسلات، وقد وجد بالرسائل الكثير من الأدلة التى تثبت أن جوبلا كانت البديل لسومور حيث كات تتعرض للغزو والاحتلال من قبل السوريين. وقد كتب ملك جوبلا إلى فرعون مصر ما يلى:

الرسالة ٨٥: «إن ما كان يعطى من قبل لسومور يجب أن يعطى الآن إلى جوبلا» ومن النادر أن نجد رسالة آتية من ملك جوبلا وقد خلت من مشاعر الحسد وعدم الارتياح وذكر فى رسائله اسم سومور أو سومورا ما يزيد على خمس وثمانين مرة، هذا عدا مرات أخرى أشير فيها إلى المدينة باسم «مدينة الملك الفرعون» أو «مدينتى».

لقد كان هناك افتراض أن جوبلا هى بيبلوس (*) وهى ما يسمى كينبى بالمصرية القديمة وجوول بالعبرية والفينيقية (١٠) وقد كانت بيبلوس مدينة فينيقية شمال بيروت وحيث إن كلمة جوول بالعبرية تعنى الحدود، فمن المحتم أنه كانت هناك أكثر من مدينة تحمل اسم جوول العبرية فى منطقة سوريا - فلسطين، فعلى سبيل المثال هناك إشارة فى التوراة إلى وجود جوول فى جنوب فلسطين (١١)، لكن لم يكن هناك سبب لتغيير اسم جوول (بيبلوس) واستبداله باسم جوبلا فى رسائل تل العمارنة.

لقد ذكر ملك جوبلا فى رسائله اسم مدينة باترونا عدة مرات، وقد تم التعرف عليها كمدينة بوترى القديمة (١٢)، وعلى ذلك فقد ذكر ميناندر وهو مؤلف إغريقى نقل عنه جوزيفوس (١٣)، ذكر عن أيثوبالوس (إيثبعل)

(*) قضاء جبيل بلبنان الآن (المترجم).

ملك صور فى القرن التاسع قبل الميلاد أنه «كان هو الملك الذى أنشأ مدينة بوترس فى فينيقيا» وبما أن من بناها هو زوج أم الملك أخاب ملك إسرائيل، فإن مدينة بوترس لا يمكن أن يرد ذكرها فى مراسلات تل العمارنة إلا إذا كان إنشاء المدينة سابقاً على تاريخ تلك المراسلات فى حقبة العمارنة، وهوما يتفق مع إعادة بناء التاريخ على وجهه الصحيح.

لو كانت سومور هى السامرا، فإن جوبلا هو الاسم السابق لمدينة جيزريل العاصمة الثانية لإسرائيل. لقد بنى عمرى مدينة السامرا وقصرها، وبنى ابنه آخاب قصره فى مدينة جيزريل مجاورا لحقول الكروم فى نابوت. وكانت الملكة هى إيزابيل زوجة آخاب التى لاقت حتفها بعد ذلك بطريقة مروعة. وكانت إيزابيل من أكثر الشخصيات التى كرهها شعب إسرائيل فى عهود ملوك إسرائيل، كانت ابنة لملك صيدا إيثبعل (سفر الملوك الأول ١٦: ٣١) وقد جلبت معها الشر والكراهية على كل أرض إسرائيل، فقد قتلت أنبياء الله، كما اضطهدت النبى إليا الشيبى، كما كان المئات من كهنة الإله بعل إله شعب صيدا يأكلون على مائدتها كل يوم (سفر الملوك الأول ١٨: ١٩)، وتحت تأثيرها ذهب زوجها آخاب ملك إسرائيل «وقدم للإله بعل وعبده» (سفر الملوك الأول ١٦: ٣١) وذكر جوزيفوس أنها بنت معبداً للإله «الذى اسموه بيلياس» (١٤)، وكتب ملك جوبلا فى أغلب رسائله «قد يهبنا بيليت بعليس القوة ...».

ويبدو أن بيليت فى تلك الرسائل هو الإله بعليس أو بيلياس الذى انتقلت عبادته من فينيقيا (١٥).

وهكذا نجد أن اسم جوبلا هو الاسم الأول لمدينة المقر الملكى والتى نجدها مذكورة فى التوراة باسم جيزريل، وكان للملك آخاب العديد من الزوجات حيث كان له سبعون ابنا فى السامرا (سفر الملوك الثانى ١٠: ١١) ولكن كانت إيزابيل ابنة ملك صيدا هى الأثيرة لديه والمفضلة على كل ما عداها من زوجات، وقد أثرت عليه بإغرائها وفتنتها فملكت زمام أمره، وبنى لها سكناً خاصاً بها مع حاشيتها، كما جاء فى قصة نابوت.

لم يكن من المنتظر أن يسمى آخاب المرتد عن دينه المقر الجديد الذى أقامه لزوجته باسم من الأسماء الدينية لديانة ارتد عنها أو باسم من أسماء رب إسرائيل، ومن المحتمل أن اسم المقر الجديد قد اشتق من اسم

مدينة فينيقية أثيرة لدى الأميرة الفينيقية التى أصبحت ملكة على إسرائيل. ومن الممكن أيضا التخمين بأن ذلك المقر قد سمى باسم الزوجة تكريماً لها، أى سمى جيبيل أو جوبلا كما يقرأ فى النقوش المسمارية، أى جيزيبيل (إيزابيل) كما فى نصوص التوراة (١٦). وقد لقيت حتفها بطريقة مأساوية، فقد مزقت الكلاب لحمها و «تكون جثة إيزابيل كدمنة على وجه الحقل فى قسم يزرعيل حتى لا يقولوا هذه إيزابيل» (سفر الملوك الثانى ٩: ٣٧) (١٧) وتعنى الجملة الأخيرة أن اسم المكان يجب أن يمحى وينتهى بانتهاء صاحبته التى سميت المدينة باسمها. وبعد موتها سميت المدينة باسم الوادى الذى تقع فيه وهو وادى جيزريل (١٨).

وسوف نمضى على افتراض أن سومور وجوبلا كانتا السامرا وجيزريل فى إسرائيل: كانت المدينتان عاصمتين لدولة واحدة، وكان ملك جوبلا قلقاً على عاصمته الثانية، التى كانت بمجرد أن يتم استردادها من السوريين تقع تحت وطأة الاحتلال من جديد فى الحرب الدائمة ضد السوريين، وحين كانت سومور تسقط فى أيدى السوريين كانت جوبلا تحل محلها كعاصمة للبلاد.

وهكذانصل إلى إجابة للتساؤل السابق عن عدم وجود اسم لملك سومور فى كل رسائل تل العمارنة، فمع ذكر اسم المدينة مراراً فى الرسائل إلا أن ملكها كان يسكن فى جوبلا وربما كانت بعض تلك الرسائل التى تحمل فى طياتها الدعاء المعتاد «قد يهبنا بيليت إله جوبلا القوة» ربما كانت بعض تلك الرسائل - قد كتبت من سومور (السامرا).

وبعد أن رفعنا الستار عن المشهد الرئيسى فى عصر العمارنة، فإننا يجب أن نتعرف على الأشخاص الذين يحتلون خشبة المسرح.

الملوك الخمسة

كان ملوك الشرق القديم عادة ما يحملون عدة أسماء وألقاب، وكانت رسائل تل العمارنة موجهة إلى الفرعون نيموريا والفرعون نافوريا، كان نيموريا هو الفرعون أمينوحتب الثالث، وكان نافوريا هو أمينوحتب الرابع (اخناتون) وكان ملوك مصر عادة ما يحملون ما يصل إلى خمسة

أسماء لكل منهم، ولا يقتصر ذلك على ما عرف من رسائل تل العمارنة ولكنه ثابت من خلال وثائق مصرية أخرى كثيرة ومن المعروف أن اسم نيموريا كان اسم العرش لأمينوحتب الثالث كما كان نافوريا اسم العرش لاخناتون، وفى الرسائل لم يذكر أى منهما اسم أمينوحتب أو اخناتون (١٩).

وكان ملوك أورشليم والسامرا ودمشق يحمل كل منهم أيضاً أكثر من اسم وهناك على سبيل المثال خمسة أسماء مختلفة عرفت لسليمان (٢٠) كما كان للملك حزقيا ملك أورشليم تسعة أسماء (٢١) وعلى ضوء تلك العادة القديمة فى إطلاق الأسماء فإنه لا توجد إلا احتمالات ضئيلة أن نجد فى رسائل تل العمارنة أسماء ملوك فلسطين كما عرفناها فى التوراة.

ولكن إن كان للملوك العديد من الأسماء، فإن ذلك لا يعنى أن لدينا حرية مطلقة فى اختيار الأسماء البديلة على هوانا كما أنه لا توجد تلك الأبواب المفتوحة على مصاريعها لاختيار الأسماء التى تلائم أغراضنا، والحياة والحروب فى حياة ملوك فلسطين وسوريا فى تلك الحقبة موصوفة بتفصيل مسهب فى كل من التوراة والرسائل وتلك التفاصيل فى كلا المصدرين يجب أن تقارن بدقة متناهية فى هذا الموضع من المناقشة، إذا بدا ذلك التطابق الذى توصلت إليه بين عبدى حيبات ويهوشافاط ملك أورشاليم، وبين رب – عدى وآخاب ملك إسرائيل، وبين بن حدد، وعبدى عشيرتا ملك دمشق وإذا بدا هذا التطابق صحيحاً سأكون سعيداً: ففى قاعة التاريخ المزدحمة بحشود البشر على مدى قرون طويلة، بإمكانى أن أشير إلى أشخاص معينين يحملون أسماء مختلفة تماماً عن الأسماء التى أبحث عنها وربما حتى يقال إنهم ينتمون إلى عصور تبعد عن العصر الذى نبحث فيه بستة قرون وحتى قبل أن أمحص كنه أولئك الأشخاص وبدون مبررات كافية فإننى سأصر على أن من تعرفت عليهم هم ذات الأشخاص الذين أبحث عنهم، بعد أن وضعهم المؤرخون فى عصور أخرى وبأسماء أخرى من أسمائهم.

إن مؤشر البحث الذى أمسك به هو مؤشر قياس الزمن وأنا أقلص تاريخ طيبة وتل العمارنة ستمائة عام. وأجد الملك يهوشافاط فى أورشليم وآخاب فى السامرا وبن حدد فى دمشق وإذا لم يضللنى مؤشر قياس

الزمن فإنهم هم الملوك الذين كانوا يحكمون فى أورشليم والسامرا ودمشق فى عصر تل العمارنة.

لقد كتبت رسائل تل العمارنة فى عهدى أمينوحتب الثالث وابنه اخناتون بعد ما يزيد على سبعين عاماً من حكم تحتمس الثالث الذى غزا فلسطين ونهب معبد قادش وبعد أن أرسينا أسس معاصرة كل من سليمان وحتشبسوت (ملكة سبأ) ورحبعام وتحتمس الثالث (شيشق) وأسا وأمينوحتب الثانى (زارح) فإننا مجبرون أن نستنتج أن من راسل أمينوحتب الثالث وابنه اخناتون من أورشليم كان هو الملك يهوشافاط، وهنا نجد أننا لم نعد أحراراً فإما أننا كنا على خطأ حتى هذه النقطة الأخيرة، أو أن مضامين رسائل تل العمارنة تتفق مع المعلومات التوراتية عن يهوشافاط، ويجب أن نكون على ثقة من ذلك حتى قبل أن نقرأ رسائل تل العمارنة لأول مرة.

كان هناك خمسة ملوك - ملكان متتاليان على دمشق، وملك على إسرائيل وملك على يهوذا وملك على موآب .. يمثلون الشخصيات الرئيسية على مسرح الحياة السياسية للأقاليم التابعة للحكم المصرى فى سوريا وفلسطين فى الفترة التى تتعرض لها هذه الدراسة.

وفيما يخص اثنان منهم نجد منهم نجد أن التوراة قد ذكرتهما بأسماء مشابهة كملك دمشق اسمه فى التوراة حزائيل واسمه جزيرو وحزيرا أو حزارو فى رسائل تل العمارنة. كما أن ملك موآب سمى ميشا فى التوراة وكان يدعى ميش فى رسائل تل العمارنة.

أما إسم ملك أورشليم فى رسائل العمارنة فيقرأ عبدى - حيبا، ولكن نفس الأشكال المسمارية المدونة فى الرسائل من الممكن قراءتها بطرق أخرى، فى البداية قرأها علماء اللغات عبد - توف (خادم الله أو عبد الله فى العبرية) (٢٢) ثم قرأوها بوتى - حيبا (٢٣) وقرأها آخرون آراد - حيبا أو آرثا - حيبا (٢٤) ومن تلك الحقيقة نجد أن الأسماء المكتوبة بـ المسمارية من الممكن قراءتها بأكثر من طريقة، وقراءتها عبد - حيبا تعد واحدة من التخمينات بين العديد منها (٢٥) ويبدو أن قراءتها الأقرب إلى الأصل هى عبد - توف.

أما اسم ملك أورشليم المذكور فى التوراة - يهوشافاط - فلم يكن أحد

الأسماء المتعددة لشخص واحد، ولكن يبدو أنه اسم أطلقه عليه شعبه تخليداً لأعماله فهو يعنى يهوه هو الحكم» أو ذلك الذى يحكم باسم يهوه» وكان ذلك الملك قد أرسل اللاويين فى جميع أنحاء ومدن مملكة يهوذا بـ «كتاب قانون يهوه» لتعليم الشعب (سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ٩) كما أقام محكمة عليا لـ «حكم الله فى أورشليم» (سفر أخبار الأيام الثانى ١٩: ٨ - ١٠).

سفر أخبار الأيام الثانى ١٩: ٥ - ٦ «وأقام قضاة فى الأرض فى كل مدن يهوذا المحصنة فى كل مدينة فمدينة وقال للقضاة انظروا ما أنتم فاعلون لأنكم لا تقضون للإنسان بل للرب وهو معكم فى أمر القضاء»

كما بنى بيتاً للعدل فى أورشليم (سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٥)

وملك كان كل جهده ومسعاه مسخر لمثل تلك الأعمال ألا يستحق فى ذاكرة شعبه لقب يهوشافاط أو الحاكم باسم الله «ويفسر ذلك ما ذكر فى التلمود على سبيل المثال من أن اسم سليمان (اسلام) كان اسم أطلق عليه بعد موته.

وأيضاً اسم رب - عدى المكتوب بالرمز المصور يعنى «الأكبر (بين أخوته) لأبيه» والمقطع الأول من الاسم يعنى الأكبر بين أخوته أو الابن الأكبر للأب فى حين يعنى المقطع الثانى من الاسم كلمة أب، وهو كما نرى اسم مركب كالاسم العبرى آخاب الذى يعنى المقطع الأول منه الأخ (أخ) والمقطع الثانى منه يعنى أب.

وفى المراسلات مع مصر كان ملك بلاد عمورو يسمى عبد - عشيرتا وينطق أيضاً عبدو عشتارتى وعدرا عشتارتى)

وتبين من رسائل ملك سومور، (٢٦) أن عرش ملوك بلاد عمورو، وهم عبدى - عشيرتا وعزارو من بعده كان فى دومشقا (دمشق). وهكذا يتضح من الرسائل أن أرض عمورو هى أرض أرام (سوريا) فى النص التوراتى. وأن أرض عمورو هى أرض سوريا كما سنجد فى نقوش الملك شالما نصر الثالث (٢٧) وطبقاً لما ذكره نيقولا الدمشقى وهو مؤرخ عاش فى القرن الأول قبل الميلاد فإن اسم بن حدد كان اسماً عاماً يطلق على ملوك دمشق (٢٨) وقد اتفق العديد من الباحثين والدراسين على صحة ذلك الرأى (٢٩) وافترض المؤرخون أن الاسم الحقيقى لملك دمشق الذى كان مناوئاً لآخاب

هو بريدى الذى كان قائداً للمتحالفين ضد شالما نصر الثالث ملك بابل، كما هو مسجل فى نقوش الملك الآشورى «أما كيفية ترجمته إلى بن حدد فى التوراة فذلك أمر غير معروف» (٣٠) وسنكشف بعد ذلك أن بريدى فى رسائل تل العمارنة هو قائد القوات العسكرية فى مجدو، كما سنجد أنه كانت من العادات السائدة أن يسمى الملوك بما يتفق مع العبادات الدينية السائدة فى بلادهم. وكانت عبادة عشتارت والبعليم هى السائدة فى عصر بن حدد ملك دمشق كما ذكر فى التوراة (٣١) وكان اسم عبد عشتارت من الأسماء الشائعة فى القرن التاسع قبل الميلاد، وقد نقل جوزيفوس فلافيوس عن ميناندر الأفسوسى فى كتاب له لم يبق حتى الآن قائمة بأسماء الملوك الفينيقيين، ومنها نجد أن حيرام المعاصر لسليمان كان له حفيد باسم عبد عشتارت الذى قتل فى سن التاسعة والثلاثين على أيدى أربعة من أبناء مربيته (٣٢) وربما كانت تلك القصة مجرد تحوير لقصة اغتيال بن حدد (سفر الملوك الثانى ٨)

أما اسم حزائيل المذكور فى التوراة كملك لدمشق فنجد أن اللام والراء يتخذان نفس الأشكال فى المسمارية ومن الممكن إبدالهما فى النطق ولذلك نجد أن اسم حزائيل فى ألواح العمارنة هو حزيرو أو حذارو، والدارسون الذين اشتقوا اسم العبرية من حابيرو فى إحدى نظرياتهم لن يجدوا صعوبة فى اشتقاق اسم حزائيل من حزارو، كما نجد أن جوزيفوس فلافيوس قد أطلق على حزائيل اسم عزائيلوس (٣٣).

كان ملوك أورشليم والسامرا ملوكا بالوراثة، وأطلقوا على أنفسهم فى رسائل تل العمارنة اسم (رابيتى سارى) أى الأمراء أو الأوصياء على العرش، ومن نص الرسائل يتضح أن كلا منهم قد جلس على العرش خلفا لأبيه ويذكر الملك الجالس على عرش السامرا فرعون مصر بالوقت الذى كان فيه أبوه يتلقى معونة أبى فرعون مصر فى إحدى رسائله. كما نجد أن ملك أورشليم بدوره يكتب إلى فرعون مصر قائلا:

الرسالة ٢٨٦: «وتعلمون أن لا أبى ولا أمى قد وضعانى على هذا العرش، فاليد القادرة للفرعون هى التى وضعتنى على عرش أبى» وذلك يعنى أن فرعون مصر هو الذى كان يختار من بين الأمراء المحليين واحداً منهم ليخلف أباه على عرشه، كملك تابع لفرعون مصر.

وكان هناك حكام مصريون معينون من قبل فرعون مصر يعملون كمستشارين لملوك المدن التابعة لسيطرة مصر، كانوا ممثلين للتاج المصرى ورعاة لمصالح مصر فى مختلف الولايات، كان هناك حاكم لشمال سوريا ويحتمل أن مقره كان بدمشق، وحاكم آخر فى السامرا (سومورو)، وسنلتقى بكل منهما ليس فقط فى نصوص الرسائل ولكن أيضاً من خلال نصوص التوراة ولم يكن هناك نائب لفرعون مصر فى أورشليم أو على الأقل لم يكن هناك مندوب دائم ففى واحدة من رسائله كتب ملك أورشليم إلى فرعون مصر يطلب منه السماح لمندوب الفرعون على غزة بزيارة أورشليم (٣٤) وقد كان ذلك المندوب كثيراً ما يقوم بزيارة أورشليم (٣٥) وكانت دعوات الزيارة تلك مع عدم وجود ممثل دائم للتاج المصرى يبين أن ملك أورشليم كان خاضعاً لهيمنة فرعون مصر ولكن بقدر أكبر من الاستقلالية وبقدر من الحكم الذاتى أكثر مما كان عليه الملوك الآخرون وحكام الولايات.

وبالرغم من أن ملكى أورشليم والسامرا كانا تابعين للهيمنة المصرية، إلا أنهما كانا يتمتعان بعوائد مالية خاصة بهم. كان ملك أورشليم يتلقى الضرائب والمكوس على شكل فضة ومواش من قبائل الجزيرة العربية وفلسطين (سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ١١)، وكان الملك ميشا (ميشع) ملك موآب يؤدى الضرائب إلى ملك السامرا (سفر الملوك الثانى ٣: ٤) وفى رسائل تل العمارنة سنلتقى كثيراً بتعبير المتمرد ميش وقد ذكر ذلك الاسم كثيراً لدرجة اعتقد معها البعض أنه شكل من أشكال القواعد اللغوية للدلالة على الجمع.

وسنكتشف بسهولة أنه أميل – جاز – ميش «فى صيغة المفرد هى «ميش المتمرد» وهو ملك موآب الذى تمرد بعد ذلك، وأن «أميلوت – جاز – ميش» هم «شعب ميش المتمرد» أى الموآبيين وبعكس الملوك فقد كان للآخرين من الشخصيات المهمة اسم واحد فقط ونجد أن أسماء الحكام العسكريين المصريين وقواد الجيش فى يهوذا وعديداً من الأسماء الأخرى هى الأسماء نفسها فى كل من رسائل تل العمارنة والتوراة ويزيد تطابق الأسماء تأكيداً أن الوظائف المذكورة لأولئك الأشخاص فى ذاتها نفس الوظائف فى كلا المصدرين.

وعدا إمكانية تتبع الشخصيات نفسها في يهوذا وإسرائيل ومآب وسوريا وأسفار الملوك وأخبار الأيام ورسائل تل العمارنة، فإن أسماء حكام الممالك الصغيرة في سوريا من الممكن مقارنتها في رسائل تل العمارنة ونقوش شالمانصر ملك آشور والذي عاش في عهد يهوشافاط وآخاب وكلا المصدرين - الرسائل ونقوش ملك آشور - قد كتبتا بنفس اللغة وهي المسمارية وسنعرف بعد ذلك حين نكشف عن محتويات رسائل تل العمارنة من هم الذين ساهموا في حرب المقاومة ضد الغزاة القادمين من الشمال.

رسائل قواد يهوشافاط

كان للملك يهوشافاط ملك يهوذا، خمسة أمرين على جيشه:

سفر أخبار الأيام الثاني ١٧: ١٤ - ١٩ وهذا عددهم حسب بيوت آبائهم من يهوذا رؤساء ألوف. عَدْنَه الرئيس ومعه جبابرة بأس ثلاثمائة ألف. وبجانبه يهوناثان الرئيس ومعه مائتان وثمانون ألفاً وبجانبه عمسيا بن زكري المنتدب للرب ومعه مائتا ألف جبار بأس ومن بنيامين الياداع جبار بأس ومعه من المتسلحين بالقسي والأتراس مائتا ألف وبجانبه يهوزاباد ومعه مائة وثمانون ألفا متجردون للحرب. هؤلاء خدام الملك فضلا عن الذين جعلهم الملك في المدن الحصينة في كل يهوذا.

إن عبارة «حسب بيوت آبائهم ذات دلالة واضحة، فقد كانت قيادة الجيش مقسمة تقسيماً وراثياً بين القبائل وتنتقل الرئاسة من الأب إلى الابن على القطاع الذي كان يقوده من الجيش. ولذلك سنجد أن في الجيل التالي أسماء مثل القائد إسماعيل بن يهوناثان وإيليشافاط بن زكري (٣٦) وكان عدد الجنود الذين تحت أمرة كل من القواد الخمسة يشير إلى أن تقسيم الأحياء بين القبائل كان يعني أن بكل حي مائة أو مائتين أو ثلاثمائة ألف مقاتل جاهزين للقتال، ولكن هناك تفسيراً آخر سنقدمه في الفصول التالية.

وتقدم رسائل تل العمارنة معلومات وفيرة عن ذلك النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في يهوذا في ذلك الوقت.

هناك رسائل - من مجموعة تل العمارنة - كتبها ثلاثة من القادة الخمسة لجيش يهوشافاط ووظائفهم مذكورة، كما فى كل من الرسائل وسفرى أخبار الأيام، كما أن أسماءهم من السهل التعرف عليها من كلا المصدرين، ولكن هناك تغير طفيف فى واحد من تلك الأسماء وهو تغير ذو دلالة ضمنية تقودنا إلى اتجاهات دينية وإصلاحات قد طرأت بعد موت يهوشافاط.

نجد أن عدوانى (وتنطق أيضاً عدادانى فى رسائل تل العمارنة هو عدنة فى التوراة (٣٧) ولكن نقوش شاش - رمان الذى أصبح ملكاً على اشور بعد موت شالما نصر عام ٨٢٥ ق. م تحتوى على إشارة إلى هدية تلقاها من عدا - دانو أمير غزة (عزاتى) (٣٨) وكذا «ابن ذوكرو» فى رسائل تل العمارنة يسمى ابن زكرى فى التوراة (٣٩). كما نجد أن أياهزيبادا فى الرسائل هو يهوزاباد فى التوارة.

كان أولئك القواد من أهم قادة جيش يهوشافاط، حتى أن فرعون مصر كان يراسلهم مباشرة، ولكن فى رسائلهم إليه نجد تعبيرات تظهر قلة شأنهم إذا ما قورنت برسائل ملك أورشليم إلى الفرعون.

ولكى يحافظ عدودانى على وضعه كرئيس لقادة الجيش، فقد داوم على مراسلة الفرعون، وقد بقى منه أربع رسائل كلها رسائل مطولة، ومن تلك الرسائل ندرك إلى أى حد من التعقيد كان عليه ذلك النظام حيث نجد رئيس قادة الجيوش يخضع مباشرة لفرعون مصر، ثم إلى نائب على ذلك الإقليم، والى الملك المحلى فى أورشليم. وقد كتب الفرعون إلى عدادانى ما يلى:

الرسالة ٢٩٤: انصت إلى ما يقوله لك نائبى جيداً واحم مدن الملك الإله التى هى فى عنايتك.

وقد رد عدادانى على تلك الرسالة مع تأكيدات بولائه للملك: الرسالة ٢٩٢: يقول عدادانى خادمكم .. إنى سمعت كلماتكم التى كتبها السيد الملك إلى خادمه لكى أحمى نائب مولاى وأحمى مدن الملك الإله، ترون جلالتكم أنى أفعل ذلك وترون أنى أنصت ليلا ونهاراً إلى كلمات سيدى الملك - ولعل سيدى الملك يشمل خادمه برعايته.

وبعد هذه المقدمة انتقل إلى أخبار الشئون المحلية استعداداً لاستقبال

رماة النبال من جيش الملك، وعن قوافل التجارة وعن تنافس بينه وبين نائب الملك وعن الحامية التى وضعها فى يافا، وشئون أخرى كثيرة وقد أرسل الفرعون نفس نص رسالته السابقة إلى ابن «ذكرو» .. احم مدن الملك الإله التى هى فى عنايتك.

وتكرر الأمر فى الرد الذى أرسله ابن ذكرو للفرعون. وكان لعادة تضمين ردود الرسائل عبارات وجمل كاملة من الرسالة فضل كبير فى الاحتفاظ بمعلومات قيمة كان من الممكن أن تضيع مع الرسائل المفقودة والمحطمة من رسائل تل العمارنة.

إن الاسم الأول لكاتب الرسالة مفقود ولكن اسم الأب هو الذى مازال موجوداً وهو «ذكرو» (٤٠) وفى قائمة التوراة التى ذكرت أسماء قواد جيش يهوشافاط لا يوجد منهم إلا واحد فقط مذكور باسم أبيه وهو عمسيا بن زكرى. ومن المهم أن نلاحظ أن فى رسائل تل العمارنة أيضاً لم يذكر أحد منسوباً إلى أبيه إلا ابن ذكرو وتفسر التوراة ذلك التمييز بأن زكريا قد وهب نفسه للرب باختياره وقد كرم نسله من بعده بنسبتهم إليه بإضافة ابن زكرى إلى الاسم الأول (سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ١٦، ٢٣: ١).

إن زكرى فى التوراة هو ذكور فى رسائل تل العمارنة، وعمسيا بن زكرى، هو ابن ذوكور أحد قادة الجيش الذى كتب إلى الفرعون حول أمور تتصل بالأمن فى منطقته (٤١) كما أن يهوزاباد المذكور فى سفر أخبار الأيام الثانى هو ما يسمى أياهزيبادا فى الرسائل التى أرسلها إلى فرعون مصر. تلك الرسائل القصيرة كانت رسائل شكر، واعترافاً بفضل الفرعون ورداً بالامتثال لأمره. والمكان الذى كتبت منه الرسائل غير مذكور، ولكنها كتبت من جنوب فلسطين، وفى سفر أخبار الأيام الثانى (١٧: ١٧ - ١٨) نجد أنه كان قائدا على أرض بينيامين، ويهوزاباد مذكور كآخر اسم من بين القادة الخمسة لجيش الملك يهوشافاط ملك أورشليم، وكان نموذجاً مختلفاً إذ لم ينخرط فى مناقشات عبر الرسائل مع الفرعون، كما لم يعبر عن نصائحه للفرعون كما فعل رئيس قادة الجيوش عدادانى، ولكنه كان كما يجب أن يكون عليه الجندى الملتزم فقد تقبل الأوامر وشكر الفرعون وأقر بفضله، وفيما يلى نسخة نمطية من رسائله:

الرسالة ٢٧٥: إلى الملك، إلهى، سيدى، وشمسى، أقول أنا أياهزيبادا خادمكم وتراب أقدامكم: عند موطئ أقدام الملك سيدى وإلهى وشمسى أنحنى وأسجد سبع مرات وسبع مرات أسقط تحت أقدامكم، إن الكلمة التى أنفذها الملك إلهى وسيدى وشمسى إلى سأنفذها بيقين كامل، على حسب رغبة إلهى الملك... إن مناطق التقسيم الإدارى بين مملكة يهوذا وبنيامين كما كانت مقسمة بين رؤساء القبائل والمدن، من الممكن التوصل إلى طبيعتها بالتقريب عن طريق المعلومات المجمعة من رسائل تل العمارنة والتوراة معا وفى طبعة نيوتزون (وفى طبعة مرسير أيضا) نجد أن رسائل تل العمارنة مرتبة حسب المواقع الجغرافية لكتابتها حيث نجد أن مراسلات الشمال تسبق مراسلات الجنوب. وقد كان فعلا مجهوداً يستحق الإشادة به ذلك الذى فعله نيوتزون فى ترتيب رسائل كل من عدادانى وابن ذوكور، وأياهزيبادا ووضعها بعد رسائل ملك أورشليم، وهكذا حدد بطريقة صحيحة الأماكن التى وردت منها تلك الرسائل من جنوب فلسطين.

عدايا مندوب الملك

فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر أخبار الأيام الثانى نجد قائمة بأسماء قادة الجيش على مدى ستة عشر عاماً بعد يهوشافاط. فبعد عمسيا بن زكرى أخذ مكانه الشافاط بن زكرى كما احتل إسماعيل بن يهوناثان مكان أبيه يهوناثان كأحد قادة الجيش. وكما ذكرنا قبل ذلك فإن منصب قيادة أحد الجيوش كان يورث من الأب إلى إبنه ومن الأخ إلى أخيه، مما يحدد شكل النظام الاجتماعى بأنه كان أسرياً إقطاعياً.

وبعد يهوشافاط بستة عشر عاماً كان هناك واحد من قادة الجيش اسمه معسياً بن عدايا وطبقاً للنظام المتبع فلابد أن عدايا كان حياً فى عصر يهوشافاط ويبدو أنه كان يعمل تحت إمرته، ورسائل تل العمارنة توضح لنا دوره الذى كان يقوم به فى خدمة يهوشافاط، لقد كان مندوباً ليهوشافاط فى أرض إيدوم المجاورة لأرض بنيامين، ولفترة زمنية كان مسئولا عن طريق غزة وهو محور الانتقال الرئيسى من، وإلى مصر.

وذكر فى التوراة أن فى عصر يهوشافاط «لم يكن هناك ملكاً على إيدوم بل مندوب ملك (سفر أخبار الملوك الأول ٢٢: ٤٧)، وكانت تلك الأراضى تحت سيطرة ملك أورشليم أى تابعة لملكة يهوذا (أخبار الأيام الثانى ٢١: ٨) وقد ذكر اسم عدايا أربع مرات فى ثلاث مناسبات فى رسائل ملك أورشليم إلى فرعون مصر.

الرسالة ٢٨٥: عدايا، نائب الملك (الفرعون).

الرسالة ٢٨٧: غادر عدايا مع ضباط الحامية الذين أرسلهم الملك ... ونعلم الملك أن عدايا قال لى «بكل يقين دعنى أرحل» (٤٢)

الرسالة ٢٨٩: أن الحامية التى أرسلها أخذها عدايا ووضعها حول بيته فى حازاتى.

ونعلم من الرسائل أن عدايا كان مندوباً للفرعون، وأنه كان فى مرتبة أدنى من ملك أورشليم. (٤٣) فقد كان نائباً على إيدوم التابعة لملكة يهوذا وملك أورشليم.

أمراء المدن

إن قائمة أسماء قادة الجيش الخمسة التابعين ليهوشافاط التى وردت فى سفر أخبار الأيام الثانى انتهت بالعبارة التالية «هؤلاء خدام الملك فضلا عن الذين جعلهم الملك فى المدن الحصينة فى كل يهوذا» وكان يهوشافاط قد أرسل اللاويين إلى أمراء المدن لإرشادهم دينيا سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ٧ وفى السنة الثالثة الملك أرسل إلى رؤسائه إلى بنحائل وعوبديا وزكريا ونثنئيل وميخايا أن يعلموا فى مدن يهوذا.

وكان أحد أمراء المدن يدعى فيديا وقد كتب إلى الفرعون من عسقلون فى جنوب فلسطين، وهناك سبع رسائل من رسائل تل العمارنة موقعة باسمه، وكانت سلطته محصورة فى مدينة واحدة، وطبقاً لتلك الرسائل كتب فيديا ما يلى:

الرسالة ٣٢٠: أنا أحمى مكان الملك، الذى يقع تحت رعايتى.

الرسالة ٣٢٦: أنا أحمى مدينة ملكى وإلهى.

وقد استقبل فيديا مندوب الفرعون وأعد له الجزية التى تدفع للفرعون

وفى مصر كان الملك يؤله بصفته تجسيداً للإله، ابن الشمس، بل حتى الشمس ذاتها.

وطبقاً للعادات العقائدية الدينية المصرية فإن الرؤساء التابعين فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفرعون كانوا يوجهون حديثهم إلى الملك كما يلى: إلى الملك سيدى وإلهى، شمسى وشمس السماء) وهذا ما كتبه أيضاً فيديا من عسقلون.

وجعلت الوثنية الكثير من المدن التى تقع حول أورشليم «تقف حائرة بين اتجاهين» كما ذكر إليا إذا استعرنا تعبيره حرفياً. وعلى ذلك فقد كان من المهم جداً أن يحمل ملك أورشليم على عاتقه مسئولية تنوير الشعب «وأقام يهوشافاط فى أورشليم ثم رجع وخرج أيضاً بين الشعب من بئر سبع إلى جبل أفرايم وردهم إلى الرب إله آبائهم» (سفر أخبار الأيام الثانى ١٩: ٤) وكان لكل تلك الجهود نجاح جزئى كما ذكرت التوراة «بل كان الشعب لم يعدّوا بعد قلوبهم لإله آبائهم» (أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٣٣).

آمون، حاكم السامرا

وضع الحكم المصرى نوابه إلى جانب الحكام المحليين فى كل من مملكتى فلسطين وسوريا وكان مندوب الملك الفرعون فى سومور فى بداية حكم رب – عدى هو أمان – أبا كما يتضح من رسائل تل العمارنة، وهناك رسالة من ملك سومر إلى أمان – أبا يقول فيها: الرسالة ٧٣: أنت تعلم حقيقة موقفى فى كل الفترة التى قضيتموها فى سومورا .. فأنا كنت خادمكم المطيع.

ونلتقى مرة أخرى بذلك الحاكم فى سفر أخبار الأيام الثانى.

سفر أخبار الأيام الثانى ١٨: ٢٥ «فقال ملك إسرائيل خذوا ميخا وردوه إلى آمون رئيس المدينة وإلى يوآش ابن الملك» وبسبب مركزه كنائب للفرعون فإن اسم آمون قد ذكر قبل اسم الأمير يوآش، الذى تجرى فى عروقه الدماء الملكية. كما يدل اسم آمون أن الحاكم كان مصرياً كما أنه مقدس لإله مصرى (٤٤) وبعد عودة الحاكم آمون إلى مصر فقد اعتبره حاكم سومور السامرا صديقاً له يدافع عنه فى البلاط الملكى المصرى أمام

فرعون مصر إذا استدعى الأمر، وكان آمون يعتبر خبيراً فى الشئون العسكرية والسياسية للسامره. وكتب ملك سومور إلى فرعون مصر قائلاً: الرسالة ٧٤: أن أمان – أبا لديكم الآن.

اسأله فهو يعلم وقد شاهد بنفسه ما أعانى وما أكابد.

وهو يطلب من أمان – أبا أن يعود مرة أخرى إلى سومور وأن يصحب معه فرقة من الرماة، الرسالة ٧٧: ألم تخبر مولانا أن يرسلك مرة أخرى على رأس فرقة من الرماة؟

كان ملك سومور على علاقة حميمة بنائب الفرعون وفى رسالة أخرى كتب إليه قائلاً: الرسالة ٩٣: أنا آتى إليك بالرغم من أنك لم تكتب إلىّ .. هأنذا .. أخبر الملك أن يخصص تحت إمرتك ثلاثمائة رجل. وفى كل تلك الأحوال كان ملك إسرائيل الخاضع لهيمنة مصر والحاكم آمون المعين من قبل الفرعون يتبادلان النصح والمشورة فيما يختص بأمور سومور (السامرا)، كان أمان – أبا كما يتضح من الرسائل يعارض سياسة تدعيم ملك دمشق وفى نصوص التوراة أيضاً نجد أن آمون حاكم السامرا من قبل الفرعون أقدم على سجن النبى اليهودى الذى حذر من خوض الحرب ضد حاكم دمشق (٤٥)، وأظهر تبنيه لسياسة استعادة المدن المفقودة بقوة السلاح.

كان أمان – أبا فى خريف عمره مع بداية حقبة مراسلات تل العمارنة، ولم يسعفه العمر حتى نهاية تلك الحقبة (٤٦)

وحين انتاب ملك سومور القلق، بعد أن طال انتظاره لوصول أخبار من أمان – أبا فى مصر، كتب إليه متأثرا «لو كنت قد مت فسأموت أنا أيضاً» (٤٧) وكتب إليه مرة أخرى متأثرا «إلى أبى أمان – أبا، يكتب إليكم رب عدى ابنكم» وهى عبارات إجلال كانت سائدة فى مراسلات تلك الحقبة كما نجدها أيضاً فى نصوص التوراة. وكان ملك السامرا يخاطب النبى اليشع بنفس تعبيرات التبجيل فقد كان يناديه «أبى» (سفر الملوك الثانى ٦: ٢١).

كما كان اللقب الذى عرف به آمون حاكم السامرا فى التوراة وهو «سار» كثيراً ما يستخدم للدلالة على الاحترام فى رسائل تل العمارنة.

ومن عرض النصوص السابقة فى كل من التوراة ورسائل تل العمارنة

نجد أن اسم حاكم السامرا من قبل فرعون مصر كان آمون فى نصوص التوراة، كما كان اسم حاكم سومور فى رسائل تل العمارنة هو آمون - أبا، وهما اسمان لشخص واحد (٤٨).

حصار السامرا الأول من قبل ملك دمشق

كان ملكا يهوذا والسامرا خاضعين للتاج المصرى، وحاول ملك سوريا استغلال ميزان القوى بين الشمال والجنوب ليمد سيطرته على مزيد من الأرض واتسمت رسائل عبدى - عشيرتا (بن - حدد) ملك دمشق بالتواضع الجم بالرغم من وبسبب نواياه المضمرة واستخدم فى رسائله تعبيرات الإجلال الشديد والتوقير تجاه الفرعون «أنحنى سبع مرات وأسجد تحت أقدام إلهى» وكان عادة ما يضيف إلى ذلك حين يكتب إلى الفرعون «خادمكم وتراب أقدامكم ،كلبكم الأمين» وطبقاً لنصوص التوراة فإن بن - حدد ملك دمشق كان من نسل ريزون «الذى فر من سيده» وجمع رجاله وأصبح رئيساً لعصابة، «... وذهبوا إلى دمشق .. واستولوا على الحكم فيها» (٤٩).

ولذا نجد أن ملك سومور (السامرا) وبقية الملوك الخاضعين لحكم مصر كانوا يطلقون على ملك دمشق اسم (الخادم).

الرسالة ٧١: من هو عبدى - عشيرتا، ذلك الخادم، الكلب، الذى يريد أن يستولى على أرض الملك لنفسه؟ ومن هى عائلته؟

ومنذ أيام ريزون وطبقاً للسياسة التى اتبعتها دمشق فى إذكاء روح العداء بين إسرائيل ويهوذا فقد استمرت كل منها فى معاداة الأخرى واحتدم الصراع بين إسرائيل ويهوذا حتى أن بعشا ملك إسرائيل بنى «الرامة، حتى لا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا» كما دأب على توجيه التهديدات إلى مملكة يهوذا وإزاء ذلك أرسل آسا ملك يهوذا الهدايا إلى بن حدد الذى تحول ضد بعشا ملك إسرائيل «وضرب عيون، ودان، وأبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى» (سفر الملوك الأول ١٥: ٢٠) واستولت يهوذا على جبل افرايم (سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ٢٠) وقد وقع ذلك بعد جيلين من موت سليمان وقبل عدة عقود من

فترة تل العمارنة وفى بداية حكم أسرة عمرى لإسرائيل عملت كل جهدها لتقوية إسرائيل، كان ذلك فى الوقت الذى تدعمت فيه سيطرة الحكم المصرى بقيادة تحتمس الثالث، أبى أمينوحتب الثالث، على أرض فلسطين. وفى عهد أحاب بن عمرى، جدد بن حدد العداوات المشتعلة بين إسرائيل ويهوذا، ورتب علاقات من التحالفات ترتكز كلها عليه:

سفر الملوك الأول ٢٠ وجمع بن حدد ملك آرام كل جيشه واثنين وثلاثين ملكاً معه وخيلا ومركبات وفى رسالة ملك سومور (السامرا) نجده يحذر من اتجاهات الرياح القادمة وتسود رسالته الشكوى الواضحة:

الرسالة ٩٠: اتحد كل الرؤساء والقواد مع عبدى - عشيرتا وضرب ملك دمشق حصاراً منيعاً حول السامرا.

سفر الملوك الأول ٢٠: ١ وصعد (بن - حدد) وحاصر السامرا وحاربها وباشتعال الحرب بدأت سلسلة طويلة دامية من الحصارات، والمعارك والمهادنات القصيرة ثم خرقها فى اعتداءات متجددة، شغلت الإصحاحات الستة الأخيرة من سفر الملوك الأول، والإصحاحات التسعة الأولى من سفر الملوك الثانى.

.. وتحول العداء ضد السامرا إلى عداء لا رجعة فيه وتكررت النداءات فى طلب معونة فرعون مصر فى رسائل متتابعة من ملوك سومور (السامرا) ثم حط الجفاف على أرض إسرائيل وألقى ظلاله على أرجائها، وتضاءل الإحساس بالرباط القومى الذى يجمع بين الأسباط العشرة التى تكون شعب إسرائيل.

وأدت عبادة الرموز الوثنية إلى تأثر المملكة الشمالية (إسرائيل) بالمؤثرات الروحية والعقائدية للشعوب المجاورة، وصهرت الروابط الدينية الجديدة بين السامرا وصيدا ودمشق كل الحدود بينهم وأطاحت بها. وحتى الأنبياء مثل إيليا بن جلعاد وخليفته اليشع تدخلوا فى الشئون السياسية لمملكة دمشق، وزاروا تلك البلاد، وسعى إليهم الناس من هناك.

فى تلك الحالة من الاضمحلال الروحى والمادى وقعت أرض السامرا ضحية لعنف العصابات المسلحة وسيطرة ساسة دمشق. كانت كل البلاد الواقعة حتى أقصى الشمال عند منابع نهر العاصى تعد «أرض الملك الإله» فرعون مصر، ولكن لم يمنع ذلك ملك دمشق من التطلع إلى بسط نفوذه

ومد سيطرته وكان مدركاً أن غزو ملك اشور وزحفه إلى وادى نهر العاصى هى فرصته السانحة للقيام بمناورة مزدوجة. وأدرك أن ملك مصر لن يخذله أو يدعه يذهب وحده لمحاربة الأشوريين الأشداء، أولئك الغزاة الذين اتجهوا إلى مهاجمة النقط الحصينة فى شمال سوريا دون أن يعلنوا الحرب على مصر، وبحثت السياسة الخطيرة لملك دمشق عن ضحية تكفل له التوسع بلا عواقب ضخمة، فكانت السامرا هى الضحية الأولى ففرض عليها الحصار وسأل الملك آخاب أحد الأنبياء عن كيفية تخلص السامرا من ذلك الحصار، فقال النبى: بغلمان رؤساء المقاطعات «سفر الملوك الأول ٢٠: ٤» وسيجعل ذلك السوريين يهربون فماذا يعنى ذلك؟ ولماذا افترض النبى أن جيش سوريا سيهرب ويفر من حرس الحاكم فى حين لم يكن يخشى جيش الملك ذاته؟

وفى المعركة التى نشبت عند أسوار السامرا «كان مائتان واثنان وثلاثون من غلمان رؤساء المقاطعات» هم من قادوا حامية السامرا الصغيرة، ودفعوا السوريين إلى الفرار. فكيف. كان ذلك؟ سنجد الإجابة فى رسائل تل العمارنة كان ملك سومور وجوبلا (جيزريل) يكرر ويلح فى الرجاء فى كل رسائله إلى فرعون مصر وكبار شخصيات الدولة لإرسال وحدات صغيرة من الرماة إليه، وقد قدمنا واحدة من تلك الرسائل فيما سبق والتى طلب فيها من نائب الفرعون السابق، إرسال ثلاثمائة رجل من الرماة لحماية المدينة.

وكان حاملو شعار الدولة المصرية (غلمان رؤساء المقاطعات) عبارة عن حرس خاص يلحق دائماً بنواب الفرعون على المدن التابعة لحراستهم.

كان عدد كل من تلك الوحدات الصغيرة عشرة من الحراس، ومن النادر أن تتعدى الوحدة مائة رجل. وعند قيامهم بأداء واجباتهم كان من المعروف أنهم يمثلون الجيش النظامى المصرى ومدعومون منه وكان ظهورهم فى مكان تنشب فيه منازعات بين أتباع التاج المصرى بمثابة إعلان من الفرعون عن تدعيمه لجانب ضد آخر بالقوة العسكرية، وكان نفاذ صبر ملك السامرا فى انتظار وصول تلك الوحدات الصغيرة من رماة الأسهم لحماية السامرا ينعكس على النص التالى، وهو من إحدى رسائل ملك سومر إلى حايا؟ وهو أحد أصحاب النفوذ فى البلاط المصرى.

الرسالة ٧١: لم امتنعت عن إبلاغ الملك بضرورة إرسال الرماة لحماية سومرا؟ من هو عبدى - عشيرتا ذلك الخادم، الكلب، الذى يسعى إلى اغتصاب أرض الملك لنفسه أرسل إلى خمسين زوجاً من الخيل ومائتى مقاتل وادفع الرماة إلى الحضور.

وكان بن حدد يتباهى ويفتخر بقواته قائلا إن تراب السامرا لن يكفى لمنح قبضة لكل مقاتل من الشعوب التى جاءت معه (سفر الملوك الأول ٢٠: ١٠)، ولكنه فر مهزوما هو ومن معه من الشعوب حين ظهر ممثلو الجيش المصرى بما يرمزون إليه من سيادة وسيطرة ومن ورائهم المدافعون عن السامرا.

سفر الملوك الأول ٢٠: ١٩ فخرج غلمان رؤساء المقاطعات هؤلاء من المدينة هم والجيش الذى وراءهم.

٢١ وخرج ملك إسرائيل فضرب الخيل والمركبات وضرب آرام (سوريا) ضربة عظيمة كان غلمان رؤساء المقاطعات من جنود الفرعون.

١٢٩: من الذى يستطيع أن يصمد أمام جنود الملك (الفرعون)؟ وبعد ذلك، وحين عانى ملك سومورا مرة أخرى من جيش دمشق، تذكر ملك سامرا ما حدث قبل ذلك.

١٢١: لقد كتبت إلى القصر أن «يرسلوا الرماة» ألم يستعيدوا الأرض من قبل للملك؟ وكتب فى رسالة أخرى عن المشاكل الجديدة ما يلى:

الرسالة ١٣٢: لقد عادانى عبدى - عشيرتا من قبل، وقد كتبت إلى الأب.

«أرسل الرماة الملكيين وستسترد كل الأرض فى غضون (عدة) أيام».

ومرة أخرى يستعيد ذلك الحادث الذى لا ينسى وكلماته فى هذه الرسالة تتفق مع القصة المذكورة فى التوراة.

الرسالة ١٣٨: حين غزا عبدى - عشيرتا سومورى، فقد حميت المدينة بيدى ولم يكن عندى حامية، ولكننى كتبت إلى سيدى الملك، فجاء الجنود وخلصوا سومرى.

أسر ملك دمشق
وإطلاق سراحه بواسطة ملك السامرا

بعد مرور عام على تحرير «غلمان رؤساء المقاطعات» للسامرة من الحصار، عاد بن - حدد مرة أخرى على رأس جيش كبير ضد ملك إسرائيل الذى خرج لملاقاته فى وادى أفيق. «فنزل بنو إسرائيل فقابلهم مثل قطيعين صغيرين من المعز. وأما الآراميون فملأوا الأرض» (سفر الملوك الأول ٢٠: ٢٧).

كان الفزع الذى صحب مسيرة ذلك الجيش نابعاً من عدده الكبير، ونجد فى رسائل تل العمارنة أنه كان مكونا من أبناء البرارى وقوات غير نظامية. وفى تلك المعركة انهزم السوريون مرة أخرى، وهرب بن - حدد إلى وادى أفيق واختبأ هناك. وقال له خادمه «إننا قد سمعنا أن ملوك بيت إسرائيل هم ملوك حليمون، فلنضع مسوحا على احقائنا وحبالا على رؤوسنا ونخرج إلى ملك إسرائيل لعله يحيى نفسك. فشدوا مسوحا على أحقائهم وحبالا على رؤوسهم وأتوا إلى ملك إسرائيل وقالوا يقول عبدك بن حدد لتحيى نفسى. فقال اهو حى بعد .. هو أخى. فتفاءل الرجال وأسرعوا وأحضروه وقالوا أخوك بن حدد. فتقدم إليه بن حدد فأصعده إلى المركبة. وقال له إنى أرد المدن التى أخذها أبى من أبيك وتجعل لنفسك أسواقا فى دمشق كما جعل ابى فى السامرة. فقال وأنا أطلقك بهذا العهد. فقطع له عهدا وأطلقه». (سفر الملوك الأول ٢٠: ٣١ - ٣٤).

ومن تلك القصة نعلم ان بن - حدد قد هزم وأسر ولكن أطلق سراحه، بعد أن أبرمت مواثيق وعهود، وبنى السوريون جانبا من السامرة، ولكن كان هناك نزاع بين السوريين والإسرائيليين حول عدد من المدن.

ومن الواضح أن رسائل ملك سومور تحتوى على اشارات إلى كل تلك الأحداث، التى وقع بعضها قبل بضعة أعوام من تاريخ الرسائل.

وفى أوقات الشدة التى أتت بعد ذلك، كان ملك سومور يستعيد إلى ذاكرته أوقات الرخاء التى دمرت، ويكتب إلى الفرعون.

الرسالة ١٢٧: حين سار عبدى - عشيرتا قبل ذلك بجيشه ضدنا كنت قادرا على التصدى، ولكن انظر إن شعبى الآن مطحون.

وحين تطلع إلى تلقى معاونة الفرعون له ضد عزارو (حزائيل) ابن عبدى – عشيرتا (بن – حدد) (٥١) فقد استدعى إلى ذاكرته أحداث أسر ملك دمشق:

الرسالة ١١٧: لو وضعت كلماتى موضع الاعتبار، فإن عزارو من المفروض أن يؤسر كأبيه.

الرسالة ١١٧: إن عبدى – عشيرتا وكل من ينتمون إليه، لم يؤخذوا فى ذلك الوقت، طبقا لأوامرى.

كانت المواثيق والعهود التى أبرمت مع بن – حدد قد تمت فى وقت كان فيه السوريون مهزومين، وانزعج نبى من سذاجة ملك السامرة، فتنكر على هيئة محارب جريح، ثم أوقف الملك على الطريق، وقال له «هكذا قال الرب، لأنك أفلت من يدك رجلا قد حرمته (*) تكون نفسك بدل نفسه وشعبك بدل شعبه» (سفر الملوك الأول ٢٠: ٤٢).

ولقد تحققت نبوءة النبى، فنجد فى الرسائل شكاء مراً من ملك سومور من طغيان ملك دمشق عليهم، بعد أن أطلق سراحه قبل ذلك. وتوقع أن يبرم معاهدات جديدة مع ملك دمشق، ولكنه كان تلك المرة يمثل الجانب الأضعف.

الرسالة ٨٣: لماذا تقاعستم حتى ضاعت الأرض؟ لقد كتبت فيما سبق طالباً حامية وخيلا ولم يصلنى شىء. أرسل إلى رداً .. وإلا سأضطر إلى إبرام اتفاق مع عبدى – عشيرتا .. فهذا طريق الخلاص الوحيد.

لقد كان فى نفس الوضع البائس الذى كان عليه ملك دمشق قبل ذلك عند هزيمته وأسره، والذى اضطر بعد هزيمته إلى طلب معاهدة سلام.

وصمد الاتفاق الذى تم التوصل إليه بعد معركة وادى أفيق الأولى، والتى كانت فى مجملها فى صالح إسرائيل لثلاثة أعوام: «وأقاموا ثلاث سنين بدون حرب بين آرام وإسرائيل» (سفر الملوك الأول ٢٢: ١)، ثم تجددت العداوات مرة أخرى بين السامرة ودمشق. كانت الحرب التى ابتدأت بحصار السامرة ثم انتقلت إلى وادى أفيق قد انتهت بفترة هدنة دامت لثلاثة أعوام ما لبثت ان اشتعلت من جديد فى راموث – جلعاد.

(*) التحريم فى التوراة تعنى إباحة ما يملك الغير من نفسه حتى ماله وآله كما أسلفنا (المترجم).

وطبقا لتلك الأحداث كتب ملك سومور (السامرا) يقول:
لثلاث مرات فى الأعوام الماضية، يعادينى عبدى - عشيرتا (٥٢)

سفن، أم قادة، أم وحدات عسكرية؟

فى رسائل تل العمارنة نجد كلمة قد تكررت كثيراً، والتى كانت أحياناً تبدو متفقة فى معناها مع سياق النص وأحياناً أخرى لا يتفق معناها مع سياق نص آخر : إنها كلمة (ايليب)، وقد ترجمت بمعنى سفينة بحرية.

ونجد أن ترجمتها بهذا المعنى ملائمة فى سياق نص رسالة ملك صور الذى كتب إلى الفرعون أن ملك بيروت قد غادرها فى سفينة بحرية، كما نجدها ملائمة أيضاً فى رسالة ملك سومور (السامرة) الذى طلب تزويده بإمدادات عن طريق السفن البحرية.

وفى القرن التاسع قبل الميلاد حاولت فلسطين استعادة نشاطها البحرى الذى كان لها فى القرن السابق، فشرع يهوشافاط فى إعادة بناء أسطول بحرى كالذى صنعه سليمان، وبنى سفنا فى عصيون - جابر، التى تقع على خليج العقبة للبحر الأحمر لإرسالها بعد ذلك فى رحلات بحرية إلى ترشيش .سفر أخبار الأيام الثانى .٢: ٣٥)، وانتهى ذلك المشروع نهاية مأساوية فلم يكد يكتمل حتى هبت عاصفة مفاجئة حطمت كل سفن الأسطول، أما مدن صور وصيدا وبيروت فقد احتفظت بنشاطها البحرى لفترات طويلة بعد ذلك. وعند ترجمة «ايليب» كسفينة بحرية فى الأمثال السابقة، كانت الترجمة تتفق مع النص وصحيحة تماماً. وحتى قراءة الكلمة بمعنى سفينة بحرية كان من الممكن أن تعد قراءة صحيحة أيضاً إذا كان الأمر يتعلق بجزء من فلسطين ذى نشاط بحرى فى نهر الأردن (كما وصف سترابو (١٦ و ٢) بعد ذلك) أو فى بحر الجليل. ولكن ترجمة الكلمة بمعنى سفينة جعلنا نجد فى بعض الحالات سفنا تبحر فى أرض قاحلة، وتقوم بأعمال لا تتلاءم مع مركبة بحرية، فمثلا قيل إن «إيليب» قد اخترقت أرض عمورو. وتآمرت مع قتلة عبدى - عشيرتا.

وفى اللغة العبرية نجد كلمة ألفا (ألف، لام ، فاء) وهى مشتقة من

السيريانية تعنى «سفينة» (٥٣)، وهناك كلمة عبرية قديمة أخرى هى ألوف (أيضا ألف، لام، فاء مع اختلاف التشكيل) وتعنى «أمير، زعيم عشيرة، أو رأس العائلة» (٥٤). ويبدو لى أن «إيليب» فى رسائل تل العمارنة تعنى رئيساً، أو زعيم قبيلة صغيرة. وبعض المدن التى ورد ذكرها فى رسائل تل العمارنة ويفترض أنها موانٍ بحرية، ليس بالضرورة أن يكون لها سفن بحرية لمجرد أن كلمة «إيليب» قد ذكرت فى أحد النصوص الخاصة بها. فى مثل تلك الحالات نجد أن الكلمة قد أسىء فهمها وترجمت بطريقة خاطئة من قبل الدارسين المعاصرين، ولكن ما يخفف من وقع ذلك الخطأ أنه كانت هناك أخطاء مشابهة وقع فيها غيرهم ممن كانوا يكتبون أحداث تلك الفترة أخذا عن نصوص قديمة.

وحين فرّ بن - حدد مع القواد الذين كانوا معه من ميدان القتال فى وادى أفيق إلى المدينة، انهار جزء من سور المدينة «وسقط على سبعة وعشرين ألف رجل» (سفر الملوك الأول ٢٠: ٣٠)، ويبدو ذلك مبالغة مطلقة، فلم تكن أفيق على ذلك القدر من الضخامة، ومن الصعب أن يقتل عشرات الآلاف لمجرد انهيار جزء من سور مدينة، وهنا يجب أن نقارن معنى الكلمة العبرية ألف (ألف، لام، فاء) وهى بمعنى ألف (٥٥) بكلمة ألوف العبرية القديمة أيضاً والتى تعنى كما ذكرت سابقاً أمير أو زعيم عشيرة أو كبيرعائلة.

إن ذلك يجعلنا نتذكر ما سبق وصفه من سيادة القبائل على مناصب الرئاسة فى جيش يهوشافاط حين ذكر فى التوراة أن واحداً منهم كان تحت إمرته ثلاثمائة ألف رجل من المقاتلين الأشداء والثانى مائتا وثمانون ألفا من المقاتلين .... الخ، وبالرغم من أنه فى عصر داود كان الذين يمكن حشدهم للحرب فى يهوذا يصل إلى خمسمائة ألف رجل، ومائتين وثمانين ألف رجل من بنيامين، إلا أنه يبدو أن النص الذى يتحدث عن رؤساء جيش يهوشافاط كان سيعكس بشكل أصدق القدرة الحربية لأمراء فلسطين فى ذلك العصر، لو قُرِئ على النحو التالى: «عدنه الرئيس ومعه جبابرة بأس ومعه ثلاثمائة رئيس (عائلة) وبجانبه يهوناثان الرئيس ومعه مائتان وثمانون رئيس (عائلة أوقبيلة) ....» وهكذا.

وهناك دليل من العصر نفسه يثبت أن التعرف على مدى السيطرة القبلية كان يتضح من عدد الرؤساء بين أفراد الجيش. وقد كتب ميشع على نصبه التذكارى «كان رؤساء ديبون خمسة، وكلهم يدينون لى بالطاعة، وحكمت على ما يزيد عن مائة (رئيس) مدينة أضفتها إلى أرضى».

إن الآلاف فى قصة التوراة عن كارثة انهيار سور مدينة أفيق ومن المحتمل أيضا «الآلاف» المذكورة فى مقطع رؤساء جيش يهوشافاط، وكذلك مسألة «السفن» فى عدد من رسائل تل العمارنة، يجب أن تعاد مراجعتها وكلها توضع فى أماكن «الآلاف» الترجمة الصحيحة وهى «أمير ورئيس قبيلة» أو «رؤساء مجتمعات»، وهذا يجعل المقاطع المعينة فى كل من رسائل تل العمارنة ونصوص التوراة أقرب إلى الصواب.

ملك السامرا يبحث عن حليف ضد ملك دمشق

وبسبب مدينة كانت محل نزاع، فقد انتهكت الهدنة بين السامرا ودمشق.

سفر ملوك الأول ٢٢: ٣ «فقال ملك إسرائيل لعبيده أتعلمون أن راموث – جلعاد لنا ونحن ساكتون عن أخذها من يد ملك آرام».

ونجد أن النزاع على مدن إسرائيلية استولى عليها ملك دمشق مسجلة فى عديد من مراسلات تل العمارنة.

وطبقاً لنصوص التوراة كانت تلك المدن فى بداية النزاع هى «عيون دان»، آبل، بيت معكة، وكل كنروت مع كل أرض نفتالى» (سفر الملوك الأول ١٥: ٢٠) وهى مدن إسرائيل التى ضربها ملك دمشق واستولى عليها. ولم يتوقف عند ذلك الحد فقد استولى على أراض جديدة وأضافها إلى ما يسيطر عليه من مدن.

وكتب ملك سومور (السامرا) أن: «عبدى – عشيرتا الكلب يسعى إلى الاستيلاء على كل المدن».

الرسالة ٨١: فليعلم سيدى الملك مدى عداوة عبدى – عشيرتا، وليعلم أنه

قد استولى على كل مدنى لنفسه».

وتطلع ملك سومور (السامرا) باحثاً عن حليف لاستعادة المدن المفقودة. واتجه فكره إلى أنه لو استطاع أن يستميل أحد نواب الفرعون للوقوف بجانبه فإنه سيكون قادراً على رد اللطمة بمثلها ويتخلص من عصابات السوريين.

الرسالة ٨٥: لو تبنى أحد نواب الملك قضيتى كقضية عامة سأكون قادراً على طرد عبدى - عشيرتا من عمورى.

سفر الملوك الأول ٢٢: ٤: وقال ليهوشافاط أتذهب معى للحرب إلى راموث - جلعاد؟

فى ذلك الوقت كان أمان - أبا ممثل الفرعون فى السامرا. وحدث أن حذر أحد الأنبياء ملكى أورشليم والسامرة من المضى لمحاربة ملك دمشق، فسيق النبى إلى رئيس المدينة (سفر الملوك الأول: ٢٢: ٣٦).

أما ملك يهوذا يهواشافاط فقد اتجه عند بداية حكمه إلى تنمية قوته فى مواجهة إسرائيل: «فجعل جيشاً فى جميع مدن يهوذا الحصينة، وجعل وكلاء فى أرض يهوذا وفى مدن أفرايم التى أخذها آسا أبوه» (سفر أخبار الأيام الثانى ١٧: ٢). وبعد ذلك توصل إلى عقد اتفاق سلام مع إسرائيل ووافق على مشاركة آخاب فى معركته ضد ملك دمشق فى راموث - جلعاد. لقد شعر أن قوة السوريين تتنامى وتتضخم وأحس أنه سيأتى يوم تدور فيه الدائرة عليه وتصبح أورشليم مهددة هى الأخرى. ومن المحتمل أنه أراد أن يكفر عن خطيئة أبيه آسا الذى استنجد قبل ذلك بملك دمشق لمعاونته فى الدفاع عن أرضه ضد بعشا ملك إسرائيل.

ووحد الملكان قواتهما وقابلا جيش العدو فى راموث - جلعاد، وفى احتدام المعركة أصاب سهم طائش الملك آخاب.

آخاب أم يهورام؟ نسختان من التوراة!

ومع قصة المعركة الأولى فى راموث - جلعاد نصل إلى الفترة التى كتبت فيها رسائل تل العمارنة. وكان الملك الذى كتب أكثر من ستين رسالة باقية حتى الآن يسمى نفسه - لو كانت القراءة صحيحة - رب -

عدى. فهل كان كاتب تلك الرسائل هو آخاب أم ابنه يهورام فى نصوص التوراة؟ لقد كتبت تلك الرسائل من السامرا فى الفترة الأخيرة من حكم يهوشافاط لأورشليم عاصمة يهوذا، ومحتويات الرسائل تتفق مع أحداث تلك الفترة.

وطبقاً للقصة الأوسع انتشاراً فى التوراة فإن آخاب قد مات متأثراً بالجرح الذى أصابه من السهم الطائش فى راموث - جلعاد، وخلفه على عرش إسرائيل ابنه آخازيا، وبعد موت آخازيا، حكم من بعده أخوه يهورام. والقصة الأخرى الأقل انتشاراً والمحتمل أنها النسخة الأقدم من التوراة، تتضمن أن آخاب قد جرح فى راموث - جلعاد ولكنه لم يمت وحكم بعد تلك المعركة لمدة تسعة أعوام.

إن بداية حكم يهورام (الابن الثانى لآخاب) على إسرائيل، مسجلة فى عبارتين متناقضتين فى التوراة.

سفر الملوك الثانى ١: ١٧ «وملك يهورام عوضاً عنه فى السنة الثانية ليهورام ابن يهوشافاط ملك يهوذا».

سفر الملوك الثانى ٣: ١ «وملك يهورام ابن آخاب على إسرائيل فى السامرا فى السنة الثامنة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا» (٥٧).

لقد حكم يهوشافاط أورشليم لمدة خمسة وعشرين عاماً (٥٨). إن الخلاف بين العبارتين السابقتين يكشف عن اختلاف زمنى مقداره تسعة أعوام: وهى السبعة أعوام الأخيرة من حكم يهوشافاط والعامان اللذان حكم فيهما ابنه (٥٩). وهذا التضارب فى التسجيل خلق صعوبات جمة للباحثين فى تسلسل الأزمان القديمة، والباحثين فى تفسيرات التوراة. والمشكلة المطروحة والتى كانت تشكل صعوبة فى تسلسل الأزمان فقط، أصبحت مشكلة على درجة فائقة من الأهمية فى دراسة تاريخ فلسطين فى عهد رسائل تل العمارنة، لأنه فى خلال تلك الأعوام التسعة كتبت أغلب الرسائل.

والمشكلة كما يجب أن نحددها هنا بوضوح، لم تنتج عن مقارنة نصوص التوراة برسائل تل العمارنة، ولكن المشكلة نتجت من التباين فى نصوص التوراة ذاتها.

ومن المفروض أن تمد رسائل تل العمارنة يد العون فى إجلاء تلك

المشكلة وإلقاء الضوء عليها.

فلو كان يهورام قد تولى حكم إسرائيل فى آخر سبعة أعوام من حكم يهوشافاط ليهوذا، يكون هو من كتب الخمسة والستين رسالة المحفوظة فى سجلات تل العمارنة أما لو كانت النسخة الأخرى الأقل انتشاراً لسفر أخبار الأيام الثانى هى الأصح، أى أنه خلال السبعة أعوام الأخيرة من حكم يهوشافاط ليهوذا كان آخاب ملك إسرائيل ما زال يحكم ولم يمت برمية السهم الطائش فى راموث - جلعاد، فإنه يكون هو من كتب رسائل تل العمارنة وتكون كل أحداث تلك الأعوام السبعة أو التسعة قد حدثت فى عهده وليس فى عهد ابنه يهورام. وكذلك الأمر بالنسبة لتمرد ميشع ملك موآب يكون قد وقع بدوره ليس بعد موت آخاب ولكن بعد هزيمته فى راموث - جلعاد.

إن وصف المعركة فى راموث - جلعاد يترك لدينا انطباعاً أن يد الكاتب الأخير للتوراة حاولت أن تمزج بين مصادر مختلفة. فمثلا عندما أصيب آخاب بالسهم قال لسائق عجلته الحربية «رد يدك واخرجنى من الجيش لأنى قد جرحت» ويعنى ذلك بوضوح أنه أخاب الجريح ولكن الجملة التى تلتها من سفر الملوك الأول تناقض سابقتها وكان نصها كالتالى: واشتد القتال فى ذلك اليوم وأوقف الملك فى مركبته مقابل آرام (السوريون) ومات عند المساء وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة» (سفر الملوك الأول ٢٢: ٣٥).

وتلك القصة تنهى فصلا مأساويا عرف باسم جريمة آخاب الذى اغتصبت زوجته إيزابيل حقل كرم نابوت المجاور لقصرها فى يزرعيل لتجعل منه بستاناً للبقول، وحين نهض آخاب ليتوجه إلى حقل الكرم ليغتصبه لزوجته قابله إيليا التشبى هناك.

وقال آخاب لإيليا: (هل وجدتنى يا عدوى؟) ورد الرجل الخائف قائلا: هل قـتلت وورثت أيضـاً؟ فى المكان الذى لحست منه الكلاب دم نابوث تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً. والكلاب تأكل إيزابيل عند مترسة يزرعيل» (سفر الملوك الأول ٢١). وطبقاً لتلك اللعنة، وبعد معركة راموث - جلعاد «غسلت المركبة فى بركة السامرا فلحست الكلاب دمه وغسلوا سلاحه، حسب كلام الرب الذى تكلم به» (سفر الملوك الأول ٢٢) ولكن قصة مقابلة

إيليا مع الملك لها بقية، فحين سمع آخاب كلمات النبى:

شق ثيابه ولبس ملابس خشنة وصام ومشى بتواضع. فسمع إيليا التشبى كلمات من الله «هل رأيت كيف إتضع آخاب أمامى. فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه أجلب الشر على بيته» (سفر الملوك ٢١: ٢٨)، ما الذى يعنيه ذلك العفو؟ لقد تواضعت نفس آخاب فتأجل الشر الذى كان سيصيبه هو وبيته فى حياته إلى الجيل التالى له من نسله. ولكن بالرغم من ذلك هل تخطاه الشر فعلا؟ إن مجهود كاتب التوراة فى التوحيد بين العناصر المتناقضة للمصادر المختلفة لم يكن موفقاً، حيث نتج عن ذلك تناقضات غير متوافقة فى النص. لقد كان كاتب أسفار الملوك عاجزاً فى مواجهة مصدرين مختلفين ومتناقضين فى تلك الجزئية، وبينما مال إلى ترجيح الاعتقاد أن يهورام بن آخاب كان ملكاً على إسرائيل أثناء السبعة أعوام الأخيرة من حكم يهوشافاط ليهوذا، إلا أنه لم يستطع أن يتجاهل المصدر الثانى، ولذا نجده حين شرع فى وصف تاريخ الفترة فإنه تخلص من ذلك بذكر اسم عام غير محدد فى عدة إصحاحات وذلك بلجوئه إلى ذكر «ملك إسرائيل» (٦٠) دون تحديد اسم.

وفى قصة معركة راموث - جلعاد نجده يذكر ملك أورشليم «يهوشافاط» بالاسم، فى حين نجد أن ملك السامرا قد أشير إليه خمس عشرة مرة، ولكن بصفة «ملك إسرائيل» دون ذكر اسمه، فنجد «ملك إسرائيل» و «ملك إسرائيل ويهوشافاط» و «قال ملك إسرائيل ليهوشافاط ...» وفى قصة المعركة لم يذكر اسم ملك إسرائيل مرة واحدة.

وفى الحرب ضد موآب أيضاً نجد أن ملك أورشليم تكرر ذكره باسمه، أما ملك إسرائيل فقد أشير إليه بصفته لا باسمه. ولا توجد إلا إشارة فى المقدمة أن يهورام هو المعنى باسم «ملك إسرائيل». وأيضاً فى قصة إبراء نعمان لا نجد إلا ذكر صفة «ملك إسرائيل» دون اسمه، وفى قصة محاولة اغتيال «ملك إسرائيل» لم يذكر الاسم أيضا ... وفى القصة الطويلة للحصار الثانى للسامرا، حين قابل الملك الأم التى قتلت طفلها لتأكل من لحمه أثناء المجاعة، وفى قصة الخلاص من الحصار - فى كل تلك القصص - لم يصاحب اسم الملك مرة واحدة اللقب العام الذى يشار إليه «ملك إسرائيل»، وقد انفرد بهذا الأمر أسفار الملوك وأخبار الأيام.

،هناك مصدر آخر معاصر لتلك الأحداث من الممكن أن يلقى الضوء على هذا الأمر الغامض، وهو النصب التذكارى للملك ميشع ملك موآب. على ذلك النصب نص منقوش يقول إن عومرى ملك إسرائيل طغى على موآب لفترة من الزمن، وإن «ابنه خلفه على العرش، ويقول: «يصيبنى الحزن على موآب»، ثم يضيف ما يلى:

لقد استولى عومرى على أرض ميديبا، وسكنها الإسرائيليون خلال حكمه وحتى منتصف حكم ابنه، أربعين عاماً، ولكن كيموش استردها أثناء حكمى (٦١).

وهنا نجد حدثا مهماً ينسب إلى فترة حكم آخاب ابن عومرى طبقا لأحد المصادر (نصب ميشع)، وإلى حكم يهورام ابن آخاب طبقاً لمصدر آخر. وكل منهما يمثل مصدراً لإحدى نسخ التوراة الأكثر شيوعاً، والأقل شيوعاً.

ويستهل سفر أخبار الأيام الثانى إصحاحه الأول بهذه الكلمات: «ثم تمردت موآب ضد إسرائيل بعد موت آخاب، وهذا يتعارض مع نص نصب ميشع الذى يذكر أن ميشع تمرد على إسرائيل حين كان ابن عومرى فى منتصف فترة حكمه.

فإذا كان آخاب لم يقتل فعلا بذلك السهم ولكن جرح فقط فى معركة راموث - جلعاد، فإن هزيمته فيها كانت الاشارة والحافز الذى دفع المؤابيين للتمرد بدورهم، وبذلك يتفق التعبير الذى على نصب ميشع فى قوله «فى منتصف حكم ابن عومرى» مع النسخة التى تذكر أن آخاب قد حكم فى الفترة التى تلت المعركة وهى الفترة المنسوبة فى النسخة الشائعة من التوراة إلى ابنه يهورام.

وعدا حقيقة أن ميشع قد تمرد، ليس بعد موت آخاب، ولكن فى منتصف فترة حكمه، فإن رقم الأربعين عاماً المنسوب إلى حكم عومرى ونصف فترة حكم ابنه يتعارض مع حساب الزمن فى التوراة الشائعة. إن أربعين عاماً من القمع لموآب من الممكن اعتبارها رقماً تقريبياً، وعلى اعتبار أن أربعين عاماً هى مدى جيل كامل، ويترك ذلك انطباعاً بفترة حكم أطول لعومرى وآخاب أو على الأقل لأحدهما (٦٢).

ومسجل أن عومرى حكم اثنى عشر عاماً على إسرائيل، ستة أعوام منها حكم من ترصه (سفر الملوك الأول ١٦: ٢٣)، وأن آخاب حكم لمدة اثنين

وعشرين عاماً من السامرا (سفر الملوك الأول ١٦: ٢٩). فإما أن حكم آخاب قد بدأ متأخرا عما هو مذكور أو امتد لفترة أطول مما هو مذكور. وبما أنه مذكور عن أبيه عومرى «أنه حكم ستة أعوام من ترصه» وكان كل زمن حكمه اثنى عشر عاماً على إسرائيل يتضح أن الستة أعوام الأخيرة من حكمه قد حكم فيها إسرائيل من السامرا، عاصمته الجديدة (شيمر).

وبالمثل فإن ذكر فترة حكم آخاب لإسرائيل وتحديدها باثنين وعشرين عاماً من السامرا ربما يشير إلى فترة حكمه من تلك العاصمة وحدها، وتكون أعوام حكمه من عاصمته الجديدة يزرعيل غير مذكورة.

وفى واحدة من رسائله الأخيرة، كتب ملك سومور (السامرا) إلى الفرعون عن نفسه قائلا:

الرسالة ١٣٧: «ترون، أننى لا أستطيع الحضور إلى أرض مصر. أنا الآن رجل مسن، وجسمى مصاب بالأمراض والوهن».

ومن الممكن أن يأتى هذا الكلام على لسان آخاب، فى حين نجد أنه من المستحيل أن يصدر من الابن الثانى له (يهورام) فى البدايات الأولى لحكمه وهو ما زال فى مقتبل عمره.

إن نقوش الملك شالما نصر الثالث ملك الدولة الآشورية البابلية، مثلها مثل نص ميشع، تتعارض أيضاً مع النسخة الشائعة من نص التوراة حول هذا الأمر. لقد كتب شالما نصر أنه فى عام حكمه السادس خاض معركة ضد تحالف من أمراء السوريين والفلسطينيين فى معركة قرقر. واسم آخاب مذكور بين أسماء أولئك الأمراء، فقد ساهم بجيش قوامه عشرة آلاف جندى وألفى عجلة حربية مع جيش الحلفاء (٦٣). وفى العام الثامن عشر من حكم شالما نصر الثالث كتب يقول إنه يتلقى «الجزية من شعوب صور، وصيدا، ومن يهو فى بيت عومرى» (٦٤).

فى أثناء تلك الاثنى عشر عاماً المحصورة بين العام السادس والثامن عشر من حكم شالما نصر الثالث انتهى حكم آخاب، ومن المفترض أن يكون ابنه آخازيا قد حكم لمدة عامين بعده، ثم يهورام اثنى عشر عاماً من بعده، ثم يهو لفترة غير محددة، وواضح أن مجموع هذه الفترات يزيد عن الإثنى عشر عاماً التى من المفروض أن تنحصر بينها، وحتى لو كان آخاب قد مات مباشرة بعد معركة قرقر (٦٥)، وأن جزية يهو المذكورة فى نص شالما

نصر الثالث قد ابتدأ دفعها مباشرة بعد أن تولى حكم إسرائيل، فإنه لن يكون هناك إثنا عشر عاماً لحكم يهورام.

وعلى ذلك نجد أن نصب ميشع يجعلنا نزيد من زمن حكم آخاب، فى حين نجد أن نقش شالما نصر الثالث يتطلب أن نقصر من زمن حكم يهورام أى نقرب كثيراً حكم آخاب إلى حكم يهو.

وطبقا للظروف والدلائل التى سقناها، فإن افتراضاً جديداً يتكوّن، وهو أن وجود يهورام ذاته كملك لإسرائيل يصبح موضع تساؤل (٦٦).

ما الذى ضلل واضعى قصص التوراة ليسموا ابن آخاب باسم يهورام؟ لقد كان يهورام ابناً ليهوشافاط ملك يهوذا وزوجاً لابنة آخاب (سفر أخبار الأيام الثانى ٢١: ٦). ومن الواضح أن سياسة يهوشافاط كانت تتجه إلى خلق علاقات جيدة مع إسرائيل من خلال ذلك الزواج، وربما كان يطمح إلى إعادة توحيد المملكة عن طريق زواج ابنه يهورام من عثاليا ابنة آخاب من إيزابيل ... وزار يهوشافاط السامرا وتحالف مع آخاب فى معاركه الحربية.

لقد قيل إن آخاب قد قتل فى راموث - جلعاد، وقيل إن (ابنه) يهورام قد جرح أيضاً فى نفس المعركة تحت نفس الظروف التى كان فيها ملك يهوذا حليفاً فى تلك المعركة (سفر الملوك الثانى ٨: ٢٨). وهناك تفاصيل أخرى كثيرة منسوبة إلى حكم هذين الملكين على إسرائيل وكلها تحمل نفس القدر من التشوش والتضارب.

لقد وضع مؤرخو التوراة آخازيا ويهورام فى إسرائيل، كما وضعوا يهورام وآخازيا آخر فى يهوذا، وكان التضارب فى تلك الأخبار مشوشاً تماماً فيما يخص هذا الأمر.

ومن المحتمل أن يهورام ابن يهوشافاط ملك يهوذا قد تولى الحكم على إسرائيل كوصى على العرش بعد موت آخاب أبى زوجته بعد موت آخازيا ابن آخاب بعد مرض طويل وحكم قصير. ولقد قيل عن يهورام «وسار فى طريق ملوك إسرائيل كما فعل بيت آخاب لأن بنت آخاب كانت له امرأة (٦٧) ثم اغتصب يهو عرش إسرائيل بعد أن قتل يهورام مع آخازيا ملك اليهود واستولت عثاليا، زوجة يهورام على عرش أورشليم بعد أن قتل زوجها وابنها.

وبعد وصف اغتيال يهورام وأخازيا على أيدى يهو، يقول سفر الملوك الثانى:

«وكان لآخاب سبعون ابناً فى السامرا» وبعث يهو برسائل إلى رؤساء السامرا يتحداهم فيها، «الآن وعند وصول هذه الرسالة إليكم: إذ عندكم بنو سيدكم وعندكم مركبات وخيل ومدينة محصنة وسلاح، انظروا الأفضل والأصلح من بنى سيدكم واجعلوه على كرسى أبيه وحاربوا عن بيت سيدكم» والملك المقصود بكلمة «سيدكم» هنا هو آخاب، وليس يهورام بن آخاب، وحيث كان من المفروض أن يتولى الحكم من بعد آخاب أحد أبنائه لو لم تقع تلك المذبحة التى قتل فيها كل أولاده. وهذا يثبت أن حكم آخاب قد امتد تقريباً حتى ما قبل تمرد يهو بقليل.

وفى الصفحات التالية سنبين أن الإشاعات عن موت آخاب فى معركة راموث – جلعاد قد انتشرت فيما كان ما يزال حياً. وقد ضلل ذلك آخر المسجلين للتوراة نتيجة لتضارب المصادر. وفيما يخص ذلك الافتراض الذى افترضناه عن يهورام سواء كان صحيحاً أم لم يكن، فإن سجلات ميشع وشالما نصر، ورسائل تل العمارنة كلها بالإجماع تدعم نسخة التوراة التى تقرر أن آخاب ملك إسرائيل كان حياً خلال آخر سبعة أعوام من حكم يهوشافاط ليهوذا.

وفيما يخص ذلك التضارب بين نسختى التوراة فى سفر الملوك، فإن ثلاثة مصادر غير توراتية تشهد فى صالح النسخة الأقل شيوعاً، وضد النسخة الأكثر شيوعاً من التوراة، وعلى ذلك فما ذكر فى سفر الملوك الثانى (١: ١٧) يجب أن ينظر إليه باعتباره صحيحاً.

وكل ذلك يعنى أن آخاب قد مات، ليس قبل، بل بعد يهوشافاط ملك يهوذا، مما يثبت أن الملك الذى كتب أكثر من ستين رسالة من رسائل تل العمارنة (لا زالت باقية على ألواح الطين) كان الملك آخاب ملك إسرائيل، وليس أى إنسان آخر.

هوامش الفصل السادس

1. The translations into German are by Hugo Winckler and by J. A Knudtzon. The work of the last-named Scandinavian scientist is of classical value for the study of the Tell elAmarna tablets. The translation into English is by S. A. B. Mercer (1939). Twelve letters found since the publication by Knudt-zon are included in Mercer's English edition. The letters are similarly numbered in Knudtzon's and Mercer's editions. In this chapter quotations from the letters are taken from the English version of Mercer (The Tell el-Amarna Tablets [Toronto, 1939]). However, the translations have been checked in Knudtzon's version.
2. Breasted, Weigall, Freud.
3. Mercer, The Tell el-Amarna Tablets, pp. 510ff.; Barton, Archaeology and the Bible, p. 368; H. Ranke, in Zeitschrift für aegyptische Sprache, LVI (1920), 69-71. Albright, "Cuneiform Material for Egyptian Prosopography", Journal of Near Eastern Studies, V (1946), 22, n. 62.
4. Cf. Marquart, Chronologische Untersuchungen. pp. 35ff., and Jeremias, Das Alte Testament im Lichte des Alten Orients (2nd ed.; Leipzig 1906), pp. 390ff.
5. O. Weber in J. A. Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln (Leipzig, 1915), p. 1172.
6. The readers of this chapter are advised to read beforehand I Kings 16-22; II Kings 1-10; and II Chronicles 16-22.

7. See Genesis 14: 18; Joshua 15: 8; 18: 28; Judges 19: 10-11; I Chronicles 11: 4-5.

8. Weber in Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, p. 1135.

9. Letter 81.

10. Joshua 13: 5; Ezekiel 27: 9.

11. Psalms 83: 7. Cf. I Kings 5: 18 (the Hebrew text). See R. Dussaud, Syria, revue d'art oriental et d'archéologie, IV (1923), 300f.

12. Dhorme, Revue biblique (1908), 509f.' Weber, in Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, p. 1165.

13. Against Apion, I, 116; Jewish Antiquities, VIII, 1.

14. Josephus, Jewish Antiquities, VIII, xiii, 1.

15. Philo of Byblos, Fragments, 2, 25.

16. It is possible that the name Jezebel (Izebel) is a later from of Zebel; addition of the I lends to the name an ignominious character of denial or curse, as in the name I-chabod (I Samuel 3: 21).

17. The King James translation is: "so that they shall not say, This is Jezebel".

18. The site of the residence city of Jezreel has not been established. Its traditional site in the east of the valley disclosed no antiquities. It is probable, rather, that Jezreel is to be looked for in the west of the valley. Ahab, taking a daughter of the Sidonian king to wife, might have been anxious also to have a share in the maritime trade of the Phoenicians. Elijah ran without stoping from Carmel to Jezreel (I Kings 18: 46).

19. A throne name, a personal name, and epithets; some of them could have been changed during the lifetime of a monarch.

20. Sources are brought together by Ginzberg, Legends, VI, 277.

21. Tractate Sanhedrin 94, a; Jerome on Isaiah 20: 1 and 36: 1; Ginzberg, Legends, VI, 370.

22. By H. Winckler. See A. H. Sayce, Records of the Past (New Series, 6

Vols.; London, 1889-93).

23. By A. Gustavs, Die Personennamen in den Tontafeln von Tell Taanek (Leipzig, 1928), p. 10.

24. By Dhorme. Hiba is presumably the Hurrian form of the name of a Hittite deity, Hepa. Cf. B. Maisler, Untersuchungen zur alten Geschicihte und Ethno graphie Syriens und Palästinas, I (Giessen, 1930), 37.

25. A name containing the part hiba is known among the officers of King David: Eliahba (Elihiba) in II Samuel 23: 32.

26. Letter 107.

27. D. D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria (Chicago, 1926-27), I, Sec. 601. The amorites were a tribe of Syria and Canaan.

28. Josephus, Jewish Antiquities, VI, 5.

29. See Jack, Samaria in Ahab's Time, p. 119, note 3. Compare Jeremiah 49: 27 and Amos 1: 4.

30. Jack, Samaria in Ahab's Time. See meyer, Geschichte des Altertums, II, Pt. 2 (2nd ed.; 1931), p. 274, note 2; p. 332, note 1.

31. Asheroth is usually translated "groves", as in I Kings 18: 19 ("the prophets of the groves"). On Ashera and Astarte, see M. Ohnefalsch-Richter, Kypros: The Bible and Homer (London, 1893), pp. 141ff.

32. Against Apion, I, 122.

33. We have other examples in the Scriptures as well as in the letters, where h or kh was often freely added or deleted. Hadoram of the Second Book of Chronicles (II Chronicles 10: 18) is called Adoram in the First Book of Kings (12: 18). Another example is Adad and Hadad, two transcriptions of the same name (I Kings 11: 14ff.). Ammunira, king of Beirut, in some letters, is Hamuniri of other letters. "The sound h in the biblical name Hazael happens to occur in Akkadian as Haza-ilu but the spelling Aza-ilu, if it occurred, would be quite in accordance with the facts observable in other cases." (Professor I. J. Gelb, written communication of May 15,

1951.)

34. Letter 287.

35. Letter 289.

36. II Chronicles 23: 1.

37. In the form "Adna" the divine name "Addu" (Addu of DaN) is mutilated; this mutilation was probably the work of the holy penman, who would not admit that a man close to the pious Jehoshaphat had borne the name of Addu Dani.

38. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 722. Mercer (Tell el-Amarna Tablets, p. 375, note) relates Azzati to Gaza (Aza in Hebrew).

39. II Chronicles 17: 16.

40. Letter 334.

41. Letter 335.

42. In his transliteration, Knudtzon gives these varying spellings of the name.

43. In Letter 254 it is said that Dumuia was entrusted to adaia. Does this name mean an individual, or could it stand for Dumah in Seir, or Edom (Isaiah 81: 11)?

44. Amon was also the name of the son of Manasseh, king of Jerusalem, in the seventh century (II Chronicles 33: 20-25). Of Manasseh it is said that he "made Judah and the inhabitants of Jerusalem to err" (II Chronicles 33: 9).

45. I Kings 22: 26-27.

46. Letter 106: "There is hostility against Sumur. And verily, its deputy is now dead."

47. Letter 87.

48. Early in this century in Tell Taannek, the biblical Taanach, on the hills in the region of the Esdraelon Valley, a few tablets written in cuneiform were found; they are very similar to those of the el-Amarna collection. In one of them a governor by the name of Aman-hasir exacted tribute

from the local mayor (E. Sellin, "Tell Ta'annek", Denkschriften der Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-Historische Klasse, vol. 50 [Vienna, 1904]). The reading of Aman-hasir was revised by Albright to Aman-hatpe: "Aman-hatpe, Governor of Palestine", Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde, LXII (1927), 63f. His reading was accepted by A. Gustavs, Die Personennamen in den Tontafeln von Tell Taanek, p. 26. Albright made a surmise that this governor was the future pharaoh Amenhotep II.

49. I kings 11: 23-24.
50. The opponent of Ahab is generally regarded as a son of Ben-Hadad I, the adversary of Baasha, and therefore is named Ben-Hadad II.
51. That Hazael was a son of Ben-Hadad, see infra.
52. Letter 85.
53. See Levy, Wörterbuch über die Talmudim und Midrashim.
54. Ibid.
55. Sar-ha-eleph is a captain over a thousand. It might have been the origin of aluph, "chieftain".
56. II Samuel 24: 9.
57. See also II Kings 8: 16.
58. II Chronicles 20: 31.
59. The same discrepancy of nine years exists in the records of the reigns of Baasha and Asa.
60. The annals (the Book of Kings and Chronicles) were composed during and after the Exile in Babylon, since the Exile is narrated in Chronicles and the return from the Exile in Kings. The editor of Kings indicated that his work was a compilation by referring to "the book of the chronicles of the kings of Israel", which seems to have been a larger work than the canonical Chronicles. Also, the books of the prophets Nathan, Iddo, and others (not extant at the time when the Scriptures were revised and

canonized) are referred to in the annals.

61. Translation by S. R. Driver.

62. Compare I Kings 16: 23 and 16: 29.

63. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 610.

64. Cf. ibid., Sec. 672. Jehu was a son of Jehoshaphat, son of Nimshi. Was he a son of a daughter of Omri?

65. "Within these thirteen years, 854-842, must fall the death of Ahab, the reigns of Ahaziah and Jehoram, and the accession of Jehu. There appears to be no time left for Ahab after 854. The death of Ahab, however, cannot be assigned to so early a date as 854." K. Marti in Encyclopaedia Biblica, I (New York, 1899), "Chronology".

66. It seems problematic that Ahab, who persecuted the cult of Yahwe, would have called his son Jehoram (Jahwe is exalted). This would be a forceful argument but for the fact that the scriptural names of Ahab's other children-Ahaziah, Joash, and Athaliah-invite the same question.

67. II Chronicles 21: 6. Cf. II Kings 8: 16-18.

الفصل السابع

رسائل تل العمارنة (متابعة)



المجاعة

وصلت قبائل الصحراء تطاردها المجاعة إلى أراضى عبر الأردن، ثم عبروا النهر ليفاجأوا أن أرض إسرائيل تعانى من محنة أشد ومجاعة أكثر قسوة من تلك التى خلفوها فى الصحراء، لم تكن حقول إسرائيل تثمر شيئاً، وكانت المروج قد جفت واحترقت من حرارة الشمس اللافحة، ولم تعد الأرض القاحلة تنبت شيئاً إلا الأشواك.

وكانت أول نبوءة بشأن تلك المجاعة قد جاءت على لسان إيليا التشبى الذى قال للملك ما يلى:

سفر الملوك الأول ١٧: ١ «وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لآخاب، حى هو الرب إله إسرائيل الذى وقفت أمامه، إنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى».

ونفثت السماء لهباً، وجفت الأشجار فى الحقول، كما غاضت الينابيع وجفت جداول المياه. وجف أيضاً نهر كريث حيث كان النبى يبحث عن بعض الماء، مثله مثل بقية الجداول والأنهار.

سفر الملوك الأول ١٧: ٧ وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض.

وتطلعت العيون المتلهفة إلى السماء بحثاً عن سحابة قد تظهر فى الأفق وقال النبى إن بركة الرب تفرغ من عند الأرملة الفقيرة التى باركها «إلى اليوم الذى يعطى فيه الرب مطراً على الأرض» (سفر الملوك الأول ١٧: ١٤) وبعكس مصر التى تعتمد على نهر (١) كانت محاصيل فلسطين تعتمد اعتماداً كلياً على الأمطار، ونتج عن سنوات الجفاف مجاعة شديدة

قاتلة.

سفر الملوك الأول ١٧: ٢ «وكانت هناك مجاعة شديدة فى السامرا »* كانت مجاعة لم تمر بمثلها إسرائيل طوال عهود ملوكها أجمعين، وقد ناءت بثقلها سبعة أعوام متصلة.

سفر الملوك الثانى ٨: ١ «لأن الرب قد دعا بجوع فيأتى أيضا على الأرض سبع سنين» وغطت المجاعة بظلالها الكئيبة على كل أحداث تلك الفترة وطبعت المجاعة بصماتها على كل العصر، وهناك إصحاحات متتابعة من التوراة تصف هول المجاعة. خلال تلك السنوات كتبت رسائل تل العمارنة، ومن المنطقى أنها عكست أحوال وأخبار تلك المجاعة.

أما حقيقة أن رسائل تل العمارنة قد كتبها ملك سومور (السامرا) فهى حقيقة مؤكدة حيث عكست الرسائل نفس فصاحة وبلاغة سفرى الملوك.

الرسالة ١٧٤: لقد حانت نهاية أولادنا وبناتنا، بل نهايتنا نحن أيضاً، لأن أبناءنا قد بيعوا فى أياريموتا من أجل ما يقيم أودنا إن حقولنا أصبحت كزوجة هجرها زوجها عقيمة بلا زرع.

وبعد بيع الأولاد فى أسواق النخاسة والعبودية لإنقاذ حياة الكبار والأهلين من الموت جوعاً، بدأ الناس يبيعون كل ما يمكن بيعه أو مقايضته من أجل بعض الطعام.

الرسالة ٧٥: حانت نهاية أولادنا وبناتنا، وحتى الأثاث المنزلى قد بيع فى أياريموتا لإنقاذ حياتنا.

وكرر الملك فى رسائله وصف الأرض القاحلة دون بذر بالزوجة التى هجرها زوجها، ولم يكن يعلم أنه سيكررها كثيراً فى رسائله القادمة وفى أكثر من ثلاثين موضعاً من رسائله يكتب ملك سومور (السامرا) عن وطأة المجاعة أو يتضرع من أجل إرسال معونات غذائية للسكان وللجيش.

الرسالة ٧٩: أعطنى شيئاً لتغذيتهم (الرماة)، لم يعد عندى شىء.

الرسالة ٨٣: ارسل حبوباً للغذاء.

الرسالة ٨٥: لا توجد حبوب. ماذا أقول للمزارعين؟ لقد حانت نهاية أولادهم وبناتهم أرسل حبوباً على متن السفن وأنقذ حياة خادمك ومدينته، قد يبدو ملائماً لسيدى الملك أن يمنحنا حبوباً من أرض أياريموتا.

(*) غير مذكورة بالنسخة العربية من التوراة (المترجم).

الرسالة ٨٦: لم يعد لدينا ما نعطيه ونقايض من أجل خلاصنا من المفروض أن نعطى حبوباً من أرض آياريموتا نتغذى بها.

ووزعت الحبوب التى جاءت من أرض آياريموتا مقايضة بحرية أبناء الشعب الذين بيعوا فى أسواق النخاسة. وكانت الحبوب من القلة بحيث لم يحصل كل فرد إلا على حفنات لا تغنى من الحبوب التى وزعت على المزارعين وأبناء القرى (أما مكان أرض آياريموتا فسنتعرض له فيما يلى من هذا الفصل) وتمر الأيام والأزمة تشتد.

الرسالة ٨٥: سنتان وأنا أحسب وأدبر ما عندى من حبوب.

الرسالة ٨٦: ثلاثة أعوام وأنا أحسب وأدبر ما عندى من حبوب.

الرسالة ٩٠: حقولنا أصبحت خاوية وما زلت أدبر الحبوب.

الرسالة ٩١: ما زلت ادبر واقسم الحبوب.

إن تحديد زمن استمرار المجاعة فى التوراة بسبعة أعوام (سفر الملوك الثانى ٨: ١) يتفق مع ما جاء بتلك الرسائل، بعد العام الثالث من الجفاف والقحط كانت المجاعة قد وصلت بالناس إلى حدود لا تطاق ولا تحتمل، وكانت أخبار المجاعة ما زالت تذكر بالرسائل القادمة من السامرا إلى مصر، بالرغم من عدم قدرتنا على حساب زمن الجفاف والمجاعة على أساس من الرسائل وحدها بالدقة المطلوبة، فإن المفتاح الذى زودتنا به التوراة من ذكر زمن المجاعة، وتحديده بسبعة أعوام يساعد على بناء جدول زمنى لرسائل تل العمارنة.

جفت العيون والآبار وجاء أمير من الشمال وهو حليف لملك مصر بغرض معاونة ملك سومور (السامرا) فى التخفيف من آثار المجاعة.

الرسالة ٨٥: ... ولكن لم يكن هناك ماء ليشرب، فعاد إلى بلاده «إن نقص المياه قد وصف فى قصة الغدير الذى جف بعد مواسم متتابعة بلا مطر».

(سفر الملوك الأول ١٧: ٧) ووجد ملك إسرائيل الذى شرع فى ترتيب حملة عسكرية ضد ميشع ملك موآب الذى تمرد عليه، وجد نفسه – فى مأزق سىء فلم يكن هناك ماء يكفى للجيش ولا للماشية التى اصطحبوها معهم (سفر الملوك الثانى ٣: ٩) «وكان جوع فى الأرض» (سفر الملوك الثانى ٣: ٣٨) وفى رسالة منسوبة إلى ملك بابل نقرأ: (إن الطريق إلى

مصر طويل جدا، ومصادر المياه مقطوعة والجو حار) (٢)، كان الجفاف وجزع ملك إسرائيل منعكساً فيما قاله لعوبديا المكلف بشئون بيت الملك.

سفر الملوك الأول ١٨: ٥ - ٦ «وقال آخاب لعوبديا اذهب فى الأرض إلى جميع عيون الماء وإلى جميع الأودية لعلنا نجد عشبا فنحيى الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها، فقسما بينهما الأرض ليعبرا بهما فذهب آخاب فى طريق واحد وحده، وذهب عوبديا فى طريق آخر وحده».

هناك مقطع من رسالة كتبها رجل من جوبلا إلى فرعون مصر وبالإمكان تخمين اسم كاتبها - وهو ليس ملك إسرائيل - فبعد أن كتب عن بعض الشئون السياسية عرج الكاتب إلى الإشارة إلى عنايته بالدواب:

الرسالة ٩٤: «وفيما يخص الدواب، فقد كان الملك قد أمر أن توضع فى عناية خادمكم المخلص. لكن وبكل إخلاص لم يبق منها شىء» ... إن الجزء الذى يحمل اسم كاتب الرسالة محطم تماماً ولكن يبدو أنه عوبديا وهو الرجل الذى له صلاحية الكتابة إلى فرعون مصر، والذى كلف بالعناية بالدواب، الرجل الذى كان مهتما مع آخاب بأن «لا نعدم البهائم كلها كتب إلى حاكم مصر يخبره أن السوائم لم تتحمل الجفاف والمجاعة فهلكت».

أما الطاعون الذى استشرى فى حيوانات السامرا فهو مذكور فى رسالة كتبها أحد أصحاب النفوذ فى مصر، بعد أن علم أن شعب سومورا لم يكن مسموحاً له بدخول جوبلا بسبب الطاعون المنتشر فى سومورا.

الرسالة ٩٦: «ما هو ذلك الطاعون الذى استشرى بين الدواب؟ وكان الشعب خارج مدينة السامرا مثله مثل الشعب الذى بداخلها فى معاناة الهلاك جوعاً».

وجمع الملك ثروات المملكة، مع الأطفال الذين انتوى بيعهم كرقيق «لانقاذ حياتهم» وأرسلهم إلى منطقة تسمى آياريموتا، للحصول على الحبوب من هناك.

وهناك جزء من القائمة التى تحتوى على أسماء تلك الكنوز - ولكن لم يحصل الملك على أية حبوب، لأن الحاكم فى المنطقة التى كان من المفترض أن تأتى منها الحبوب، تحالف مع ملك دمشق ضد ملك إسرائيل.

تركت المجاعة التى استمرت سبعة أعوام آثاراً عميقة فبعد ذلك بألف عام ذكرت الهاجادا الإلهية «فى العام الأول من الجفاف انتهى كل ما كان

مـخـزونـاً بالمنازل من طعـام وفى الـثـانى كافـح الجـمـيع لـيظلوا أحـيـاء بما استطاعوا أن يحصلوا عليـه من نبش تراب الحقول وفى الثالث كان لحم الماشية غير المريضة كافياً لاجتيازه، وفى الرابع تحول الشعب إلى الدواب المريضة وغير النظيفة».

وفى الخامس بحثـوا عن الزواحف والحشـرات، وفى الـسـادس وقـعت حوادث وحشية أدت بالنساء اللائى أطار الجوع صوابهن إلى أكل أطفالهن ... وفى السابع لجأ الرجال إلى قضم قطع من لحم أجسادهم (٣).

إن الرسائل المعاصرة لتلك المجاعة والتى كتبها ملك سومور (السامرا) تعكس الكرب الذى اتسمت به تلك السنين. لقد كتب عن جهوده اللامجدية للحصول على الحبوب من آياريموتا «ولم أحصل عليها» (٤).

وكتب مـرة أخرى: «كل شىء قد استـهلك» (٥) ومـرة ثالثة «كل شىء نفد» (٦) ولم يعد لدى الملك شىء يهبه لشعبه، «لا حبوب للخبز ولا بذور لزراعتها فى العام القادم».

لقد كتب الملك أنه لم يعد لديه أية حبوب للفلاحين (٧)، وأنه خائف منهم (٨) وأنهم قد يتمردون (٩) أو يعمدون إلى هجر البلاد «الفلاحون ينوون ترك البلاد» (١٠) وأن أرضه أصبحت يباباً وأن الفلاحين يهجرون الأرض إلى أماكن أخرى بحثاً عن الحبوب.

الرسالة ١٢٥: لا توجد حبوب ولا مؤن، الفلاحون هاجروا إلى مدن أخرى حيث يجدون الحبوب والمؤن.

وانعكست تلك الهجرة أيضاً على سفر أخبار الملوك الثانى ٨: ١.

«قومى انطلقى أنت وبيتك وتغربى حيثما تتغربى. لأن الرب قد دعا بجوع».

ومن الواضح فى كل من التـوراة ورسـائل تل العـمـارنة أن سنوات المجاعة الطويلة كانت مقتصرة على أرض السامرا (سومور).

إن أقصر تسجيل – هو أقصر لأنه لم يبق منه إلا كلمات قليلة على لوح مشوه – يتحدث ببلاغة مختصرة، حيث لم يتبق إلا الكلمات التالية: رماد ... صراخ ... الأرض.

تمرد ميشع

كان ميشع ملك موآب يدفع الجزية إلى ملك إسرائيل «وكان ميشع ملك موآب صاحب مواش فأدى لملك إسرائيل مائة ألف خروف ومائة ألف كبش بصوفها» (سفر الملوك الثانى ٣: ٤) وبعد هزيمة راموث - جلعاد، تمرد ملك موآب على ملك إسرائيل (سفر الملوك الثانى ١: ١ و ٣: ٥).

وعانت الجيوش المتحالفة من إسرائيل ويهوذا وإيدوم بشدة من نقص الماء فى مسيرتهم حول البحر الميت لإخضاع موآب مرة أخرى والقضاء على تمردها.

ووصلوا إلى موآب من الجنوب وابتدأوا فى تحطيم كل ما يصادفهم ثم حاصروا المدينة وحاول ملك موآب أن يخترق الحصار، ولكنه فشل فأخذ ابنه البكر الذى كان ملكاً عوضاً عنه وأصعده محرقه على السور. فكان غيظة عظيمة على إسرائيل - فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم (سفر الملوك الثانى ٣: ٧) وكان من الثابت أن إسرائيل قد هزمت وأن حلفاءها لا يستطيعون مد يد العون إليها ولم تتوافر لنا أية تفصيلات عن أسباب ذلك «الغيظ العظيم» والسخط الذى شعرت به إسرائيل.

فى الستينتات من القرن الماضى (التاسع عشر) عرض عرب الديبان المقيمون فى أراضى عبر الأردن، وهى منطقة ديبون القديمة، على أحد الرحالة صخرة من البازلت الأسود عليها نقوش وحروف عبرية قديمة، وبعد أن بيع الحجر لأحد المتاحف، ندم العرب على تلك الصفقة، فقد ظنوا أن هناك كنزاً مخبوءاً داخل الصخرة وأن الكتابة الغريبة التى عليه تحكى عن ذلك الكنز، فقرروا أن يفتحوا الصخرة قبل نقلها ليروا ما بداخلها وعدا ذلك فقد كانوا مقتنعين أنهم بتكسير الصخرة سيكون لديهم عدد أكبر من القطع للبيع كما اقتنعوا أن لتلك الصخرة قوة سحرية وأنه يجب التعجيل بتحطميها أولا، وهكذا سخنوها بالنار بشدة ثم صبوا ماءً بارداً عليها فتحطمت إلى قطع كثيرة.

وكان أحد الباحثين الشباب، قد نجح قبل ذلك فى سرقة قالب منسوخ من الحجر صنعه واحد من العرب، وبعد ذلك بيعت صخرة البازلت فى حالة سيئة إلى متحف اللوفر فى باريس، أما النسخة فقد زودتنا

بالأجزاء الضائعة من النص بعد تحطم الصخرة ولكن كل الصخرة بأجمعها لم تكن إلا الجزء الأعلى من نصب تذكارى، والصخرة التى اعتبرت وقت اكتشافها أنها تحمل أقدم نقوش لأشكال عبرية مكتوبة يحصل عليها علماء الآثار، أرست أيضاً حقيقة تاريخية مهمة وهى أن الموآبيين كانوا يستخدمون اللغة العبرية والنص يعطى موجزاً عن نصر الملك ميشع على إسرائيل، ويبدأ بالكلمات التالية «أنا ميشع، ابن كيموش، ملك موآب، الديبونى (١١)، حكم ابى على موآب لثلاثين عاماً، وأنا حكمت من بعد أبى، وأقمت هذا الصرح الحالى من أجل كيموش فى كاركه صرحاً عالياً من أجل خلاص روحه لأنه أنقذنى من كل المهاجمين والغزاة، ولأنه جعلنى أملى إرادتى على كل من عادانى. وطغى عُمْرى ملك إسرائيل على موآب لأيام كثيرة لأن كيموش كان غاضباً على أرضه ثم تلاه ابنه فى الحكم، فقال هو الآخر، سأطغى على موآب، فى أيامى قال ذلك، ولكن إرادتى غلبت إرادته وإرادة أهل بيته، وهلكت إسرائيل بدمار لا ينتهى» (١٢).

وذكر ميشع أيضاً أنه استرد ميديبا، وبنى بعل - معون، وكيرياثين، وقاتل عثاروت وهى منطقة سكان أرض جاد من قديم الزمن ومدعومة من قبل ملك إسرائيل، وأنه ذبح كل شعب تلك المدينة.

وكان نداء كيموش له يهيب به «اذهب» واسترد نبو من إسرائيل فأخذها وذبح كل من كان فيها، سبعة آلاف رجل وامرأة وطفل بمن فيهم خدم البيوت «وبنى ملك إسرائيل ياها وأقام فيها حينما كان يحاربنى ولكن كيموش ساقه من أمامى وأخذتها وضممتها إلى ديبون ثم بنى ميشع الأسوار وأصلح ما تهدم منها كما بنى القصر الذى فى كاركا بعمال مسخرين من الذين أسرهم من إسرائيل، وذلك مذكور بتفصيل أكثر فى النص، كما ذكر أنه بنى أماكن كثيرة أخرى واستمر فى حربه ضد إسرائيل وذهب باتجاه مدينة إسرائيلية تدعى جوزوين، وعند هذا الموضع انقطع النص الموجود على صخرة البازلت الأسود، والسطور التى تلتها ضائعة المعالم، ولكن يفترض أنها كانت مزيداً من الحروب ضد إسرائيل. وكلمة «أنا» من الممكن قراءتها بين السطور الضائعة فى عدة مواضع أخرى.

إن الجزء الأسفل من ذلك النصب مفقود كله. والمدن المذكورة على

النصب تقع كلها عبر الأردن أما كاركا فغير معلوم مكانها.

كانت كل كلمة وكل حرف وكل نقطة اعتراضية موضع بحث دقيق: فنصب ميشع يعد أعظم اكتشاف مفرد فى علم الآثار التوراتية، خاصة أنه يحمل سجلا من المعلومات الموازية لقصص التوراة.

ويذكر سفر الملوك أنه «كان غيظ عظيم لإسرائيل» فى محاولتها إخضاع موآب الذى تمرد عليها، والسجل لم يذكر أى شىء عن ذلك الغيظ والسخط ويكشف سفر أخبار الأيام أن الموآبيين مع العمونيين قد غزوا فلسطين بمساعدة السوريين، ومن نصب ميشع نعرف أن ميشع ملك موآب قد ثار لنفسه بـ «دمار لا ينتهى» لإسرائيل وأن مدن مهى ديبون وعثاروت ونيو وياها قد أخذت من الإسرائيليين، ولا يمكن أن يكون «الدمار الذى لا ينتهى» هو مجرد الاستيلاء على أربع مدن أو خمس لا تحمل أية ميزات خاصة فى أراض عبر الأردن. إن رسائل تل العمارنة المكتوبة بالمسمارية قد اكتشفت بعد اكتشاف نصب ميشع بعشرين عاماً، واعتبرت وثائق تاريخية تسبق فى الوجود نصب ميشع بما يزيد عن خمسمائة وخمسين عاماً، وأنها بذلك تنتمى إلى الدولة الكنعانية وتعاصرها والبحث الحالى يثبت أن الرسائل ونصب ميشع متعاصران، وأن كليهما كتب فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد.

وفى الرسائل الآتية من فلسطين، خاصة تلك التى كتبها ملك السامراء، فإننا نتوقع أن نجد معلومات مباشرة عن تمرد ميشع، كما نتوقع أيضاً أن نجد ذكراً للأحداث الغائبة المفترض وجودها على الجزء الأسفل المفقود من نصب ميشع. وفى الحقيقة فإن رسائل تل العمارنة تحمل شهادة شاملة لتاريخ تلك الحرب. كما تمدنا بالمادة التاريخية التى نستطيع بها أن نعيد ترتيب تلك الأحداث المفقودة فى الجزء الأسفل من نصب ميشع وفى أول رسالة محفوظة حتى الآن لملك سومور (السامرا) نجد أنه كتب إلى الفرعون (أمينوحتب الثالث) ما يلى:

الرسالة٦٨: «فليعلم سيدى الملك أن عداء ساجاز، ميش يتعاظم ضدى وآمل ألا يتخلى سيدى ومولاى الملك عن سومور حتى لا تضمها قوات ساجاز ميش».

وعند قيام الباحثين بترجمة رسائل تل العمارنة نجد أن ساجاز. ميش

قد ترجمت شعب ساجاز وعند نقل ساجاز التى تقرأ أيضا هاباتو إلى الإنجليزية فقد ترجمت بمعنى (الناهبون) أو (قاطعو الرقاب) أو (العصابات المتمردة). كما فهمت ميش على أنها مقطع يضاف فى حالة الجمع.

وقد تكررت عبارة ساجاز. ميش فى عديد من الرسائل ودائماً فى سياق التمرد المصحوب بالنهب وأحيانا كانت تكتب أميلوت ساجاز. ميش وفهمت أميلوت على أنها شعب أو رجال حيث كان سياق النص يظهر أحياناً ساجاز. ميش وكانها تعنى فرداً واحداً، ومرات أخرى نجد المترجمين يتجاهلون ميش «ويضعون المعنى بأنه سارق مفرد. «لقد استولى على المدن أميل - جاز. ميش الكلب» وترجمت العبارة على أن جاز هى رجل فى حين أغفلت مرة أخرى كلمة ميش ونجد أن النص فى مثل تلك الحالات يتحدث عن فرد واحد، ولذلك من المستحيل أن تكون ميش مجرد مقطع يضاف فى حالة ألجمع.

ولن أقوم بترجمة كلمة ميش، لأنها ببساطة اسم الملك ميشع وفى نفس الوقت لن أقوم بحذفها من النص المترجم. وهكذا يقرأ النص كالتالى «إن عداء المتمردين الناهبين التابعين لميش، يتعاظم ضدى» وفى جملة أخرى «أنه يستولى على المدن، المتمرد ميش، الكلب» (١٣) وطبقاً للنص الذى على نصب ميشع، فإن التمرد قد حدث فى منتصف فترة حكم آخاب، وحيث إن الخطابات الأولى لملك سومور تذكر ذلك التمرد فمعنى ذلك أننا فى النصف الثانى لحكم آخاب.

وفى رسالة أخرى تعود إلى بداية مراسلات تل العمارنة، كتب ملك سومور (السامرا) مرة أخرى قائلا:

الرسالة ٦٩: «حقاً، إنهم ينهضون ليلا ونهاراً للتمرد على حكمى» وهناك اسم جغرافى كثيراً ما يشار إليه مرتبطاً بتمرد ميشع (١٤) وهو اسم أمبى ويبدو أنه اسم أرض موآب، أو عاصمتها أو اسم شعبها ومن المحتمل أنها آمى والتى ذكرت مراراً مرتبطة مع أمبى وفى سفر التكوين (١٩: ٣٨) يطلق على العمونيين اسم عامى كما ذكرت مدينة تدعى روبوت، ومن المفترض أن تكون هى رابات - عمون عاصمة الموآبيين (١٦).

وقد كتب ملك السامرا إلى واحد من ذوى النفوذ فى البلاط المصرى

قائلا:

الرسالة ٧٣: عندما كتب عبدى – عشيرتا إلى شعب عامى طالباً منهم أن يقتلوا سيدهم وأن يتحدوا مع أميلوت – جاز (الناهبون) عندئذ قال النائب: هكذا يفعل معنا ملك دمشق، وهكذا ستنضم كل الأراضى مع أميلوت. جاز (الناهبون).

إن العمونيين بعد أن قتلوا ملكهم انضموا إلى رعاة أرض موآب وجاء أناس إلى يهوشافاط قائلين:

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ١ – ٢ «قد جاء عليك جمهور كثير من عبر البحر آتى بنو موآب وبنو عمون ومعهم العمونيون».

وكتب ملك سومور:

الرسالة ٧٩: «تعلمون أنه منذ وصول أمان – أبا إلى عندى، وجه كل أميلوت – جاز– ميش (جمهور عصابات ميش) وجهتهم إلى، بتوجيه من عبدى – عشيرتا (ملك دمشق) وإن لقيت كلمات خادمكم استحساناً فى آذان سيدى سترسلوا حامية للدفاع عن مدينة الملك إلى حين وصول الرماة وإن لم يكن هناك رماة فإن كل البلاد ستتحد مع أميلوت – جاز– ميش (جمهور عصابات ميش).

وهنا نجد أن ما كان مجرد تخمين عام فى أسفار الملوك وأخبار الأيام عن اليد الخفية لملك دمشق التى حركت تمرد أرض موآب (١٧)، وكذا الاضطرابات التى سادت قبائل الصحراء، قد تحول إلى يقين بعد قراءة الرسائل.

لقد طلب ملك سومور (السامرا) إرسال خيول ووحدات من الجيش إليه حتى لا يتمكن عبدى عشيرتا من حشد وتجميع كل عصابات ميش (١٨).

ونادرة تلك الخطابات التى كتبها ملك سومور (السامرا) ولم يذكر فيها شيئاً عن تمرد ميشع وعن الدور الذى يقوم به ملك دمشق فى توجيه ذلك التمرد وتحريكه إن كان سراً أو علانية.

إن دور دمشق فى الحروب التى دارت بين السامرا وموآب من الممكن أن نجده أيضاً فى سفر أخبار الأيام الثانى (٢٠:١ – ٢).

العار الكبير
إعادة تركيب الجزء الغامض والمفقود
من نصب ميشع

«إن مدينة ملكي وسيدي» سومور (السامرا) مهددة من (العصابات) أو (قاطعو الرقاب) التابعين لميش (ميشع). ومن قبل أن يستفحل الخطر نجد أن الفرعون قد تم تحذيره كما يتضح من الرسائل الباقية إلى اليوم والتى أرسلها ملك سومور إلى الفرعون قائلاً فيها إن العصابات باتت تهدد العاصمة ذاتها.

وفى رسالة تالية حُذِّر الفرعون مرة أخرى أن «أرض الملك والمدينة الحصينة سومور» سوف تنضم إلى شعب المتمرد ميش (أميلو – جاز – ميش)، «وأنت تمسك يدك» (١٩) عن إرسال القوات اللازمة. لقد طلب ملك سومور إرسال الرماة وكشف كل أوراقه حين ذكر فى رسالته أنه غير قادر على الدفاع عن البلاد ضد قوات المتمرد ميش (٢٠). ورغم ذلك لم تصله أية مساعدات عسكرية. فكتب مرة أخرى:

الرسالة ٨٣: استمع إلى. لماذا أمسكت عن مد يد المساعدة فى الوقت الذى تسلب فيه الأرض؟ أمل ألا يقال فى المستقبل: إنه فى أيام أمراء أميلوت – جاز ميش (شعب ميشع المتمرد) انتزعت الأرض من الفرعون. لا تجعل مثل هذه الأقوال تذكر فى المستقبل أو أنك لم تكن قادراً على إنقاذها .. هذا إذا لم نفقد أيضاً سومورا وبيت – أرخا.

وفى تلك الأيام التى كتبت فيها تلك الرسالة، كانت سومور (السامرا) وحدها هى المهددة، ثم جاء تحذير آخر أكثر شدة وصرامة فى رسالة من ملك سومور إلى الفرعون: فإذا لم يول الفرعون آذانا صاغية لما يكتبه إليه فإن: الرسالة ٨٨: كل أرض الملك حتى أرض مصر ذاتها ستنضم تحت سطوة أميلوت – جاز – ميش ملك (شعب ميشع المتمرد). ورغم كل ذلك وصلت قوات ميشع بمساعدة ملك دمشق إلى السامرا واقتحمتها.

الرسالة ٩١: لماذا تقاعست حتى استولى على المدن كلها أميل – جاز ميش (المتمرد ميش) الكلب؟ لقد استولى على سومورا ...

إن ملك سومور مع ضياع عاصمته، تطلع بيأس إلى معاونة تأتيه من

مصر وطلب من الفرعون فى الرسالة نفسها ما يلى:

الرسالة ٩١: حتى لو تهبه ألف وزنة فضة ومائة ذهب، فإن (المتمرد ميش) سوف يرحل عني. لقد أخذ كل مدني ...

ونعلم أيضاً من التوراة أن ملك السامرا (سومور) قد تفاوض من أجل تحرير عاصمته من الحصار المضروب حولها بدفع أوزان من الذهب والفضة، وكان ذلك أثناء حصار السامرا الأول المذكور فى سفر الملوك الأول، الإصحاح العشرون، وقد قيل لملك السامرا فى ذلك الوقت سوف تسلمنى ما عندك من ذهب وفضة ...

وبكل المعلومات التى أتاحتها لنا رسائل تل العمارنة وجعلتها فى متناول اليد ومقروءة بشكل واضح، فإننا نتيقن من حقيقة أن متمردى ميشع من المؤابيين قد نجحوا فى الاستيلاء على السامرا.

وأول فكرة تطرح نفسها عند هذا الوضع هى: بعد أن عثرنا على الجزء العلوى من نصب ميشع، فإننا نعتقد أن الجزء السفلى المفقود منه يحتوى على توضيح وتفسير لـ «الدمار الذى لا ينتهى» أو «السخط العظيم والغيظ» الذى ذكر فى سفر الملوك الثانى ٣: ٢٧». بل إنه من الممكن أيضاً أن نص نصب ميشع لم يكن إلا واحداً من نصين على نصبين، حمل كل منهما نصف القصة.

وكوننا نملك الجزء العلوى من النصب فذلك حقيقة مؤكدة، وكون أنه كان هناك نصبان فذلك ليس مستحيلاً. وعلى أية حال فإننا يجب أن نعيد فحص نصب ميشع من جديد، وإن قمنا بذلك فربما نكتشف أو نرى أشياء لم نعطها الاهتمام الكافى فى حينها.

وبعد الاستيلاء على مدينة ياها تحول ملك مؤاب فى حربه ضد إسرائيل إلى التركيز على البناء والتعمير فى مكان لم يتم تحديد موضعه حتى الآن:

«لقد بنيت كارخه، وحوائط وأسوار أياريم (أو أسوار الأحراس) وأسوار أوفيل وبنيت بواباتها وأبراجها، وبنيت القصر الملكى وأقمت خزانات المياه بوسط المدينة التى لم يكن بها خزانات للمياه وأمرت الناس أن يبنوا أحواضاً للماء فى المنازل كما قطعت الأحجار لبناء كارخان (بمعاونة) الأسرى الإسرائيليين».

لا توجد مدينة معروفة تحمل اسم كارخا. واعتقد بعض الباحثين أنها كانت جزءاً من مدينة ديبون، كما اعتقد آخرون أنها تمثل مدينة كير - ها - خاروشيت. ولأسباب خاصة كان ذكر البناء وأنشطة التعمير فى كارخاه هو المحور الأساسى الذى دار حوله كل النص المنقوش على نصب ميشع، كما كانت الإشارة إلى مدينة كارخاه فى مقدمة النص بمثابة التأكيد على النشاط والجهد والأهمية التى أعطيت لتلك المدينة أثناء الحرب ضد الإسرائيليين، وعلى ضوء رسالة العمارنة فإنه من المفترض أن كارخاه كانت هى مركز سيطرة مصر على كل فلسطين أو سومور (السامرا) والتى استطاع ميشع المتمرد أن يدخلها ويسيطر عليها بعد أن تغلب على مقاومة المدن الحصينة فى الشرق. والسامرا - على خط مستقيم - تبعد عن ضفة نهر الأردن أى حدود عمون بعشرين ميلا.

وكيراخ أو كارخا فى اللغة العبرية تعنى «مدينة واسعة الأرجاء، محاطة بأسوار ويأتى إليها الأعراب سنوياً بغرض التجارة» (٢١). وذلك الوصف ينطبق على حاضرة وعاصمة (٢٢).

وطبقاً لنقش ميشع فقد كان فى كارخاه ما يسمى «أوفيل»، وهو الحائط الذى بناه أو رممه. وفى التوراة نجد أن الجزء من المدينة الذى يطلق عليه «أوفيل» مذكور فقط فيما يختص بأورشليم والسامرا. بهدايا من نعمان إلى منزل سيده، وذكر أنه افترق عن الخادم حين وصلوا «أوفيل» فى مدينة السامرا (سفر الملوك الثانى ٥: ٢٤). والإشارة إلى أوفيل «فى كارخاه» فى نص ميشع على غاية فائقة من الأهمية.

إن قصر الملك (بيت - ميلك) والذى أشير إليه كثيراً فى رسائل تل العمارنة بأنه يوجد فى سومور، وكشفت بقاياه فى سامرا عمرى وآخاب (تسمى سباستيا الآن)، كان يذكر على أنه فى كرخاه أو الحاضرة المذكورة فى نص ميشع.

إن موقف ميشع بغزوه للعاصمة «مدينة الملك الفرعون فى فلسطين» كان موقفاً مميزاً بحق. لقد رمم وأصلح ما تداعى من المدينة والقصر والأسوار، فى المدينة التى تخص ملك مصر، ومن يبنى فيها يظهر موقفه المسالم تجاه مصر كما يكتسب حقوق المعاملة المميزة للأقوى بين الملوك التابعين من بين أمراء سوريا - فلسطين.

وفى رسائل أخرى كتبت من شمال سوريا قيل إن المدينة التالية وربما كانت خارج دائرة الهيمنة الإسرائيلية قد تلفت على أيدى متمردى ميشع وهى مدن ماهزيتى، جيلونى، مجد إلى أوستى وأيضاً تحسى وأوبى (٢٣).

وكالرياح العاصفة هاجم العرب البلاد من كل الجهات وانضم المزارعون والقرويون الذين يقطنون سهول الساحل، مدفوعين بالجوع والعطش إلى قوات القبائل المتمردة المندفعة لاكتساح البلاد.

ومن المحتمل أن هناك فدية قد تم دفعها إلى ميش (ميشع) لفك أسر مدينة سومور (السامرا)، وإن كان الأمر كذلك، فإن الفدية قد دفعت من أموال الخزانة المصرية حيث كان ملك مصر يعتبر مدينة السامرا كمدينة للقصر الملكى الخاص به.

كان النصب التذكارى معداً لإقامته فى كارخا - السامرا، ولكنه ترك فى ديبون، لقد انتصر التابع على سيده، وعلى سيد سيده، ومن المحتمل أنه تلقى فدية كما أسلفنا.

لقد كان ذلك هو ما عناه «الغيظ العظيم» والمهانة القومية التى جاءت فى النص التوراتى، و «الدمار اللانهائى» فى نصب ميشع التذكارى.

أم ترى أن المعونة العسكرية التى أزمع المحافظ أمان - أبا إرسالها قد وصلت فى الوقت الملائم وتصدت للمتعدين على السامرا ودفعتهم للتقهقر والرحيل دون أية فدية، كما ذكرت قصة سفر الملوك الأول فى الإصحاح العشرين؟

أرزاء عضو البلاط الملكى

وتبع ملك دمشق قوات ميشع المتمرد وسار بقواته إلى السامرا (سومور)، التى كانت فى حالة سيئة بعد أن تحولت إلى أنقاض بفعل الحرب والحصار المتكرر وبعد أن هجرها أغلب سكانها بسبب المجاعة، وأمكن لملك دمشق أن يدخل السامرا، وبعدها كتب إلى فرعون مصر ما يلى:

الرسالة ٦٠: «تعرفون جلالتكم أنى خادمكم المطيع، وأنى كلب فى بيت الملك، وأن كل أرض عمورى التى أعيش فيها إنما هى ملك لكم، وأقوم أنا

بحراستها للملك، سيدى وإلهى، وترون جلالتكم أن كل الملوك التابعين لسيدى يحاولون انتزاع أجزاء من أراضى بالقوة وهى الأرض التى أقوم بحراستها لجلالتكم ... ولو عاد إلىّ مبعوثى إلى جلالتكم بأنفاس الحياة من ملكى وشمسى، سأحصد محاصيل سومور، وأقوم بحماية كل البلاد لسيدى الملك، شمس الحياة، سيدى وإلهى».

لقد كان يلتمس الأعذار لدخوله مدينة سومور، ولقد كان العذر من ذلك القول الذى يتذرع به من يصر على حماية مدينة لا تحتاج إلى حمايته: «لقد خلصتها من أيدى قوات سحلال»، و «لم يكن هناك شعب بالمدينة يتولى حمايتها» ولو لم يكن أمر غزوها من أجل الفرعون «فإن قوات سحلال كانت ستحرق المدينة بالنار بما فيها من قصر للفرعون». ولكنه أغفل ذكر أن تلك القوات كانت تلقى دعمه وتعضيده قبل أن يظهر هو على مسرح الأحداث.

وكتب بعد ذلك إلى أحد أصحاب النفوذ بمصر قائلا:

الرسالة ٦٢: «وحين أسرعت إلى هنا وحضرت بنفسى إلى سومور، لم أجد بها شعباً، وحتى أولئك الذين كانوا قائمين بأمر قصر المدينة لم أجد منهم أحداً، لم أجد منهم إلا سابى - إليو وبيسيتانيو ومايا وأرزايا، وترون أن أربعة أفراد فقط هم كل من كانوا بالقصر، وقد قالوا لى: خلصنا من أيدى قوات سحلال «وقد خلصتهم من أيدى قوات سحلال .. ولا أدرى ما هى الأكاذيب التى أبْلَغها إليكم حاكم المدينة .. ولكنكم صدقتم ما بلغكم من أكاذيب».

كان أحد من بقوا فى قصر السامرا الفرعونى حين دخلها ملك دمشق يسمى آرزايا، ومن المحتمل أنه كان نفس عضو البلاط الملكى الذى كان يقوم على شئون قصر الفرعون. والمعروف لنا من سفر الملوك الأول باسم آرزا.

قبل ذلك بعقدين من الزمن كان إيلاه، ابن بعشا، قد قتل بعد حكم دام عامين على يدى زمرى قائد القوات حين كان إيلاه «يشرب ويسكر فى بيت آرزا الذى على البيت فى ترصه» (سفر الملوك الأول ١٦: ٩) ومنذ ذلك الوقت مرت إثنتا عشرة سنة من حكم عمرى وعدد من السنوات من حكم آخاب ليهوذا، وطوال تلك السنوات كان آرزا كالعادة، وبحكم منصبه

متمتعاً بجو حياة القصر الفرعونى فى السامرا.

ومن النص التوراتى نجد المعلومات متوافرة عن حصارين فقط من حصارات السامرا ولا شيء مذكور عن سقوطها. ولكننا نقرأ فى سفر الملوك بعد ذلك أن ملك السامرا حين سمح للملك المهزوم بن حدد بالعودة بسلام إلى دياره بعد توقيع معاهدة إخاء وسلام، قد تعرض لانتقادات مريرة مع نبوءة من أحد الأنبياء جاء فيها «هكذا قال الرب، لأنك أفلت من يدك رجلا قد حرمته (*)، تكون نفسك بدل نفسه، وشعبك بدل شعبه» (سفر الملوك الأول ٢٠: ٤٢)، ونجد تلك القصة متخفية فى ثنايا أحد خطابات ملك سومور.

الرسالة ٧٤: وترون الآن، أن الملك الفرعون قد تخلى عن مدينته المخلصة، وتركها تفلت من يده .. وما أعظم كراهية شعب الجاز (عصابات) الموجهة إلىّ وإلى شعبى.

وبالمقارنة، فإنه قد يكون ملحوظاً ما تردد فى القصتين من تعبير واحد هو «أفلت من يدك» الذى استخدم فى النص التوراتى، وأعيد استخدامه فى الرسالة السابقة.

أورشليم فى خطر

من فوق المرتفعات والروابى المحيطة بأورشليم، من الممكن رؤية جبال موآب بوضوح عبر نهر الأردن والبحر الميت حين يصفو الجو ويعتدل الطقس. ولكن من الصعب تمييز حركة أية قوات أو جيوش من على مثل تلك المسافة إلا إذا كانت أعدادها من الضخامة بحيث تغير من ألوان المنحدرات الجبلية والوديان الضيقة.

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ١ - ٣ ثم بعدذلك أتى بنو موآب وبنو عمون ومعهم العمونيون على يهوشافاط للمحاربة، فجاء أناس وأخبروا يهوشافاط قائلين قد جاء عليك جمهور كثير من عبر البحر من أرام (سوريا) (٢٤) وها هم فى حصون تامار «وخاف يهوشافاط».

إن صلاته أمام الجموع المحتشدة للصلاة من يهوذا وأورشليم محفوظة

(*) حرم فى التوراة تعنى إباحة دم وممتلكات الشخص المعنى بالحديث (المترجم).

فى سفر أخبار الأيام الثانى، تبدأ بالعبارات الآتية:

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٦ «يارب إله آبائنا، أما أنت هو الله فى السماء، وأنت المتسلط على جميع ممالك الأمم وبيدك قوة وجبروت، وليس من يقف ضد إرادتك».

ثم ينتقل إلى تذكير الرب أن تلك الأرض قد وهبها إلى شعب إسرائيل إلى الأبد بقوله سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠ - ٧ «ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد».

لقد عبر عن إيمانه أن الرب لن يتخلى عنهم وعن أرضهم التى أقاموا بها معبداً للرب يذكر فيه اسمه، إن الرب لابد مرسلاً عونه إليهم.

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٨ - ٩ فسكنوا فيها (شعب إسرائيل) وبنوا لك فيها مقدساً لاسمك قائلين، إذا جاء علينا شر سيف قضاء أو وباء أو جوع، ووقفنا أمام هذا البيت وأمامك لأن اسمك فى هذا البيت، صرخنا إليك من ضيقنا، «فإنك تسمع وتخلص».

وانتقل يهوشافاط إلى عرض البلاء الذى يتعرض له شعبه:

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ١٠ - ١١ «والآن، هوذا بنو عمون وموآب وجبل ساعير، الذين لم تدع إسرائيل يدخلون إليهم حين جاءوا من أرض مصر، بل مالوا عنهم ولم يهلكوهم، فهوذا هم يكافئوننا بمجيئهم لطردنا من ملكك الذى ملكتنا إياه».

ثم توسل إلى الرب متضرعاً ومعلناً عن عجزه وعجز شعبه أمام تلك الجحافل الزاحفة لغزو أرضه وشعبه.

سفر الأخبار الثانى ٢٠: ١٢ «يا إلهنا، أما تقضى عليهم الآن لأن ليس فينا قوة أمام هذا الجمهور الكثير الآتى علينا، ونحن لا نعلم ماذا نعمل، ولكن نحوك أعيننا».

وتجلت مشاعر ملك أورشليم عند رؤيته للحشود الضخمة المتجهة إلى مملكته فى دعائه السابق.

كما تجلت فى رسائله «فعلى الأرض كان حكم يهوشافاط تحت هيمنة الحكم المصرى، وكان الفرعون ملزماً بحمايته».

وكتب ملك أورشليم إلى فرعون مصر ما يلى:

الرسالة ٢٨٨: «فليول الملك عنايته إلى أرضه. إن أرض الملك فى طريقها إلى الضياع: كل الأراضى ستسلب منى والعداء يتزايد ضدى من سيتيرى حتى جنة كيرميل (٢٥). إن السلام يسود بلاد بقية الحكام إلا أنا حيث لا أجد إلا العداء السافر».

إن نفس المنطقة – جبل سينير (سييرى) – أشير إليها بوضوح فى كل من المصدرين على أنها تلك البلاد البعيدة التى أتى منها شق من الجيش الغازى، وقد عبّر حاكم أورشليم عن اعتقاده بأن إلهه لن يتخلى عن الموضوع الذى فيه اسمه للأبد.

الرسالة ٢٨٧: «حقاً، لقد وسم الملك أرض بيروساليم باسمه إلى الأبد، وهو لم يخزل بيروساليم (أورشليم) ولن يتخلى عنها» فى الوقت نفسه عبّر عن مخاوفه بأنه إذا لم تصل أية مساعدات فإن الغزاة سيقومون بطردهم إلى خارج أملاك سيده الملك الفرعون.

الرسالة ٢٨٧: «إذا لم يصل الرماة (هذا العام) فإنه لن يتبقى للملك عبيد ولا حكام بهذه البلاد».

وهناك تماثل بين تضرعه لإلهه فى السماء وبين مناشدته لسيده فى الأرض، ولكن بعد أن لاحظ أن المساعدات المنشودة لم تصل، كتب إلى الفرعون بما يشى بنفاذ صبره، وهو ما لم يستطع أن يلفظه فى تضرعه لإلهه.

الرسالة ٢٨٨: «مع أن الإنسان يعى الحقائق، إلا أن عينى الملك سيدى» لا تريان .. أن حابيرو يستولون على مدن الملك.

ولقد كان ملك أورشليم، بعكس بقية الملوك الخاضعين لنفوذ ملك مصر، يغفل ذكر أى تعبيرات تدل على الإيمان بآلهة مصر، ولم يخاطب الفرعون بتعبيرات مثل «شمسى وإلهى» كما كان يفعل بقية الحكام الذين كتبوا إلى فرعون مصر، وبتميز واضح عن كل الملوك الذين كتبوا إلى فرعون مصر فإنه لم يذكر شيئاً عن ربه الذى يعبده، وقد كان يشير إلى نفسه كخادم الإله ولكنه لم يدنس اسم إلهه ولم يشر إليه فى مراسلاته إلى حاميه الوثنى.

ومن الطبيعى أن تصدر ذات المناشدة من نفس الشخص، ولكن فى هذه الحالة فإن التماثل يلقى الضوء على صدق التضرع والمناشدة التى وردت

فى سفر أخبار الأيام، كما تدل أيضاً على نقاء العقيدة لدى ذلك الملك المؤمن بالتوحيد.

إن الرسائل تحتوى على تفاصيل ذلك الغزو والتهديد الذى تعرضت له أورشليم. إن رعاة موآب وساير قد استولوا على رابات عمون فى عبر الأردن بمعاونة زعماء العصابات الذين انضموا إلى الغزاة، كما انضم شعب عمون إلى تلك القبائل.

الرسالة ٢٨٩: وبعد أن استولوا على روبودا فإنهم يتطلعون الآن إلى يوروساليم، إن روبودا التى كتبت أيضاً (روبوت) (٢٦)، نجد أنها رابات أبناء عمون «وهى مدينة مازالت قائمة حتى اليوم» لقد عبرت عصابات منفصلة حدود مملكة يهوذا فى ذات التوقيت من مواضع مختلفة وهو ما كانت تعنيه عبارة «من خلف البحر (البحر الميت) من سوريا».

لقد سمحت سوريا للغزاة أن يمروا عبرها وقد ذكر ذلك فى رسائل ملك سومور (السامرا) وهناك رسالة مرسلة من فلسطين ذكر فيها أن بعض تلك العصابات ظهرت فى وادى عجلون (٢٧). وذلك يفسر أسباب نزوح السكان إلى حصون أورشليم.

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٤ «واجتمع يهوذا ليسألوا الرب جاءوا أيضاً من كل مدن يهوذا ليسألوا الرب». كما كتب ملك أورشليم إلى فرعون مصر قائلاً:

الرسالة ٢٨٩: «إن كل أرض الملك أصبحت مهجورة» ثم وقع تغير مفاجىء فى الأحداث أنقذ أورشليم من الذل والخزى لقد توقف زحف جحافل «أبناء عمون، وموآب، وجبل ساير» باتجاه أورشليم بسبب الخلاف الذى نشب بين الحلفاء.

سفر أخبار الأيام الثانى ٢٠: ٢٣ «وقام بنو عمون وموآب على جبل ساعير ليحرموهم ويهلكوهم. ولما فزعوا من سكون ساعير ساعد بعضهم على إهلاك بعض».

وتنعكس تلك الأحداث على إحدى رسائل ملك سومورا.

الرسالة ٧٦: «ومن العجيب أنه عبدى – عشيرتا» قد حشد الآن كل عصاباته ضد سيجاتا وأمبى».

وكانت تلك المدن تقع فى أرض العمونيين والموآبيين على الترتيب،

ويبدو أن سيجاتا هى سكوت التى تقع على نهر الأردن.

وقد أشار ملك أورشليم إلى القبائل المتحركة من البرارى عبر نهر الأردن باسم حابيرو، وتعود كلمة حابيرو فى جذورها العبرية إلى كلمة حابر أو عابر وهو الفرد من عصابة.

كما تعنى كلمة حابيرو عصابات وقد استخدمت نفس الكلمة للدلالة على مرافقى اللصوص فى سفر أشعيا ١: ٢٣ وللدلالة على جحافل قطاع الطرق فى سفر هوشع ٦: ٩ وبمعنى أعوان المدمرين» فى سفر الأمثال ٢٨: ٢٤.

إن هذا المعنى لكلمة حابيرو يبرز على ضوء حقيقة كلمة سا - جاز والتى ترجمت بمعنى «عصابات» و «سفاحون» والتى استبدلت بكلمة [حابيرو] (٢٨).

إن كل النظريات الأخرى التى تناولت بالتفسير كلمة حابيرو (عابيرو) التى وردت فى رسائل تل العمارنة بأنها تعنى «أفرى» (عبرى) أو عبيريو «عمال المناجم» أو أفريو (نسبة إلى منطقة أفريو البابلية) - كل تلك النظريات يتضح أنها بلا أساس ثابت ترتكز عليه.

تمرد السدوميون

خلال تلك الفترة العصيبة التى مرت بها أورشليم، أصبح ملك يهوذا على قناعة كاملة أن إحدى المستعمرات وهى مستعمرة قديمة وصغيرة، وتقع على الطريق من الأردن إلى أورشليم كانت تميل إلى ممالأة الأعداء ومحالفتهم ضده، وكان سواردانا أمير مستعمرة كيلتى وهى المستعمرة المعنية، يغير سياسته من ان لآخر حسب الاتجاه الذى تهب منه الرياح، ففى إحدى المناسبات كتب إلى ملك أورشليم أنه فى صفه ضد العصابات الغازية (سار - جاز) (٢٩). وفى مناسبة أخرى جاهر ملك أورشليم بالعداء واتهمه بأنه ينوى الاستيلاء على كيلتى:

وبدوره فقد كان متهماً من قبل ملك أورشليم بعدم الولاء للمصالح المصرية فى المنطقة.

وربما نجد أن كيلتى (٣٠) هى وادى كيلتى الموجود على الطريق من

أورشليم إلى أريحا. إن حملة يهوشافاط مسجلة باختصار فى سفر الملوك الأول:

سفر الملوك الأول ٢٢: ٤٦ «وبقية المأبونين الذين بقوا فى أيام آسا أبيه أبادهم من الأرض».

وكان بوادى كيلتى تيار غزير من الماء ينبع من الأرض ويجرى باتجاه البحر الميت، حيث كان يختبىء بين صخوره بعض الزهاد الناسكين، وهم آخر من بقى مقيماً بالوادى الذى تحول إلى بحيرة ميتة. لقد أظهروا عدم ولائهم فى وقت غزو قبائل الصحراء لملكة السامرا وقد كتب إليهم ملك أورشليم قائلا: اتبعونى ولكنهم. لم يستجيبوا. وهناك تفاصيل أخرى من الممكن العثور عليها فى المراسلات المتبادلة بين ملك أورشليم وسواردانا أمير كيلتى.

وربما يكون اسم أمير السدوميين دافعاً لعلماء أصول اللغات للبحث عن أصله العرقى.

الحصار الثانى للسامرا

وضرب ملك دمشق حصاراً جديداً على السامرا.

سفر الملوك الثانى ٦: ٢٤ «وكان بعد ذلك أن بن حدد ملك آرام جمع كل جيشه وصعد فحاصر السامرا».

وكتب ملك سومور .السامرا) ما يلى:

الرسالة ٩٢: «إنه (عبدى - عشيرتا) يتقدم الآن ضدنا» وأصبحت عبارة أن العداء ضد سومور أصبح على درجة كبيرة، عبارة مكرورة فى عديد من رسائل ملك تلك المدينة. وفى عدد آخر من الرسائل تتزايد شكواه من الجزع الذى يسود المدينة الموبوءة بالحصار والمجاعة، تلك المجاعة التى أصابت المدينة المحاصرة والتى ورد ذكرها فى سفر الملوك الثانى.

سفر الملوك الثانى ٦: ٢٥ «وكان جوع شديد فى السامرا وهم حاصروها حتى صار رأس الحمار بثمانين من الفضة وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة».

وأصبح سكان المدينة وحاميتها العسكرية يتساقطون متهالكين من

الجوع، ولكن ملك السامرا استمر فى الدفاع عنها باستماتة كما داوم على تفقد مناطق الأسوار الحصينة.

سفر الملوك الثانى ٦: ٢٦ «وبينما كان ملك إسرائيل جائزاً على السور صرخت امرأة إليه تقول: خَلص يا سيدى الملك» والحائط المذكور هنا هو حائط سور المدينة، وفى إحدى رسائل تل العمارنة كتب الملك عن المدينة قائلاً:

الرسالة ٨١: «لقد كانت سومورا وشعبها فيما سبق بمثابة الحصن والحامية لنا جميعاً».

وفى إحدى الزيارات التفقدية لحوائط الحصن علم الملك بحدوث واقعة أليمة فى المدينة المحاصرة، حيث تغلب الجوع على غريزة الأمومة ودفع إحدى الأمهات إلى أكل لحم ابنها، فشق الملك قميصه وخلعه عنه وارتدى رداء من الخيش (سفر الملوك الثانى ٦: ٢٩).

وأرسل ملك سومور (السامرا) الرسالة التالية إلى فرعون مصر.

الرسالة ٧٤: «هل يتفضل الملك بالإنصات إلى ما يقوله خادمه، ويهب الحياة (المؤن) إلى خادمه، فقد يبقى ذلك على خادمه حيا .. وعندها سأدافع عن مدينته المخلصة .. ألم تتعطفوا علينا بالرد من قبل».

«ما الذى يمكننى أن أفعله وحدى؟ ترون أننى ألح فى الطلب ليلاً ونهاراً»، هذا ما كتبه الملك الذى أقدم فى ساعات يأسه على ارتداء الخيش البالى. لقد كان أمله الوحيد ينحصر فى وصول مساعدات عاجلة من الخارج، ولكن الوقت كان يمر سريعاً، وبات من الواضح أنه لن تصله أية مساعدات.

الرسالة ٧٤: إذا لم يكن هناك أى إنسان بإمكانه أن يخلصنى من قبضة عدوى (عبدى – عشيرتا)، فإننا نحن الحكام سنطرد خارج البلاد، وكل البلاد ستنضم إلى ميلوت – جاز (قطاع الطرق) وحينها سيجد الملك إذا ما حاول القدوم إلى هنا أن كل البلاد قد تحولت إلى عداوته، وما الذى يمكن عمله إذا ما حدث ذلك؟ لقد تآمروا جميعاً ضد الملك، وأخشى أنه لا يوجد الآن من يقدر على إنقاذى من أيديهم.

وفى لهفته للحصول على المساعدات فى الوقت المناسب، فقد كتب أيضاً إلى أمان آبا (٣٢). وهو الشريف المصرى الذى كان ملك السامرا

(سومور) يكتب إليه «أنت تعلم موقفى، حين كنت تعيش هنا فى سومورا وأننى أنا الخادم المخلص»، كان ذلك هو ما أرسله الملك إلى المندوب السامى المصرى السابق على السامرا (سفر الملوك الأول ٢٢: ٢٦) ثم يتساءل فى رسالته إليه بما يلى:

الرسالة ٧٣: لماذا أحجمت ولم تتحدث إلى الملك الإله من أجل السماح لك بالمسير قدماً مع رماة الأسهم لتنقض على أرض عمورى؟ إنهم لو علموا فقط أن حاملى النبال قد شرعوا فى التقدم. فإنهم سيفرون تاركين خلفهم حتى ديارهم ومدنهم.

والفقرة الأخيرة ذات مغزى خاص عند مقارنتها بقصة نهاية الحصار الثانى للسامرا كما وردت فى سفر الملوك.

سفر الملوك الثانى ٧: ٦ - ٧ «فإن الرب اسمع جيش الآراميين صوت مركبات وصوت الخيل صوت جيش عظيم فقال الواحد لأخيه هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا فقاموا وهربوا فى العشاء تركوا خيامهم وخيلهم وحميرهم المحملة كما هى وهربوا لأجل نجاة أنفسهم».

ومن ذلك يتضح أن مخاوف السوريين أمام أسوار السامرا لم تكن بلا مبرر، لقد كان ملك إسرائيل يراسل فرعون مصر من أجل إرسال الرماة المصريين، وقد كان على يقين أنه بمجرد أن يشاع أن (الرماة المصريين قادمون) فإن السوريين سيتركون خيامهم ويولون الأدبار.

إن رسائل تل العمارنة وسفرى الملوك يقدمان سجلين يكمل أحدهما الآخر، لقد كانت المدينة تعانى من ويلات الحصار، ولكنها لم تستسلم ولم تهزم، وتفاصيل تلك القصة نجدها فى الإصحاحين السادس والسابع من سفر الملوك الثانى، وبالتوازى مع ذلك السجل، فإننا نتوقف أمام تلك الفقرة من إحدى رسائل ملك سومور (السامرا).

الرسالة ١٠٦: لقد كانوا قادرين على الضغط على المدينة (سومور) ولكنهم لم يكونوا قادرين على قهرها.

وحين كان ملك دمشق يجمع قواته وحلفاءه للقيام بتلك الحملة التى انتهت بفرارهم، كتب ملك دمشق إلى جنوده «تجمعوا فى دار نينيب» وقد يعنى ذلك أمراً للجنود بأن يكونوا حلفاء لملك آشور.

وبعد أن فر ملك دمشق من أمام أسوار السامرا وعاد إلى بلاده بعد حملة غير موفقة، كتب إلى فرعون مصر ما يلى:

الرسالة ٦٤: إلى ملكى وإلهى ... يقول لكم عبدى - عشتاراتى خادم الملك وأنا تحت قدمى ملكى وإلهى أركع سبع مرات وسبع مرات أخرى أمرغ صدرى وظهرى تحت أقدامه: ليعلم الملك أن العداء ضدى قد اشتد. وقد يسمح الملك إلهى بإرسال أحد رجاله الأقوياء لحمايتى.

نعمان قائد جيوش سوريا

كان قائد جيوش ملك دمشق يحمل اسم نعمان «وكان نعمان رئيس جيش ملك آرام رجلا عظيماً عند سيده مرفوع الوجه لأنه عن يده أعطى الرب خلاصاً لآرام. وكان الرجل جبار بأس أبرص (سفر الملوك الثانى ٥: ١).

إن الفصل الخامس من سفر الملوك الثانى يروى قصة شفاء ذلك القائد على يدى النبى إليشع من البرص الذى ألم به، ومن سياق القصة نعلم أن سوريا كانت تموج بموجات من العصابات المغيرة والمرتحلة من مكان لآخر (وتكرر ذلك فى رسائل تل العمارنة) وكانوا يقومون بالخطف وأسر من يقع بأيديهم من بنى إسرائيل، ومن ضمن من أسروا فتاة إسرائيلية أصبحت وصيفة فى منزل ذلك القائد، ونصحته الوصيفة أن يجرب العلاج لدى نبى فى السامرا، وحين بلغ ذلك الأمر مسامع ملك سوريا قال لنعمان «امض إليه، وسأبعث برسالة إلى ملك إسرائيل».

وحين تلقى ملك إسرائيل الرسالة شق ملابسه كمداً وغيظاً، وصرخ هل أنا الله لكى أميت وأحيى حتى أن هذا يرسل إلى أن أشفى رجلا من برصه فاعلموا وانظروا أنه إنما يتعرض لى.

واغتاظ النبى إليشع حين علم أن ملك إسرائيل قد شق ملابسه، أما بقية القصة وشفاء القائد نعمان على أيدى إليشع فهى قصة معروفة (٣٥).

فى الجزء الذى نقلناه من تلك القصة، تبدو لنا حقيقتان يحوطهما الغموض بشكل ما ... الأولى هى أن بن حدد ملك سوريا كان يرأس بنفسه إثنين وثلاثين قائداً لجيوشه (٣٦)، فكيف نجد فى قصة معجزة شفاء

نعمان أن خلاص سوريا وإنقاذها منسوب إلى القائد نعمان وحده والثانية أن ملك إسرائيل كان طوال حياته منافسا وندا لملك دمشق، فكيف إذا يبعث طلب ملك دمشق مثل إبراء القائد نعمان من مرضه كل هذا الفزع فى نفس ملك إسرائيل حتى أنه يشق ملابسه غيظاً وكمداً؟

ولتفسير الدور الحقيقى لذلك القائد نعمان فإننا لابد وأن نلقى نظرة على المراسلات المتبادلة فى تلك الفترة. إن رجلا كان خلاص سوريا على يديه لابد وأن يكون اسمه مذكوراً فى تلك الرسائل .. وسنتعرف عليه ولكن تحت اسم أيان حاما، ويسمى أيضاً أيان حامو.

كان إيان حاما هو مندوب فرعون مصر على سوريا وكان مرسلاً إلى ملك دمشق بصلاحيات مماثلة لتلك التى كانت لامان - أبا حيث كان مندوباً للفرعون لدى ملك السامرا. ونجد أن لقب نعمان فى الكتاب المقدس الذى يسبق اسمه (سار) مستخدم أيضاً فى المراسلات. لقد كان نعمان هو المندوب السامى لملك مصر ومسئولا عن القلاع والمدن الحصينة فى أرض عمورو (سوريا) كما أصبح بعد ذلك المراقب والمتصرف على كل مخازن الحبوب. وكان له نفوذ عظيم فى كل ما يتعلق بأمور الإدارة السورية للحكم.

وبالرجوع إلى اسمه، نجد أنه من أصل سورى، مثل عدد آخر من أهل الحظوة وذوى المكانة فى بلاط طيبة (٣٧). إن إيان حاما اسم سامى «وكان عيان حامو مندوباً قوياً لمصر لدى سوريا، وكان يلقى احتراماً وإجلالا يليق برجل فاضل حكيم، وهناك فى سوريا برهن على كونه من أخلص خدم الفرعون (٣٨). لقد صاح خادم إليشع هوذا سيدى قد امتنع عن أن يأخذ من يد نعمان الآرامى هذا ما أحضره»، وحين شفى نعمان طلب من إليشع «أن يعطى لعبدك حمل بغلين من التراب لأنه لا يقرب بعد عبدك محرقة ولا ذبيحة لآلهة أخرى بل للرب، عن هذا الأمر يصفح الرب لعبدك، عند دخول سيدى إلى بيت رمون يسجد هناك ويستند على يدى فأسجد فى بيت رمون فعند سجودى فى بيت رمون يصفح الرب لعبدك عن هذا الأمر».

وهناك يبدو أن الإله رمون هو الإله رع - آمون كبير آلهة المصريين، كان سيد إيان - حاما هو الملك أمينوحتب الثالث، ومن بعده أخناتون، ويبدو أن إيان - حاما. كما يظهر من نصوص الرسائل كان هو الحامى

والمعاون لملك دمشق فى ارتقائه سلم القوة، وكان إيان - حاما ينتقل بالتناوب ما بين سوريا ومصر كما يتضح من الرسائل، إذ كان يتبنى سياسة إقامة علاقات متوازنة فى سوريا على ضوء حتمية تأمين وضع دمشق فى الكتلة السورية ضد ملك الحيثيين.

ولذلك فقد ذكر فى سفر الملوك الثانى عن نعمان أنه كان رجلاً عظيماً هو وسيده، جديران بالإجلال، وبسببهما وهب الرب الحرية والخلاص لسوريا.

وفى الرسائل المتتابعة لملك سومور (السامرا) تبدو بوضوح خشيته الشديدة من نائب الفرعون القوى.

وفى إحدى رسائله نجده يكتب إلى الفرعون قائلاً يجب أن تنقذنى من سطوة إيان - حامو (٣٩).

كما طلب من الفرعون أن يبلغ نائبه عن مسئوليته تجاه ملك سومور «قل لإيان حامو إن رب - عدى ذاته فى متناول يدك، وإن كان ما يقع له يتوقف على مشيئتك» (٤٠).

ومر زمن بعد أن غادر آمان - ابا السامرا ليموت بأرض مصر (٤١)، ليكتب بعدها ملك السامرا إلى فرعون مصر طالباً منه تعيين آيان حاما مندوباً مصرياً فى السامرا، أرسل إلى فرعون مصر قائلا «قد يبدو من الملائم فى عينى أن يرسل أيان حاما مندوباً له على السامرا، لقد سمعت من شعبى عن حكمته وعلمت أنه محبوب من كل أفراد الشعب» (٤٢)، وهنا تقفز إلى الذاكرة مرة أخرى ما ذكرته عنه التوراة من أنه كان رجلا جليلاً وحكيماً.

ترى ما الذى حدث وجعل ملك السامرا الذى كان يخشى ايان حاما وطلب فى إحدى رسائله أن ينقذه الفرعون من قبضته، يبدل من رأيه بعد ذلك ويوصى بنفس الرجل كنائب للفرعون على السامرا؟ ونجده يكرر طلبه فى رسالة أخرى إلى فرعون مصر وفى رسالة ثالثة يكيل له المديح: لا يوجد خادم لكم فى اخلاص آيان - حاما، إنه من أخلص خدمكم الأوفياء (٤٣).

كما كتب آيان حاما إلى ملك السامرا من مصر قائلا «اذهب واحتل سومور حتى ألحق بك .. ادخلها ولا تخف» (٤٤)، وكتب إليه ملك سومور

(السامرا) آملاً أن الفرعون سيعينه مندوباً على السامرا «عجل وصولك إلينا بأسرع ما فى جهدك وشرح له أنه لم يستطع أن يدخل السامرا بسبب عداء شعب آمبى له».

والخطابات لا تظهر كيف تبدل خوف ملك السامرا وتحول إلى ثقة شديدة فى مندوب فرعون السابق على سوريا.

إن التوراة تقدم تفسيراً لذلك فى قصة شفاء نعمان على يدى نبى السامرا إليشع من البرص الذى ألم به، فقد غمر الامتنان نعمان للنبى وللك السامرا بعدما قدم إليه حاملاً رسالة من ملك دمشق.

سفر الملوك الثانى ٥: ١٥ فرجع إلى رجل الله هو وكل جيشه ودخل ووقف أمامه وقال هوذا قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل. إما النبى إليشع فقد أعلن حين ذلك أنه سيشفى نعمان من أجل معاونة ملك إسرائيل سياسياً.

وهكذا تحول نعمان إلى صديق، وحين قتل ملك دمشق كما سيأتى ذكر ذلك فى الصفحات التالية، كان ايان حاما (نعمان) فى مصر، ولم يزل ملك سوريا الجديد لدى الفرعون وداوم على مراسلة ملك السامرا مفضلا إياه على من عداه.

هناك بعض الملامح الأخرى عن شخصية ايان حاما ودوره تنعكس على صفحات رسائل تل العمارنة كما يبرزها النص التوراتى منها أنه سخى اليد وتتضح تلك الصفة من خلال قصة شفائه: لقد وهب خادم النبى وزنتين من الفضة وطاقمين من الملابس الثمينة وكان ذلك يفوق كثيراً ما طلبه الخادم بعد أن رفض النبى قبول عشرة أوزان من الفضة وستة آلاف قطعة ذهبية وعشرة أطقم من الثياب.

ومما يلفت النظر أن نعرف أيضاً من الرسائل أن آيان حاما كان المسئول عن أموال وخزائن الفرعون فى سوريا أى أنه كان أمين «المالية والملابس» (٤٥).

لقد كان الدفع بخليط من الأموال والملابس من العادات الشائعة فى ذلك الوقت. وفى إحدى الرسائل كتب ملك سومور أنه دفع «ثلاث عشرة» قطعة من الفضة ورداءين لأحد أفراد الشعب ليؤدى له عملاً ما (٤٦).

وطبقاً للتوراة نجد إن آيان حاما (نعمان) حين كان مندوباً للفرعون

على سوريا كان لديه فتاة إسرائيلية كانت قد خطفتها العصابات السورية، واستقر بها الأمر كوصيفة لزوجة آيان حاما (٤٧) وفى رسالة مبكرة من ملك سومور (السامرا) إلى فرعون مصر نجد أنه يشتكى من وجود إثنين من شعبه يعملان كخدم فى منزل آيان حاما بعد أن اختطفا من أرض إسرائيل (٤٨).

وتتحدث رسائل تل العمارنة عن آيان حاما أيضاً كنصير كريم لشباب فلسطين الذين كانوا يتعلمون فى مصر على نفقته (٤٩) إن الرجل الذى وهب الرب سوريا حريتها على يديه والرجل الذى كان يخشاه ملك السامرا هو آيان حاما (٥٠) أما كيفية تغيير ذلك القائد لموقعه ليصبح مؤيداً ونصيراً لملك السامرا فنجده مسجلاً فى رسائل تل العمارنة كما نجده مفسراً فى نصوص التوراة.

رسالة السيدة العظيمة من شونيم

كان هناك نوع آخر من الرسائل هى رسائل المعلومات التى كانت ترد إلى فرعون مصر من سيدة تدعى بعلات نيز. وهناك رسالتان من رسائلها مازالتا بحالة جيدة، فمن كانت تلك المرأة التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فى فلسطين، والتى كانت ذات منزلة خاصة تسمح لها بالكتابة إلى حاكم مصر مباشرة؟ لقد كانت هى المرأة الوحيدة من بين كل أصحاب رسائل تل العمارنة.

فى رسالتها الأولى (٥١)، نجدها تخبر الفرعون أن المتمردين الناهبين (سا - جاز) قد أرسلوا بعضاً من عصاباتهم إلى عجالينو (عجالون) كما كتبت عن إثنين من أبناء ميلكيلى لهم علاقة بالغارة التى كانت تهدد مدينتها ومسقط رأسها .. ولم ينقشع الخطر الذى يهدد مدينتها كما كانت تأمل حيث نجدها تكتب إلى الفرعون مرة أخرى قائلة:

الرسالة ٢٧٤: هذا ما ترفعه إلى مسامعكم بعلات نيز، خادمتكم وتراب أقدامكم الذى تخطون عليه .. فليعمل ملكى وإلهى على خلاص أرضه من أيدى أبناء عصابات ميش، قبل أن يأتوا عليها ويدمروها.

كما أخبرت الفرعون عن تقدم الغزاة نحو مدن بلادها، وأن مدينة أخرى

قد سقطت بأيديهم «وكما ترون فإن هذا خاص بمسامع ملكى وإلهى».

وفى الرسالة ٢٥٠ وهى من مراسل آخر ومكان مختلف نقرأ أن ميلكيلى قد أتخذت موقفاً ضد شيوناما وبوركونا ولو وضعنا الفقرة السابقة مقابل ما ذكرته السيدة مراسلة فرعون من أن عصابات ميلكيلى تهدد مدينتها، فإنه يصبح من الواضح أن مدينتها إما أن تكون شيوناما أو بوركونا.

إن لم يكن هذا الاستنتاج البسيط خاطئا على نحو ما، فإننا لن نجد فقط أن التى من شيوناما أو بوركونا هى واحدة من أصحاب رسائل تل العمارنة، ولكننا سنجد أيضاً أنها قد جاء ذكرها فى إحدى صفحات التوراة ويبدأ ذكرها كما يلى:

سفر الملوك الثانى ٤: ٨ وفى ذات يوم عبر إليشع إلى شونيم وكانت هناك امرأة عظيمة فأمسكته ليأكل خبزاً وكان كلما عبر يميل إلى هناك ليأكل خبزاً.

وبلا شك فإن شونيم هى شيوناما وإن حاولنا إفتراض أنه كانت هناك امرأة عظيمة أخرى فى نفس العصر ونفس المدينة فإنه يكون إفتراضاً مبنياً على تخمين مضلل.

إن اسم المرأة العظيمة بعلات نيز قد يترجم المرأة التى وقعت فى بيتها المعجزة (بعلات - نيز) (٥٢) إن قصة إليشع الذى نفخ أنفاس الحياة فى صدر الصبى بعد موته وهو ابن لسيدة من شونيم لابد أنها كانت موضوع الحديث المفضل فى كل قاعات القصور فى ذلك العصر، كما سمح ملك إسرائيل لخادم إليشع أن يروى تلك القصة فى بلاطه (سفر الملوك).

الثانى ٨: ٤: ومن السهل تخيل كيف وصل صيت تلك المرأة إلى بلاط القصر الملكى فى مصر كامرأة وقعت فى بيتها معجزة.

وتعاظمت منزلتها وذاع صيتها مع سرعة انتشار القصة بين الناس كسيدة بعث ابنها من جديد بعد موته.

إن وجود تلك المرأة العظيمة والتى تحمل اسم (بعلات - نيز) فى مدينة شونيم (شيوناما) فى وقت المجاعة الكبرى وتمرد ميشه (ميشع) يلقى ضوءاً جانبياً على أعمال رجل المعجزات شافى الأمراض، الرجل المقدس إليشع، الذى ما زال عطر الذكر فى التراث الشعبى.

ملك دمشق يتآمر على حياة ملك السامرا

وبسبب المجاعة، وغياب سياسة ثابتة فى التعامل مع حكام سوريا التابعين للحكم المصرى مع غياب مندوبى فرعون مصر المتكرر والطويل عن الساحة السورية، كل ذلك أدى إلى دخول المنطقة فى كثير من الاضطرابات وعدم الاستقرار والقلاقل المتكررة، وأرسل ملك سومور (السامرا) محذراً فرعون مصر قائلاً:

الرسالة ٧٥: «لقد قام المرتزقة بقتل عديونا ملك أرقاطة، ولم يكن هناك من يرفع أصبعاً فى وجه عبدى - عشيرتا مع ما تعرفه عنه. كما قام شعب أمى بقتل أميرهم .. لكل ذلك أشعر بالخوف».

لقد كان خائفاً ولكن لم يكن خوفه دون سبب، فقد كان هو ذاته الضحية التالية وكان أمر اغتياله قد تم تدبيره فى كمين يعد له.

سفر الملوك الثانى - ٦: ٨ «وأما ملك آرام فكان يحارب إسرائيل مع عبيده قائلاً فى المكان الفلانى تكون محلتى» وما يقابل الفقرة السابقة من التوراة نجده أيضاً على أحد ألواح تل العمارنة فى رسالة من رسائل ملك سومور إلى فرعون مصر، وإلى أمان ... أبا نائبه السابق على إسرائيل.

الرسالة ٨١: فجاءنى أحد الأغراب وخنجره مشرع فى يده وهو يهم بطعنى ... ولكننى تمكنت من قتله ... وقد كان وراء تلك المؤامرة عبدى عشيرتا وهو الذى دبر تلك المحاولة لقتلى .. وكما ترون فإنى مازلت حبيساً داخل مدينتى ولا أستطيع حتى مغادرة أبوابها .. ولقد جُرحت تسع مرات فى محاولات سابقة لاغتيالى .. ولذا فأنا أخشى أن تنجح المحاولة القادمة.

والرسالة تبرز الخوف والهلع الذى استطاع ملك دمشق أن يبثه فى نفس ملك السامرا (سومور) وهو بمسكنه فى جزريل (جوبلا) وذلك بتدبير الكمائن فى المواقع التى من المفترض أن يتواجد بها خصمه، ومرة أخرى يكتب ملك سومور:

الرسالة ٨٨: «إنه (عبدى - عشيرتا ملك دمشق) يتحين الفرص ويتسلل حول جميع منافذ جوبلا: إننا لا نستطيع الخروج من أى باب» وكتب

جوزيفوس فلافيوس الذى سجل القصة بعد أن سجلت فى التوراة، المحاولات السورية لقتل ملك إسرائيل (٥٣) يقول جوزيفوس كان هناك بعض السوريين يقبعون متحينين الفرص السانحة لقتله (٥٤) ولم يجرؤ الملك على الظهور خارج المدينة، ولكن ادادوس (بن - حدد) لم ينجح فى تحقيق غايته و «لذلك قرر أن يقابله علانية».

وكان بستان إيزابيل (جوبلا) بمثابة الموضع المثالى لاختفاء عصابات ملك دمشق، والبستان مذكور فى التوراة، «وعمل آخاب بستاناً» (سفر الملوك الأول ١٦: ٣٣).

وكانت الحديقة فى بستان الكرم فى نابوث جزءاً من البستان ومن المحتمل أنه بسبب ندرة المياة خلال عدة أعوام متتالية جف البستان وزوت أشجاره وبسبب خشيته على حياته قرر الملك أن يقطع أشجار البستان وكتب إلى فرعون مصر قائلاً:

الرسالة ٩١: «إنه (عبدى - عشيرتا) يتطلع إلى الاستيلاء على جوبلا، وقد قمت بقطع أشجار البستان» وربما يفسر ذلك لماذا أطلق على بستان الكرم فى نابوث - الذى قام آخاب وزوجته إيزابيل بزراعته كحديقة للقصر - أطلق عليه الحقل فى النهاية المأساوية لنابوث التى حدثت بعد ذلك (سفر الملوك الثانى ٩: ٣٧).

مصرع ملك دمشق وهو على فراش المرض

بعد أعوام من حصارات ومعارك متتالية جاء اليوم الذى أصيب فيه خصم ملك السامرا بمرض خطير.

سفر الملوك الثانى ٨: ٧ - ٩ «وجاء إليشع إلى دمشق وكان بنهدد ملك آرام مريضاً فأخبر وقيل له قد جاء رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل خذ بيدك هدية واذهب لاستقبال رجل الله وأسأل الرب به قائلا هل أشفى من مرضى هذا فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هدية بيده ومن كل خيرات دمشق حمل أربعين جملا وجاء ووقف أمامه وقال إن ابنك بنهدد ملك آرام قد أرسلنى إليك قائلا هل أشفى من مرضى هذا».

ولقد تكرر التساؤل إن كان ملك دمشق سيشفى من مرضه أم لا فى

رسالة من ملك سومور (السامرا) إلى أحد القواد فى مصر.

الرسالة ٩٥: «إن عبدى - عشيرتا مريض جداً، ولا يدرى أحد إن كان سيموت أم يحيا».

لقد مات فعلا على فراش مرضه، ولكن ليس بسبب المرض فقد قتل وقد أرسل رجل من جوبلا تقريراً إلى فرعون مصر يقول فيه:

الرسالة ١٠١: «لقد قتلوا فعلا عبدى - عشيرتا، الذى وضعه الملك (الفرعون) زعيماً لهم».

وهناك تفاصيل أخرى مسجلة فى المصادر العبرية حول هذا الأمر، ذكر فيها حزائيل بالاسم كقاتل لملك دمشق.

سفر الملوك الثانى ٨: ١٥ «وفى الغد أخذ اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهه ومات، وملك حزائيل عوضاً عنه».

وكلا المصدرين يتفقان على أن بنهدد (عبدى - عشيرتا) كان قد مرض مرضاً شديداً، ولكنه لم يمت بسبب مرضه، بل اغتيل.

وتمدنا رسائل تل العمارنة بالمزيد من المعلومات. كان حزائيل (عزيرو - عازارو) أبناً لبن - حدد: «كان عزيرو بن عبدى - عشيرتا مع إخوته فى دومشقا» (٥٦) والمعلومة السابقة لم تضف جديداً بالطبع إلا أننا نجد المزيد فى مصادر أخرى، فقد كتب نيقولا الدمشقى وهو مؤرخ عاش فى القرن الأول قبل الميلاد قائلاً:

«بعد موت عدد (حدد) حكم نسله من بعده لعشرة أجيال وحكم كل منهم حاملاً نفس الاسم ونفس التاج» (٥٧). وقد قيل بعد ذلك إن نيقولا الدمشقى قد أخطأ (٥٨). ولكن الوثائق الثابتة تثبت أنه لم يكن مخطئاً فى ذلك. ولقد ذكر فى التوراة أن حزائيل «عاد إلى سيده» فى دمشق بعد أن زار أليشع. أما مخاطبته أباه الملك بـ «مولاى» فلم تكن إلا تمشياً مع العادات والمفردات اللغوية لذلك العصر (٥٩).

لم يكن حزائيل هو الوريث الشرعى لعرش دمشق، ومثل اخاب الذى كان له زوجة تحمل اسم الملكة بالإضافة إلى العديد من الزوجات الأخريات وسبعون من الأبناء من تلك الزوجات فى السامرا، من المحتمل أن بن حدد كان له أيضاً العديد من الأبناء. ومن نقش يعود تاريخه إلى الملك شالما نصر نستدل على أن حزائيل لم يكن ابناً شرعياً وإنما كان ابنا لإحدى

المعطيات، يقول النص استولى على العرش حزائيل الابن غير الشرعى» (٦٠). ونجد أنه فى رسائل تل العمارنة دائماً ما كان يطلق عليه القاب مثل العبد والخادم.

ولكن إن كانت قصة ميناندر عن عبد عشتارت حفيد حيرام هى قصة عبدى - عشيرتا أو عبدو - عشتارتى (٦١)، فإن بن - حدد المذكور فى التوراة كملك لدمشق يكون قد قتل على أيدى أبناء مرضعته، وقد كان من المعتاد أن يعيش أبناء المرضعة الملكية معززين، وفى بعض الأحيان كانوا يدعون بأحقيتهم فى العرش (٦٢).

وكان عزيرو، ويسمى أيضاً عازارو (٦٣) (حزائيل أو عزيلوس كما سماه جوزيفوس) متلهفاً على اعتراف الفرعون ورضاه بعد إستيلائه على عرش عبدى - عشيرتا المقتول (بن - حدد). ولما لم يكن الاغتيال قد تم علانية، حاول حزائيل أن يتنصل من الجريمة وتبرئة نفسه، مدعياً أنه اتهم على أسس خاطئة باقتراف الجريمة، وكتب يقول «أنا لم أقترف الخطيئة. ولم أفعل ما يعد معادياً لملكى ومولاى. وأنتم، ملكى وإلهى، تعلمون من قاموا بارتكاب تلك الجريمة» (٦٤).

تدل الرسالة السابقة على أن أنباء الجريمة والاتهام كانت قد وصلت إلى العاصمة المصرية.

حزائيل «الكلب»، يحرق حصون إسرائيل

وأثبت حكم حزائيل (عزارو، عزيرو) أنه كان كارثة على مملكة إسرائيل، تفوق بمراحل كثيرة كل ما لاقته إسرائيل على يدى سلفه المغتال ملك دمشق، كانت المجاعة ما تزال تفتك بشعب السامرا أثناء حكم حزائيل كما كانت تفتك به فى عصر أبيه. وكانت السامرا فى حالة حصار مستمر تقريباً على أيدى قوى مختلفة دامت حوالى خمسة أعوام (٦٥). وكتب ملك سومور (السامرا) يقول:

الرسالة ١٢٥: «لقد طغى علينا عزيرو مرة أخرى، لقد استولى على مدنى، وأصبح الآن يطاردنى شخصياً، يا لأولئك الكلاب أبناء عبدى عشيرتا الذين يتبعون أهواءهم ويضرمون النيران فى مدن الملك». وقد

كان ذلك هو ما تنبأ به اليشع أمام أبواب دمشق، حين تنبأ لحزائيل أنه سيصبح ملكاً على دمشق.

سفر الملوك الثانى ٨: ١١ – ١٣ «فجعل نظره عليه وثبته حتى خجل فبكى رجل الله وقال حزائيل لماذا يبكى سيدى. فقال لأنى علمت ما ستفعله ببنى إسرائيل من الشر فإنك تطلق النار فى حصونهم وتقتل شبابهم بالسيف وتحطم أطفالهم وتشق حواملهم. فقال حزائيل ومن هو عبدك الكلب حتى يفعل هذا الأمر العظيم فقال إليشع قد أرانى الرب إياك ملكاً على آرام».

وكان تعبيره «ومن هو عبدك الكلب» الذى حفظته التوراة من الضياع بتسجيله كما جاء على لسانه نموذج آخر فى الحديث وأسلوب حزائيل كما جاء أيضاً فى رسائل تل العمارنة. وكان العديد من القادة والحكام يذيلون رسائلهم إلى الفرعون بتلك العبارة: «وهل يجرؤ خادمكم الكلب ألا يستمع إلى أوامر ملكه ومولاه ؟».

وكان عادة ما يشار إلى عزيرو (حزائيل) فى رسائل ملك سومور (السامرا) كما فى رسائل المراسلين الآخرين بصفة كلب وأحياناً لم يكن اسم عزيرو يذكر على الإطلاق ويشار إليه فقط بهذه الصفة وعلى سبيل المثال نجد فى الرسالة ١٠٨ «وبسبب الكلب» وكان الفرعون يدرك بسهولة من هو المقصود.

وهناك نموذج آخر لنمط حديث حزائيل موجود بالتوراة ومكرر بالرسائل فحين التقى بالنبى اليشع قال:

سفر الملوك الثانى ٨: ٩ «فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هدية بيده ومن كل خيرات دمشق حمل أربعين جملا وجاء ووقف أمامه وقال إن – ابنك بنهدد ملك آرام قد أرسلنى إليك قائلاً هل أشفى من مرضى هذا.

وفى رسالة منه إلى دودو بمصر كتب غديرو ما يلى:

الرسالة ١٥٨: «إلى دودو مولاى وأبى. يكتب إليك عزيرى ابنك وخادمك».

لقد كان يستخدم بكثرة تعبيرات مثل «ابنك» و «خادمك» فى رسائله كما فى حديثه ليظهر إجلاله لمحدثه. وفى الحوار الوحيد المذكور على لسان حزائيل فى التوراة والذى: اشتمل على ثلاثة جوانب فى مضمونه وهى

السؤال إن كان ملك دمشق سيشفى من مرضه أم لا، وأنه حزائيل سيصبح ملكاً، وأنه سيضرم النار فى مدن وحصون إسرائيل نجد أن نفس الجوانب الثلاثة مذكورة أيضاً فى رسائل تل العمارنة.

ويعد ذلك مثالاً «ثميناً وذا دلالة خاصة فى اثبات مصداقية التوراة فيما أوردته من حكايات».

ومن الملائم فى هذا الموضع أن نورد نص واحدة من رسائل عزيرو. (حزائيل) إلى ذلك الرجل القوى فى مصر والذى يدعى دودو، وسيظهر لنا النص كنه تلك القوة الخفية التى كانت تسيطر على مكتب إدارة المستعمرات المصرية والتى كانت تدعم عبدى - عشيرتا وابنه من بعده فى حملاتهم العسكرية المغامرة فى أرض سوريا وفلسطين.

الرسالة ١٥٨: «إلى دودو، مولاى أبى، هكذا يكتب إليك عزيرى، ابنك وخادمك: أنحنى تحت أقدام أبى متمنياً أن يكون على ما يرام .. تعلم أنك بمصر بمثابة الأب لى، ومهما كانت رغبات ديودو، أبى، أكتب إلى وسأقوم بتنفيذ كل ما تأمر به. تعلمون أنك أبى ومولاى، وأنى ابنكم، وكل أرض عمورى هى أرضكم وأن منزلى منزلكم، وأى رغبة تراها أكتب إلى عنها وتعلمون أنى لابد وأن أحقق رغبتكم. وتعلمون أنكم تقابلون مولاى الملك، وأن المعادين لى قد تحدثوا حديثاً مغرضاً عنى أمام مولاى الملك، ولكنك لم تصدق ذلك. وترون أنكم تجالسون مولاى الملك، وإن بإمكانكم تصحيح كل الأحاديث المحرفة ضدى، ولكن إن كان مولاى الملك لا يتقبلنى ويكن لى الكراهية فما الذى يمكننى قوله حينئذ ؟».

بعد قراءة تلك الرسالة من ذا الذى يستطيع أن يؤكد إن كانت رسائل ملك سومور (السامرا) قد علم بها الملك اخناتون مجرد علم؟ كان ملك السامرا ينتظر ويشكو من عدم تلقيه أى رد على العديد من رسائله، وأنها لم تحظ بأية عناية من الفرعون ولا باستجابته.

إن ديودو هذا، والذى ما زالت مقبرته موجودة حتى اليوم مع آخرين من حاشية اخناتون بمدينة آخيت - آتون (تل العمارنة حالياً). من المظنون أنه من أصل سامى، وتكريماً له على جهوده فى خدمة الملك خصه الملك ببعض الأتباع من الآسيويين، (يبدو ذلك واضحاً على نقوش جدار مقبرته) (٦٦).

وكان أولئك الأسيويون من سوريا: إن اسم ديودو اسم سامى يعود أصله إلى ملوك فلسطين كما نجده مذكوراً فى التوراة أيضاً باسم دودو (سفر صموئيل الثانى ٢٣: ٩، ٢٤).

ومن الممكن إدراك أن ديودو هذا من نسل حدد الأيدومى، والذى كان من المناوئين لسليمان، والذى تزوج إحدى أميرات قصر الفرعون المصرى (سفر الملوك الأول ١١: ١٩).

كان ديودو، كبير حجاب الفرعون و «المسئول الأول عن شئون المستعمرات» كما وصف نفسه فى نقش على جدار قاعة الدفن فى مقبرته، وقد سهل ذلك كل الأمور على عزيرو (حزائيل)، ولذلك فإن بعض ألواح رسائل ملك سومور (السامرا) كان عليها أن تنتظر سبعة وعشرين قرناً دون أن تلقى عناية أحد، ولا حتى من أرسلت إليه.

وحين وجد كاتب الرسائل أنه وصل إلى حالة من اليأس، أدرك أن رسائله لا تبلغ مسامع الفرعون، وزادت خشيته أنه ربما كان ماضياً فى نوع من مناجاة النفس بلا مجيب، فاختتم إحدى رسائله برجاء مر:

الرسالة ١٢٢: وإننى فى وحدتى أدافع عن حقوقى ... فماذا على أن أفعل؟ اسمعنى وأرجو ألا ترفض ... هناك أناس فى حاشية الملك، أليس كذلك؟ استمع إلى .. ترون أنى كتبت إلى القصر ورغم ذلك لم يصغ إلى أحد.

وتحققت كلمة اليشع التى أخبر بها حزائيل من ارتقائه عرش دمشق وحروبه ضد إسرائيل بعد ذلك.

لقد طغى حزائيل (عزيرو) على إسرائيل أكثر مما فعل بن - حدد (عبدى - عشيرتا) ووصلت رسالة أخرى إلى الفرعون من قصر جوبلا (جزريل).

الرسالة ١٢٧: حين سار عبدى - عشراتو بحملة (عبدى - عشيرتا) ضدى كنت قويا حينذاك، ولكنك ترى الآن أن شعبى قد تحطم.

وفى سلسلة متعاقبة من الهجمات دفع حزائيل السكان إلى النزوح من بلادهم وهجر ديارهم.

الرسالة ١٠٩: «ولكن مما لاشك فيه، أن أبناء عبدى - عشيرتا، العبد الكلب استولوا على مدن الملك وعلى مدن نوابه، بالطريقة التى تروق لهم .. وتحت وطأة تلك الأحوال فإن قلبى يحترق .. إنهم يبذلون كل طاقتهم فى

الإجرام وإنتهاك الحرمات».

ونجد أن إنتهاك حزائيل للحرمات مذكور فى التوراة أيضاً، ولم يكتف بقتل الرجال، ولكنه مزق أطفالهم وبقر بطون الحوامل من النساء. (سفر الملوك الثانى ٨: ١٢).

ووصلت إلى الفرعون رسالة أخرى من جوبلا:

الرسالة ١٢٤: «لقد استولى عزيرو على كل مدنى، وأصبحت جوبلا المعزولة هى كل ما بقى لى .. وأعلموا أن جنوده أصبحوا على مشارف جوبلا .. فلو استولى عليها، فإلى أين أذهب ؟».

ودام طغيان عزيرو (حزائيل) عدة أعوام، وكانت آخر رسائل تل العمارنة.

آخر رسائل آخاب

كتب آخاب إلى فرعون مصر قائلا: «إن شعب جوبلا وأهل بيتى وزوجتى يقولون لى: اتبع ابن عبدى - عشيرتا حتى نصل إلى سلام بيننا وبينه، ولكننى رفضت» (٦٨).

كان ذلك ما كتبه الملك «الذى أصيبت زوجته إيزابيل بالفزع والخوف» (سفر الملوك الأول ٢١: ٢٥). وقابل احتجاج السكان بالانتقام منهم «وقالوا له: إلى متى ستمضى فى قتلنا؟ ومن أين ستجد أناساً يعيشون فى المدينة ؟».

وقال «حين أصابنى اليأس اتخذت من قلبى قراراً» (٦٩)، وذهب إلى بيروت ليقوى صداقته بملك تلك المدينة، وليعد لنفسه مكاناً فى المهجر فى حال قيام حزيرو (حزائيل بطرده من مدينته).

كان ملك السامرا زوجاً لابنة ملك صيدا (سفر الملوك الأول ١٦: ٣١)، وربما كان ملك بيروت أيضاً يمت بصلة قرابة إلى تلك العائلة. وحين غادر آخاب مدينته أغلقت الأبواب من خلفه. ومن مهجره كتب إلى الفرعون متشكياً. وذكر الفرعون أنه قد قام بذبح معارضيه، ولم تكن المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك: ونفس ما ذكره فى رسالته موجود أيضاً بالتوراة فى قصة حكمه بالاعدام على كل من انتمى إلى فريق يهو المعارض (سفر

الملوك الأول ١٨: ٣) لقد كان يخشى من استسلام شعبه لعدوه، وقد عبر عن ذلك مراراً فى رسائله المبكرة كما عبر عنه فى رسائله الأخيرة، كان يذكر فى رسائله: «أخشى أن يقوم القرويون بقتلى»، و «أنا أخشى القرويين»، و «سيتمرد القرويون» (٧٠).

لقد كتب وهو يخشى من تحقق لعنة إيليا التى تنبأ بها فى حقل نابوث حين قال «فى المكان الذى لعقت فيه الكلاب دماء نابوث، ستلعق الكلاب دمك أنت وخاصتك» .. كما كتب وفى مخيلته لعنة إيليا قائلا للفرعون:

الرسالة ١٣٨: «أرأيت، أن شعب جوبلا كتب إلى عبارات معادية يقولون فيها: أوف بالدم المراق».

إن تفاصيل قصة نفيه إلى بيروت ومن بعدها إلى صيدا (٧١) فى بيت أهل جيزيبيل زوجته لما يزيد عن عام غير مذكورة بالتوراة، وكان غيابه هو ما ساعد على انتشار الشائعات أنه قد مات. لقد تساءلوا هل مات مولانا حقا ؟، وقالوا: «رب - عدى قد مات، وزال نفوذه عنا» (٧٢). وكان الاعتقاد بأن الملك قد مات سبباً فى الاضطراب والفوضى فى رصد الأحداث لمن قاموا بنقل أسفار أخبار الأيام، وربما كان ذلك أيضاً واحداً من الأسباب لعديد من التناقضات الزمنية لتسلسل الأمر فى مختلف نسخ التوراة.

وبهذا انتهت رسائل رب - عدى، أو آخاب التوراة.

لقد طلب «وهو رجل كهل» وليس لديه أدنى أمل فى استجابة عاهل مصر، - طلب - إن كان الفرعون يسمح له اتخاذ «بريزوليم» مقراً له (٧٣).

فهل كان يعنى أورشليم؟ وهل كانت كتابته تظهر جهلاً بالأسماء كما يبدو فى العديد من رسائل تل العمارنة، حيث تبدو أسماء المدن والأشخاص وكأنها تنطق بلا قواعد محددة؟ أم أن الأمر يعود إلى حرف الباء الذى يسبق اسم المكان فى اللغة العبرية، والذى ظل متصلا باسم المدينة المكتوب بالمسمارية؟

كان يهوشافاط قد مات قبل ذلك بفترة غير بعيدة، ومن الواضح أن فرعون مصر قد وضع من بعده ابنه يهورام على عرش مملكة إسرائيل وقد كان ابناً ليهوشافاط وزوجاً لابنة آخاب، ويبدو أن يهورام كان قد آل على نفسه أن يستعيد الحكم فى المملكة الشمالية أيضاً، بعد أن وضع ابنه الشاب آخازيا على عرش أورشليم (٧٤).

وذيلت آخر رسالة من رب - عدى إلى فرعون مصر بتذكيره بأبنائه: «حين أموت، فإن أبنائى - خدم الملك - سيحيون من بعدى، وسيكتبون إلى الملك راجين - أعدنا إلى مدينتنا». وقاد الثورة التى طال كبتها حزب يهوه. وانفجر التآمر فى صفوف الجيش بين من كانوا يعادون حزائيل، وضربت الانتفاضة أول ما ضربت جيزريل. لقد انقض يهوه على جيزريل وقتل يهورام، الذى كان جريحاً بعد معركة ضد السوريين، كما قتل ابنه اخازيا الذى كان قد آتى من أورشليم لزيارته، أما إيزابيل فقد ألقى بها من النافذة، ووطأتها خيول يهو، ثم مزقت الكلاب لحمها فى حقل نابوث، ولم تترك منها ما يصلح للدفن إلا رأسها فقط وقدميها وكفيها. أما السبعون ابنا لآخاب الذين كانوا يقطنون السامرا فقد لاقوا حتفهم جميعاً، وحملت رؤوسهم فى سلال إلى جيزريل (سفر الملوك الثانى ٧: ١٠).

وكتب ملك بيروت إلى فرعون مصر يخبره أن أبناء ملك جوبلا وسومور (الرسالة ١٤٢) قد سلمهم أخاه إلى الثائرين. ومن التوراة نعلم أن يهوه قد قام بقتل كل عشيرة اخاب فى السامرا وجيزريل.

«وقتل ياهو كل الذين بقوا لبيت اخاب فى يزرعيل (جيزريل) وكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارداً» (سفر الملوك الثانى ١٠: ١١).

لقد كشفت الستة والخمسون رسالة من رب - عدى ملك سومور وجوبلا (السامرا وجيزريبيل - جيزريل) إلى فرعون مصر، أمينوحتب الثالث، واخناتون من بعده، وإلى المندوب الفرعونى السابق أمان - أبا، كشفت تلك الرسائل - عن الطبيعة الإنسانية لكاتبها، لقد كان ذا قلب ملئ بالهموم والشجن ويغلب عليه الحزن والقلق، ولا يوجد سطر واحد من رسائله يشى بفرح أو مرح. ومن حقه أن نذكر أن أحداث عصره وبلاده كانت تبرر تلك الحالة التى كان عليها. ولم نجد أن أيا من معاصريه من أصحاب مجموعة رسائل تل العمارنة قد كتبوا رسائل تشى بالهلع مثل رسائله.

«ماذا أفعل بمفردى ؟؟ تعلمون أنى أتساءل نهاراً وليلا» وطبع شعبه بطابع الكآبة الذى كان عليه.

سفر الملوك الأول ٢١: ٤ «فدخل آخاب بيته مكتئبا مغموماً».

سفر الملوك الأول ٢١: ٢٧ «ولما سمع اخاب هذا الكلام شق ثيابه».

سفر الملوك الأول ٢٠: ٤٣ «فمضى ملك إسرائيل إلى بيته مكتئباً مغموماً وجاء إلى السامرا».

وأدانت التوراة وثنية آخاب صاحب الحماس الدينى.

سفر الملوك الأول ١٦: ٣٠ «وعمل آخاب بن عمرى الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله».

كما أدان التراث الحبرى آخاب على وثنيته وعلى إعدامه أنبياء يهوه، ولكن ذلك التراث لم يستطع أن يتجاهل وطنيته المفرطة ولا العواطف العميقة الجياشة لروح قلقه.

«فى يوم العدالة فى السماء، وحين يأتى آخاب للحساب، سيتوازن شهود اتهامه مع الشهود المدافعين عنه فى العدد والشهادة، حتى تصل روح نابوث صاحب الحقل فتميل كفة الميزان ضد آخاب» (٧٥).

إن الدراسة الدقيقة لتلك الفترة قد تخلق انطباعاً زائفاً أن بن - حدد ومن بعده حزائيل كانا العدّوين الوحيدين فى التاريخ اليهودى الطويل، ومع أنهما لم يكونا إلا خسيسين من الذين كان يعج بهم أى جيل .. وبالرغم من ذلك فقد تحولا إلى بطلين قوميين فى التاريخ السورى. ومن الحقائق أيضاً أنه فى عصر جوزيفوس فلافيوس أى بعد العصر الذى نتناوله بتسعمائة عام، كان السوريون يحتفلون بذكرى هذين الملكين كمؤسسين عظيمين للدولة، وغازيين كبيرين وشخصيتين جديرتين بالإجلال، وكان شعب دمشق يتعلق باعتزاز بذكرى هذين البطلين القوميين اللذين وصلا إلى درجة القداسة.

وبعد أن انتهى جوزيفوس من وصف عملية الاغتيال سجل ما يلى «كان عدادوس (بن حدد) وعزيلوس (عزيرو) الذى حكم من بعده من المكرمين حتى هذه الأيام (عصر جوزيفوس) وكانا يكرمان كآلهة لما أدياه ولبنائهما المعابد التى زينا بها مدينة دمشق وكانوا (السوريون وشعب دمشق) يقومون بمسيرات يومية لتكريم الملكين وعظمة التاريخ الذى صنعاه ... » (٧٦). كان عرب دمشق يحتفلون بذكرى بن - حدد وابنه القاتل. أما عدوهم اخاب فقد ساء ذكره فى ذاكرة شعبه بوصفه الخاطئ الأكبر فى إسرائيل.

إن التركيز الذى أبديناه على الحقائق التاريخية، بل حتى على أحداث صغيرة أخرى فى الفترة التى يتناولها هذا الفصل، يعود إلى رسائل تل العمارنة، ذلك الكنز العظيم من المعرفة، التى كتبت فى تلك الفترة، والتى زودتنا بمادة غنية بالأحداث المقارنة.

ومن وجهة نظر قصاصى التوراة، فإن أهمية تلك الفترة قد ازدادت كثيراً، حيث إن الرسائل تتعلق بفترة كانت ضبابية ومحجوبة عن الأنظار، وهى فترة إيليا وإليشع.

هوامش الفصل السابع

1. The Blue Nile is fed by tropical rains that fall in Ethiopia, and by melted snow from its mountains.
2. Letter 7.
3. Ginzberg, Legends, IV, 190-191.
4. Letter 105.
5. Letter 112.
6. Letter 117.
7. Letter 118.
8. Letter 117.
9. Letter 130.
10. Letter 113.
11. On Dibon, cf. Numbers 21: 30; Joshua 13: 9.
12. Translation by S. R. Driver. A modern translation by W. F. Albright differs in a few details ("Palestine Inscriptions" in Ancient Near Eastern Texts, ed. Pritchard).
13. Letter 91.
14. Letters 72, 102.
15. Ambi and Ammia, not far from Sumur, were placed by historians close to the coast and identified with Enfe near Tripolis. Both names, Ambi and Ammia were assumed to be two names for one place. See Mercer, Tell el-Amarna Tablets, p. 269.

16. "Rabbath of the children of Ammon" (Deuteronomy 3: 11).

17. Cf. E. Dussaud, Les Monumerts palestiniens et judaiques (Musée du Louvre, Paris, 1912), p. 13: Mésa ne nous dit pas, mais cela résulte nettement des renseignements bibliques, que le secret de sa fortune tint à l'habilité avec laquelle il sut profiter des revers qu' éprouva Israel après la mort d'Achab et dont l'agent le plus actif fut leroi de Damas. Il n'est pas douteux que la région, au nord de Dibon, fut occupée de nouveau par Mésa en accord avec Hazaël, roi de Damas, et Peut-être sous la suzeraineté de ce dernier."

18. Letter 71.

19. Letter 76.

20. Letter 79.

21. Levy, Wörterbuch über die Talmudim und Midrashim.

22. This well-known word is written with two khaf letters; in the inscription of Mesha the letters are khuf and heth, the other characters for k and kh. But in the same inscription of Mesha the word "city" is kar, written also with khuf, and it is probable that the original writing of Kerakh and Karkhah with khuf is correct, being derived from kar, the city. Kar for city is of Carian origin. Similarly, today, we write both "Carians" and "Karians".

23. Letters85 and 189.

24. Me' ever haiam me'aram gives no support to the King James version, "from beyond the sea on this side Syria".

25. In the translation of Knudtzon, and likewise in that of Mercer, the period is placed differently: "There is hostility to me. As far as the lands of Seeri and even to Gintikirmil there is peace to au regents, and to me there is hostility." Comparing this text with the biblical text, we see that the new period precedes the words: "There is peace".

26. Letter 290.

27. Letter 273.

28. Habiru "is also written with an ideogram signifying 'cutthroats'," C. J. Gadd, The Fall of Nineveh (London, 1923).

29. This letter of Suwardata confirms what has been established on the basis of other considerations-that sa-gaz ("bandits", "pillagers") and Habiru were the same, or if a difference is to be drawn between these two denominations, the invaders themselves were not different.

30. The usual identification is with Kila, about eight miles northwest of Hebron "but in the letter 289 it seems more closely associated with Bethshan and shechem- (mercer Tell el-Amarna Tablets, p. 694).

31. After the death of Jehoshaphat "Libnah revolted" (II Chronicles 21: 10) from under the hand of his successor. It appears that the disturbing activities of a certain Labaia at the time this king of Jerusalem was still alive were a preliminary phase of that revolt. It is supposed that Labaia was not only the name of a chief but also of a group of the inhabitants (Weber in Knudt zon Die El-Amarna-Tafeln, p. 1558). Libnah, also called Labina (Josephus), was situated between Makkedah and Lachish (Joshua 10: 28f.). Labia (Joseph), was situated between Makkedah and Lachish (Joshua 10: 28f.). Labaia at one time approached Makkedah (Letter 244) and another time attacked Gezer north of Lachish (Letter 254). When Labaia sacked Gezer in the south he wrote to the pharaoh that this was "his only crime" and that it was not true that he disobeyed the deputy or refused tribue.

32. He wrote also to another dignitary in Egypt (Haia), explaining his plight and asking that horses and infantry be sent (Letter 71).

33. Letter 74.

34. Beth-Ninib was a town in Palestine (Letter 290); Letter 74 may refer to this town. However, see Weber, in Knudtzon, p. 1160.

35. He ordered seven baths in the Jordan. The Jordan is rich in sulfur,

potassium, and magnesium, which enter the river from the springs at the Sea of Galilee and form the deposits of the Dead Sea, where the water evaporates and the salts remain.

36. Or "thirty and two kings that helped him" (I Kings 20: 16).
37. As, for example, Dudu, referred to later in this chapter.
38. Mercer, Tell el-Amarna Tablets, p. 297. See also Weber, in Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, p. 1068.
39. Letter 83.
40. Letter 83.
41. Letter 106.
42. Letter 106.
43. Letter 118.
44. Letter 102.
45. Letter 85.
46. Letter 112.
47. II Kings 5: 2.
48: Letter 83.
49. Letter 296.
50. The biblical Naaman could be a cognomen; it means "truthful".
51. Letter 273.
52. This translation should be subst itiuted for "Mistress of Lions" (see Mercer, Tell el-Amarna Tablets, note to Letter 273); the ideogram for "lion" is nese, but this ideogram could have been used to represent the phonetically similar word in Hebrew which means "sign" or "miracle".
53. Jewish Antiquities, IX, 60 (trans. R. Marcus).
54. Ibid., IX, 51.
55. "Abda-Ashirta ist aber nicht eines natürlichen Todes infolge dieser Erkrankung gestorben, sondern ermordet worden, und zwar offenbar von AmurruLeuten selbst... Die wahren Umstände ... sind leider infolge der Lückenhaftigkeit des Textes nicht deutlich zu erkennen." Weber, in

Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, p. 1132. "Aus 105, 25f. ist wohl zu entnehmen, dass die Söhne des Abdi-Ashirta bei seinem gewaltsamen Ende kaum ganz unbeteiligt sein können." Ibid., p. 1198.

56. Letter 107.

57. Josephus (Jewish Antiquities, VII, 102), who cited Nicholas of Damascus.

58. "En tout cas, il paraît difficile d'admettre que la dynastie des Hadad ait duré dix générations, car, en 845, Hazaël assassina Ben-Hadad II et fonda une dynastie nouvelle." The Reinach, Textes, p. 80.

59. It was also an Egyptian usage. See Erman, A., and Blackman, A. M., The Literature of the Ancient Egyptians (London, 1927), p. 42.

60. Luckenbill, Ancient Records of Assyria, I, Sec. 681.

61. Letter 64. See section "The Five Kings", above.

62. Cf. H. W. Helck, "Der Einfluss der Militärführer in der 18. ägyptischen Dynastie". Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, 14 (1939) 66-70 in Egypt this role of the milk brothers is noticeable only during the Eighteenth Dynasty. 63. Letter 117.

64. Letter 157.

65. Letter 106.

66. N. de Garis Davies, The Rock Tombs of El-Amarna, Vol. VI, The Tomb of Tutu. J. D. S. Pendlebury, Tell el-Amarna, p. 51.

67. Letter 136.

68. Ibid.

69. Letters 77, 117, 130.

70. Letter 162, by the pharaoh. Jezebel was from Sidon.

71. Letter 138.

72. Letter 137.

73. See section "Ahab or Jehoram", above.

84. Ginzberg, Legends, IV, 187.

75. Josephus, Jewish Antiquities, IX, 92-94.

الفصل الثامن

رسائل تل العمارنة (خاتمة)

آياريموتا

مع قراءة رسائل ملك سومور (السامرا)، يلفت أنظارنا الذكر المتكرر لمكان يسمى آياريموتا، وأحياناً ريموتا (١) كما يلفت أنظارنا الدور الذى لعبه ذلك المكان فى تطلعات الملك. وذلك المكان مذكور فقط فى رسائله، فقد ذكره ثمانى عشرة مرة فى ثلاث عشرة رسالة. ومن هناك كان شعبه يحصل على الحبوب فى سنوات المجاعة مقابل أثمان باهظة، ومقابل المقايضة بأدوات منزلية، بل حتى مقابل أطفالهم حيث يباعون كرقيق. وفى الأزمان التى سبقت المجاعة كانت حبوب آياريموتا تخضع لتصرف سومور (السامرا) بحق التخصيص. وقد كتب ملك سومور إلى فرعون مصر يسأله إذنه فى الحصول على الحبوب من آياريموتا.

«قد يبدو من الملائم للملك، سيدى ومولاى، أن يهبنا الحبوب من نتاج أرض آياريموتا» (٢).

بالطريقة نفسها كتب إلى مندوب الفرعون أمان – آبا:

«قل لمولاى إنه من المفروض أن تعطى لخادمه نتاج أرض آياريموتا، كما كانت تعطى لسومور فى السابق» (٣).

كان ملك سومور فى الرسالة السابقة يدعى أحقيته بالإنتاج الزراعى لذلك المكان، وقد أعلن إدعاءه بذلك الاستحقاق إلى ثلاثة من نواب فرعون مصر، اثنان منهما هما أمان – آبا وآيانحاما، «وقد اعترفا بحقى فى ذلك». أما النزاع فقد كان بينه وبين ملك دمشق حول أحقية كل منهما بإنتاج أرض آياريموتا.

الرسالة ١٠٥: «وبسبب ما يخصنى ... أصبح يكن لى العداء ... لقد

طغى ... لقد أخذ ... وأصبح عدوا لى بسبب ... لأخذ حبوب للغذاء من آياريموتا حتى لا نموت جوعاً». ولفترة ما، كانت آياريموتا تحت سيطرة ملك سومور وجوبلا، وكان جيشه أو بعضه متمركزاً فيها، وقد كتب للفرعون «قل لآيانحاما أن يأخذ الأموال والثياب لأهل جوبلا المقيمين فى آياريموتا».

ودام النزاع على آياريموتا أطول من حياة ملك دمشق عبدى – عشيرتا (بن – حدد) كما كان النزاع ما زال حاداً طوال حكم عزيرو (حزائيل).

وقد طلب ملك سومور (السامرا) من الفرعون معاونة عسكرية لإجبار القائد المحلى الذى كان قد إنحاز إلى صف ملك دمشق، لإعطاء الحبوب لأهالى القرى والجنود.

الرسالة ١١٤: «كان أهالى القرى فى السابق يتزودون بالحبوب من أرض آياريموتا. ولكن تعلمون أن آيابا – عدى لا يسمح لهم بالتوجه إلى حصنها للتزود بالحبوب ولذا فليسمح الملك بإرسال الرماة .. اهتماماً بى، من يكون صديقكم إذا مت أنا؟ أليس آيابا – عدى متحالفا مع عزيرو ؟».

وطوال فترة حكمه ظل مصراً على أن حبوب اياريموتا من حقه هو، كما كانت فى السابق من حقه هو وشعبه.

الرسالة ١٢٥: «كانت الحامية الملكية معى فيما سبق، وكان الملك يسمح بتزودهم بالغلال من آياريموتا. ولكن، تعلمون، أن عزيرو يطغى على مرة أخرى».

لقد ظهر كثير من التخمين حول موقع ذلك المكان، فمن قائل إنه كان بمنطقة جوشين بمصر (٤) وذلك جزء من نظرية تقول إن آيانحاما كان هو يوسف التوراة. وأخرى تقول إن آياريموتا هى الإسم القديم لأرض فلسطين وشارون (٥)، أو أنها تقع فى سهول الانتيوق (٦) هذا، عدا رأى أخير يقول إنه مكان غير معروف وصعب تحديده (٧).

فإن كان ذلك المكان يحمل مثل تلك الأهمية لملك سومور (السامرا) لدرجة جعلته يتورط فى صراع طويل بسببه، مدعيا أنه أحق بانتاجه من الغلال، فإننا لابد وأن نتوقع أن تعطينا التوراة إجابة لذلك السؤال وهو: فى أى موضع كانت آياريموتا؟

سفر الملوك الأول ٢٢: ٣ «فقال ملك إسرائيل لعبيده أتعلمون أن

راموث جلعاد لنا ونحن ساكتون عن أخذها من يد ملك آرام».

لقد لعبت راموث الواقعة فى جلعاد دوراً مهماً فى حروب ملك إسرائيل وكان يجتمع بأبنائه ويتشاور معهم إن كان يأمر بخروج الجيش إلى راموث – جلعاد لخوض المعركة، أم يمتنع ويتحلى بالصبر، وكان مندوب الفرعون، آمون، يشاركه فى تلك المشاورات (سفر الملوك الأول ٢٢: ٢٦)، وصحبه يهوشافاط إلى المعركة فى راموث، كما ذكرنا من قبل، وهناك، وطبقاً لإحدى الروايات، قتل آخاب، وطبقاً لرواية أخرى فإنه قد أصيب فقط.

وفى تاريخ لاحق فإن ملك إسرائيل كان «يحافظ على راموث – جلعاد هو وكل إسرائيل من حزائيل ملك آرام» (سفر الملوك الثانى ٩: ١٤) (٨) وعلى جبهة القتال تلك تم تكريس يهو على أيدى رسول إليشع (سفر الملوك الثانى ٩: ٤).

وذكر جوزيفوس فلافيوس أن اسم المكان الذى حارب فيه اخاب السوريين بأنه آراماثا فى جالادين (٩).

ونجد أن راموث فى التوراة وآراماثا التى ذكرها جوزيفوس هى آريايموتا أو ريموتا المذكورة فى رسائل تل العمارنة.

لقد نشبت تلك الحروب والصراع على ذلك المكان فى تلك الأعوام التى كانت فيها السامرا تعانى من مجاعة شديدة والرسائل تحدد ذلك بوضوح .. لقد كانت أرض جلعاد بمثابة سلة الخبز لكل المنطقة ولم تمسها المجاعة أبداً.

إن راموث فى أرض جلعاد برز ذكرها فى التوراة فى عهد آخاب – يهورام وفى عهد يهوشافاط، ولم تذكر إلا فى هذين العهدين فقط (١٠).

السامرا (سومور) تحت حكم النخبة

فى أثناء حقبة رسائل تل العمارنة كانت سومور (السامرا) بالرغم من كونها مركز الإدارة المصرية للمنطقة – كانت – محاصرة أغلب الوقت بقوات ملك دمشق. إن حصارىْ السامرا، وتخلصها من الحصار الأول على أيدى شباب حكام الأقاليم، ومن الحصار الطويل الثانى ببث إشاعة عن

وصول الجيش المصرى، تطابق ما ذكر عنهما فى كل من التوراة ورسائل تل العمارنة وقد سبق شرحهما فى صفحات سابقة.

وبجانب الملك والحاكم المنتدب من قبل الفرعون، مارس الكبار أيضاً السلطة فى المدينة. وأخضع الملك مصير المدينة رهناً لرأيهم حين تلقى انذاراً من ملك دمشق أثناء الحصار الأول (سفر الملوك الأول ٢٠: ٧).

وفى الجزء الأعظم من حقبة رسائل تل العمارنة كان الملك يقطن فى مقره الثانى، ومنه كتب أغلب رسائله مناشداً المساعدة لمدينته.

وفى بداية تلك الفترة تخلى نائب الفرعون أمان - آبا (الحاكم المذكور فى التوراة باسم آمون) عن إقامته الدائمة فى سومور، وقضى السواد الأعظم من تلك الفترة بمصر. أما أيانحاما فقد كان مندوب الفرعون على دمشق. وبسبب ظروف الفوضى التى سادت نتيجة للاضطرابات السياسية والحصارات المتتالية، أصبح لكبار السن فى سومور نفوذ متزايد، وفى بعض الأحيان كانوا هم وحدهم أصحاب السلطة فى المدينة، وحين فشل عزيرو (حزائيل) فى محاولته اقتحام المدينة، كتب رسالة يقول فيها:

الرسالة ١٥٧: «ولكن رؤساء سومور لم يسمحوا لى بالدخول». ولنفس أولئك الرؤساء أو «الحكام من الكبار» فى السامرا، كتب ياهو متحدياً أن يختاروا أحد أبناء آخاب ليتولى الحكم، أويتركوا الأمر له (سفر الملوك الثانى ١٠).

فى تلك المرة ازداد خوف الأقلية من كبار السن وسمحوا لياهو بدخول المدينة.

«مدينة الملك»، سومور

كانت السامرا هى مدينة الملك (الفرعون)، وقد بنيت كمركز للإدارة المصرية على المقاطعات الآسيوية. وقد اعتاد الفراعنة على إرسال الفضة إلى السامرا فى عهد عومرى الذى كان أول من بناها.

الرسالة ٢٦: «لقد كانت الفضة ترسل فى السابق إلى أبى من القصر العظيم». وقد كانت مصر تتلقى - إن حدث - القليل مقابل ذلك. كما كان

فرعون مصر يزود السامرا بالعجلات الحربية.

وكان بالمدينة قصر، وكان «بيت الملك» فى السامرا كثيراً ما يذكر فى رسائل تل العمارنة، وبالاسم، فقد كان القصر سكناً للفرعون إن جاء للزيارة، أما واقع الأمر فإنه كان سكناً لملك البلاد - التابع لهيمنة مصر، وربما أيضاً كان سكناً لنائب الفرعون المشارك مع ملك البلاد فى إدارة شئونها. إن «بيت الملك» مشار إليه أيضاً ومذكور على نصب ميشع التذكارى، وهو الذى قام بترميم ذلك القصر ذات يوم.

أما القصر الذى أقامه آخاب فى السامرا فهو مذكور بالتوراة، وقد كان مغطى بالعاج. إن كلمات ميشع «لقد نحتُّ أحجاره» ربما تشير إلى النحوت العاجية الموجودة بالقصر. إن ذلك العاج فى قصر السامرا، قصر عومرى وابنه آخاب، وجد بكميات وفيرة أثناء اجراء أعمال الحفر الحديثة (١١). وهناك المزيد حول تلك النقطة مذكور قبل آخر هذا الفصل من الكتاب.

كانت مدينة السامرا محاطة بسور. وذلك السور مذكور فى كل من التوراة ورسائل تل العمارنة. ومشار إليه أيضاً فى نقش ميشع، وشهد المكان الواقع أمام باب المدينة مؤتمر الملكين (عومرى وآخاب) مع أنبياء الله، وهو المكان الذى نثرت فيه الأشواك عند مدخل بوابة السامرا -سفر أخبار الأيام الثانى ١٨: ٩) كما كانت البوابة هى مركز الضابط المعين «ليحمل مسئولية البوابة» (سفر الملوك الثانى ٧: ١٧)، وكان مكلفاً بجمع قطع الفضة مقابل الشعير والطحين الذى خلفه السوريون بعد أن فروا من أمام أسوار السامرا. وقد مات ذلك الضابط تحت الاقدام بعد ذلك. إن عادة تحصيل الأموال عند البوابة مذكورة أيضاً فى رسالة من ملك سومور «لقد حصلت كل بواباتى قطع النحاس» (١٢). أما بوابة السامرا التى كانت تعد أهمها - كسوق وساحة عامة - فمشار إليها أيضاً فى نقش ميشع ونصوص التوراة ورسائل تل العمارنة.

وكان بالمدينة رابية يطلق عليها اسم أوفيل. وهى مذكورة فى التوراة (سفر الملوك الثانى ٥: ٢) وفى نقش ميشع.

وقد كشفت الحفائر التى أجريت فى موقع السامرا القديم عن جزءين من السور القديم، وموضع البوابة (كان لسور المدينة باب واحد فقط) وعن

بعض المبانى التى تحمل طابع القصور (١٣).

ومنذ أن احتل ميشع مدينة السامرا متحالفاً مع ملك دمشق، فإنه نسب فى النقش الذى تركه كل الأعمال المعمارية الموجودة بالمدينة إلى نفسه على أنه منشئها، وبأن تلك الأعمال المعمارية قد نفذها الأسرى من الإسرائيليين.

وقد كتب ملك دمشق على نفس المنوال إلى أحد المسئولين بمصر، بعد أن كان الخراب والدمار قد عم بعد الحروب والحصارات المتتالية، يقول ملك دمشق فى رسالته: «لقد بنيت سومور» (١٤). وهو يعنى أنه هو، وبتسخير الأسرى الإسرائيليين، قد أصلحوا القصر ورمموا بقية المبانى. لقد كان شرف البناء فى السامرا ذا منزلة خاصة لمن يقوم به، وبعض من ذلك مذكور فى الاتفاقية التى كان آخاب قد أبرمها مع ملك دمشق. وبعد هزيمة السوريين فى أفيق قال بن – حدد لملك السامرا:

«إنى أرد المدن التى أخذها أبى من أبيك. وتجعل لنفسك أسواقاً فى دمشق كما جعل أبى فى السامرا» (سفر الملوك الأول ٢٠: ٣٤).

وبعد أن سقطت السامرا فى يده لبعض الوقت فقد عاود – مع المتمرد ميش (الملك ميشع) – البناء فى المدينة.

وعندما استولى عزيرو على عرش دمشق (أو حزائيل كما يطلق عليه فى التوراة) وعد فى رسالة منه إلى الفرعون بعد أن اقتحم سومور (السامرا) واستولى عليها بأنه سيبنى مدينة سومور مرة أخرى «سوف ابنى سومور الآن، سأبنى يا مولاى سومور بأسرع ما أستطيع» (١٥)، وفى مرة أخرى نجده يقول: «أنا لم ابن سومور بعد، ولكنى سأبنى زومور (سومور) ذات عام ....» (١٦).

شالما نصر الثالث يطرد الملك نيكميد

طبقاً لإعادة بناء التاريخ المقدم هنا، فإن رسائل تل العمارنة قد كتبت ليس فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولكن فى الثلاثة عقود التى تقع ما بين ٨٧٠ ق. م – ٨٤٠ ق. م. ففى عام ٨٥٨ ق. م تقريباً، أصبح شالما نصر الثالث ملكاً على آشور وبعد ذلك أصبح ملكاً على بابل أيضاً، وقدم

القرابين لآلهة بابل وبورسبا وكوثا (١٧) ثم قام بشن الغارات المدمرة على الساحل الفينيقى وعلى شمال سوريا.

وبوضع رسائل تل العمارنة تاريخياً فى عهد يهوشافاط ملك أورشليم وآخاب ملك السامرا وشالما نصر المعاصر لهم يبرز أمامنا تحد ليس فقط فى التوصل إلى دليل بمقارنة الرسائل بأسفار الملوك وأحداث الأيام، ولكن أيضاً بين الرسائل والنقوش الآشورية.

وفى قصص شالما نصر فإننا نجد وصفا لحروبه التى خاضها والتى وقع أغلبها على أرض سوريا.

وفى رسالة كتبها أبيميلكى، ملك صور، وهى واحدة من مجموعة رسائل تل العمارنة نجده يقول: «لقد نهشت النيران مدينة أوجاريت، مدينة مولاى الملك، ودمرت نصفها، وما زال نصفها الثانى قائماً، أما جيش الحثيين الغازى فهو ليس موجودا بها الآن».

وفى الفصل الخامس من هذا الكتاب وتحت عنوان «نهاية أوجاريت» كنا قد تساءلنا عن هوية من قام بغزو المدينة؟ كما كنا قد نقلنا أيضاً نص المرسوم الذى أصدره الملك الغازى بأن على «الجامانيين (الأيونيون)، وشعب ديديميا، والكاريين، والقبارصة وكل الأجانب وعلى رأسهم الملك نيكميد أن يغادروا مدينة أوجاريت والجزء الافتتاحى من المرسوم والذى كان من المفترض أن يحمل اسم صاحبه الذى أمر بطرد الملك نيكميد من أوجاريت، لم يعثر عليه. وتوصلت بعض الأبحاث إلى أن البابليين هم من طردوا الملك نيكميد (١٨) وهم من يطلق عليهم هنا اسم الحثنيين، وهذا الافتراض ليس بعيدا أبداً عن الحقيقة، بعد أن وقعت بابل تحت هيمنة شالما نصر وضمها لإمبراطوريته.

وعند هذا الموضع نجد أن الشغف يستبد بنا لنعرف إن كان شالما نصر قد ترك أى سجل مكتوب عن غزوه لأوجاريت. وقد وجدنا تلك المقدمة مسجلة مرتين فى نقوشه التى تركها:

العام الرابع: إنى اقتربت من مدن نكديم (و) نكدايرا لقد أصبحوا مذعورين من قوتى وقدرتى ومروعين من أسلحتى ومعداتى الحربية، وفروا إلى البحر فى قواربهم المجدولة من الأغصان، وتبعتهم فى قوارب مصنوعة من ... وقدت معركة عظيمة فى البحر – وهزمتهم وصبغت

البحر بدمائهم كما يصبغ الصوف (١٩).

وتبدو مدينة نكديم فى النص السابق كمدينة نيكميد. فقد كانت المدن تحمل أسماء ملوكها تكريما لهم، وفى هذه الحالة فإن الاسم المكتوب بوضوح مدينة نكديم، وقد قام مترجم النص بشرح معنى «مدينة نكديم» بأنها سميت «على اسم شخص» إن عكس المقطعين الصوتيين، خصوصا فى الأسماء ذات الأصول الاجنبية، عادة سائدة بين الشرقيين، فمثلا، نجد أن الإسكندرونة وهى لا تبعد كثيراً عن رأس شمرا - قد سميت بهذا الاسم تكريماً للاسكندر الأعظم. إن مدينة نكديم مثلها مثل مدينة نيكميد كانت تقع على ساحل البحر كما يبدو أن وصف شالما نصر للبحر الذى أصبح مصبوغاً بالدماء قد اقتبس من النشاط التجارى لمدينة أوجاريت - رأس شمرا. لقد كانت هناك معامل لصبغ الأصواف فى مدينة أوجاريت، كما وجدت هناك مخازن لمسحوق الأصداف التى تستخلص منها الأصباغ.

وكان نيكميد قبل طرده هو وصونى ليولايما وهو ملك مدينة أخرى معاصرة ومجاورة له يدينون بدين ربة مدينة آدن. سنتعرض لتلك الأسماء فى حكايات شالما نصر أيضاً.

شالما نصر يواجه تحالفا سوريا تحت قيادة بريديرى (بيريديا) قائد مدينة مجدو

يقول شالما نصر إنه فى العام السادس من حكمه وذلك بعد عامين من طرده للملك نيكميد إلى عرض البحر، أنه كان هناك أمير يدعى بريدرى، يعاونه تحالف مكون من اثنى عشر أميرا وقد واجهتهم فى موقعة حربية فى منطقة تسمى كاركا (٢٠) وقد كان آخاب ملك إسرائيل من بين حلفاء بريدرى (ساهم بألفى عجلة حربية وعشرة آلاف مقاتل) وكان منهم أيضاً أمير مدينة إرقاطة (لم يذكر اسم أميرها) وأمير مدينة أرفاد الأمير ماتينو بعلى، وأمير مدينة أوسا (لم يذكر إسمه) وأمير مدينة سبانا الأمير أدونو - بعلى.

ولم يذكر نقش شالما نصر إن كان الأمراء المتحالفون قد اشتركوا

بأنفسهم فى معركة كاركا أم اكتفوا بتقديم الجند والسلاح، ولكنه ذكر فقط ما يلى: «استطاع بريدرى أن يستميل الاثنى عشر ملكاً إلى جانبه».

ونجد أن أسماء نفس الأشخاص مذكورة فى رسائل تل العمارنة. لقد كتبوا إلى الفرعون ذاكرين له أنهم قد أعدوا حامياتهم وأنهم على أهبة الاستعداد للتصدى لملك الحثنيين القادم لغزوهم، هذا عدا البعض الآخر من أمراء شمال سوريا الذين كانوا تحت التهديد المباشر أكثر من فلسطين مما حدا بهم إلى المساهمة بأنفسهم فى المعركة.

وأرسلت مدينة إرقاطة رسالة إلى الفرعون:

الرسالة ١٠٠: هكذا تخبركم مدينة إرقاطة .. وشعبها المقيم بها منذ الأزل .. فليرسخ فى قلب مولانا الملك أننا نحمى له إرقاطة .. ونأمل أن تظل أنفاس الملك تشملنا .. لقد أغلقنا البوابة إلى أن يصلنا عبير أنفاس الملك .. إن العداء يزداد ضدنا .. حقا إنه يزداد.

وفى رسالة من رب - عدى (٢١) نجده يقول فيها: (أدونا .. من إرقاطه، قد قتله المرتزقة) وفى نفس الرسالة كتب عن المعارك التى يخوضها ملك الحثنيين فى الشمال الشرقى. ومن المحتمل أن الأمير أدونى من سيانا فى نقوش شالما نصر هو «أدونا .. من إرقاطة» فى رسائل تل العمارنة.

ولكن إن لم يكن أدونى المذكور فى قصص حروب شالما نصر هو أمير إرقاطة، فإن فشل شالما نصر فى تسمية أمير إرقاطة يتضح سببه من رسائل تل العمارنة: فقد كان أمير إرقاطة قد قتل، ودافعت المدينة عن نفسها وقاتلت دون أن تسمى أميراً جديداً عليها.

هناك أيضاً رسالتان قدمتا إلى طيبة من موت - بعلو وما زالتا موجودتين ضمن مجموعة رسائل تل العمارنة. كتب موت بعلو فى إحداهما يقول:

الرسالة ٢٥٥: فليرسل مولاى الملك العجلات الحربية إلى كاراديونياشى وسأتولى ادخالهم حتى أضمن سلامتهم.

وحيث إن كار ديونياش هى بابل (٢٢) ومدينة الأمير موت - بعلو تقع على الطريق، فإنه من الممكن التوصل إلى أن موت - بعلو فى رسائل تل العمارنة هو مابينو - بعلى ملك ارفاد المذكور فى النقوش الآشورية للملك شالمل نصر.

إن موت – بعلو لم يذكر من أى مدينة كتب رسالته إلى الفرعون. أما النقوش الاشورية فإنها بتسميتها ماتينو – بعلى كملك على ارفاد فإنها تربط ما بين موت – بعلو فى رسائل تل العمارنة بتلك المدينة، ومن تاريخ جوزيفوس (٢٣) نعلم أن ماتين – بعل هو حفيد أيشو بعل وابن أخ (إيزابيل).

وكانت أوزو (أوسا) تقع بالقرب من مدينة صور، وكانت صور فى ذلك الوقت جزيرة تقع بالقرب من شاطئ البحر. ولم تكن تملك الماء الكافى لمواجهة حصار طويل خاصة فى تلك الأعوام التى شهدت الجفاف والمجاعة، ولذا فقد كتب ملك صور إلى الفرعون يطلب منه ضم مدينة أوزو إلى هيمنة ملك صور.

الرسالة ١٥٠: «فليول الملك عنايته إلى خادمه ويهبه أوزو حتى يبقى خادمكم على قيد الحياة وحتى نجد ماءاً للشرب». وفى كلا المصدرين – نقوش شالما نصر ورسائل تل العمارنة، نجد أنهما يذكران مدن إرقاطة وارفاد وأوزو كمدن صغيرة قاومت الغزو القادم من الشمال.

أما مجدّو فقد كانت هى القاعدة العسكرية القوية الواقعة خلف تلك المدن، وكان قد تم تدعيمها فى عهد تحتمس الثالث الذى كانت حملته العسكرية وانتصاره فى مجدو من أبرز انجازاته فى قصصه المنقوشة.

كانت مدينة مجدو العسكرية هى العقبة فى طريق الجيوش القادمة من الشمال، كما كانت حاميتها العسكرية هى الحارس على سهول ازدريلون «جيزريل».

وفى عصور رسائل تل العمارنة كان على رأس قاعدة مجدو قائد يسمى بريديا، ومن الواضح أن مسئوليات جسيمة كانت ملقاة على عاتقه فى عصر اتسم بعدم الاستقرار وقد وجدت ثمانى رسائل بتوقيعه، ومن خلالها ندرك أنه كان قائدا مخلصا لملكه كما نجد أنه كان يتصف بالجرأة والشجاعة.

الرسالة ٢٤٣: «وتعلمون أنى أحمى مكيدا، مدينة الملك، مولاى وإلهى ليلا ونهاراً. أشدد الحراسة من الحقول نهارا. وبالعجلات الحربية والجنود أصون أسوار إلهى الملك».

وقد كانت مجدو وهى المكان الذى حاول آخازيا (حفيد يهوشافاط) أن

يهرب إليه حين فوجىء بتمرد ياهو فى جيزريل. وكانت مجدو كما تكشف الرسائل هى الحصن الذى لا يجرؤ ياهو على اقتحامه وهو يطارد آخازيا ولكن لم يقدر لآخازيا أن ينجح فى فراره، فقد حوصر وقتل وهو فى طريقه إلى مجدو (سفر الملوك الثانى ٩: ٢٧).

إن أسوار مجدو التى كانت منيعة ذات يوم وجدت بعد إجراء أعمال الحفر فى موقعها مماثلة تماما فى تركيب وتصميم وبناء أسوارها مع قصر آخاب فى السامرا ويعود كلاهما إلى القرن التاسع قبل الميلاد (٢٤).

وكان على بريديا كقائد لأهم القلاع الحصينة بالمنطقة أن يقود تحالف الملوك والأمراء الخاضعين للهيمنة المصرية فى المنطقة ضد «ملك الحثنيين» (٢٥) كانت مرتبته ومكانته كما ذكرنا فى رسائل تل العمارنة، تتفق مع ما ذكر فى نقوش شالما نصر، الاختلاف البسيط فى هجاء الاسماء إما يعود، ليس فقط إلى أن أسماء الاشخاص وحدها إنما أيضاً اسماء الأماكن الجغرافية، كانت تنطق بطرق عديدة مختلفة وعلى سبيل المثال فإن بريديا (وفى إحدى الرسائل كتب اسمه بحيث يقرأ بريدى) أعلن للفرعون أنه يحمى مكيدا أو يدافع عنها، وفى مرة أخرى ذكر أنه يدافع عن ماجيداً وهناك أمثلة كثيرة أخرى فى الرسائل.

وبوصفه قائدا للمركز العسكرى الحصين فى مجدو، فقد التقى بالملك الآشورى عدو الفرعون فى معركة كانت نتيجتها استيلاء شالما نصر على العجلات الحربية المصرية كغنائم حرب.

لقد كان هناك ألف جندى موسرى ضمن الجيش الذى قاده بريدى، والذى شارك بنفسه فى المعركة ضد شالما نصر فى قرقر طبقاً لما جاء فى نقوش شالما نصر.

ونجد أن موسرى هو الاسم الآشورى لمصر (وهو مصرايم فى العبرية) وكما يبدو فإنه من غير المنطقى أن يرسل فرعون مصر جنوداً لا يزيد عددهم عن عشر ما أرسله آخاب ملك إسرائيل لدخول المعركة ضد شالما نصر، ولذلك فقد فسرت كلمة موسرى بأنها ربما كانت تعنى مكانا آخر غير مصر. ووضعتها إحدى النظريات (٢٦) فى شبه جزيرة سيناء، ونظرية أخرى، قالت إن موسرى كانت مملكة تقع فى شمال سوريا أوشرق الأناضول.

إن رسائل تل العمارنة حين تنسب إلى عصرها الصحيح تظهر أن تلك النظريات لا قيمة لها فوجود هذا العدد الضئيل من الجيش المصرى ضمن جيش الحلفاء تحت قيادة بريديا يتفق مع ما ذكر فى رسائل تل العمارنة.

لقد كان بريديا يرسل تقارير منتظمة إلى الفرعون عن الإعداد للمعركة والتجهيزات التى يعدها لملاقاة ملك الحثنيين فى أرض المعركة.

وفى عدد من رسائل ملك سومور نجده يخبر الفرعون عن الخطر المتوقع من جانب ملك الحثينيين. ففى رسالة مبكرة كتب «فليعلم مولاى الملك أن ملك الحثينيين قد تغلب على كل البلاد التى كانت تخضع لملك الميتانيين أو ملك ناجما - أرض الملوك العظام. إن عبدى عشيرتا العبد والكلب، قد تحالف مع ملك الحثنيين» (٢٨) لقد كان نجاح ملك الحثنيين فى أرض الميتانيين (ميتا) فى نظر الفرعون نجاحا مؤقتا، حيث إن الملك توشراتا فى أرض ميتانى وهو والد لزوجة الفرعون كان قد أرسل من ضمن هدايا عديدة وثمينة إلى الفرعون بعض «الغنائم» التى غنمها من أرض الحثينيين وبذلك أعطى إنطباعاً زائفاً لزوج ابنته فرعون مصر بأنه لم يهزم ونجد أن تسجيلات شالما نصر بعيدا عن غزوه لبابل فى عهد حرب الأمراء المتناحرين على السلطة فيها - لا تحكى عن أى نصر حاسم أو احتلال أو ضم دائم ومستمر لبلاد مجاورة فى الشرق القديم فى بداية حكمه.

وتقريبا كان شالما نصر يجدد حملته على سوريا فى خلال العقدين الأولين من حكمه. وفى مراسلات تل العمارنة نجد أن مراسلات الملوك التابعين لهيمنة فرعون مصر فى شمال سوريا قد سجلت إعلان فرعون مصر بالغارات التى يشنها ملك الحثنيين.

وقد صاحب تلك الغارات مذابح مروعة وفى واحدة من أخريات رسائل رب - عدى إلى فرعون مصر، كتب إليه قائلا «لقد سمعت من (عن) شعوب الحثنيين أنهم يحرقون البلاد بالنار. لقد كتبت مرارا وتكرارا ... إن كل أرض مولاى الملك قد هزمت ... إنهم يجلبون الآن مزيدا من الجنود من أرض الحثينيين لقهر جوبلا» (٢٩) وقد عبر رب - عدى فى رسالته عن خوفه من أن الهجوم التالى سيكون موجها ضده، وكانت معلوماته عن ملك الحثنيين الذى يحرق المدن حتى تتساوى بسطح الأرض، معلومات

صحيحة، فقد كتب شالما نصر عن نفسه ما يلي:

« لقد دمرت وهدمت وأحرقت بالنار » وهي عبارة كثيراً ما نقابلها في نصوصه التي تركها، وبعد ست عشرة حملة عسكرية على سوريا، نجده يخلد أعماله في نقوشه بما يلي « لقد دمرت وهدمت وأحرقت بالنار مدنا لا تعد » وقد كان ذلك هو نفس ما ذكرته عديد من رسائل أمراء المدن السورية إلى الفرعون وقد كتب رب - عدى في رسالة لاحقة (٣٠) عن أفعال ملك الحثينيين، ولكن تلك الرسالة وجدت محطمة ولم يمكن تمييز أي شيء منها إلا كلمات بسيطة هي « أن ملك بلاد الحثينيين... ».

إن شالما نصر الملك الأشوري الذي يرجع للقرن التاسع قبل الميلاد كان هو ملك الحثينيين طبقا لإعادة بناء التاريخ الصحيحة، المذكورة في رسائل تل العمارنة، وقد قام بعد أن أمن الأراضي التي ورثها عن أبيه بالتطلع إلى ما هو أبعد من حدودها وقد زادت حدود مملكته بعد غزوه لبابل مستغلا تناحر أمرائها على السلطة كما ضم مناطق أخرى مجاورة لها، وكتب:

لقد أخضعت كل أراضي الحثينيين حتى آخر حدودها وضممتها تحت سيطرتي، من منبع نهر دجلة حتى منبع نهر الفرات سيطرت يداي على تلك البلاد.

ولذلك فان أرض الحثينيين هنا تعني منطقة جغرافية واسعة أكثر مما تعني شعبا بذاته أو قومية معينة.

وحين أعتقد السوريون أنهم سمعوا وهم تحت أسوار السامرا أصوات جيش مقترب ليخلص السامرا من حصارهم، فقد ظنوا إما أنه الجيش المصري أو أنه جيش الحثينيين (سفر الملوك الثاني ٧: ٦) والأخير يعد ظاهريا جيش شالما نصر. لقد دفع كل البلاد الأخرى إلى اتخاذ أوضاع الدفاع، وكان الفرعون هو غريمه الحقيقي والوحيد، وصراعهم في الهيمنة على سوريا ينعكس بوضوح في رسائل تل العمارنة.

شالما نصر الثالث يغزو أرض عمورو وملك دمشق يتصدى له

وفى عامه العاشر قاتل شالما نصر ضد تحالف جديد، وكان التحالف للمرة الثانية تحت قيادة بريدرى (بريديا) وبعد أن مات بريدرى استغل حزائيل غياب ممثل الفرعون وقتل أباه ملك دمشق.

وفى مصر، كان عزيرو (حزائيل) محسوباً فى صفوف «ملك الحثينيين» كما كان والده كذلك ذات يوم (٣٢) لأنه استقبل رسلا قادمين من قبل ملك الحثينيين وفى الوقت نفسه كان يترجى الفرعون أن يعترف بشرعيته كملك على عرش دمشق، ذلك العرش الذى كان قد اغتصبه اغتصابا وقد استدعى للحضور إلى مصر والمثول بين يدى الفرعون ولكنه كان يؤجل رحيله مرة بعد أخرى بحجة أن عليه أن يراقب تحركات ملك الحثينيين : «لو جاء ملك الحثينيين معاديا، اذاً، فليرسل إلىّ ملكى ومولاى جنداً وعجلات لمعاونتى».

ولكن الفرعون أرسل إليه متسائلا: «لماذا استقبلت رسل ملك الحثينيين بترحاب شديد؟ فى الوقت الذى لم تظهر فيه الاهتمام المناسب برسلى». كانت تلك التساؤلات جزءاً من رسالة مطولة أرسلها إليه فرعون مصر وما زالت موجودة حتى الآن. ولم ينس الفرعون أن يذكّره بأن الفأس الملكية ستكون كفيلة بقطع رأسه ورؤوس إخوته (٣٣) إن سولت له نفسه الميل فى اتجاه أعداء الفرعون. كما مناه بأنه سيحظى بما يحظى به المقربون إلى الفرعون لو حافظ على ولائه (الرسالة ١٦٢).

وغمرت السعادة والنشوة نفس عزيرو (حزائيل) بكلمات الفرعون «المفرحة والسارة»، ولكنه فى الوقت نفسه لم يتقبل فكرة ذهابه إلى مصر بدعوة من الفرعون. وأدى ازدواج ولائه إلى إثارة حنق وغيظ ملك الحثينيين أيضاً. وكتب عزيرو (حزائيل) إلى راعيه فى مصر، دودو، قائلا: «ولكن يا مولاى، وصل ملك الحثينيين إلى نوحاس، ولذا لا أستطيع الحضور إلى مصر». ريما يرحل ملك الحثينيين وفى رسالة إلى الفرعون أقر بأنه قد أذعن فى وقت ما، وأنه كان «قد حدث تقارب سابق مع ملك الحثينيين» (٣٤)، ولكنه الآن لا يتطلع إلا إلى وجه الشمس، وجه مولاه

(اخناتون)، «وقد جاء ملك الحثينيين إلى عمورى، أرض مولاى الملك وأرض إلهى ... وهو الآن مقيم فى نوحاس بعد أن استولى عليها، على مسيرة يومين فقط من تونيب (٣٥)، وأخشى أن يهاجم تونيب ويستولى عليها ... ادفعه إلى الرحيل» (٣٦)، «انى أخشاه وأخافه، انى أراقبه فى حذر خشية أن يولى وجهه إلى عمورى ... ولذا فإنى أخشاه» (٣٧).

ومن الواجب أن نلقى نظرة على قصص شالما نصر لتحرى إن كان فعلا قد جاء إلى أرض عمورى أم لا، وإن كان قد هدد حزائيل (عزيرو) أم لا.

فى رسائل ملوك سوريا نشعر بالفزع الذى بثه شالما نصر فى تلك البلاد. وهو نفس ما ذكر فى قصصه: «إن كل ملوك بلاد عمورو، كلهم بلا استثناء أصبحوا مذعورين مع اقتراب قوتى الجبارة وأسلحتى الفتاكة» (٣٨)، وهو يسمى أرض سوريا الاسم بنفسه الذى أطلق عليها فى رسائل تل العمارنة - عمورو (عمورى). وتؤكد القصص نفسها على ما ذكر عن حزائيل (عزيرو) فى رسائل تل العمارنة: «فى العام الثامن عشر من حكمى، عبرت نهر الفرات للمرة السادسة عشرة، وتقدم لملاقاتى وقتالى حزائيل الآرامى (عمورو)» وذكر أن حزائيل قد تمركز فى بقعة عند جبل سينير (أمام جبل لبنان)، وكان ذلك الموقع الاستراتيجى الذى اتخذه حزائيل يحمى فى الوقت نفسه مدينة تونيب (بعلبك). ووقع الصدام، وفى تلك المعركة تمكن شالما نصر من أسر ١١٢١ عجلة حربية. «وتقدمت فى العمق حتى دمشق، مدينته الملكية، وقمت بتقطيع كل أشجار بساتينه».

وبعد ذلك بأربعة أعوام ذكر شالما نصر فى قصصه أنه «هاجم بقية مدن حزائيل الآرامى (عمورو)» «وأنه» استولى على أربع مدن أخرى من مدنه».

الفينيقيون يهاجرون إلى بلاد جديدة.

نعلم من قصص شالما نصر أنه أخضع الساحل السورى حتى مدينة صور. ودفع طغيان الاشوريين والضرائب الباهظة التى فرضوها على الفينيقيين إلى التطلع إلى بلاد أخرى يتوجهون إليها، وهاجر الكثيرون منهم تاركين مدينة صور وفعل مثلهم الكثيرون من مدن الساحل الأخرى،

وتوجهوا إلى الساحل الافريقى الشمالى فى منطقة عند منتصف ساحل البحر الأبيض المتوسط وهناك أسسوا مستعمرة جديدة كانت عاصمتها مدينة قرطاج (٣٩).

وعندما نبحث عن أى نشاط عسكرى لشالما نصر فى رسائل تل العمارنة، فمن المنطقى أن نركز اهتمامنا على تلك الرسائل التى كتبت من مدينة صور.

لقد كتب أبيميلكى ملك صور عدة ألواح إلى الفرعون، يطمئنه فيها على قوة مركزه:

الرسالة ١٤٧: «وتعلم، أنى أحمى مدينة صور، مدينة الملك العظيمة، أحميها لمولاى الملك» وفى رسالة آخرى كتب:

الرسالة ١٤٩: «لقد عيننى مولاى الملك لكى أحمى مدينة صور، وهى رهن مشيئة الملك». وطلب الفرعون من أبيميلكى أن يزوده بتقارير ومعلومات عن مدن سوريا، وكتب إليه أبيميلكى أن عزيرو (حزائيل) قد غزا سومور (السامرا)، وأن مدينة دانونا بأرض سوريا هادئة (مر شالما نصر بتلك المدينة فى العام الثانى من حكمه وأسماها ديهنونا)، كما كتب أبيميلكى أن نصف مدينة أوجاريت قد دمرته النيران وأن النصف الاخر قد نهب، وأن الجنود الحثينيين قد غادروا المدينة.

لقد غزا شالما نصر مدينة أوجاريت مدينة الملك نيكديم فى العام الرابع من حكمه، وبسقوط دانونا وأوجاريت فى أيدى شالما نصر، أصبح وضع مدينة صور حرجا للغاية، خاصة فى وجود كراهية وبغضاء ظلتا تحكمان علاقة مدينة صور بمدينة صيدا، حيث يظهر ذلك أيضاً فى رسائل تل العمارنة، وزاد من حرج وضع مدينة صور اقتراب القبائل المتجولة المعتمدة فى معيشتها على قطع الطرق والسلب والنهب وهى قبائل كانت قادمة عبر الأردن. وكانت جزيرة صور بوضعها الجغرافى على الصخور الغربية من الشاطئ تعتمد اعتماداً كلياً على الساحل، ليس فقط للحصول على الماء ولكن للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء السفن.

فى ذلك المأزق الذى وجد أبيميلكى نفسه متورطاً فيه كحاكم لمدينة صور كتب إلى الفرعون أنه أصبح «عبداً لدموعه» وناشده مد يد المساعدة وفى آخر الأمر، وحين تلقى رسالة من الفرعون يخبره فيها أن الأسطول

الفرعوني في طريقه إلى صور، أرسل أبيميلكي سفنه لملاقاة الأسطول المصري، وبثت في نفسه تلك الأنباء بعض الطمأنينة لفترة وكتب للفرعون مرة أخرى قائلاً إنه سيدافع عن المدينة ولكن كانت المساعدات ضئيلة ومتأخرة جدا عن التوقيت الملائم ...

هذا إن كانت قد وصلت على إطلاقها. وفي عامه الثامن عشر على عرش الحثيين سجل شالما نصر أنه «يتلقى الجزية من شعب صور وصيدا ومن يهوه من بيت عومري» وفي آخر رسالة منه إلى الفرعون غير أبيميلكي من أسلوبه الذي كان يستخدمه في رسائله السابقة. لقد اعتاد قبل ذلك أن يصف الفرعون بأنه الرب الأعظم المنتصر «الراعد في السماء مثل عداد» ولابد أن نلاحظ أن تلك الصفات هي نفس ما كان يطلقها شالما نصر على نفسه «أرعدت مثل عداد إله العواصف» وكتب أيضا عن نفسه «شالما نصر الملك الجبار وشمس كل المخلوقات» وادعى كل من اخناتون وشالما نصّر أنهما الشمس ولذلك عندما تطورت الأحداث اكتشف أبيميلكي أنه كانت هناك شمسان إحداهما ضارية في بلاد الرافدين وأخرى خامدة كابية منطفئة الجذوة في مصر.

كان أبيميلكي ما زال على ولائه وإجلاله للفرعون وكان يخاطبه بـ «الشمس الأبدية» ولكنه في رسالته المطولة والأخيرة لم يكتب إليه بصفته الملك الأوحد وأظهر ذلك بوضوح لفرعون مصر أن أبيميلكي قد انحنى أيضاً أمام سيد آخر.

الرسالة ١٥٥: «مولاي الملك شمس الأبدية كان الملك قد أمر أن يعطى لخادمه وخادم أنفاس شالماياتي الماء اللازم للشرب ولكنهم لم ينفذوا ما أمر به الملك، لم يعطونا الماء. ولذلك آمل أن يولي الملك عنايته إلى خادم شالماياتي ويأمر أن يعطى إليه الماء من أجل بقائه حيا. وعدا ذلك فليولي مولاي الملك عنايته تجاهنا إذ إنه لا توجد أخشاب ولا ماء ولا حطب ولا أرض ولا حتى مكان لدفن الموتى فليول مولاي الملك عنايته إلى خادم شالماياتي حتى يحفظ عليه حياته».

لقد نشرت تفسيرات عديدة وغريبة لتوضيح المعنى المحير لكلمة شالماياتي ولم يأخذ أي من المفسرين في اعتباره أن شالما نصر كان معاصراً لأبيميلكي حيث كان شالما نصر في العام الثامن عشر لحكمه

يتلقى الجزية من مدن صور وصيدا ولا يمكن أن يكون شالماياتى اسما اخر للفرعون لأن أبيميلكى فى رسالته يطلق على نفسه صفة خادم الفرعون وخادم شالما ياتى وقد افترض أيضاً (٤٠) أن الكلمة من الممكن أن تقرأ بطريقه مختلفة أى «مايار آتى» حتى تصبح ذات علاقة باسم «ميريت – آتى» ابنة اخناتون. ولكن اعترف الكثيرون أن ذلك التفسير وتفسيرات كثيرة أخرى تعد تفسيرات ملفقة أو مبتسرة (٤١) ثم قيل إن شالماياتى كان إلهاً وتم بناء نظرية على هذا الافتراض فحواها أن أورشليم القديمة ومدينة صور كانتا تعبدان المعبود ساليم، وأن ملك صور كان يطلق عليها اسم شالماياتى، ولكن كان من الملاحظ أن العلامة المميزة التى توضع مع أسماء الآلهة كانت غير مصاحبة لاسم شالماياتى فى كل المرات التى ذكر فيها ذلك الاسم فى تلك الرسالة. فمن يكون إذاً؟

وعدا ذلك فإن تجاهلنا للحقيقتين – وهى أن الفرعون وشالماياتى لا يمكن أن يكونا شخصاً واحداً وأن شالماياتى لا يمكن أن يكون إلها – يجعلنا نبحث افتراضاً آخر لأحد الدارسين وهو أن شالماياتى كان اسم إله مساو للشمس أو آتون فى عقيدة اخناتون ولكنه هنا فى هذه الرسالة يذكر كذات أخرى لاخناتون مما يجعل علامة الألوهية التى تصاحب أسماءهم غير ضرورية إذ إنها صورة أخرى لذات الشخص (٤٢).

إن الرسالة الأخيرة التى أرسلها أبيميلكى للفرعون لم تنته بعد فماذا نجد فيها بعد ذلك؟ سنجد بالطبع ما ذكره عن هجرة شعب صور والمدن الفينيقية الأخرى على سفنهم هربا من وطأة العبودية الثقيلة التى فرضها عليهم شالما نصّر ومن الجفاف المتكرر والمتوالى والبحث عن وطن جديد على سواحل البحر المتوسط ومن المعروف أنه فى عهد شالما نصر أدى الفزع منه إلى هجرة الفينيقيين من صور ومدنهم الأخرى وما حدث بعد ذلك من تأسيسهم لمدينة جديدة على الساحل الإفريقى هى مدينة قرطاج.

إن الرسالة الأخيرة من أبيميلكى للفرعون تنتهى بالكلمات التالية:

الرسالة ١٥٥: «فليول الملك وجهه شطر خادمه وشطر مدينة صور مدينة شالماياتى تعلم أن شعب بيروتا (بيروت) قد رحلوا على سفينة وأن شعب صيدا (صيدون) غادروا فى سفينتين، وأنا أيضاً راحل بكل السفن وكل شعب المدينة».

إن المضمون المأساوى لهذه الرسالة يتضح فى الجزء الأخير منها لقد كتب أبيميلكى أنه سيهجر جزيرته الصخرية ويرحل بشعب صور، وهو يرجو الفرعون أن يعتنى بالمدينة المهجورة ومن فيها الذين أثقل كاهلهم عبء المكوس الثقيلة التى فرضها عليهم الملك الغازى.

من هو ملك الحثينيين المرعب فى رسائل تل العمارنة؟

قد يكون ملك الحثينيين الذى كان اسمه يجلب الفزع لأمراء سوريا والمذكور فى رسائلهم - قد يكون أحد شخصيات رسائل تل العمارنة، وبالرغم من صراعه الدائم مع مصر، فإنه لم يخض ضدها حرباً مباشرة أبداً وعلى الأقل لم يرسل الفرعون مرة واحدة جيشاً قوياً لمعاونة أمراء سوريا الخاضعين لهيمنته. وعلى ذلك فمن المحتمل أنهما. أى اخناتون وملك الحثينيين - قد تبادلا الرسائل. ويعد مقبولا بوجه عام أن يكون سوبيلوليوما، الذى توجد له بين الرسائل رسالة واحدة معتدلة اللهجة، هو ملك الحثينيين المرعب.

وبالفعل نجد أن فى عصر شالما نصر الثالث (القرن التاسع قبل الميلاد) كان هناك أمير يدعى سوبيلوليوما (سابالوم) والذى أشار إليه شالما نصر فى قصصه (٤٣). وربما يكون هو كاتب الرسالة المكتوبة بمجموعة تل العمارنة والموقعة باسمه (٤٤) وفى نص قصير مكسور من مدينة أوجاريت يشير إلى تقدمات الملوك إلى ربة المدينة آدن، نجد أن إسم الأمير نيكميد أمير أوجاريت - رأس شمرا واسم سوبيلوليوما مذكوران فى ذلك النص (٤٥)، ومن الواضح أن نيكميد وسوبيلوليوما أيضاً قد ساهما فى تلك التقدمات إلى ربة آدن، ولم تكن آدن بعيدة عن أوجاريت وقد سقطت فى أيدى شالما نصر الثالث فى إحدى حملاته العسكرية. «لقد اقتربت غازيا من مدن آرام (اسم شخص) واستوليت على ادن، مدينته الملكية» (٤٦).

وبجانب ما عرفناه عن شخصية شالما نصر الثالث وتطابقها مع شخصية من ذكر عنه أنه ملك الحثينيين الغازى القادم من الشمال فى

عصر مراسلات تل العمارنة، فإنه أيضاً يوجد من الأسس ما يمكن الارتكاز عليه فى التعرف عليه كأحد أصحاب رسائل تل العمارنة.

لقد ذكرنا قبل ذلك أنه ذكر فى رسائل ملك صور باسم شالماياتى، ولكن لم توجد رسائل ممهورة بذلك الاسم.

وبقدر ما كان شالما نصر هو الملك الآشورى الذى أصبح أيضاً ملكاً على بابل بقوة الغزو والخديعة والتآمر، فإننا نجد أيضاً إسم بورابورياش (بورنابورياش) الذى كتب من بابل والذى كان يشير إلى الآشوريين كأمر يخصه (٤٧)، ومن المحتمل جدا أن اسم بورابورياش هو الذات الأخرى لشالما نصر الآشورى، ومن المعروف جيدا أنه كان من الشائع فى نينوى وبابل أن يتخذ الملك لنفسه عديداً من الأسماء (٤٨).

لقد كتب شالما نصر عن نفسه قائلا: «شالما نصر الملك القادر على كل العالم، الملك الذى لم يوجد نّد له، الحاكم المطلق ... والذى قهر قدرة كل أمراء العالم، والذى هشم كل أعدائه كما تهشم القدور الفخارية، البطل الجبار الذى لا يرحم».

ومن الواضح أن شالما نصر وحده فى ذلك العصر كان من يجرؤ على الكتابة بذلك الأسلوب فى الرسالة التى تحمل اسم بورابورياش. كان بورابورياش شديد الغطرسة ومتعجرفا. وكانت رسائله أقرب إلى الإهانات. وبحجة أنه يشعر بتوعك رفض أن يقابل رسول فرعون مصر ويقول عن ذلك «إن رسوله لم يأكل طعاماً أو يشرب جرعة نبيذ فى حضورى أبداً» ورغم ذلك، ومع أن الفرعون كان هو الشخص المهان، فإن بورابورياش قال إنه غاضب، وقال «إننى أعبر عن حنقى وغيظى من أخى» بالرغم من أنه لم يتسلم رسالة الفرعون التى وجهها إلى ذلك الملك المتوعك والتى يعرب فيها الفرعون عن قلقه.

وحين أبلغه رسوله إلىَ الفرعون بعد أن استجوبه بدقة عن سبب تأخيره وإن كان الفرعون قد أهمله حين وصل إلى مصر - أبلغه الرسول - أن الطريق كان طويلا وأن فى مثل تلك الفترة القصيرة لم يكن بإمكان الفرعون أن يرد على أخبار توعك الملك الآشورى، ورد فى رسالة منه إلى الفرعون قائلا «لم أعد أحمل غيظا ولا حنقا عليك» ثم اكتشف أن هناك خطأ فى هدايا الفرعون إليه: «إن الأربعين وزنة من الذهب التى أرسلتها

لم يكن وزنها مضبوطا بعد أن وضعتها فى فرن الصهر » كما طلب منه أن «يعوض له خسارته » عن قافلة قد نهبت فى سوريا وبالتحديد فى أرض خينشى، وأمراؤها عبيد لك «وعلى ذلك» يجب أن تلزمهم بإعادة ما سرقوا مع الأموال التى استولوا عليها، «فلتفعل شيئاً» كما كتب أيضاً «لا تبق رسولى لديك طويلا، دعه يرجع بسرعة» كما أمر أن تصنع له مختلف التحف الفنية وأن ترسل إليه كهدايا «مر مثاليك أن يصنعوا تماثيل للحيوانات، برية أو نهرية، كما لو كانت حية» وقد أرسل بدوره هدايا إلى الفرعون ومعها ملاحظة تقول «ولكن بالنسبة لزوجتكم فإننى أرسل إليها عشرين خاتماً فقط من اللازورد الجميل لأنها لم تفعل أى شىء ولم تبد اهتماماً كافيا».

إن هذا الأسلوب فى الكتابة إلى الفرعون يعد أسلوباً فريداً فى مجموعة رسائل تل العمارنة. وكل الأدلة تشير إلى توحد شخصية شالما نصر وبورابورياش فى النقوش الآشورية، مع شالماياتى فى رسالة ملك صور، مع شخصية ملك الحثينيين.

وهناك سجل طويل جداً لقائمة الهدايا التى أرسلها اخناتون إلى بورابورياش (٤٩) فبعد تعداد مكثف لهدايا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج، تذكر القائمة الحيوانات، ولكن ذلك الجزء من القائمة ممحى وغير مميز منه إلا كلمة «وعل».

إن القائمة تعطى انطباعاً أنها جزية أكثر من كونها هدايا، كما أن رسائل بورابورياش تدل على أن الهدايا التى كانت بأعداد كبيرة لم تصنع بإرادة حرة تماماً.

إن الكنوز التى وجدت بمقبرة توت عنخ آمون زوج ابنة اخناتون لا تعادلها أية كنوز أو آثار أخرى مكتشفة فى مصر أو فى أى مكان آخر من العالم، ولكنها تبدو هامشية ومتواضعة مقارنة بهدايا اخناتون المرسلة إلى بورابورياش: إن القائمة تبدأ كما يلى:

الرسالة ١٤: تلك هى الهدايا التى أرسلها نافوريا، الملك العظيم، ملك مصر (سار مسرى) إلى أخيه بورنابورياش الملك العظيم، ملك كارادونياش (بابل).

لقد صور شالما نصر على إحدى المسلات صوراً تمثل تقديم الجزية إليه

من مختلف البلاد، وأحد تلك الأسماء هو موسرى (مصر): «جزية أرض موسرى» وبالإضافة إلى الذهب فقد كانت هناك هدايا تعد أكثر قيمة من ذلك المعدن مثل الحيوانات النادرة كالجمل ذو السنامين وجاموس البحر، وحيوانات أخرى برية وبحرية، بعضها مصور على المسلة. ومن الواضح أنها كانت صورا لحيوانات «برية ونهرية» أرسلت كاستجابة للطلب الذى أمر به فى رسالته للفرعون.

وبتلخيص المقارنات والمقابلات بين قصص شالما نصر المنقوشة ورسائل تل العمارنة فيما يختص بملك الحثينيين فإننا نجد ما يلى:

أن سجل شالما نصر عن حملة العام الرابع العسكرية ضد نيكديم (نيكميد) لها ما يقابلها فى رسالة ملك صور، كما أنها لها ما يقابلها فى البيان الذى وجد فى أوجاريت – رأس شمرا. وأيضاً نجد أن حملات شالما نصر المتتابعة على سوريا – وقد ذكر بنفسه أنها ست عشرة حملة فى الثمانية عشر عاما الأولى من حكمه – لها أيضاً ما يقابلها فى رسائل تل العمارنة وبالذات فى الرسائل القادمة من مدن شمال سوريا.

وكتب شالما نصر «أخضعت أرض الحثينيين من أبعد حدودها لحكمى» وكتب أيضا «تلقيت الهدايا من كل ملوك الحثينيين» (٥٠) وفى رسائل تل العمارنة نجد أن الملك الغازى يسمى «ملك الحثينيين» وتدميره وإحراقه للمدن العديدة مذكور فى نقوشه كما هو مذكور فى رسائل تل العمارنة، وآثار الحريق ما زالت موجودة ومرئية بوضوح فى أنقاض أوجاريت. والرعب القاتل من أسلحته والتى طبقاً لقصصه ملأت قلوب ملوك أرض عمورو بالفزع نجد صداه فى عديدٍ من الرسائل.

إن المدن والأمراء الذين كتبوا للفرعون عن اقتراب جيش الملك الغازى مذكورون أيضاً فى قصص شالما نصر بأنهم أولئك الذين حاربوه بمساعدة من مصر (موسرى) فى العام السادس من حكمه. وقد تصدوا له مرة أخرى فى عامه الحادى عشر، ومرة ثالثة فى عامه الرابع عشر. وكان قائد التحالف ضد الملك الآشورى يسمى بريدرى فى القصص الآشورية، وبريدريا فى رسائل تل العمارنة (كتبت أيضاً بريدرى)، وهناك أيضاً تقارير عسكرية جاءت منه إلى الفرعون عن استعداداته للدفاع ضد ذلك المعتدى.

ونجد أيضاً أن خضوع مدن صور وصيدا إلى حكم شالما نصر فى العام الثامن عشر من حكمه ورحيل السكان على سفنهم بحثاً عن وطن جديد، مذكور كله فى آخر رسالة من ملك صور إلى فرعون مصر. كما نجد أن مسيرة شالما نصر ضد حزائيل ملك دمشق، مذكورة فى قصص شالما نصر كما هى مذكورة فى رسائل حزائيل (عزيرو) كذلك نجد أن تمركز حزائيل مقابل جبل لبنان (سينير) مسجل أيضاً فى قصص شالما نصر كما هو مسجل فى رسائل تل العمارنة. ونجد أن الرسائل تذكر فوق ذلك معارك ملك الحثينيين (شالما نصر) فى كل أرجاء منطقة الشرق القديم.

إن رسائل تل العمارنة تصف، ومسلة شالما نصر تظهر بالصورة الهدايا الذهبية والحيوانات النادرة التى أرسلها فرعون مصر.

مصطلحات رسائل تل العمارنة

لقد كتبت رسائل تل العمارنة بالبابلية (الأكادية) ولكن بأشكال ورموز مسمارية، مع اختلاطها بعديد من المفردات، والمصطلحات السورية، وبما أنها كتبت فى عهد يهوشافاط ملك أورشليم، فإن وسائل التعبير فيها، والتى تعد مميزة لعصر بذاته من المتوقع أن نجدها متماثلة مع طرق التسجيل فى كتب الأنبياء المبكرة حيث لا يفصل يهوشافاط عن النبى عاموس إلا مائة عام فقط.

إن تماثل التعبير فى رسائل تل العمارنة القادمة من فلسطين، مع كتب الأنبياء ونصوص المزامير لا يمكن أن يخفى على انتباه أحد، بل حتى تماثل المقاطع والتكوينات التعبيرية المختلفة تم رصده وحصره والتأكد عليه من قبل بعض الباحثين وهنا نورد بعض الأمثلة (٥١).

نجد أن الولاء يعبر عنه فى رسائل يختري (يحترى) وبعل مير (٥٢) بالمجاز التالى - «أضع عنقى تحت النير وأحمله لاجلك»، ونجد نفس التعبير مستخدم فى سفر أرميا ٢٧: ١١.

كما نجد أن كسر إرادة العدو وإخضاعه كان يوصف بالكلمات التالية: «نجعله يلعق التراب» وهى من رسالة مدينة إرقاطة كما هى موجودة فى سفر اشعياء ٤٩: ٢٣ «يسجدون لك ويلعقون غبار قدميك».

وحين يشيح الملك بوجهه عن شخص كان يقال إن الملك «أراق اعتبار وجه» أحدهم أو أنه أخلى يديه منه ونجد تلك التعابير فى رسائل رب - عبد آخاب كما نجدها فى سفر التكوين ١٩: ٢١ وصموئيل الأول ٢٥: ٢٩. كما نجد أن رب - عدى يذكر «أن وجهى ما هو إلا وجه صديق تجاه الملك»، وأنه قد ولى وجهه شطر عظمة الملك، وأنه يتطلع إلى وجهه الرحيم وما تذكره التوراة عن الوجه والحضور لابد أن يتبادر بسرعة إلى الذاكرة.

كما يذكرنا ترتيل اخناتون بالمزمور ١٠٤ وكذلك يذكرنا المزمور ١٣٩ :٧ بكلمات رسالة تاجى (الرسالة ٢٦٤) «فنحن نتأمل، عيناى الاثنتان ترفعانك، فلو ولجنا أبواب السماء، أو هبطنا إلى الأرض، فإن فكرنا يبقى فى يديك».

كما نجد أن تعبير «مسند قدميه» مستعمل فى إحدى الرسائل كما هو مذكور فى المزمور ١١٠. ونجد أيضاً أن آخى - ياوى قد كتب «أنت أخ»، و«الحب فى أعماقك وفى قلبك». وهو تعبير موجود فى سفر آرميا ٤: ١٩ كما كتب أهل مدينة دونيب (تونيب) «إن المدينة تبكى وتسيل دموعها، وليس هناك من يأخذ بيدها» وتلك العبارة تذكرنا بما جاء فى سفر مراثى أرميا ١: ٢ وسفر أشعيا ٤٢: ٦.

ونجد أن مناشدة رب - عدى (آخاب) لاسم الملك تحتوى على تعبيرات موجودة أيضاًفى سفر التثنية ٩: ٢٧، وفى سفر يشوع ٧: ٩، وحين أراد أن يقول إنه اعترف بآثامه نجده قد استعمل تعبير «فتح خطاياه» (٥٣)، وهو تعبير موجود أيضاً فى سفر الأمثال ٢٨: ١٣ وحين كتب أنه يفضل الموت «إن لم يكن هناك قلب آخر غير ما يجده لدى الملك» فإنه قد استخدم تعبيراً موجوداً فى سفر صموئيل الأول ١٠: ٩ وحزقيال ١١: ١٩.

لقد كتب ملك أورشليم إلى الفرعون قائلا «لأنك وشمت أورشليم باسمك إلى الأبد، فإنك لا يمكن أن تنساها» وهى كلمات تذكرنا بجملة فى سفر آرميا ١٤: ٩ ومرة أخرى يكتب «ترون أن مولاى الملك قد وضع اسمه على مشرق الشمس وعلى مغربها» وهناك ما يقابل ذلك فى سفر ملاخى ١: ١١.

كل الأمثلة السابقة ومقابلاتها من أسفار التوراة دفعت الدارس الذى جمعها أن يعلن قائلاً: إن التعبيرات الغنائية فى أقوال رب - عدى وعبدى

- خيبا تعد أمثلة مبكرة لسفر مراثى آرميا فى صورتها التى اكتملت بعد ذلك لدى الإسرائيليين الذين اتجهوا بإيمانهم بعد ذلك ليس لفرعون مصر المعبود وسيدهم الأعلى بل إلى إلههم الأوحد يهوه (٥٤) وبتوصله إلى تلك النتيجة فإن ذلك الدارس قد أصاب نصف الحقيقة، لقد أكد على التماثل فى التعبيرات وقد كان على صواب، ولكنه أجبر بسبب فوضى تأريخ العصور وهو التاريخ التقليدى المتداول - أجبر - على اعتبار أن الكنعانيين استخدموا نفس التعبيرات قبل أن يستخدمها أنبياء اليهود فى المخطوطات اليهودية بسبعمائة أو ثمانمائة عام، وقد كان على خطأ.

إن الميراث المفترض للثقافة الكنعانية فى الفنون والآداب لم يكن إلا إبداعاً إسرائيلياً خالصاً، والأدلة على استمرارية توريث الحضارة فى فلسطين (قبل وبعد الغزو الإسرائيلى لأرض كنعان) تتلاشى واحداً بعد الآخر.

وإلى تلك القائمة من المقارنات، والتى أخذناها من أبحاث الآخرين، من الممكن أن نضيف كل تلك التعبيرات التى وجدنا أنها متماثلة فى كل من الرسائل وفى محاورات ومناجاة أسفار الملوك وأخبار الأيام فى الفصول التى تتحدث عن عهد آخاب ويهوشافاط والتى قارناها فى صفحات سابقة ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد قارنا أيضاً الشكل فى حديث يهوشافاط بتركيبات متماثلة فى رسائل ملك سومورا ووجدنا أن كل جملة من حوار حزائيل فى التوراة موجودة فى رسائل من عزيرو وفى رسائل عنه.

إنه لمن اليسير أن نزيد تلك المجموعة من الأمثلة، فلم يخل حوار ولا مناجاة فى أسفار الملوك وأخبار الأيام من تعبيرات وأشكال لغوية إلا ووجدنا مثلها فى رسائل تل العمارنة كما أن الأشكال التقليدية فى الإعراب عن الاحترام والتبجيل فى المخاطبة مثل «مولاى الملك»، أبى، ابنك وأخوك، بالإضافة إلى تعبيرات مميزة مثل «ولكن من هو ذلك الخادم الكلب حتى يجرؤ على فعل ذلك» (٥٥) أو «أن أنظارنا تتطلع إليك» (٥٦) عدا مصطلحات عامة مثل «فلتطلقه يداك» (٥٧)، وكل تلك الأمثلة مأخوذة من الرسائل كما هى موجودة فى أسفار الملوك وأخبار الأيام فى الفصول التى تتعلق بآخاب ويهوشافاط.

إن فن الكتابة على ألواح الطين كان قد تطور، كما كان من الشائع تبادل الرسائل فى عهود يهوشافاط وآخاب.

لقد أرسلت جيزابيل (إيزابيل) زوجة آخاب رسائل إلى كبار جيزريل تدعوهم فيها إلى التقدم بشهادة زور ضد نابوث حتى تستولى على بستانه، كما أرسل بن - حدد رسالة إلى ملك إسرائيل يطلب منه فيها أن يتوسط لدى النبى لشفاء النعمان، وأرسل ياهو بعد مؤمراته فى جيزريل رسالتين إلى كبار السامرا.

إن رسائل تل العمارنة تمدنا بدليل كافٍ يبرهن على أن استخدام الكتابة وتبادل الرسائل كان شائعا فى فلسطين فى ذلك العصر كما تبرهن أن المخطوطات كانت تقرأ وتكتب فى فلسطين فى عهود آخاب ويهوشافاط بالمسمارية بالإضافة إلى العبرية وذلك يؤكد صحة النظرية التى تم التوصل إليها فى بداية القرن (٥٨) وهى أن المسمارية كانت هى لغة الكتابة فى فلسطين فى وقت وقوع أحداث القصص التى سجلها كاتب نصوص التوراة بعد ذلك.

إن أعمال التنقيب والحفر فى السامر أسفر عن العثور على لوحين مكتوبين بالمسمارية وكان محتوى نص احداهما ما يلى: «يقول عبياهى ... إلى حاكم المدن ... لتسليم ستة من الثيران واثنتى عشرة من الماعز» أما اللوح الآخر فإنه لم يميز منه شىء نظراً لسوء حالته التى وجد عليها وكان اللوحان مختومينْ بختم عبرى، وذلك يؤكد أن الكاتب كان عبرياً (٥٩) أما تاريخ الألواح التى كتبت فى قصر السامرا فإنه غير معروف. لقد بنى القصر فى بدايات القرن التاسع ق. م، ثم دمر فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد.

عصر العاج

إن فترة مراسلات تل العمارنة من الممكن أن نطلق عليها «عصر العاج»، فقد كان العاج من بعد الذهب هو المرغوب والمفضل عبر كل العصور، وكانت مصنوعات العاج من أكثر المصنوعات التى يتطلع إليها الجميع، وتطعيمه باللازورد الأزرق كان يشكل الهدايا الملكية التى تعلو

ذكراً وقيمة، وقد أرسل ملوك آسيا كثيراً من اللازورد الأزرق إلى الفرعون أمينوحتب الثالث وإلى اخناتون من بعده، وكانت المصنوعات وخاصة الأثاث المصنوع من العاج أو المطعم به ما يطلبه الملوك من فراعنة مصر.

لقد كتب أمينوحتب الثالث إلى ملك إرزاوا فى آسيا الصغرى:

« أرسل إليك عشرة مقاعد من الأبنوس مطعمة بالعاج واللازورد » كما كتب توشرات ملك الميتانيين إلى أمينوحتب الثالث قائلا:

« فليرسل إلى أخى ثلاثة تماثيل من العاج ».

وقد كتب بورابورياش من بابل طالباً مصنوعات من العاج.

الرسالة ١١: « فلتصنع أشجاراً من العاج وتلونها، واصنع نباتات حقلية من العاج ولونها ... ثم أرسلها إلى ».

إن قائمة الهدايا التى أرسلها أمينوحتب الرابع (اخناتون) إلى بورابورياش تعرض « عصر العاج » بوضوح أمام عينى القارئ، وهذه بضعة مقاطع من تلك القائمة:

الرسالة ١٤: « ثمانية من الأومينيو من الأبنوس المطعم بالعاج.

اثنان من الأومينيو من الأبنوس المطعم بالعاج.

... من الأبنوس المطعم بالعاج.

ستة من مخالب الوحوش من العاج.

تسعة نباتات من العاج.

عشرة ... التى ... من العاج ...

تسعة وعشرون إناء زيت على شكل ثمار الخيار من العاج.

أربع وأربعون إناء زيت ... من العاج

ثلاثمائة وخمسة وسبعون إناء زيت من العاج

تسعة عشر (جازو) من العاج

تسع عشرة حلية صدر من العاج

ثلاثة عشر أومينيو من العاج

ثلاثة أوان من العاج

ثلاثة أوان زيت على شكل ثيران من العاج.

ثلاثة دوشاهو زيت، من العاج.

من العاج   من العاج   من العاج

إن البحث الحالى الذى نحن بصدده قد أثبت أن الملك آخاب كان معاصراً لامينوحتب الثالث ومن بعده اخناتون، وأن السامرا قد تم بناؤها بمساعدة مصر. وفى السامرا أيضاً تم بناء بيت من العاج.

سفر الملوك الأول ٢٢: ٣٩ وبقية أمور آخاب، وكل ما فعل وبيت العاج الذى بناه، وكل المدن التى بناها مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل.

وبعد آخاب بعدة أجيال تنبأ النبى عاموس لإسرائيل والسامرا العاصمة بمبانيها بالنبوءة التالية:

سفر عاموس ٣: ١٥ «واضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة، يقول الرب».

ومرة أخرى تنبأ بالشر «لأولئك الذين يعيشون منعمين فى صهيون، ومن يؤمنون بجبال السامرا».

سفر عاموس ٦: ٤ - ٥ «المضطجعون على أسرة من العاج، والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم وعجولا من وسط الصير، الهاذرون مع صوت الرباب المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود».

كانت المنازل العاجية، والأسرة العاجية تعد بالنسبة للمنقبين الأوائل مجرد تخيلات شعرية لواضعى التوراة (٦١)، ولكن الحفريات التى تمت فى موضع السامرا القديمة بعد ذلك كشفت عن «مئات القطع المحطمة من العاج» (٦٢) وقد اتضح أنها كانت مصنوعات للزينة وقطعاً من الأثاث وأشغال الحلى. (٦٣) وكان من السهل التحديد بيقين أن تلك المصنوعات قد صنعت فى عهد آخاب.

وكانت القطع العاجية المنقوش عليها بحروف عبرية هى الشاهد على ذلك الاستنتاج، فبعد مقارنة تلك الحروف بالنقوش التى على نصب ميشع، اتضح أن كليهما قد صنعا فى نفس العصر (٦٤).

وقد كتب المنقبون بكل تجرد ما يلى: «لم نجد مكتشفات أكثر دلالة من تلك التى وجدناها على ازدهار الفنون فى المملكة الإسرائيلية» (٦٥).

كان على بعض تلك المصنوعات تصميمات زخرفية مصرية، بالإضافة إلى التاج المصرى المزدوج المحفور بمهارة على بعض الصحاف (٦٦).

والدارس للتوراة يتوقع أن يجد صبغة أشورية على فنون تلك المنطقة بسبب سيادة الآشوريين على شمال سوريا فى القرن التاسع قبل الميلاد، لا صبغة مصرية، فى وقت (طبقاً لقائمة التاريخ عن تتابع العصور) لم يكن الفن المصرى فيه قد وصل إلى مرحلة الازدهار فى عهود خلفاء شوشنق (سوسنك) المغمورين من الأسرة الثانية والعشرين، وذلك بعد زمن طويل من الأسرة الثامنة عشرة الذائعة الصيت. لقد فوجئ المنقبون عن آثار السامرا وسجلوا ما يلى:

«من الواضح والمميز أنه لا توجد فى العاج المكتشف أية دلالة على تأثره بالفن الآشورى» و «أن تأثير الفنون المصرية يطغى بشكل كبير» (٦٧) كما وجدت رقائق معدنية منقوش عليها آلهة مصرية، أما سمات الأثاث «فكلها مصرية» (٦٨).

وبتزامن عصر اخناتون مع عصر آخاب، فإننا نتأكد من أن الدور الذى لعبته مصر فى حياة السامرا فى عصر رسائل تل العمارنة يجعل الحضور المهيمن لأنماط أشكال الأثاث المصرية فى مصنوعات العاج فى السامرا أمراً منطقياً تماماً. وبإمكاننا أن نقارن مصنوعات العاج فى السامرا بتلك المصنوعات فى مصر فى عهد اخناتون. وقد وجدت فى السامرا «أشكال بشرية ذات أجنحة» والأشكال البشرية المجنحة المصنوعة من العاج مقتبسة من نماذج مصرية. والربات الحارسات من ذلك التصميم يقفن فى الأركان الأربعة لمقبرة توت عنخ آمون (٦٩)، كما وجد فى السامر ثلاثة من تماثيل أبى الهول «المجنحة ذوات الرؤوس البشرية والموجود مثيل لها فى مقبرة توت عنخ آمون» (٧٠).

كان توت عنخ آمون زوجاً لابنة اخناتون، ووجود أشكال متشابهة على تابوته الحجرى وفى السامرا فى عهد آخاب، يعد من وجهة نظرنا ليس بعيداً عن التوقع.

إن المنقبين عن عاج السامرا قد لاحظوا أنماط الحلى والزينة، وأدركوا مدى تأثير الفنون المصرية الواضح ولكنهم ظنوا أنه فى عصر آخاب كانت استعادة الأشكال القديمة من الفنون هى الاتجاه السائد، أى أن «مصر الأمس» قد تم استعادتها فى فنون السامرا بعد ستمائة عام من اضمحلالها.

وفى نفس حلى السامرة العاجية نستطيع أن نتعرف على تلك الأنماط التى جاء ذكرها بالتوراة كأشجار النخيل المنقوشة «بين ملاك وملاك» (سفر حزقيال ٤١: ١٨).

ومن جهة أخرى فقد كتب باحث آخر أن «بعض الأشكال من مصنوعات السامرا العاجية كانت تشبه تلك الأشكال المنحوتة التى كانت ببيت الرب فى أورشليم» (٧١) ثم استنتاج آخر رأى أن أشكال الزينة فى هيكل أورشليم كانت تمثل مرحلة وسيطة بين التأثيرات المتتالية للحضارات المجاورة وأن الكل «يعود إلى أشكال سابقة لصناعتها ... أى إلى الفن المصرى للأسرة الثامنة عشرة» (٧٢).

إن المكان الأصلى للشكل – إن كان مصر أو فلسطين – من الممكن أن يكون موضع كثير من الجدل ومن المحتمل أن التأثير كان متبادلا فى اقتباس أشكال الزينة والحلى ومهما كان الأمر فإن هناك حقيقة تعكس كل النتائج فى دراسة الفن المقارن فى مصر وفلسطين وهى: أن الأسرة الثامنة عشرة قد حكمت من عهد شاؤل حتى ياهو، وأن المعابد العظيمة مثل معبد الأقصر ومعبد الكرنك، وهما لتحتمس الثالث وأمينوحتب الثالث، قد بنيت جميعها بعد وليس قبل معبد أورشليم.

وفى عهد سليمان كان العاج يجلب من مناطق بعيدة جداً، وكذا الفضة، والقرود والببغاوات، وقد كانت تصدر من فلسطين إلى مصر، وقد جلبت حتشبسوت العاج معها كما تحكى صور الجدران من بعثتها إلى بلاد بونت، وتحكى نفس القصة النقوش المصاحبة للرسوم. كما قام الفرعون تحتمس الثالث فى حملته العسكرية بنهب محتويات مجدو، وطبقاً لروايته «ست موائد كبيرة من العاج وستة مقاعد من العاج» بالإضافة إلى الغنائم الأخرى. ثم جلب الفرعون «عرشاً كبيراً من العاج مطعماً بالذهب الخالص»، وذلك مذكور أيضاً فى الرسائل العبرية (سفر أخبار الأيام الثانى ٩: ١٧، ١٢: ٩).

وفى حملته الثانية حصل تحتمس الجزية من أرض فلسطين، وكانت تحتوى على «آنية مطعمة بالعاج» كما نجد فى سجلات قوائم الجزية التى حصل عليها من بونت، أرض الإله، أو رزينيو (فلسطين) أن هناك ذكراً متكرراً لأنياب العاج (ثمانية عشر ناباً من العاج من أمراء رزينيو فى

حملة جمع الجزية السادسة عشرة)، وذكراً متكرراً للأثاث (موائد من العاج فى الحملة الثالثة عشرة لجمع الجزية). وبعد أن نما أسطوله البحرى - بالمساهمة مع أسطول الفينيقيين - أرسل أسطوله لجمع الجزية، ومثله مثل حتشبسوت التى سبقته استعمل الطريق البحرى لنقل العاج من فلسطين إلى مصر.

وكان فن المشغولات العاجية قد انتقل فى ذلك الوقت إلى مصر، وعلى جدار مقبرة رخمير وزير تحتمس الثالث نجد صوراً لعمال فلسطينيين عاكفين على عمل خزانات من العاج «وقد كانوا نحاتين مجلوبين إلى مصر».

وقد بنيت السامرا بعد ذلك بعدة عقود، وأصبحت مركزاً للمصنوعات العاجية، وكل إنتاجها تقريباً كان مخصصاً لبيعه إلى مصر. ومن بين العاج المكتشف بين أنقاض السامرا، نجد أن هناك عديداً من القطع التى لم ينته تشكيلها بعد. وهى على أشكال فنية مصرية.

وكانت المؤثرات اللونية تنتج بصبغ العاج بحبيبات التلوين (٧٣) وقد وجدت مشغولات عاجية ملونة فى مقبرة توت عنخ آمون. كما نقرأ فى رسائل تل العمارنة فى رسالة بورابورياش ما ذكره عن المصنوعات العاجية الملونة.

وتذكر رسائل تل العمارنة الأثاث والمصنوعات المختلفة من العاج التى أرسلت إلى آسيا الصغرى، وإلى قبرص، وآشور، وبلاد أخرى فى غرب آسيا. وقد اكتشفت مصنوعات عاجية فى تلك البلاد مماثلة لتلك التى وجدت فى طور التصنيع فى السامرا.

وفى القرن الماضى اكتشفت رقائق مطعمة بالعاج وعليها أشكال مصرية فى بلاد الشرق القديم. وحين اكتشفت المصنوعات العاجية فى حفائر السامرا فقد نسبت - وقيل - إنها تشبه تماماً تلك المصنوعات التى اكتشفت قبل ذلك فى قصر نمرود وأماكن عديدة أخرى: إن المصنوعات العاجية «ذات المصدر الواحد مثل مصنوعات السامرا، اكتشف لايارد مثيلا لها فى القصر الشمالى الغربى فى نمرود، وهناك أمثلة متناثرة أخرى من هنا وهناك تعود لنفس المصدر» (٧٤).

إن المصنوعات العاجية المماثلة لمصنوعات السامرا قد وجدت فى أماكن

عديدة مختلفة وكان بعضها مصنوعات مصرية من عهد الأسرة الثامنة عشرة، وأحد تلك الأماكن هو موقع مدينة مجدّو القديمة. وبالرغم من أن المصنوعات العاجية للسامرا ومجدو تظهر نفس التصميمات والأشكال ونفس طريقة الصناعة، إلا أن كلا منها نسب إلى عصر مختلف (٧٥). وبالمثل نسبت المكتشفات الأخرى عن طريق من عثروا عليها، إما إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة (فى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق. م طبقاً للتاريخ التقليدى)، وإما إلى عصر ملوك السامرا (القرنان التاسع والثامن ق. م طبقاً للتاريخ التقليدى) وقيل عن الفترة اللاحقة أى عصر ملوك السامرا إنها كانت فترة تقليد للفن المصرى السابق وللأشكال المصرية القديمة ولعصر نهضة قديم مضمحل.

وفى حقيقة الأمر لم يكونا إلا عصراً واحداً، وكان عاج سامرا آخاب وعاج طيبة توت عنخ آمون ليس إلا منتجات عصر واحد هو العصر الذهبى لفنون صناعات العاج.

استنتاجات

إذا كان القرار هو المحافظة على التركيبة للتاريخ والتمسك بها، والإصرار على أن رسائل تل العمارنة قد كتبت إلى أمراء الكنعانيين القدماء ومنهم فإن ذلك يستدعى التمسك بأن الأحداث التى وقعت فى كنعان قد تكررت مرة أخرى بعد ذلك بخمسة قرون فى عصر يهوشافاط وآخاب. ويحتم ذلك أيضاً التمسك بأنه كانت هناك قبل ذلك مدينة أخرى تسمى سومور لم يبق منها أى أثر، وأن تلك المدينة بقصرها الملكى وأسوارها المنيعة قد حوصرت مراراً على أيدى أحد ملوك دمشق الذى كان فى نزاع مستمر وصراع دائم مع ملك سومور حول عدة مدن، صراع دام عدة عقود من الزمن، وأنه فى إحدى المرات أسر ملك سومور ملك دمشق ثم أطلق سراحه بعد ذلك، وأنه فى أحد الحصارات التى قام بها ملك دمشق لمدينة سومور نجح شباب الأمراء والحرس فى طرد الجيش السورى وفك الحصار من حول أسوار سومور، وأنه فى حصار آخر ضربه جيش ملك دمشق حول سومور سمع الجيش السورى إشاعات عن وصول الرماة

المصريين، فتركوا مواقعهم وفروا. كل تلك التفاصيل يجب أن تكون صورة مكررة حدثت بكل تفاصيلها مرة أخرى، بعد ذلك بخمسمائة عام حول أسوار السامرا.

إن التركيب التقليدى للتاريخ يملى أيضاً أن ملك دمشق الذى كان على رأس تحالف مكون من عديد من رؤساء القبائل العربية، نجح فى تدبير تمرد قام به ملك أراض عبر الأردن اسمه ميشع ضد ملك سومور بعد أن كان تابعاً له، وأن ذلك الملك التابع والمتمرد بعد ذلك قد استولى على عدة مدن من ملك سومور وأذل شعبه، كما حدث تماما فى عصر تمرد ميش ضد ملك السامرا وأن ريموتا كانت موضع نزاع بين ملك دمشق وملك سومور، كما كانت راموث فى العصر الآخر البديل وأن ملك سومور كان له مسلك آخر حيث كان يعبد إلها آخر يسمى بعلث، وأن نفس الوقائع، مثل ذلك الإله الذى أدخلت جيزبيل عبادته، قد حدثت فى عصر آخر، وأن ملك سومور زرع بساتين فى مسكنه الثانى كما فعل آخاب فى حقل نابوث، وأن ملك دمشق قد دبر عديداً من الكمائن لقتل ملك سومور الذى كان ينجو منها فى كل مرة، مثلما حدث مع ملك السامرا فى العصر البديل، وأن ملك دمشق قد مرض مرضاً شديداً، ولكنه لم يمت من المرض بل لقى حتفه صريعاً على فراش مرضه، مثلما حدث مع ملك دمشق فى العصر البديل المفترض فى التاريخ التقليدى.

إن أولئك الدارسين والباحثين أصحاب الافتراضات والنظريات عليهم أن يقبلوا حدوث تلك الملابسات المتشابهة والأحداث المتماثلة المكررة، مثل ذلك العصر الذى أصاب فيه أرض سومور جفاف قاتل، نضبت معه عيون الماء ونتجت عنه مجاعة شديدة، وأن ذلك الجفاف قد دام لعدة أعوام وتسبب فى هلاك الناس وانتشار الأمراض بين الحيوانات، وأن السكان قد رحلوا عن المملكة ذات القصرين وأن كل ذلك بالضبط قد تكرر فى عصر آخر بديل.

وعلى الباحث أيضاً - إذا تمسك بصحة التاريخ التقليدى - أن يتمسك أيضاً بأن العصرين لا يختلفان فى أى منحى من المناحى نهائياً، وأن كل حدث فى أحدهما له توأمه فى العصر الآخر المشابه. وأن أرض إيدوم كان يحكمها نائب عن ملك أورشليم - فى كلا العصرين - وأن قبائل من منطقة

نائية من عند جبل ساير غزت شرق الأردن – فى كلا العصرين. وأن الغزاة هددوا أورشليم وكان ذلك سبباً فى فرار السكان وتركهم لديارهم فى كلا العصرين. وأن ملك أورشليم – كما فعل أيضاً يهوشافاط بعد ذلك بقرون – كان يخشى أن يجبر هو وشعبه على ترك وطنهم الذى ورثوه عن آبائهم، وأن كلا منهما قد عبر عن خوفه بنفس المصطلحات، وأن كل شىء قد بدل إلى الأفضل حين تحولت قبائل جبل ساير لتشتبك مع حلفائها من قبائل عبر الأردن، كما فعلوا نفس الشىء بعد ذلك بخمسمائة أو ستمائة عام.

وعلى الباحث أيضاً أن يتقبل فكرة أن قواد جيش ملك أورشليم الكنعانى قد وقعوا رسائلهم بنفس الأسماء التى كان يوقع بها رؤساء جيش يهوشافاط ملك أورشليم، وأن الأسماء كانت مميزة وغير عادية مثل آياهزبياد (يهوزاباد) وابن زوكر (ابن ذكرى) وعدايا (عدايا) أو عدادانو (عدانى، عدنا) الذى كان قائداً عاماً، وأن حاكم سومور كان له نفس اسم حاكم السامرا فى عصر آخر (آمون)، وأن المشرف العام على قصر سومور كان يسمى أرزايا مثله مثل مشرف القصر آرزا عند ملك إسرائيل.

ومرة أخرى نجد فى مدينة شونيم (شوناما) «سيدة عظيمة» عاشت بها، وحدث نفس الشىء فى العصر الآخر البديل حين وقعت لتلك السيدة معجزة جعلتها تكتسب اسم بعلات – نيس (أى السيدة التى وقعت ببيتها المعجزة).

وعلينا أيضاً قبول أن ملك دمشق كان لديه حاكم عسكرى يدعى نعمان (آيانهاما) الذى على يديه «نالت سوريا خلاصها» والذى كان فى البداية مصدر خوف ملك سومور، ولكنه تحول إلى صديق حميم بعد ذلك، والذى تجسد مرة أخرى بعد ذلك بستمائة عام.

وفوق ذلك علينا أن نقبل أن من تلا ملك دمشق المغتال على عرش البلاد باسم عزيرو أو عزارو، فعل ما فعله حزائيل فى عصر آخر حين طغى على سومور وغزا معظم أرض المملكة وأحرق النقاط الحصينة والقرى التابعة لملك سومور، وأنه كان يتحدث بنفس التعبيرات المميزة كما فعل حزائيل فى عصر آخر.

وسيواجه الباحث أيضاً حقيقة أخرى وهى أنه فى ذلك العصر الآخر المماثل فقدت مدينة إرقاطة ملكها مرة أخرى، وأن الملك ميتانو – بعلى

والملك أدونو – بعلى قاوما الغزو القادم من الشمال تحت قيادة بريدرى، تماماً كما حدث فى عصر سابق حين أخذ بريديا (بريدى) على عاتقه مهمة قيادة مدينة بلا ملك هى مدينة إرقاطة وقيادة تحالف مكون من ملك موت بعلو والملك أدونا ضد غاز قادم من الشمال وفى تلك الحالتين كان ذلك الغازى هو ملك أشور زعيم الحثينيين وفى كلتا الحالتين انتصرا على المتحالفين من أمراء سوريا وفلسطين تحت قيادة حاكم عسكرى مصرى على أرض فلسطين. وفى كلا العصرين تلقى الملك الغازى هدايا استرضاء من موسرى (مصر) على شكل حيوانات نادرة أو تماثيل لتلك الحيوانات. ومرة أخرى نجد أن حزائيل ملك دمشق حارب ذلك الغازى القادم من الشمال بين جبل لبنان وهيرمون كما فعل عزارو فى العصر الأول المشابه.

وعلينا أيضاً أن نقبل فكرة هجر ملكى صور وصيدا لمدنهم على متن سفنهم بعد أن أنهكها ذلك الغازى، كما نقبل أن نفس الأحداث قد وقعت قبل ذلك بستمائة عام.

وفى كلا العصرين المفترضين انتعش فن المصنوعات العاجية، وكان النتاج متماثلا فى التصميم والتنفيذ المميز لعصر سبقه، ثم أعيد تنفيذ ذلك الإنتاج فى عصر لاحق بمنتجات مماثله تماما لدرجة اعتبر معها أنه نسخ لمنتجات فنية لعصر سبقه.

وأن نقبل أيضا أنه فى كلا العصرين ساد نفس التصميم المعمارى ونفس طريقة البناء (مجدو والسامرا) وأنه فى كلا العصرين استخدمت نفس المصطلحات والتكوينات اللغوية العبرية.

هل من الممكن أن نجد من يتقبل سلسلة متصلة من المصادفات كتلك السلسلة؟ إن قبلت فهل تقبل على أساس أن المصاعب القديمة تعيد نفسها مرة أخرى؟ وإن كان المحابيرو هم الإسرائيليون، فلماذا لم نجد إذاً اسم واحد أو حدث مشترك يجمع بينهم فى سفر يشوع الذى سجل غزوات يشوع لأرض كنعان، ورسائل تل العمارنة.

علامة فى منتصف الطريق

فى بداية هذا العمل وضعت نصب عينى القارئ المشكلة التى بدت بلا حل فى إيجاد رابط بين التاريخين، المصرى والإسرائيلى. فبين تلكما الأمتين العريقتين يتوقع المرء ويتقبل فكرة وجود روابط بينهما، وفى الواقع فإن قصص التوراة تمضى بين أضواء وظلال المملكة العظيمة الواقعة فى وادى النيل.

والتاريخ المصرى من وجهة نظر أخرى بمواده التاريخية الغزيرة المنقوشة على الأحجار والمكتوبة على أوراق البردى، ينكر أى اتصال حقيقى بالمملكة المجاورة فى الأردن. وحتى عصر الملك سليمان العظيم الذى أعلت التوراة من قدره، يبدو هو الآخر وكأنه قد مر دونما أية ملاحظة من قبل ملوك مصر ونصوصهم التى خلفوها. علاوة على ذلك فإن .. الأحداث الكبرى فى الماضى الإسرائيلى – من استعبادهم الطويل فى أرض مصر ومن ثم خروجهم تحت ظروف غير عادية – تبدو وكأنها غير معروفة نهائياً فى التاريخ التقليدى لمصر. ولذلك السبب فإن عصر الخروج اليهودى من مصر ... كان موضع جدل وأدرج فى مواضع مختلفة وعصور متباينة من تاريخ مصر بداية من المملكة الحديثة التى يفترض أنها كانت عام: ١٥٨٠. حتى بضعة قرون بعدها.

وعدم اليقين فى تحديد العصور التى عاش فيها الإسرائيليون بمصر والعصر الذى غادروها فيه هو نتيجة مباشرة لغياب مصادر عن فترة إقامتهم بها وكذا غياب المصادر عن رحيلهم منها ولعقم المعلومات الخاصة بالعلاقة بين الشعبين الجارين فى الفترة التى تغطى التوراة أحداثها.

لقد حاولنا حل مشكلة تزامن تاريخى هذين الشعبين القديمين وكل منهما كان يحتل مركزاً مرموقاً فى تاريخ العالم القديم. وقد قمنا بهذه المحاولة بعد أن وجدنا أن قصص التوراة عن الخروج اشتملت على إشارات إلى بعض الكوارث الطبيعية. وكان من المنطقى أن نبحث فى المصادر المصرية عن أية إشارات إلى كوارث طبيعية تكون قد وقعت فى الماضى البعيد.

ولم يكن البحث بلا طائل فبردية ليدن إيبوير تعد تسجيلا لكارثة

طبيعية ضخمة تبعتها فوضى اجتماعية وانفلات أمنى كامل، ومن ذلك الوصف تعرفنا على تفاصيل الكارثة والاضطرابات التى حدثت فى عناصر الطبيعة التى صاحبت الخروج كما ذكرت تلك التفاصيل فى التوراة.

كما يحتوى نقش حجر العريش على وصف آخر ورؤية أخرى عن الكارثة الطبيعية والتى صحبها إعصار وإظلام كامل لمدة تسعة أيام، وفيه أيضا نجد وصفاً لمسيرة الملك وجيشه باتجاه الحدود الشرقية لمملكته هو وجيشه حيث ابتلعته دوامة مائية هائلة. واسم الملك مسجل فى خرطوش ملكى وذلك يثبت أن ذلك النص لم يكتب كأسطورة تخيلية.

وإن كان لدينا فى تلك الوثائق المصرية نفس أحداث القصة كما ذكرت فى سفر الخروج فإننا نكون قد توصلنا إلى نقطة صحيحة لبداية التزامن بين تاريخى هاتين الأمتين العريقتين. ولكن فى الموضع الذى توقعنا عنده أننا قد توصلنا إلى حل فى تحديد تاريخ الخروج فى التاريخ المصرى والوثائق المصرية فوجئنا بمشكلة جعلت من التساؤل عن تاريخ الخروج تساؤلا يتضاءل ويصبح بلا قيمة ومهما كانت النظريات التى تناولت تاريخ الخروج فإن أياً منها لم يخطر بباله لحظة أن الإسرائيليين قد غادروا مصر فى عشية اليوم - الذى وصلها فيه الهكسوس وترتب على ذلك أننا وجدنا أنفسنا نواجه مشكلة ذات أبعاد أخرى تماماً فإما أن التاريخ المصرى أطول مما يجب وإما أن التاريخ الإسرائيلى أقصر مما يجب. فهل يجب أن يقتطع من التاريخ المصرى بعض القرون «الشبحية والوهمية» أم هل يجب أن يضاف إلى التاريخ التوراتى عدد من تلك القرون المفقودة؟

ولم نستطع أن نتوصل إلى إجابة شافية على هذا التساؤل إلا بعد أن تعمقنا أكثر عبر أحداث عدد من القرون التاريخية وقد عثرنا على بداية ذلك الطريق الصحيح الذى بدأنا فيه تلك الرحلة فلو كان الإسرائيليون قد غادروا مصر عشية غزو الهكسوس لها، أولئك الهكسوس الذين كانوا قادمين من آسيا، فربما نجد فى نصوص التوراة ما يشير إلى التقاء الإسرائيليين بجيوش الهكسوس خارج حدود مصر، وفى حقيقة الأمر فإن الإسرائيليين قد التقوا بجحافل العماليق حتى قبل أن يبلغوا جبل

سيناء، واستندنا إلى كتابات العرب الأقدمين نبحث فيها فوجدنا أن تقاليد العماليق كقبيلة كبيرة ومسيطرة بين القبائل العربية والذين غزوا مصر بعد ذلك وحكموها لأربعة أو خمسة قرون - تلك التقاليد - ما زالت حية فى الإرث الأدبى العربى من فجر تاريخه.

وعندما قارنا أحداث تلك العصور حادثاً بعد اخر فى كل من الهيروغليفية المصرية والعبرية التوراتية وما بعد التوراتية والتراث العربى المحلى المكتوب فى القرون الوسطى بعد الميلاد تيقنا أن عصر سيطرة الهكسوس على مصر كان مواكبا لعصر القضاة فى التاريخ اليهودى. إن معادلة الهكسوس - العماليق أضافت دعما فى إثبات صحة التزامن بين سقوط المملكة المتوسطة فى مصر والخروج اليهودى منها وعلينا بعد ذلك أن نبحث عن اللحظة التاريخية التى انهار فيها حكم الهكسوس لمصر ونهاية سيطرة العماليق على الشرق الأدنى.

فى حصار حواريس وهى قلعة العماليق الحصينة على أيدى أحمس الأمير المصرى كانت هناك قوة أجنبية أخرى لعبت الدور الحاسم فى إقتحام المدينة ومن الأحداث المقابلة فى سفر صموئيل من الممكن التوصل إلى أن قائد تلك القوات الأجنبية كان هو الملك شاؤل أول ملك يهودى والذى انتصر على العماليق عند العريش. وعلى ضوء براهين كثيرة أخرى نستطيع أن نذكر بيقين أن مدينة العريش الحالية تحتل موضع مدينة حواريس عاصمة الهكسوس الحصينة.

وكان داود معاصراً لأحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ومعاصراً لأمينوحتب الأول الذى حكم بعد أحمس كما كان سليمان معاصراً لتحتمس الأول وحتشبسوت من بعده وقد وجدنا أن رحلة حتشبسوت الذائعة الصيت إلى أرض الإله وأرض بونت كانت رحلة إلى فلسطين وفينيقيا ومذكورة فى التوراة باسم زيارة ملكة سبأ (ملكة شيبا).

لقد قارنا الكثير من التفاصيل وكنا دائماً ما نجدها متوافقة ولكن كل ذلك كان يقودنا إلى المحطة التالية على الطريق. فبعد موت سليمان بخمسة أعوام تم نهب معبد أورشليم وقصر أورشليم على يدى أحد الفراعنة بعد أن تلا تحتمس الثالث حتشبسوت على عرش مصر. ومرة أخرى نذكر بأننا لو كنا نسير على الدرب الصحيح فإننا يجب أن نجد

المقابلات الصحيحة ومنها أن تحتمس الثالث كان هو الذى قام بنهب كنوز أورشليم من قصرها ومعبدها. وقد قام بذلك فعلاء وصور الغنائم على جدران معبد الأقصر متفقة تماماً فى الشكل والعدد مع وصف التوراة لما نهب على أيدى فرعون مصر بعد موت سليمان بخمسة أعوام.

وتحت حكم الفرعون التالى له تم غزو فلسطين مرة أخرى طبقا للتوراة وطبقاً للمصادر المصرية ولكن فى تلك المرة كانت الحملة أبعد ما تكون عن الانتصار.

وعلى مدى ثلاثة أجيال متتالية كان دارسو التوراة يبرهنون برضا كامل على أن عديداً من فصول التوراة كان من نتاج قرون متأخرة بعكس ما تدعيه التوراة ذاتها. ولكن فى خلال عام ١٩٣٠ ومع اكتشاف نصوص راس شمرا أعيد التقدير بطريقة عكسية تماما فقد اعتبرت نفس النصوص التوراتية كميراث ونتاج للحضارة الكنعانية أى أقدم بستمائة عام عما يفترض أن يكون عليه زمن التوراة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المادة المجمعة من الأدب اليهودى ومن راس شمرا ومن مصر أقنعتنا أنه لا تقصير زمن التوراة كما حدث أولا، ولا إطالة عمره كما حدث بعد ذلك يعد صحيحاً بأى شكل ونحن حين نذكر ذلك فإننا نذكره على أسس موضوعية: فنحن ما زلنا لم نعرف أيا من التاريخين المصرى أم الإسرائيلى هو ما يجب أن يعاد ضبطه وفى نفس الوقت لاحظنا كيف أن تاريخ البلاد القديمة الأخرى وشعوبها يتوافق مع تزامن كل من التاريخ المصرى والإسرائيلى وكيف أن تاريخ جزيرة قبرص وميسينا وكريت عند ربطه بتاريخ هذا الجانب أو ذاك يخلق كثيراً من البلبلة فيما يتعلق بالتصاميم المعمارية وأنسابها الزمنية.

وعلى مدى ثلاثة فصول متعاقبة من هذا الكتاب ضاهينا البراهين التاريخية على مدى ثلاثة أجيال فى مصر (حتشبسوت وتحتمس الثالث وأمينوحتب الثانى) وفى فلسطين (سليمان ورحبعام وآسا) ووجدنا التطابق والتزامن مؤكداً.

ويحتمل أنه بمحض المصادفة كان أحد العصور فى تاريخ مصر يحمل تماثلاً وتشابهاً لعصر آخر مما أعطى انطباعاً زائفاً بتوحد العصرين. ولكن من المستحيل أن يكون لثلاثة أجيال متعاقبة من حكام مصر وحكام

فلسطين المجاورة من الأحداث المتشابهة والمتماثلة فى التفاصيل، لعصرين مختلفين، مجرد مصادفة. وما يشد الانتباه أكثر أن تلك الأجيال الثلاثة فى كل من مصر وإسرائيل لم يتم اختيارها عشوائياً وجزافياً ولكننا اخترناها بإرادة مسبقة وفرضت نفسها بعد ذلك بالمقابلات والمقارنات التى عرضناها فى الفصول السابقة، والتى استعرضنا فيها أحداث الخروج والقرون التى تلتها تحت حكم الهكسوس وحتى نهوض المملكة الحديثة.

وسيكون فى عداد المعجزات حقاً أن يكون كل ذلك التطابق قد حدث كنوع من المصادفة البحتة وأى مدرك لنظرية الاحتمالات يعرف أن مع كل تماثل إضافى تتضاءل فرصة حدوث تماثل آخر ليس فقط بالمقياس الحسابى أو الهندسى ولكن على نطاق أوسع من ذلك ولذلك فإن الفرصة بالحسابات الرياضية لن تتعدى واحداً على تريليون أو كوادريليون أن يكون تماثل تلك الأحداث التى قدمناها فى الصفحات السابقة محض مصادفة.

وبعد الأجيال الثلاثة المتعاقبة فى كل من مصر وفلسطين كان هناك أمينوحتب الثالث واخناتون فى مصر ويهوشافاط فى يهوذا وآخاب فى إسرائيل. ومرة أخرى نجد أنه لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة أن يمدنا الجيل الرابع هو الآخر بصورة غنية بالتفاصيل المتماثلة والمتوافقة والتى يكمل بعضها الآخر كلغز الصورة الممزقة التى يعاد تجميعها.

إن تاريخ البلدين وتعاقب حياة كل من حكامهما وشعبيهما لا يمكن أن يتوافقا تماماً إن لم يكن تزامنهما صحيحاً ودقيقاً. وقد حدث أنه خلال ذلك الجيل الرابع كان الحكام والشخصيات البارزة فى أحد البلدين يقومون فعلاً بكتابة الرسائل إلى الحكام والشخصيات البارزة فى البلد الاخر كما تلقوا منهم ردوداً مكتوبة.

وكم كان مدى توافق التفاصيل والأحداث أثناء تلك الأعوام دقيقاً، من المجاعة والحصارات المتعاقبة والغزو من عبر الأردن، والضغط العسكرى من الشمال والذى سردنا تفاصيله، إن ذلك التتابع من المقابلات والمقارنات الثابتة والمؤكدة يبعث فينا شعوراً بالاطمئنان بأننا على الدرب الصحيح.

وبالرغم من ذلك فإننا لم نصل بعد إلى نهاية الرحلة وبالرغم من كل ما ذكرناه حتى الآن من المقارنات والمقابلات الغزيرة والتزامن والتطابق، وما ذكرناه عن نظرية الاحتمالات، إلا أننا لا يمكن أن نعتبر أننا قد توصلنا

إلى حل مشكلة التاريخ القديم حتى نتمكن من تغطية كل عصور التاريخ إلى درجة يصبح معها تاريخ شعوب الشرق القديم بلا أى مشاكل فى تزامن كل منها مع الآخر.

ونجد أمامنا الآن الفترة الممتدة من القرن الثامن قبل الميلاد والقرون التى تلته طبقاً للتاريخ الإسرائيلى، فى أى موضع من تلك القرون من الممكن أن نجد مكانا نضع فيه ما يطلق عليه الأسرة التاسعة عشرة التى ينتمى إليها رمسيس الثانى وملوكها الآخرين المشهورين؟ وماذا عن ملك الحثيين الذى وقع معه رمسيس الثانى معاهدة سلام؟ وأين نجد مكاناً للأسرتين العشرين والواحدة والعشرين والسيادة الليبية والإثيوبية على مصر ثم بقية الأسر حتى الأسرة الثلاثين التى انهارت قبل وصول الإسكندر لمصر بفترة قصيرة؟

كل ما عرفناه سابقا سيكون بلا جدوى إن كنا غير قادرين على الوصول بأمان إلى ذلك الموضع من التاريخ. وهو نهاية حكم آخر أسرة مواطنة لمصر.

يجب أن نكون قادرين على فض اشتباك مشاكل الاثار المعمارية «والمشاكل التاريخية» ومشاكل التزامن التى ستقابلنا فى القرون التالية للعصور التى تعرضنا لها. وعن طريق خيط أريادن الذى التقطناه من يدى ايبوير فلنتقدم على الطريق إلى النقطة التى تتوافق فيها تواريخ كل الأمم القديمة مع بعضها البعض.

وإن لم نكن قادرين على ذلك فإن التطابق الذى قدمناه فى العصور التى تعرضنا لها سيعد بالضرورة نوعاً من الإعجاز لأنه متعدد ومتماثل ومتطابق لدرجة يصعب معها نسبته إلى الصدفة.

إنه من الأنسب كثيراً أن نفترض أنه عن طريق العمل الدءوب الجاد وحده بإمكاننا أن نحقق هدفاً، ألا وهو مراجعة التاريخ القديم مراجعة كاملة.

هوامش الفصل الثامن

1. Letter 85.
2. Letter 85.
3. Letter 86.
4. Compare C. Niebuhr in Mitte ilungen der Vorderasiatisch-ägyptischen Gesellschaft, I (1896), 208ff.; W. M. Müller, ibid., II (1897), 274f.; H. Ranke, Keilinschriftliches Material zur Altaegyptischen Vokalisation (Berlin, 1910), p. 22 and note 1.
5. Albright, Journal of the Palestine Oriental Society, II (Jerusalem, 1922), 112, note 2; ibid., IV (1924), 140.
6. Maisler, Untersuchungen zur alten Geschichte und Ethnographie Syriens und Palästinas, pp. 7ff.
7. Mercer, Tell el-Amarna, note to Letter 68.
8. See also II Kings 8: 28.
9. Jewish Antiquities, VIII, 398.
10. Babylonian Talmud, Tractate Makkot 9b: "Sichem in the mountains, opposite to Ramoth in Gilead." see A. Neubauer, La Géographie du Talmud (Paris, 1868), p. 10.
11. J. W. Crowfoot and G. M. Crowfoot, Early Ivories from Samaria (London, 1938).
12. Letter 69.
13. G. A. Reisner, C. S. Fisher, and D. G. Lyon, Harvard Excavations at

Samaria, 1908-1910 (Cambridge, Mass., 1924).

14. Letter 62.

15. Letter 159.

16. Letter 160.

17. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 566.

18. Hrozny, :Les Ioniens à Ras-Shamra", Archiv Orientálni, IV (1932), p. 178.

19. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 609.

20. In northern Syria.

21. Letter 75. 22. Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, pp. 1013f.

23. Against Apion, I, 123-25.

24. See C. S. Fisher, The Excavation of Armageddon (Chicago, 1929), p. 16.

25. Since the el-Amarna letters were not considered as belonging to the time of Shalmaneser, the chief of the coalition, Biridri, was supposed to have been Ben-Hadad, the most powerful among the kings of Syria. (See Meyer, Geschichte des Altertums, II, Pt. 2, p. 274.) The identification of Ben-Hadad and Biridri gave rise to the question: Why did Ahab come to the help of Ben-Hadad, his enemy at Karkar? It was conjectured that Ben-Hadad conducted his war against Ahab to compel him to participate in the war against Shalmaneser.

26. By C. Beke. See his Mount Sinai a Volcano, p. 8.

27. By H. Winckler. The Encyclopaedia Biblica, ed. Cheyne and Black, by giving credence to this theory and all its consequences (relating to all contacts of the Israelites with Egypt), became worthless with respect to many important subjects.

28. Letter 75.

29. Letter 126.

30. Letter 129.

31. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 641.

32. Letter 75.

33. A similar punishment was meted out to the brothers of Ahab's heir by Jehu's order.

34. Letter 165.

35. Identified as Baalbek by Halévy and Winckler. Cf. Weber, in Knudtzon, pp. 1123ff.

36. Letter 165.

37. Letter 166.

38. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 601.

39. In the second part of the ninth century.

40. By W. F. Albright, Journal of Egyptian Archaeology, 23 (1937), 191f. Journal of Biblical Literature, 61 (1942), 314.

41. "... nor is it clear what the etymology of the word is". Mercer, Tell-el-Amarna Tablets, pp. 504-505.

42. Weber, in Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, pp. 1254f.

43. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 599.

44. Letter 41.

45. G. Vorolleaud, "Suppiluliuma et Nigmad d;Ugarit". Revue hittite et asianique, V (1940), 173-74,; C. H. Gordon, Ugaritic Handbook (Rome, 1948).

46. Luckenbill, Records of Assyria, I, Sec. 563.

47. Letter 9: "Assyrians, my subjects."

48. See article "Babylonia" in Encyclopaedia Biblica, ed. Cheyne and Black.

49. Letter 14.

50. Luckenbill, Records of Assyria, i, Sec. 563.

51. The following examples and quotations are from S. A. Cook, "Style and Ideas", in Cambridge Ancient History, Vol. II.

52. Letters 296, 257.

53. Letter 137.

54. S. A. Cook, in Cambridge Ancient History, II, 338.

55. "The dog" means also a male prostitute. Cf. Deuteronomy 23: 18.

The expression, "Is thy servant a dog that he shall not ..." is also found in letters of Lachish, the modern Tell ed Duweir, in southern Palestine. These letters were written shortly before the destruction of the first Tmple.

56. II Chronicles 20: 2 (words of Jehoshaphat).

57. I Kings 20: 42.

58. W. Winckler, "Der Gebrauch der Keilschrift bei den Juden", Altorientalische Forschungen, III (1902), Part I, 165f.; E. Naville, Archaeology of the Old Testament (London, 1913); Benzinger, Hebräische Archaeology (2nd ed., 1907), p. 176. Jeremias, Das Alte Testament im Lichte des alten Orients, p. 263.

59. Reisner, Fisher, and Lyon, Harvard Excavations at Samaria, I, 247.

60. Letter 31.

61. Cf. Reisner, Fisher, and Lyon, Harvard Excavations at Samaria, p. 61.

62. Crowfoot and Crowfoot, Early Ivories, p. 2.

63. Ibid., p. 55.

64. E. L. Sukenik, ibid.: "The result of this examination leads us to the conclusion that the Samaria ivories are, like those of Arslan Tash, of the ninth century and earlier than the Samaria ostraca.

65. Crowfoot and Crowfoot, Early Ivories, p. 49.

66. Ibid., p. 23.

67. Ibid., p. 49.

68. Ibid., p. 9.

69. Ibid., p. 18.

70. H. Carter, The Tomb of Tut.ankh.Amen (London, 1923-33), Vol. II, Plate XIX.

71. Crowfoot and Crowfoot, Early Ivories, P. 53.

72. Ibid., p. 34.

73. Homer, in the Iliad, IV, 141-42, mentions the Carian woman who stains ivory red.

74. Crowfoot and Crowfoot, Early Ivories; p. 9.

75. See. G. Loud, The Megiddo Ivories (Chicago, 1939).

76. Ibid.



الأمير أحمس



امنحتب الثالث



الملكة حتشبسوت



عصور فى فوضى
فهرس السفر الأول

عصور فى فوضى
فهرس الجزء الثانى من المجلد الأول